

المراسلات الملكية فى العصر البرونزى المتأخر

تأليف: تريڤور برايس
ترجمة : رفعت السيد على



للنشر والتوزيع

دار العلوم للنشر والتوزيع

تليفون : ٥٧٦١٤٠٠ (٢٠٢)
فاكس : ٥٧٩٩٩٠٧
إدارة المبيعات: ٠١٠١٦٣٦١٩٢
بريد اليكترونى : daralaloom@hotmail.com
المراسلات : ص.ب ٢٠٢ محمد فريد - ١١٥١٨ القاهرة

الكتاب : رسائل عظماء الملوك فى الشرق الأدنى القديم
المراسلات الملكية فى العصر البرونزى المتأخر

الكاتب : تريڤور برايس
الترجمة: رفعت السيد على
رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٦٩٩
الترقيم الدولى : 977-380-072-5
التدقيق : الحسينى عمران
التنفيذ : شركة الأمل للطباعة والنشر ت : ٣٩٠٤٠٩٦

الطبعة الأولى : ٢٠٠٦

رسائل عظماء الملوك

في الشرق الأدنى القديم

المراسلات الملكية في العصر البرونزي المتأخر



دعوة مفتوحة للدفاع عن التاريخ القديم، تهدف للتعريف بالثقافة المضادة وترجمة نصوصها، ونشر الردود عليها فى سبيل المساهمة فى إحياء حركة تنوير فكرية/تاريخية تعتمد العلم والأصالة والجدية.

مقدمة



تضم المنطقة التى نشير إليها باسم الشرق الأدنى- وهى تسمية غير دقيقة إلى حد كبير- دولاً كثيرة تمتد من تركيا فى الغرب حتى العراق فى الشرق، وتمتد باتجاه الجنوب من سوريا إلى لبنان وإسرائيل والأردن حتى التخوم الشرقية لشبه جزيرة سيناء. وتمتد دراستنا عن الشرق الأدنى القديم لتشمل مصر أيضًا، فقد كانت للمملكة التى نهضت على ضفاف النيل علاقات سياسية وتجارية وثيقة بممالك الشرق الأدنى القديمة، كما كان لها تأثيرها القوى ونفوذها الفعال على تلك الممالك خلال الألف الثانى قبل الميلاد. كما لعبت جزيرة قبرص أيضًا دورًا فى شئون الشرق الأدنى القديم، فى الوقت الذى لم تلعب فيه اليونان ومنطقة ميسينيا إلا دورًا هامشيًا غير محسوس، غير أنها من العناصر التى لا يمكن إهمالها عند دراسة العلاقات الدولية، فى المرحلة التاريخية التى تتناولها هذه الدراسة.

والعصر الذى نتناوله فى هذه الدراسة على وجه التحديد هو ما يطلق عليه العصر البرونزى المتأخر الذى يغطى على وجه التقريب خمسمائه عام، تمتد من بدايات القرن السابع عشر إلى بدايات القرن الثانى عشر، وقد شهد ذلك العصر صعود عدد من الإمبراطوريات العظمى، اقتسم حكامها السيطرة على المنطقة فيما بينهم. ولم تكن سيطرة أى من تلك الإمبراطوريات على مناطق نفوذها تتم بسهولة ويسر، وبالقدر نفسه لم يكن بإمكانها الحفاظ عليها دون عناء.

وحتى فى عصرنا الحالى بكل ما يحمله ويقدمه من مزايا الاتصالات الحديثة وترسانات الأسلحة الفتاكة، من الصعب على أية قوة عظمى السيطرة الدائمة على أية منطقة من مناطق الشرق الأدنى شديدة التعقيد،

وقد كانت الصعوبة فى المرحلة الزمنية التى نتحدث عنها أكبر كثيراً أو أشد تعقيداً.

وخلال العصر البرونزى، كانت الحاجة شديدة إلى وسائل فعالة من الاتصال والتواصل، للحفاظ على الهيمنة السياسية والعسكرية على مناطق بعينها، كما كانت ضرورية ولازمة للروابط التجارية الدولية التى يعتمد عليها ليس مجرد رخاء الدول، بل بقاؤها ذاته. كان التواصل الفعال يعتمد بالدرجة الأولى على سهولة الانتقال بلا عائق براً وبحراً. كانت مخاطر ذلك الانتقال عبر أرجاء الشرق القديم مخيفة ومحبطة. كانت الانتقالات عبر مسافات طويلة بالمقاييس القديمة، سواء التى يقوم بها التجار، أو مبعوثو الملوك، أو البعثات الدبلوماسية، أو الجيوش فى حملاتها العسكرية، تنطوى على المرور بمناطق وعرة شحيحة الماء أو سلوك طرق موبوءة بالعصابات وقطاع الطرق، وأحياناً عبر مناطق يصعب اجتيازها بسبب أحوال المناخ الموسمية. وكان الانتقال البحرى لا يقل خطراً إن لم يزد، مع احتمالات هبوب العواصف الشديدة أو هجوم قراصنة البحر، مع قلة عدد المرافئ الآمنة على طول سواحل البحر المتوسط.

كما أضافت تعقيدات الأصول العرقية السياسية لشعوب الشرق الأدنى القديم تحدياتها ومشاكلها الخاصة، التى واجهت كبار ملوك تلك المرحلة. كانت المنطقة تضم كثيراً من الممالك الصغيرة المتباينة الأعراق، وقبائل بدوية وتجمعات شبه بدوية، ومجتمعات مستقلة وقبائل جبلية شديدة العدوانية– أعراق كثيرة ولغات ولهجات لا حصر لها. إلا أن أربعة رجال فقط تمكنوا من السيطرة على أقوام تلك المنطقة خلال العصر البرونزى المتأخر، وتقاسموا النفوذ والسيطرة على كل تلك الأخلاط، فكيف تسنى لهم تحقيق ذلك؟

أحد العناصر الهامة التى يسرت تحقيق ذلك نجاحهم فى تحقيق نظم من التواصل الدائم فيما بينهم، وقدرتهم على التعاون على حل كل القضايا التى تطرأ بالطرق الودية الدبلوماسية، أكثر من لجوئهم إلى

حسمها عن طريق الحرب والقوة. ونشأت ممالك وإمبراطوريات عظمى فى منطقة ما بين النهرين، فى الألف الثالث وبدايات الألف الثاني قبل الميلاد (أى في العصر البرونزى المبكر والوسيط) إلا أنها كانت قصيرة العمر، فقد فشل قادتها في استيعاب وفهم تعقيدات إدارة مناطق واسعة كسبوها بحد السيف دون وجود إدارات قوية، تتفهم كيفية التنسيق مع حكام القوى المنافسة الطامحة هى الأخرى إلى بسط نفوذها فى المنطقة. كانت إمكانية تحقيق تعايش سلمى تعتمد على التوصل إلي تسويات، عن طريق التفاوض بين اثنين أو أكثر من كبار الملوك، والتوافق علي تقسيم مناطق النفوذ فى المناطق الخاضعة لهم، وهو ما لم يتم أبدًا قبل العصر البرونزى المتأخر.

نهضت خمس ممالك عظمى في ذلك العصر البرونزى المتأخر:

– مملكة الحثيين وكان موطنها الأساسى فى منطقة وسط الأناضول،

– والمملكة الحورانية للميتانيين فى أعالى ما بين النهرين وشمال سوريا،

– ومملكة أشور فى شمال ما بين النهرين، ونهضت للمرة الثانية بعد انهيار الإمبراطورية الميتانية فى القرن الرابع عشر، والمملكة البابلية القسيطية فى جنوب منطقة ما بين النهرين، والمملكة المصرية التى نهضت مرة أخرى تحت حكم سلالة من أبنائها بعد طرد الهكسوس. وعلى مدى العصر البرونزى المتأخر اقتسمت ممالك أربعة الهيمنة والسيطرة علي مناطق الشرق الأدنى، وحلت أشور محل الميتانيين في النصف الثانى من تلك الحقبة الزمنية.

كون حكام تلك الممالك ما يمكن أن نطلق عليه مجازًا نادى النخبة(1) فقد اكتسب كل منهم وضع وصفة «ملك عظيم»، ووجّه كل منهم الخطاب إلى الآخر بصفته «أخاه الملك»، وحافظوا علي التواصل الدبلوماسى المنتظم مع بعضهم. وكانوا في بعض النواحى أفضل كثيرًا من كونهم مجرد أمراء حروب، إلا أن الحروب كانت تنشب بينهم من آن لآخر خلال ذلك العصر البرونزى المتأخر. غير أن السياسات الودية الفعالة كانت لها

اليد العليا على التطلعات العسكرية ضيقة الأفق. أيقن كبار ملوك تلك الحقبة أنه بالإمكان تحقيق مكاسب أكبر على مستوى النفوذ الشخصى للملوك وعلى مستوى الرخاء والانتعاش لممالكهم، بالتوافق والتحالف مع الخصم أكثر مما يمكن تحقيقه باللجوء إلى حد السيف.

كانت المنطقة على اتساع يكفى لتحقيق التطلعات والطموحات للجميع، كما كان للتفاهم السلمى بين الأنداد فوائد جمة، زادت من الفرص التجارية والحصول على المواد المطلوبة لكل منها من بلاد أخرى. فضلاً عن ذلك، استفاد كل الملوك من الاستقرار الذى ساد المنطقة، نتيجة للمعاهدات التى أبرموها فيما بينهم (وهناك المزيد من التفاصيل عن ذلك الجانب فى الفصل الثانى).

اعتمدت علاقات الملوك ببعضهم فى المقام الأساسى والجوهرى على التواصل الودى الدبلوماسى فيما بينهم، وبدرجة أكبر على الرسائل التى كانوا يتبادلونها. ومن خلال تلك الرسائل -على وجه التخصيص- تتبدى الأشكال الدبلوماسية التى سادت علاقات الشرق الأدنى فى تلك المرحلة فى أجلى صورها، إلا أن الأمر لم يخل من بعض المواقف المدهشة، وأحيانًا خيبة الأمل التى كانت تنتج عن بعض المواقف. والقراءة الأولى للرسائل لا تقدم الكثير، وتبدو فى أحيانٍ كثيرة وكأنها تصريحات رسمية، وتبدو فى أحيانٍ أخرى وكأن لاهمَّ لمن كتبوها إلا التشكى بسبب أمور تافهة، مثل قلة قيمة الهدايا المرسلة، وعدم إظهار الاحترام والترحيب بمبعوث ملكى، أو التقاعس عن إرسال رسالة تعاطف لأخ ملكى، حين ألمت به وعكة صحية. وقد تبدو مثل تلك الشكاوى تافهة ومثيرة للشفقة، على الأقل بمستوى تفكيرنا المعاصر، ولكن، كما سنتبين، كانت لها أبعادها التى تتجاوز الشفقة؛ لأنها تلقى الضوء على أنماط من القيم والمبادئ والرسميات التى يتبين بعد ملاحظتها بدقة أنها كانت مهمة ولازمة، لنجاح الاتفاقات التى يدور حولها تفاوض، وعلى استمرار الوفاق والتحالف فى عالم الدبلوماسية الدولية لتلك المرحلة التاريخية.

كما تنير لنا الرسائل بعض جوانب المكونات الشخصية لأولئك الذين كان مصير عالم الشرق الأدنى القديم بين أيديهم. والرسائل توضح جوانب لم تكن أبدًا لتظهر على تماثيلهم ولا فى وثائقهم. وتأخذنا الرسائل أيضا إلي الاقتراب اقترابًا حثيثًا من العصور التى عاش فيها من كتبوا تلك الرسائل. والأهم من ذلك كله، تمكننا الرسائل من إعادة رؤية تلك المرحلة كما كان يراها ممن عاشوها، من خلال إدراكهم للمواقف وردود أفعالهم عليها.

حين كنت مازلت طالبًا جامعيًا كلفت بقراءة بعض أعمال سيشرو، كمادة مرجعية لإعداد دراسة عن العقود الأخيرة للجمهورية الرومانية. وكانت خطب رجل الدولة، الرومانية مصدراً قيمًا للمعلومات عن تلك المرحلة من تاريخ روما، إلا أن قراءة الرسائل التى كتبها سيشرو إلي أصدقائه ورفاقه من رجال الدولة، والرسائل التي تلقاها منهم، جعلتنى أتعايش مع حالة اتسمت بوضوح رؤية للمناخ السياسى فى روما، في تلك المرحلة التى شهدت تقلبات واضطرابات سياسية عنيفة، فقراءة أحداث روما- كما كانت تحدث وكما سَّجلها ورآها من صنعوها وعاشوها- يخلق الإحساس لدى القارئ أنه يعايش الأحداث كما وقعت، أكثر بكثير مما يحصل عليه المرء من مجرد قراءة الخطب السياسية.

وبالمثل، تمكننا الرسائل المنتمية إلي العصر البرونزى المتأخر من إعادة معايشة أحداث الشرق الأدنى القديم، وفى بعض الحالات نجد أنفسنا نعيش تلك الأحداث وهى فى مرحلة الصنع. ومثل ذلك الاقتراب من الأحداث القديمة أكثر قيمة من مجرد قراءة وسرد الأحداث، كما كتبها طرف ثالث بأثر رجعى، وأحيانًا تكتب الأحداث بعد فترات طويلة من خفوت أصدائها.

وبالطبع، لا تعدو الخطابات كونها أحد مصادر المعلومات التى نعتمد عليها فى إعادة تركيب أحداث تاريخ الشرق الأدنى القديم. ولابد لنا أن نستخلص كل ما يمكن استخلاصه من مختلف المصادر، إن كان لنا أن

نقدم صورة متوازنه، يمكن الاعتماد عليها بقدر الإمكان لمختلف الممالك التي كانت تكوّن ذلك العالم، وهو المنهج الذى التزمت به فى التاريخ الذى قدمته عن المملكة الحثينية (2)، إلا أننى أثناء ذلك زاد اهتمامى بتخصيص كتاب مستقل للرسائل المتبادلة فى العالم الذى عاشت فيه الإمبراطورية الحثينية. وهناك قصص شيقة تظهر من خلال تلك الرسائل. ولسوء الحظ فإن محتوى الرسائل يمكن ذكره بطريقة عارضة في مجرى السياق العام للتاريخ الذى لابد له أن يعتمد علي مدى واسع من المصادر المختلفة، دون أن يعطى لأحد تلك المصادر أهمية خاصة على حساب باقى المصادر. ومن هنا واتتنى فكرة تقديم هذا الكتاب.

لقد تناولت قبل ذلك بعض تلك الرسائل وقدمتها فى تاريخ الدولة الحثينية، كما قدمت بعضها الآخر فى كتاب آخر عن المجتمع الحثينى(3)، وسوف أعيد عرضها مرة أخرى فى هذا الكتاب، إلا أنها تقدم هنا بمعالجة تفصيلية كاملة، مع الحرص على إيرادها فى الموضع الصحيح لها، فى سياق أحداث الشرق الأدنى القديم بوجه عام، وفى موضعها الصحيح من ترتيب مراسلات الملوك بوجه خاص. ويعد من وجه التعميم أن نطلق عليها مراسلات ملكية؛ إذ أن بعضها كانت مرسلة أو واردة من ملك إلى أحد أفراد أسرته، أو العكس، أو إلى ومن بعض كبار رجال الدولة . وكل الرسائل التى ظلت باقية حتى عصرنا وتم العثور عليهامصنوعة من ألواح الطين، ومنقوش عليها نصوص الرسائل قبل جفافها. وجدير بالذكر أن نقرر أن من كانوا قادرين على القراءة والكتابة من خارج موظفى الدولة قلة نادرة. إن ما عثر عليه فى مواقع دور حفظ الرسائل يعد نموذجًا لكل المراسلات التى تبودلت فى تلك الحقبة، ومهما كان حجم وكم الرسائل التى عثر عليها، إلا أنها لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من الحجم والكم الحقيقى والفعلى الذى كتب بالفعل. ولحسن الحظ، تمكّنا من معرفة نصوص رسائل مفقودة من خلال نقل أهم فقراتها فى رسائل الرد عليها، وهى عادة كانت شائعة فى ذلك العصر. وسنورد تفاصيل أكثر

عن ذلك فى الفصل الثالث.

وهناك ملحوظتان أخريان عن النصوص التى عثر عليها حتى الآن:

– أولهما: أن الرسائل المتبادلة بين البلاطين، الحثينى والمصرى من أبرز النصوص التى نتناولها فى هذا الكتاب. ويرجع ذلك إلى أنها انعكاس للمصادر التي عثر فيها علي تلك الرسائل، فأغلب الرسائل المعروفة لنا عن تلك المرحلة التاريخية عثر عليها فى دور حفظ رسائل مصر وتركيا، وأيضًا فى دار حفظ مملكة أصغر هى أوجاريت والتى كانت ترتبط بعلاقات وثيقة مع مصر والحثينين، عدا ذلك، لا يوجد شك فى أنه خلال النصف الثانى من العصر البرونزى المتأخر، فى المرحلة التاريخية التى تنتمى إليها أغلب الرسائل ، هيمنت مصر والمملكة الحثينية على المشهد العالمى. لذلك لا يدهشنا أن نجد أنهما لعبا الدور الأكبر فى شبكة الاتصال الدولى، وفى التواصل الدبلوماسى أكثر من الممالك الكبرى الأخرى، التى تشاركهما نظريًا فى الهيمنة على شئون ذلك العالم.

– ثانيهما: هناك احتمالات قوية بظهور مواقع دور حفظ أخرى والكشف عنها فى الأعوام المقبلة. ويعد العثور على أماكن دور الحفظ فى مواقع مثل أوجاريت وإيمار، وداخل البلاد الحثينية فى مواقع ماسات (الحالية)، وأورتاكوى وكوزاكل 1 من العوامل التى تعطى أمالاً قوية أن مزيدًا من البحث والتنقيب فى أرجاء الشرق الأدنى سيظهر للوجود دور حفظ أخرى مازالت مطمورة. إلا أنه حتى هذه اللحظة، فإن أهم مجموعة مراسلات تم الكشف عنها على الإطلاق، مجموعة مراسلات تل العمارنة التى ظهرت للوجود فى مصر عام 1887. وعلى ضوء تكرار الإشارة إليها فى كل الكتاب وأهميتها القصوى فى عرض الدبلوماسية العالمية التى سادت العصر البرونزى المتأخر، أضفت ملخصًا مختصرًا عن طبيعتها ومحتواها فى آخر الكتاب كملحق مستقل.

وهناك أكثر من منهج يمكن اتباعه عند تناول مراسلات كبار ملوك العصر البرونزى المتأخر فى الشرق الأدنى. واتبع كوهين وويستبروك

المنهج التصنيفي على أساس المفاهيم، في سلسلة عظيمة من المقالات وجمعت بتحريرهما عام 2000. أما المنهج الذى اتبعته فهو الاقتراب من كاتبى تلك الرسائل، ومن القصص والمواضيع التى تحتويها.

هناك رسائل مازالت بانتظار نشر نصوصها، ومنها ذلك العدد الهائل الذى يصل إلى 3000 رسالة، والتى عثر عليها في موقع سابينوا فى الأناضول (أورتاكوى حاليًا)، داخل البلاد الحثينية، وسوف يشار إلى تلك الرسائل التى لم تنشر نصوصها باختصار.

إبريل 2003

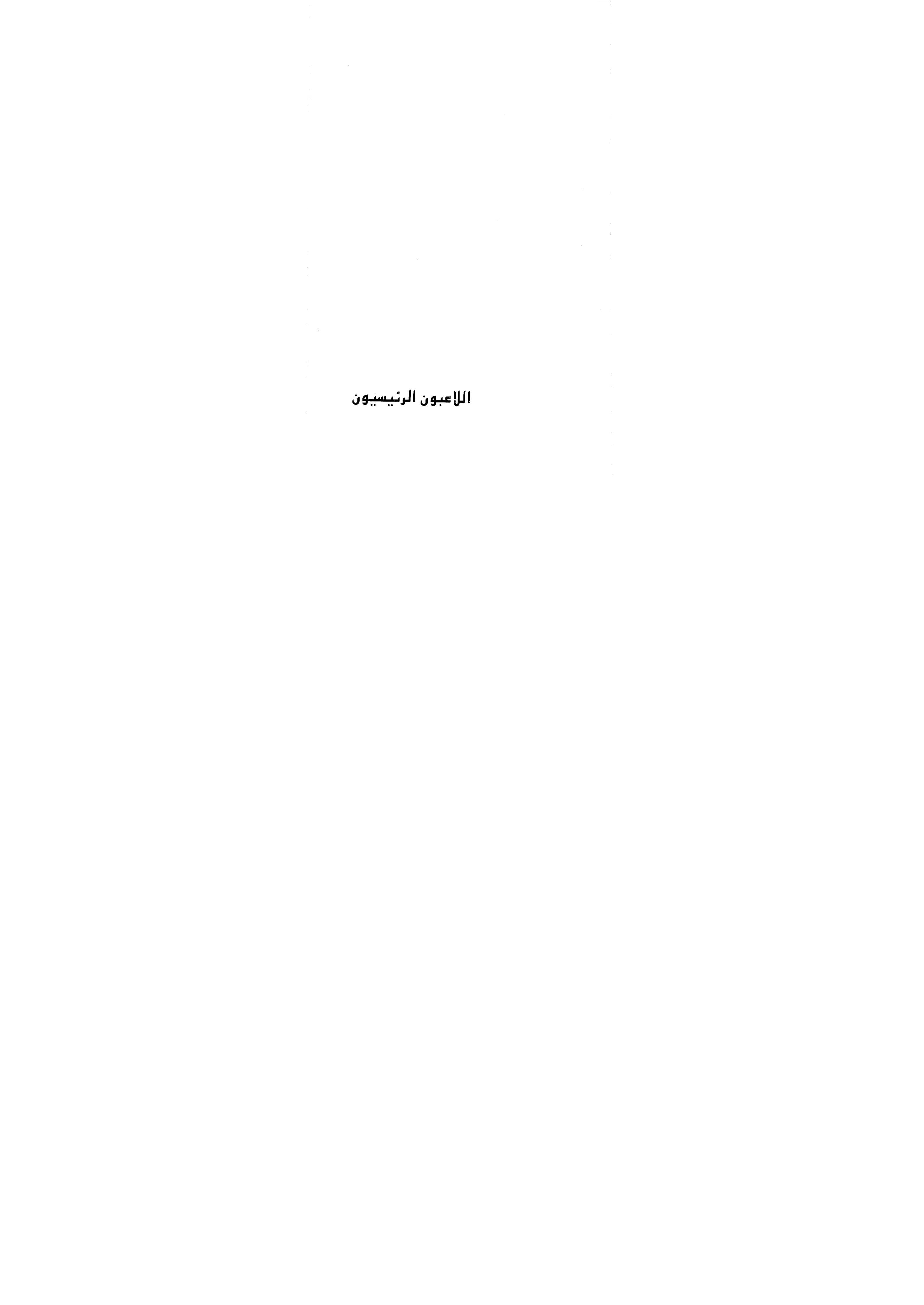
تريفور برايس

باحث استشارى، وعضو شرفى فى جامعة كوينزلاند بأستراليا
وزميل الأكاديمية الأسترالية للعلوم الإنسانية.

الجزء الأول

إعادة بناء المشهد

فضلت استعمال المصطلح «بابل»، الذى يستعمل حاليًا للإشارة إلى المملكة التى كانت مدينة بابل تفرض هيمنتها عليها، بأن استخدم اسم المدينة فى الإشارة إلى كليهما بالاسم ذاته، أى المدينة والمملكة، إلا أنه بالدرجة الأولى اسم يشير إلى مساحة جغرافية للمنطقة بأجمعها، التى كانت تشكل المملكة.



اللاعبون الرئيسيون

الخمس ممالك الكبرى

يقدم لنا العصر البرونزى المتأخر صورة معقدة، إلا أنها كانت دائمة التبدل والتباين في الوقت ذاته، وهو صورة للتوازنات التى كانت دائمة التغير بين الممالك العظمى، من امتداد النفوذ وتقلصه، ومن تغير الولاء وتبدله، وتغير التحالفات وتحولها فى صراع وتنافس عظماء ملوك تلك الممالك الخمس، وفي تعاونهم معًا فى بعض الأحيان، وفى تأمين نصيبهم من المنطقة طبقًا لقوة كل منهم، ومن بحثنا فى مراسلات ذلك العصر، سنجد أنفسنا مضطرين للانتقال مابين ملوك تابعين إلى عاصمة مملكة كبرى، ومن بلاط ملك عظيم، إلى بلاط ملك عظيم آخر. وهو ما ينطوي على التحدى، ويبعث التعقيد المميز فى المشهد الدولى فى العصر البرونزى المتأخر الحيرة لدى القارئ غير الملم بمعرفة كافية عن التطورات التاريخية لذلك العصر، والتركيبات السياسية التى سادت ذلك العصر. وهكذا، وقبل انتقالنا إلى نصوص المراسلات ذاتها، لابد أن نولى العلاقات التاريخية والسياسية التى تبودلت فيها تلك الرسائل بعض الاهتمام. وهذا ما سنقدمه فى أول فصلين، مركِّزين اهتمامنا قبل أى شىء آخر على صعود وانحدار الخمس ممالك الكبرى، التى مارس ملوكها هيمنتهم على الشرق الأدنى خلال مدى زمنى يتراوح من مائتى إلى خمسمائة عام، وهى ممالك آشور، بابل، والمملكة المصرية، والحثينية والميتانية.(1)

مملكة آشور2

تبرز المملكة الآشورية بوضوح فى المراسلات المبكرة للنصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد، كجماعات من التجار الناجحين الذين أسسوا

سلسلة من مستعمرات تجارية قوية، على طول الطرق البرية، التى كانت تربط عاصمتهم آشور بمدن وممالك شرق ووسط الأناضول.

ونعلم عن أنشطتهم من خلال 15000 لوح استخرج أغلبهم من منطقة كانش (نيسا) وهى المنطقة التى كانت تعد مركز الالتقاء التجارى ومحور الأنشطة التجارية.

كانت كانش تقع عند منحنى النهر الذى أطلق عليه الحثيثيون اسم مارسانيتا، والذى تحول فى العصور التالية إلى نهر ماليس (ثم كيزيل ايزمال حاليًا)، بلغت المستعمرات الآشورية شأنًا عظيمًا ومتقدمًا فى التعاون الدولى بين الآشوريين وشعوب الأناضول، واعتمد نشاط التبادل التجارى على التبادل السلعى المطلوب من منتجات شعوب لشعوب أخرى. كانت السلعة الرئيسية من جانب الآشوريين هى المنسوجات والقصدير المستخدم فى صناعة الأوانى، مقابل الذهب والفضة المستخرج من الأناضول.

وهناك رسائل عديدة من بين الرسائل التجارية تعد شهادة لا تقبل الشك عن الكفاءة العالية التى أظهرها التجار الآشوريون فى معاملاتهم التجارية، بالرغم من التوترات التى لم يكن من الممكن تجنبها والتى ظهرت من خلال تلك الرسائل. مرت عمليات التبادل التجارى بمرحلتين فى سياق تطورها، بدأت الأولى من الربع الأخير للقرن العشرين قبل الميلاد، حتى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، (أى من بداية حكم الملك الآشورى ارشوم الأول حتى حكم بوزور- آشور الثانى). فى حين بدأت المرحلة الثانية من أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد، حتى النصف الأول للقرن الثامن عشر قبل الميلاد.

كانت الحروب والصراعات بين ممالك الأناضول هى السبب الرئيسى المؤكد لتوقف النشاط التجارى فى نهاية المرحلة الأولى، وفى إنهائها كليًا عند نهاية المرحلة الثانية.3

وارتبطت مرحلة تبادل الرسائل برجل من سلالة العموريين الذى ترك

بصـمـة واضـحـة على التـاريخ الآشـورى كـأحد أعظم الملوك الآشـوريين المبكرين، وكأحد أقوى الشـخصيات فى منطقة الشرق الأدنى فى زمانه. والرجل الذى نقصده هو شمشى- عدد (1813 -1871).4

فـبعـد أن احـتل مدينة إيكالاتوم على نـهر دجلة، أصـبـحت العـاصمـة الآشورية وهى مدينة آشور، التى كانت تقع على الضفة المقابلة للنهر تحت رحمته، ثم اتجه بقواته إلى الغرب. كان أول أهدافه الاستراتيجية هى غزو مملكة مارى ذات الموقع المتميز استراتيجيًا، وكان يحكمها فى ذلك الوقت ملك يدعى يحدون- ليم، وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات، كانت أيضًا لمملكة مارى تطلعاتها الإمبريالية الخاصة بها، وكانت تلك التطلعات تتعارض مع التطلع الآشورى للتوسع غربًا. وقام شمشى - عدد بمواجهة ذلك التحدى على الفور، فـهاجم قـوات يحدون- ليم، واشتبك معـهم فى معركة، وهزمهم هزيمة حاسمة، وبعد ذلك بفترة قصيرة، اغتيل يحدون- ليم، وسرعـان ما تخلص شمشى - عدد من ولى العهد، واستحوذ على مملكة مارى لنفسه، وبعد تخلصه من أهم منافس له، انفتح الطريق أمامه لتحقيق طموحاته التوسعية، وخضعت له كل منطقة أعلى ما بين النهرين.

كانت الاعتبارات التجارية على وجه التقريب من أول وأهم أهداف شـمشى - عدد وحملاته العسكرية الغازية، وعن طريق نجاح حملاته العسكرية وتوسيع مناطق نفوذه أصبح يهيمن على أهم طرق التجارة التى تربط بين آشور وسوريا، وكذلك الطرق المؤدية إلى شرق ووسط الأناضول.

واستقر شمشى - عدد فى العاصمة الجديدة التى شيدها باسم شوبات- إنليل، وعمد إلى تعيين ابنيه إشمى- داجان، ويسماح- عدو كنواب له على إيكالاتوم ومارى، لتسهيل إدارة شئون البلاد، وخول لهما التعامل مع الممالك الأخرى على قدم المساواة، ولا يخضعان لأى أحد إلاه. كان من الضرورى لأمن وسلامة مملكة شمشى- عدد أن تتم الهيمنة والسيطرة القوية على الحدود، بتأمين وتقوية المدينتين اللتين عهد بهما إلى ابنيه(5). وتظهر الرسائل اللوحية الكثيرة التى اكتشفت فى مارى

المراسلات التى تمت بين شمشى - عدد وابنه الأصغر يسمح- عدو الكثير من شئون المملكة وأعمالها الإدارية، كما تظهر أيضًا من خلال تلك الرسائل جوانب كثيرة من علاقة الأب بابنه(6). كان الابن عرضه للتأنيب والتوبيخ من أبيه واتهامه بالتراخى والكسل والتقاعس والتساهل والفشل في النهوض بالأعباء الملكية، كما ينبغى له أن ينهض بها، إلا أنه يتضح من الرسائل أن كلا الابنين ظلا على ولائهما وإخلاصهما لأبيهما، ولايمكن لومهما ولا اعتبارهما مسئولين عن الانهيار السريع للمملكة بعد موت أبيهما.

وكما فى كل حالات إمبراطوريات الشرق الأدنى، كان تحقيق استمرار ومواصلة السيطرة لآماد زمنية طويلة على المناطق الواسعة التى تم إخضاعها بالقوة العسكرية صعبًا وعسيرًا وفوق قدرة القوة الغازية، وكانت الموارد والقوة اللازمة للدفاع الكفء وإدارة إمبراطورية تتوقف إلى حد كبير على شعوب مغلوبة لا يمكن للغازى فرض قوته عليها كل الوقت. كانت الإمبراطورية التى أقامها شمشى - عدد تحت تهديد مستمر وتحديات دائمة من القوى الأخرى المعاصرة لها، وكذلك من الأقوام والشعوب التى فرض هيمنتها عليها. وهناك رسالة شهيرة كتبت فى وقت متأخر نسبيًا، وكتبها مسئول فى مملكة مارى، تبرز انطباعًا جيدًا عن أحد أطراف تنافس القوى، الذى كان سمة بارزة فى عالم الشرق الأدنى، فى القرون المبكرة للألف الثانى قبل الميلاد. يقول نص الرسالة:

«لا يوجد ملك قوى بفضل قوته وحدها، فقد حكم عشرة أو خمسة عشر ملكًا من بعد حمورابى ملك بابل، وكذلك بعد رم- سن، ملك لارسا، وكذلك بعد إيبالسل ملك اشنونا، وبعد اميوتبييل ملك قطنا. كما تلى عشرون ملكا ياريم- ليم، ملك يمحاد (حلب)»(7). وسرعان ما انهارت مملكة شمشى- عدد مباشرة بعد موته، واستقلت من جديد ممالك صغرى كثيرة كان قد فرض عليها هيمنته حوالى عام 1760. خضع ما تبقى من مملكته تحت حكم الملك البابلى حمورابى، وبعد حمورابى بحوالى 170

عامًا خضعت بابل لحكم الحثيين، وأدى غزو الحثيين لبابل إلى بعث جديد للآشوريين، فالمنطقة التى هيمن عليها شمشى - عدد فى عصور سابقة استولت عليها مملكة الحورانيتين، التى تزعمها الميتانيين، وفيما يعد أدنى وأضعف أوقات التاريخ الآشورى، اجتاح ملك الميتانيين شاوشتاتار العاصمة التقليدية العظيمة مدينة آشور، واختفت الإمبراطورية الآشورية كليًا على وجه التقريب من على مسرح أحداث منطقة الشرق الأدنى، ولكن كان ذلك إلى حين . ظلت القوة الآشورية نائمة، وبالرغم من أنها فقدت استقلالها، إلا أن العناصر الرئيسية والجوهرية للملكة ظلت موجودة، بما فيها السلالة الحاكمة. وكان وجود السلالة الحاكمة كافيًا لبعث القوة الآشورية من جديد، والتى جمعت قواها بالكاد بعد وهن الميتانيين وتدمير إمبراطوريتهم على أيدى الحثيين. وظهر ملك آشورى جديد فى مشهد القوى الدولى وهو الملك آشورأوباليت (1353- 1318). وبانهيار الميتانيين أمام قوة جيوش الحثيين، تمكن آشورأوباليت من تحقيق استقلاله، بل وبدأ فى السيطرة على أجزاء من الإمبراطورية الميتانية المنهارة. بل إنه راح يتطلع ويسعى إلى تدعيم قوته فى ميزان القوى الدولى فى ذلك الوقت بتبادل المراسلات مع فرعون مصر، بصفته ملكًا عظيمًا يراسل ملكًا عظيمًا، لا يقل عنه قوة ومنزله.

وراح ملك الحثيين سوبيليوليوما يتابع تلك التطورات بانزعاج بعد أن تمكن من تدمير الميتانيين، وسعى بكل جهده لمنع أو على الأقل تحجيم أو منع نمو القوة الآشورية فى شرق الفرات، بتنصيب شاتيوازا ابن عدوه المقهور توشراتا كملك على بقايا إمبراطورية الميتانيين المنهارة، وراحت بابل تراقب ذلك البعث الآشورى بفزع. كانت هناك عداوة تقليدية وتاريخية بين الملكتين الجارتين. وفى الوقت الذى استولى فيه الحوريون على كل شمال ما بين النهرين، شعر البابليون بالراحة ولم يعودوا يشعرون بأى تهديد حقيقى من الآشوريين المهزومين. إلا أن الهيمنة الحورية انتهت على أيدى الحثيين، وبدأت قوة الآشوريين فى التنامى من جديد. وعبر ملك

بابل بورنابورياش الثانى (1359 -1323) عن مخاوفه وعن تلك التطورات الجديدة فى رسالة منه إلى فرعون مصر(8)، إلا أن التوتر بين المملكتين وصل إلى تهدئة مؤقته بزواج ابنة آشورأوباليت، الأميرة موباليتات - شيروا من ابن بورنا بورياش الأمير كارايِنداسن. ولسوء الحظ، لم يرض القادة العسكريون لبابل عن ذلك الزواج،والذين لم يكن ليسعدهم أو ليلقى ترحيبهم فكرة أن يحمل حكامهم القادمون دماءً آشورية فى عروقهم. لذلك حين جاء الوقت الذى يحق فيه لكاراهارداسن ابن الزواج الآشورى البابلى أن يعتلى العرش، اغتاله المتعصبون البابليون من الجيش، وملّكوا شخصًا مجهولاً يدعى ناصيبو جاش، لمجرد أن دمه بابلى نقى. وغضب آشورأوباليت لتلك التطورات وثارت ثائرته، فقام بغزو مملكة بابل وأعدم من نصَّبوه ملكًا عليها.

وهدأ التوتر التقليدى بين آشور وبابل، ولكن إلى حين، حتى وقَّع الجانبان اتفاقية ترضية بين كل من ملك آشور عدد- نيرارى الأول (1295-1264) ونظيره البابلى؛ لترسيم الحدود بين الإمبراطوريتين فى الفترة ذاتها. أحرز الآشوريون نجاحًا كبيرًا فى الاستيلاء على أراضى المملكة الميتانية وتشديد قبضتهم عليها شرق نهر الفرات. كان استيلاؤهم على منطقة الميتانيين المتحالفين مع الحثينيين سببًا فى إثارة ضيق الحثينيين، إلا أنه لم يصل إلى حد المعارضة. وتلقى الحثينيون بعد ذلك لطمة أقسى وأشد وطأة، حين منيت جيوشهم بهزيمة مهينة على يد أحد، خلفاء عدد نيرارى، وهو توكولتى نينيورتا الأول (1233 -1197)، الذى هزم جيوش الحثينيين هزيمة حاسمة فى معركة نهريا، (ويحتمل أن ذلك الموضع كان شمال أو شمال شرق ديار بكير الحالية) وبدأ أن النتائج المترتبة على الغزو الآشورى الناجح للاراضى الخاضعة للحثينيين فى سوريا بالغة الأهمية، فلا يوجد أى شك أن الآشوريين كانت لهم تطلعاتهم من أزمان قديمة فى السيطرة المباشرة على المنطقة الواقعة من نهر الفرات حتى ساحل البحر المتوسط. وأصبحوا فى وضع بعد تلك المعركة وكأن كل

تلك المنطقة المشار إليها قد أصبحت فى قبضتهم.

إلا أنه وعلى عكس ذلك، وهو ما بعث الارتياح الشديد فى نفوس الحثيين حول توكولتى- نينورتا اهتمامه فجأة إلى الجنوب- إلى بابل. وربما كان ما دفعه إلى ذلك مهاجمة الملك البابلى كاشتيلياش الرابع للحدود الفاصلة بينهما، مما اعتبره خرقًا للاتفاقية التى أبرمها سلفه عدد -نيرارى مع البابليين، ويحتمل جداً أن توكولتى نينورتا تبنى وجهه نظر- وهى وجهة نظر معقولة جداً- أن من الأفضل تأمين حدوده الجنوبية قبل الإقدام على مخاطرة كبرى بقوته العسكرية ضد الحثيين فى آخر مناطقهم فى سوريا. وبكل المقاييس، حققت حملته ضد البابليين نجاحًا باهراً، حتى إنه ضم كل مملكة بابل، وساق خصمه كاشنيلياش فى القيود والأصفاد إلى عاصمته آشور.

إلا أن حكم الآشوريين لبابل لم يدم طويلاً. كان عبء تأمين الإمداد للقوات العسكرية اللازمة لفرض هيمنة الآشوريين على المملكة البابلية تشكل عبئًا باهظًا، حتى إنها استنفذت طاقة الآشوريين، حتى إنهم حولوا كل الإمدادات الأخرى اللازمة لحماية باقى حدودهم. وأصبحت الحملة العسكرية العظمى التى كان ينوى أن يسيرها لتعبر الفرات لمهاجمة الحثيين فى الشمال بعيدة حتى عن التخيل. وبدأت قوات توكولتى نينورتا تعانى من هزائم متتالية، مما أدى إلى اغتيال الملك. ولم تكد تمضى خمسة عشر عامًا على وفاته، حتى قام ملك بابلى يدعى عدد شو موصر (1216 -1187)، كان قد اعتلى عرش فلول البابليين فى أقصى الجنوب، بتحرير كل مملكة بابل من الحكم الآشورى، وفى أثناء تلك المعارك تمكن من أسر الملك الآشورى انليل كودوروصر (1187 -1183) وفى آشور العاصمة اشتد الصراع والتناحر على العرش، فتتابع عدد من الملوك على عرش آشور لفترات قصيرة لكل منهم.

إلا أن آشور كانت تثبت على الدوام أنها أحد أهم الممالك العظمى التى تعاود النهوض فى العصر البرونزى، فبعد عقود من زوال المملكة

الحثينية، وحين فقدت مصر للأبد وضعها كقوة عالمية عظمى، وفي الوقت الذى كانت فيه بابل تحكم من قبل سلالات وأسر غير متميزة وأصبح فيه الميتانيون فى غيوم الذكريات المتلاشية، ظل الآشوريون قوة عظمى فى الشرق الأدنى. وفى عهد ملكها تيجلاث بيلصر الأول (1114 - 1076) كان الآشوريون مازالوا يسيطرون علي جانب كبير من منطقة مابين النهرين. ومن ذلك الوقت ظلت قوتها تتزايد، حتى أصبحت فى وقت ما، فى عصر يطلق عليه عصر المملكة الآشورية الحديثة، أقوى وأقسى وأعنف إمبراطورية شهدها عالم الشرق الأدنى القديم.

مملكة بابل

حين بسط ملوك سومر نفوذهم على منطقة جنوب بلاد مابين النهرين فى الألف الثالثة قبل الميلاد، لم يكن بإمكان أى إنسان أن يتنبأ بأن تلك المدينة الصغيرة الواقعة بشرق الفرات ستصبح ذات يوم مركزًا لأهم حضارة، ومركزًا لنفوذ طاغ فى حضارات الشرق الأدنى القديمة. فى عصور كانت تهدم وتتداعى على يد أعدائها، وفى عصور أخرى لم تكن لتبدو إلا مدينة تابعة لا قيمة لها لجيرانها الأقوياء. إلا أنها فى تلك المنطقة التى شهدت صعود وانهيار حضارات كثيرة، وبزوغ واختفاء ممالك كثيرة عظمى، صمدت وبقيت ودامت مدينة بابل. وحين استوى بنوخذ نصر على عرشها عام 605 قبل الميلاد، اعتلى عرش المملكة فى عاصمة كان عمرها قد ربى على ألفى عام، وهو أطول عمر لمدينة خارج مصر فى منطقة الشرق الأدنى بأجمعها.

على مدى بضعة قرون ظلت مدينة بابل بعد ظهورها بلا قيمة ولا تأثير، بالرغم من أنها كانت المركز الإدارى لسلالة وأسرة أور الثالث (2112 -2104). وما نعنيه بعدم تميزها عدم تأثرها بكوارث الغزو الخارجى الذى أطاح بالسلالة الحاكمة ، ولا بدخولها فى تنافس عسكرى

مع مملكتى إسين ولارسا، المتنافستين على الهيمنة على جنوب ما بين النهرين. وبالرغم من ذلك، فإنه فى الفترة التى يطلق عليها تاريخيًا مرحلة إسين- لارسا (2017 -1763) يبرز تطور هام فى تاريخ المدينة مع تأسيس حكم أسرة من الملوك العموريين (حوالى 1844) كان أولئك العموريون، الذين أطلق عليهم اسم المارتو – فى النصوص المسجلة من القرن الثالث قبل الميلاد – فى الأصل من القبائل السامية، وربما هبطوا فى الأصل إلى سهول ما بين النهرين سعيًا وبحثًا عن أرض معشبة لقطعان أغنامهم ومواشيهم، ولما ازداد عددهم بدءوا يستقرون، وبدءوا يشكلون تهديدًا متزايدًا للممالك المجاورة، وعلى ممالك المدن القريبة. وبالفعل، قبل فترة وجيزة مٌن السقوط النهائى لملكة أور الثالث، كان أحد زعماء تلك القبائل العمورية قد نصَّب نفسه حاكمًا على مملكة مدينة لارسا، التى كانت تقع على مسافة 40 كيلو مترًا فقط شمال مدينة أور.

وظلت مملكة بابل تحت حكم أول خمسة ملوك عموريين، والذين غطى حكمهم حوالى مائة عام، مجرد مملكة من بين ممالك كثيرة صغيرة الحجم والشأن، بل وكانت تحت هيمنة تمارس عليها من خصومها فى مملكتى إسين ولارسا. ولكن فى عام 1792 حدث صعود مفاجئ وتطور سريع، وحدث ذلك مع صعود الملك العمورى السادس، وهو ملك يدعى حمورابى (1799 - 1732) فى بداية الأمر، لم يول حمورابى الشئون الخارجية أى اهتمام، بل عكف فى أول ثمانية وعشرين عامًا من حكمه على تنظيم الشئون الداخلية للمملكة، بما فيها سن القوانين المنظمة لعلاقات المجتمع، وكذا إصلاح الأحوال الاجتماعية لشعبه.

إلا أنه بداية من العام التاسع والعشرين من حكمه بدأ فى التحول إلى تبنى سياسة عسكرية أكثر عدوانية. وبرر ذلك الميل بتجمع قوات متحالفة من الممالك المجاورة ضد مملكته من العيلاميين والجوتيين والآشوريين، ومن شعوب إشنونا (تل اسمر الحالية)، مما كان يهدد استقرار بابل، وربما كان على حق فى ذلك، فكلما حقق حمورابى نجاحًا فى تنظيم شئون

مملكته إدرايًا واجتماعيًا، وتحويله إلى مجتمع رخاء متماسك، لفت إليه أنظار عدم الرضى من جيرانه، وبادر بالتوجه إلى أعدائه، واشتبك معهم واحداً بعد آخر، فهزم على التوالى مملكة لارسا (1763)، واشنونا (1761)، ونتج عن تلك المعارك أن أصبحت كل منطقة جنوب ووسط ما بين النهرين تحت هيمنة بابل. بعد ذلك، هاجم حمورابى مملكة جارى (1761)، والتى كانت قد حققت بعد استقلالها عن الآشوريين بقيادة قائدها النشط زيمرى - ليم (1776 -1761) منزلة وضعتها فى مصاء اقوى الممالك فى الشرق الأدنى فى عصرها. وانتصر حمورابى على مملكة مارى، واستولى عليها وضمها إلى مملكته. وأخيراً، فى العام الثالث والستين من اعتلاء حمورابى عرش بابل، سقط آخر ما تبقى من المملكة الآشورية، التى كانت قبل ذلك الإمبراطورية العظمى، التى أسسها الملك العظيم شمشى- عدد.

أدى ذلك إلى توحد كل منطقة ما بين النهرين تحت إدارة حكم واحد، قبل نصف قرن من نهوض المملكة الحثينية فى وسط الأناضول. إلا أنه فى الوقت الذى حققت فيه بابل تلك المكانة الرفيعة كان حمورابى قد أصبح طاعنًا فى السن، ومات بعد إتمامه مهمته ببضعة أعوام، بعد حكم دام ما يربو على أربعة عقود. وتحت حكم ابنه سامو- ليونا (1749 -1712)، بدأت الإمبراطورية في الانكماش. ويرجع ذلك جزئيًا إلى بزوغ أسرة خصوم جدد تسمى سلالة «أرض المستنقعات»، والتى نشأت فى مناطق المستنقعات الجنوبية، وتمكنوا من اقتطاع جزء من إمبراطورية بابل من الجنوب حتى مدينة نبور (10). ولكن، بالرغم من انكماش رقعة المملكة، حافظ خلفاء حمورابى على قوتهم وفرض هيمنتهم على المملكة علي مدى يصل إلى 150 عامًا من بعد موت حمورابى، وأخيرا أثناء حكم الملك الذى قدر له أن يكون آخر تلك السلالة من الملوك، وهو سمسو- ديتانا، وصلت السلالة- مع المملكة- إلى نهايتها، عندما اجتاح الملك الحثينى مورسيلى الأول مملكة بابل (1595) وفرض سيطرته عليها، ولا تتوفر لنا أية معلومات عن الفوضى التى سادت بابل بعد تلك الغزوة، فبمجرد أن انتهى

مورسيلى من نهب المدينة، لم يشعر أية أهمية لها، وعلى الفور بدأ رحلة عودته الطويلة إلى موطنه، وكان المستفيد الأكبر من انهيار مملكة سلالة حمورابى مجموعة يطلق عليها اسم القسيط. كان القسيط مهاجرين استقروا فى جنوب ما بين النهرين، وربما أو يعتقد أن موطنهم الأصلى الذى قدموا منه جبال زاجيرو (فى منطقة عيلام)(11)، وكان أول ظهور لهم على مسرح التاريخ أثناء حكم حمورابى، ويعتقد أنه قد وقعت صدامات وعداوات بين القادمين الجدد والمقيمين فى المنطقة الذين حلوا عليهم رغمًا عنهم، ويبدو أن القسيط مالوا إلى الدعة وتجنب الصدامات فى المنطقة التى استقروا بها، كرعاة في مواسم الرعي وعمال حرفيين فى مواسم العمل، عاشوا حياة شبه قبلية، إلا أنه كان من بينهم من اعتاد بسرعة حياة المدن وأنماط معيشتها المستقرة، ولما حل الوقت الذى انهارت فيه بابل على أيدى مورسيلى الحثينى كانت جماعات من القسيط قد بدأت فى تنظيم أنفسها كقوة سياسية لها وزنها في جميع أنحاء مملكة بابل. وهكذا، تمكنوا من حصاد ما تبقى من مملكة سلالة حمورابى المنهارة، فحين كانت الغزوة الحثينية لبابل فى بدايتها كانت جماعات القسيط بالقرب من ذروة السلطة فى بابل . وبعد أن قاموا بغزو منطقة أرض المستنقعات في الجنوب، تبوأت، تلك السلالة مكانتها وفرضت هيمنتها على كل أرجاء مملكة بابل، بعد انسحاب مورسيلى الحثينى، وظل حكمهم لبابل مستمرًا بلا انقطاع، حتى آخر العصر البرونزى المتأخر(12).

كانت إنجازات القسيطين باهرة وملموسة فى كثير من الأوجه. تميزوا قبل أى شىء، فى حقيقة أنهم حكام أجانب، كانوا حتى عهود قريبة مازالوا بدواً قبليين يعيشون على الرعى، وبالرغم من ذلك نجحوا فى السيطرة والهيمنة علي إمبراطورية متقدمة، ونجحوا فى الحفاظ علي تلك السيطرة لآماد زمنية، لم يضارعهم أحد في مداها في أية حقبة من حقب التاريخ لأى سلالة أخرى حاكمة. ويلفت النظر أيضًا أن القسيطيين كانوا فى غاية الكفاءة فى الوصول ببابل مرة أخرى إلى مركز إحدى القوى

الدولية العظمى فى العصر البرونزى المتأخر، فى المجالين السياسى والتجارى. إلا أن أهم إنجازاتهم وأعظمها كان فى المجال الثقافى والفكرى والمعرفى، لم ينحصر جهدهم وإنجازهم فقط في المحافظة على فكر وثقافة حمورابى وسلالته وتغذيتها، بل كان لهم إنجازاتهم الخاصة الثقافية والفكرية والمعرفية. فتحت حكم ورعاية الملوك القسيطيين انتعشت الفنون والآداب والعلوم وبلغت شأنًا لم تبلغه من قبل، كما تحولت اللغة الأكادية فى شكلها البابلى، لتصبح لغة دولية للمعاملات بين كل ممالك المنطقة ولغة العلاقات الدبلوماسية بينها، واستخدمت علي نطاق واسع فى جميع أرجاء الشرق الأدنى القديم، وأصبحت الممالك المجاورة تسعى إلى المختصين من أهل بابل فى المجالات التى تتطلب مهارة عالية، مثل الطب والنحت والحكمة والتنبؤ وفنون النقش والكتابة والخطوط، وكان الطلب عليها شديداً من الممالك المجاورة لبابل.

كل ذلك. يضاف إلى الأنشطة التجارية الكثيفة لبابل، جعل مدينة بابل والمنطقة الجغرافية التى تحمل اسم بابل تتبوأ مكانة مرموقة وضعتها فى مصاف البلاد العظمى، ومما أضفى على ملوكها الصفة اللائقة بهم بصفتهم من عظماء ملوك الشرق الأدنى فى عصورهم.

أما المعلومات عن الملوك القسيطيين كأفراد فهى شحيحة. ففى الغالب لم يصل إلينا الآن إلا بعض الأسماء. وحين نعثر علي بعض التفاصيل عن ملوك قسيطيين معنيين وأفراد أسرهم، وأحيانًا بعض المعلومات عن بعض كبار موظفى الدولة من القسيطيين، فإن تلك المعلومات تتوفر بطريق غير مباشر، أى عن طريقه ما توفر من معلومات وتسجيلات من حضارات أخرى ومصادر أجنبية غير بابلية. وهكذا، نعرف عن طريق الملك الحثينى مورسيلي الثانى عن زواج أبيه سوبيللو ليوما من أميرة بابلية، وهى ابنة بورنابورياش الثانى. وسجل مورسيلى الثانى استبداد تلك الملكة البابلية الجديدة، وإسرافها، وتبذيرها، وإدخالها عادات جديدة غير مألوفة فى البلاط الحثينى. وانتهى الأمر باتهامها بالتآمر لقتل الزوجة الأثيرة

لمورسيلى الثانى، وكان مصيرها النفى من العاصمة الحثينية. وكما لاحظنا، ارتبط بورنابورياش بزواج لم يكلل بالنجاح، كمصاهرة سياسية من ابنة منافسة الأشورى أشور أو باليت، وهو الزواج الذى وصلت معلوماته إلينا عن طريق المراسلات المتبادلة بينه وبين الفرعون المصرى أخناتون، تلك المراسلات من أهم المصادر المتوفرة عن بورنابورياش الإنسان لا الحاكم، وطبيعة علاقته بالبلاط المصرى، وكذلك أيضًا تبدو أهمية المراسلات المتبادلة بين أبيه كاداش مان- إنليل الأول (1374 -1360 ق.م) وفرعون مصر أمنحوتيب الثالث. وفيما يخص مرحلة تلك المراسلات، لا تقدم لنا تلك الرسائل بأى حال مزيداً من المعرفة عن التاريخ البابلى المتسم بشحة المعلومات المتوفرة عنه فى تلك المرحلة، أى فى العقود الوسطى للقرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ومما يتسم بصفة خاصة فى هذا الشأن تلك الرسالة المطولة والكاملة والواضحة التى بعث بها الملك الحثينى حتوسيلى الثالث لملك بابل كاداش مان إنليل الثانى (1263 -1255) بعد فترة قصيرة من ارتقاء الأخير لعرش بابل. وتحتوى الرسالة على بعض النقاط التاريخية الهامة عن الموقف السياسى فى بابل، فى الوقت الذى اعتلى فيه كاداش مان انليل عرش بابل، وعن علاقات أبيه كاداش مان تورجو (1281 -1264) لكل من الحثينيين والمصريين فى الفترة الزمنية السابقة. ونعلم أيضًا من تلك الرسالة عن وصول قبائل آرامية للمنطقة، مما يزودنا بواحد من أول المراجع التاريخية عن ذلك العرق البشرى الذى سيلعب دوراً هامًا وبارزًا فى منطقة سوريا- فلسطين، فى القرون الأولى للألف الأول قبل الميلاد.

وبمصطلحات عسكرية، لعبت الإمبراطورية البابلية فى عصور حكم القسيطيين دوراً محدوداً جداً فى الشئون الدولية فى تلك العصور. لم تسع المملكة البابلية فى تلك العصور بأى شكل إلى توسيع رقعتها الجغرافية إلى الغرب من نهر الفرات أو شرقه. أما ادعاء الأشوريين أن البابليين يسعون إلى التوسع شرق الفرات، فقد كان ادعاءً مبالغًا فيه.

كانت القوى العظمى فى تلك العصور ترى بابل كمملكة ذات شأن، وعاملوا ملوكها وأضفوا عليهم صفات، ووضع مماثل لصفاتهم وأوضاع إمبراطورياتهم، وربما كان السبب فى ذلك يعود إلى الفوائد المادية التى كان يمكن الاستفادة منها، عن طريق العلاقات الودية الحميمة مع بابل. إلا أن ذلك لا يتعارض مع احتمال نظر الممالك الأخرى إلي بابل كحليف عسكرى له وزنه وقيمته الحربية، وبدا ذلك عند صراع الحثيين والميتانيين، وصراع الحثينيين مع مصر، وكذلك حين هاجمت مصر بلاد الحثينيين، وكان احتمال قيام بابل بتقديم عون عسكرى مباشر وملموس لأى حليف لها أثناء الحروب فى منطقة الفرات، أو بوجه أكثر تعميماً فى منطقة سوريا، احتمالاً مستبعداً تمامًا. كانت بابل تقدم لحليفها موقفًا متعادلا حياديًا يضمن لحملة جيش الملك- الأخ (ودا) أن يخوض حروبه ضد أعدائه شرق أو غرب الفرات، وهو مطمئن أنه لن يجد عداءً أو تدخلا من جيش بابل. وكانت التحالفات عن طريق الزواج والمصاهرة من التوجهات الحكيمة التى تضمن لبابل بقاءها على الحياد، وقد كان ذلك ما دفع سبيللوليوما للزواج من الأميرة البابلية، واعتبارها زوجة مفضلة قبل إقدامه على تسيير حملته العسكرية للقضاء على الميتانيين إلى الشمال من بابل. ربما كانت هناك أيضًا اعتبارات استراتيجية من بين عناصر أخرى دفعت حاتوسيلى الثالث إلى السعى لتجديد معاهدات التحالف الحثينية البابلية فى بداية عهد كاداش مان- إنليل الثانى. فوق كل ذلك، كانت العدوانية العسكرية المتصاعدة للآشوريين تبدو تهديداً مستقلاً لكلا الإمبراطوريتين، بالرغم من المجهودات الجادة للملك الحثينى لتأسيس علاقات ودية مع الملك الآشورى عدد- نيرارى الأول. ولا نعلم إن كانت رسالة حاتوسيلى التى بعث بها إلى كادشمان- إنليل قد نجم عنها بالفعل علاقات أقوى بين الحثينيين وبابل أم لا. إلا أن التهديد الآشورى ظل قائمًا، فقد ظلت تلك الإمبراطورية الصاعدة تتوسع وتمتد فى منطقة الفرات وفى اتجاه الشمال أيضا. لم تكن إلا مسألة وقت فقط قبل أن تدير

الإمبراطورية الآشورية عينها إلى اتجاهات أخرى أيضا. إلى غرب الفرات، أو إلى الجنوب، كانت بابل تحت وطأة تهديد خطير. وكما رأينا بعد ذلك، تحول التهديد إلى خطر حقيقى واقعى، على يد الملك الآشورى توكولتى نينيورتا الأول. فبعد أن هزم قوات الحثينيين فى موقعة نهريا، حوَّل توكولتى وجهة قواته إلى الجنوب، واجتاز الحدود الفاصلة لجيرانه الجنوبيين، ثم سحق قوات الملك البابلى كاشتيلياش، واقتحم مدينة بابل كسيدٍ جديدٍ لها. كان نصرًا هائلاً، إلا أنه كان نصرًا قصير العمر. كان توكولتى نينورتا قد مدَّ خطوط تموينه إلى مسافات بعيدة عن موطنه بصورة خطيرة تهدده وتهدد قواته، وكان مرغمًا على التخلى عن تلك الجائزة الثمينة وهى بابل، وهو لم يكد يهنأ بها.

وهكذا، استعادت الأسرة القسيطية استقلالها عن آشور، رغم خسارتهم العسكرية، وظلت تحكم بابل بمأمن تام من التدخل الأجنبى الخارجى، وكانت تعانى على وجه الخصوص من تهديد العيلاميين إلى الشرق منها. إلا أن بابل خلال تلك العقود الأخيرة التى انحدرت فيها سلاله القسيطيين الحاكمة لم تحرم من بعض الفترات القصيرة من الثبات والانتعاش والرخاء. إلا أنها خلال تلك العقود لم تعد تنعم بصفة القوة الإقليمية العظمى. وانتهى نظام حكم السلالة القسيطية بفترة حكم قصيرة لآخر ملوكها إنليل نادين- آهى (1157 -1155). وبعد موته خضعت بابل إلى سلسلة من الحكام غير المتميزين من سلالات غير معروفة، حتى انتصر الآشوريون عليهم مرة أخرى. وبحلول القرن الثامن قبل الميلاد أصبحت ولاية تابعة للإمبراطورية الآشورية الجديدة.

المملكة المصرية (13)

كان على مصر أن تتعلم درسًا قاسيًا. وبالرغم من انعزالها الجغرافى النسبى عن الشرق الأدنى القديم إلا أنها أيضًا كانت عرضة للغزو الأجنبى مثل كل الممالك الأخرى فى العالم، خاصة حين انقسمت مصر

على نفسها. فبعد حكم ملوك المملكة المصرية المتوسطة الذى استمر لأربعة قرون نعمت فيها البلاد بالتوحد والاستقرار (2055 -1650)، تعرضت مصر للتمزق السياسى من جديد، مثلما حدث فيما يطلق عليه الفترة الفاصلة الأولى (2160-2055) ومرة أخرى فى الفترة الفاصلة الثانية (1650 -1550)، تتابع على عرشها عدد من الملوك الضعفاء الذين كانوا يختفون بمجرد ظهورهم. ولم يكن لدى أى منهم- ممن ادعوا بأحقيتهم بعرش مصر- القدرة ولا الدعم الكافى اللازم لتوحيد المملكة تحت سلطة قوية واحدة، لتضع حدًا للانهيار المتواصل لقواتها العسكرية وقدراتها الاقتصادية. وبذلك كان الوضع مواتيًا لانتهازه.

كانت هجرات شعوب كنعان خلال عصور المملكة المتوسطة تستقر بشكل نهائى فى دلتا مصر وبأعداد كبيرة لا حصر لها(14). وبالفعل، اعتبر بعض الباحثين أن أولئك المهاجرين، كانوا سببًا فى انهيار السيطرة السياسية التى وصلت بالحكم إلى انهياره(15). وربما كانوا بالفعل عنصرًا هامًا من العناصر التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية المصرية بعد حكم أسر المملكة المتوسطة. ومن بين شعوب كنعان نهضت جماعة قوية، من بين شعوب فلسطين المنتمية للحقبة الثالثة من العصر البرونزى الوسيط، والذين هيمنوا على المملكة المصرية ما يقرب من قرن كامل. من بين قادتهم، والذين يشار إليهم بوجه عام باسم الهكسوس، ظهرت سلالة من الملوك، الذين بعد أن حكموا مصر لفترة من مدينة ممفيس، نقلوا مركز حكمهم إلى مدينة حواريس (مكان تل الضبعة الحالية) فى شرق الدلتا. وفى سياق هيمنتهم على المملكة المصرية تحولت سلالة ملوك مصر المنتمين إلى الأسرة الثالثة عشرة إلى مجرد ملوك ضعفاء، تابعين لملوك الهكسوس وخاضعين لهم، وكانت الأسرة الرابعة عشرة مجرد فرع من سلالة الأسرة الثالثة عشرة، واستقرت فى الدلتا خاضعة للهكسوس وتحت هيمنتهم. وهكذا، أصبحت الأسرة الخامسة عشرة التى تحكم مصر مكونة من أربعة ملوك أجانب على التتابع أو أكثر قليلا. إلا أن درجة نفوذ الأسرة الخامسة

عشرة وتأثيرها كان محدوداً جداً، فبالرغم من صعودها المثير للسلطة والحكم، إلا أنهم لم ينجحوا أبداً فى فرض سيطرتهم على كل أرجاء مصر خاصة الجنوب، لم تملك أبداً الموارد ولا القدرة والإمكانيات الإدارية لتحقيق ذلك. وحتى فى المناطق التى فرضوا سيطرتهم عليها، كانوا يفرضونها من خلال نواب لهم، وهم جماعة من أمراء آسيا (وهم ما أطلق عليهم اسم الأسرة السادسة عشرة) على شمال مصر ومن خلال الأمراء المصريين الخاضعين فى جنوب مصر.

وفى أغلب مرحلة حكم الهكسوس لمصر، لم يقابلوا بأى قدر من المقاومة أو التحدى من شعب مصر الأصلى. إلا أن طيبة فى الجنوب بدأت فى التحول لتصبح مركز المقاومة المصرية. كانت بطيبة سلالة من الأفراد امتدت بعيداً عن الأسرة الثالثة عشرة، التى ضم الهكسوس ملوكها إليهم، وامتدت تلك السلالة فى الجنوب، وحكموه تحت هيمنة الهكسوس، ليكونوا بعد ذلك الأسرة السابعة عشرة المصرية. وباعترافهم أن الهكسوس هم سادتهم كانوا يتجنبون إظهار أية عداوة للحكام الأجانب المقيمين فى حواريس، حتى وصل آخر ملوك تلك الأسرة لحكم الجنوب وهو كاموس (1555-1550). فبعد أن خاض كاموس معارك مظفرة فى بلاد كوش(17) فى أقصى جنوب مصر، وكان ملوك كوش متحالفين مع ملوك الهكسوس، ويشكلون فى الوقت نفسه خطراً على مملكة الجنوب المصرية فى طيبة، بدأ كاموس بعدها مباشرة فى شن الهجمات على الهكسوس ذاتهم، وانتزع من قبضتهم كل المناطق المصرية جنوب ممفيس، ثم شن حملة مباغتة على حواريس ذاتها، وهى قلب مركز الحكم الأجنبى لمصر.

وكان ذلك بمثابة تمهيد الطريق لأخية أحمس. واستطاع ملك طيبة الجديد أن يستولي على حواريس، طارداً الهكسوس إلى البلاد التى وفد منها أسلافهم، وتمكن من إلحاق هزائم متكررة بهم خارج مصر، كما تمكن من توحيد كل أرجاء مصر وإخضاعها لهيمنته وسيطرته (1529).

وكانت نجاحاته بمثابة علامة على بداية عصر جديد فى التاريخ

المصرى، وهو العهد الذى دام على مدى عهود الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وهى الأسرات التى تغطى المرحلة التى اصطلح على تسميتها باسم الملكة الحديثة (1550-1069). وأصبح أحمس مؤسس أول تلك الأسرات، وهى الأسرة الثامنة عشرة، واتخذ من طيبة عاصمة إدارية للمملكة وحاضرة الدولة، بعد أن كانت المركز الذى بدأ منه مقاومته للهكسوس. وكان حتى قبل اعتلائه العرش قد خطى الخطوات الأولى نحو تحرير وتوحيد البلاد، وأدى ذلك- بالإضافة إلى علاقة الإخوة بأخية كاموس الذى سبقه فى حكم طيبة، أى انتمائه إلى سلالة حاكمة- إلى اكتسابه شرعية قبلها الجميع، إلا أن سياساته ومشروعاته كانت كلها موجهة إلى إرساء بداية تاريخية جديدة لمصر. كان تطلعه إلى المستقبل أكثر من تطلعه إلى الماضى وتحت قيادته وإشرافه، ومدفوعًا بتطلعاته أسس الركائز التى شيِّد عليها إمبراطورية مصرية، وبدأت مصر تستعيد مكانتها كقوة دولية عظمى فى تلك العصور.

وقاد أوائل ملوك الأسرة 18 كثيرًا من الحملات العسكرية في النوبة فى أقصى الجنوب وإلى الشمال باتجاه سوريا وفلسطين. ففى الجنوب قام أحمس وأول ملكين تلياه على العرش، وهما أمونحتيب الأول وتحتمس الأول، بتوسع رقعة الإمبراطورية فى الجنوب، والتى كان قد بدأها كاموس من قبلهم جميعًا، فأخضعوا النوبة العليا والقصوى تحت هيمنة التاج المصرى مباشرة. وكانت النوبة العليا، التي أطلق عليها المصريون اسم (واوات) تغطى المساحة الجغرافية الممتدة من جنوب أسوان والواقعة بين الشلالات الأولى والثانية لنهر النيل. أما النوبة القصوى فقد كانت تمتد من الشلالات الثانية حتى الشلالات الرابعة. وبسبب الثروات المعدنية (18) والأرض الزراعية التى تتميز بها بلاد النوبة، أصبحت النوبة من أثمن ممتلكات الإمبراطورية المصرية.

إلا أن تحتمس الأول (1504 -1492) كان أول من وضع مصر فى مصاف القوة العالمية الأولى، بعد أن حقق انتصارات عسكرية متتالية فى

سوريا حتى وصل إلي نهر الفرات. وبمصطلحات عسكرية بحتة، كانت إنجازاته الحربية مبهرة. ولكن بالنظر إلى التداعيات التي ترتبت على تلك الانتصارات العسكرية التى أحرزها، نجد أنه قد هيمن على مناطق، هو ومن تلوه، أكثر مما يستطيعون هضمه. وتحت حكم الأرملة حتشبسوت (1479 -1458) أرملة تحتمس الثانى، ابن تحتمس الأول، بدأ النفوذ المصرى فى سوريا يتقلص ويتداعى. فقدت حتشبسوت أغلب الأراضى التى غزاها حموها تحتمس الأول، ولم يتبق تحت الهيمنة المصرية إلا الجزء الجنوبى من فلسطين. ومن المحتمل إلى حد كبير، أن قرارها بتقليص رقعة نفوذ التاج المصرى له علاقة بزيادة نفوذ وأثر الميتانيين على الشئون السورية.

ومما لا شك فيه أن حتشبسوت آثرت وفضلت تبنى استراتيجية الحوار، والتوافق السلمى، والاحتواء كحلول أفضل من هيمنة القوة، كأفضل وسيلة فى التعامل مع العدوانية المتزايدة والجوع العسكرى لقوة مملكة الحوريين الصاعدة والمتنامية فى شمال سوريا. وفى جميع الأحوال كانت مهتمة بصفة أساسية بدعم رخاء مملكتها الاقتصادى، وتنمية علاقات تجارية دولية، أكثر من اهتمامها بمشروعات الغزو العسكرى وتوسيع رقعة المملكة. ولا تظهر النقوش النصية التى دونت فى عصرها أية انتصارات عسكرية بقدر ما تظهر أخبار البعثات التجارية التى كانت ترسلها إلى فينيقيا لجلب الأخشاب، وإلى شبه جزيرة سيناء لجلب التركواز، وإلى بلاد بونت، والتى كانت ربما تقع فى السودان أو فى أريتريا لجلب مجموعات متنوعة من منتجاتها العجيبة.

أما ابن زوجها وولى عهدها تحتمس الثالث (1479 -1425) (19) فقد كانت توجهاته أكثر صرامة وعدوانية. فبمجرد أن استوى على عرش البلاد تم إعادة صياغة العقيدة العسكرية المصرية. ومرة أخرى عادت إلى الظهور شخصية الفرعون المصرى قاهر الآسيويين، وبرزت إلى طليعة صفات فرعون مصر. وكانت سبع عشرة حملة عسكرية على غرب آسيا،

كفيلة بتأسيس شهرة تاريخية لتحتمس الثالث كأعظم قائد عسكرى فى عصره. ومن أشهر المعارك التى خاضها، معركة مجدو التى انتصر فيها على تحالف من شعوب سوريا الخاضعين للميتانيين (1457)، وغنم منها غنائم كثيرة، منها ما لا يقل عن 924 عجلة حربية، وبعد انتصاره فى تلك المعركة الحاسمة، أصبح الطريق ممهدًا أمامه لاقتحام أرض الميتانيين ذاتها. كانت بالكاد قد مرت مائة عام منذ آخر مرة انحنى فيها حاكم مصرى أو ركع أمام الآسيويين. كان اتجاه المد العسكرى قد تغير كليًا، وانتصر تحتمس الثالث فى قلب البلاد التى غزا أهلها مصر. وتحوَّل الغزاة إلى خاضعين، وأصبح حكام آسيا يرسلون إليه الهدايا والترضيات والجزية، طمعًا فى كسب وده وتحالفه معهم. وتبين بعد ذلك أن بعض مكاسب تحتمس الثالث العسكرية كانت سريعة الزوال، مثلما حدث مع كثير من المكاسب العسكرية لسميِّه تحتمس الأول، وكان العنصر المؤثر فى ذلك العامل الميتانى. فقد زوت مملكة الحوريين وعانت من اضمحلال مؤقت، تحت وطأة هيمنة تحتمس الثالث على سوريا. إلا أنه بمجرد أن تولى الحكم عليهم الملك الحازم شوشتاتار، بدأت المملكة الميتانية فى الانتعاش من جديد واستردت طموحاتها، ومرة أخرى لجأت إلى عقد المعاهدات والمصالحات كأفضل وسيلة، للتعامل مع المملكة المصرية التى يمكن أن تكون حليفًا مفيدًا لها، كما كان يمكن أن تكون بكل يقين عدوًا خطيرًا. فى عهد تحتمس الرابع، تم توقيع معاهدة بين القوتين، سلَّمت فيها مصر بحقوق الميتانيين فى شمال سوريا، بينما سلَّم الميتانيون بحق مصر فى الهيمنة على جزء من ساحل سوريا وكل جنوب سوريا. وعلى اليابسة، كان خط النفوذ الفاصل بين المملكتين يقع بالكاد شمال مدينة قادش الواقعة على نهر العاصى.

وربما كانت تلك المعاهدة والتحالف بين مصر والميتانيين هى السبب الرئيس فى فترة السلام والازدهار التى تمتعت بها المملكة المصرية فى عهد خليفة تحتمس الرابع، وهو الملك أمونحتيب الثالث (20) وبسيادة

الأمن والسلام نتيجة المعاهدة التى عقدت مع الميتانيين، ظلت مصر غير مهددة بأية حروب عسكرية طوال عهد آمونحتيب الثالث، وتمتعت المملكة فى عهده بفترة غير مسبوقة من السلام واستتباب الأمن والرخاء والانتعاش والازدهار، طول فترة حكمه واعتلائه عرش البلاد. وعلى عكس ذلك تمامًا، كان ذلك العصر هو العصر الذى كان فيه الحثينيون على شفا الهلاك والفناء، بعد تعرضها للغزو من جميع أرجاء حدودها. واستغل آمونحتيب الفرصة بسعيه إلي التحالف مع مملكة غرب الأناضول، مملكة أرزاوا، بعد أن أيقن أنها ستصبح قوة عظمى فى تلك المنطقة. إلا أن الحثينيين خيبوا توقعاته، فقد استعادوا قوتهم، وتعافوا بعد الصراع الطويل الذى خاضوه ضد الميتانيين، حافظ فرعون مصر خلاله على علاقات رسمية محايدة مع كلا الجانبين. كان يؤمن أنه لا يوجد أى سبب يدفعه للتورط فى حروب عظمى. كان اقتصاد مصر مزدهرًا، كما كانت الدولة تتمتع بإدارة مستقرة وثابتة، وكانت خزائن البلاد مليئة ومكتظة بالكنوز، وكان أهل مصر يعيشون حقبة غير مسبوقة من الرفاهية، وانعكست حالة الرفاهية وانتعاش الفنون على عدد كبير من المنشآت المعمارية، التى شيدت فى ذلك العصر.

ثم حل عصر ثورة العمارنة

ويبدو أنه لن تكون هناك أبدًا نهاية للجدل المحيط بشخصية الفرعون آمونحتيب الرابع (1352 -1336) (21)، والذى عكس اسمه الجديد أخناتون تكريس نفسه كليًا هو وأسرته لعبادة إله الشمس آتون. فتحت أى وصف يمكن تصنيف أخناتون؟ وكيف يمكن تقييمه؟ وأى تقييم يصدق عليه؟ هل كان نبيًا دينيًا عظيمًا؟ هل يمكن اعتباره أو اعتماده كأول داعٍ للتوحيد فى التاريخ البشرى؟ أم يمكن اعتباره كافرًا مرتدًا، دفع بلاده إلى حافة الدمار والانهيار؟ أم كان ناسكًا منعزلاً بذاته ومنغمسًا فيها، والذى ترك الفساد يتفشى فى الأجهزة الإدارية للمملكة، وخاطر بالمكانة الدولية

المرموقة لبلاده؟ أم كان ذا ضمير حى عميق، ولكن بضف فى الشخصية مما دفع التقليديين المحافظين الذين فقدوا نفوذهم وخسروا امتيازاتهم بسبب دعوته إلى التجمع ضده للقضاء عليه والتخلص منه؟

لدينا الكثير مما يمكن ذكره عن أخناتون. لو أخذنا فى الاعتبار أن الموضع الذى شيد فيه عاصمته الجديدة أخيتاتون (تل العمارنه حاليًا) قد عثر فيه على أهم وأخطر دار للمحفوظات التى تجمع المراسلات الدولية والتى وصلت إلينا سالمة من عصر أخناتون. وأهمية ودلالات تلك الرسائل لا يمكن تجاوزها من قبل أى دارس أو باحث يتعرض لتقييم عهد ذلك الفرعون.

ما يبرز بوضوح من خلال مراسلات العمارنة أن الملوك الأجانب- خاصة ملوك الحثيين، والميتانيين، والآشوريين، والبابليين- كانوا يسعون بكل جهد إلى الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية جيدة مع مصر طوال عهد العمارنة، وكانوا يسعون حقًا إلى تقوية أواصر تلك العلاقة أو التحالف مع مصر عن طريق زواج التحالف. ولو كان الإخوة الملوك قد أحسوا أن مصر تمر بفترة اضمحلال فى قوتها وانهيار فى أجهزتها وأنها تفقد مركزها الدولى، إلا أنهم بالتأكيد لم يظهروا أيًا من ذلك فى رسائلهم لأخناتون، فرعون مصر، حتى إن الملك الحثينى العظيم المحارب سبيللوليوما كان حريصًا على التأكيد لفرعون مصر أنه صديق له، وأنه يحترم مناطق النفوذ المصرى، ويبدى رغبته في المحافظة على السلام بين بلاده ومصر، فى الوقت الذى كان فيه على قدم وساق فى سبيل القضاء على الميتانيين قضاءً مبرمًا.

فضلاً عن ذلك، تظهر ملفات الرسائل التى بقيت حتى الآن، التى تم تبادلها بين أخناتون وحكام الولايات التابعين للتاج المصرى فى سوريا وفلسطين، بمالا يدع مجالاً للشك أن فرعون مصر أخناتون ظل على اتصال منتظم لمتابعة الأنشطة المختلفة فى الأقاليم التابعة للتاج المصرى، بالرغم من الادعاءات أنه فى الغالب لم يكن ليستجيب لأغلب الشكاوى

الواردة من حكام الولايات ولا لطلباتهم. فلو كان أخناتون ملكًا أهمل بشكل خطير شئون مملكته، أو ملكًا مسئولاً عن انحدار مملكته وتدهور تصدرها للقوى الدولية فى عصره، فإنه من اللافت جدًا للنظر أن الرسائل الواردة إليه والصادرة منه، وكذلك الواردة إلى أبيه والصادرة منه فى آخر أعوام، تتميز بكونها من أثرى مصادرنا عن عالم العصر البرونزى المتأخر. من اللافت للنظر أيضًا أن الملك الذى استحوذت عليه رؤية دينية مختلفة لم يسجل أية إشارة عن معتقداته الدينية فى أى من رسائله، التى بعث بها إلى نظرائه، ولا تلك التى بعث بها إلى الحكام التابعين لهيمنة التاج المصرى.

وبموت أخناتون، كانت الأسرة الثامنة عشرة تكاد تصل إلى نهايتها. أما فترة الحكم العابر التى اعتلى فيها الملك- الصبى توت عنخ آمون عرش البلاد (1336 -1327)، وهو آخر السلالة، فإنها لم تكن لتستحق إلا ذكرًا عابرًا فى صفحات تاريخ مصر، لولا اكتشاف مقبرته كاملة دون أن تمس- والظروف التى أحاطت باكتشافها. ولا يثير الدهشة أن الفرعون الذى فرض عليه أن يكون ملكًا وهو فى سن التاسعة، والذى مات بعدها بتسعة أعوام، لم يكن له أية إنجازات تذكر خلال فترة حكمه فى سنى مراهقته. إلا أن تلك الأعوام شهدت هجر وتدمير مدينة أخناتون، واستعادة المجتمع المصرى لكثير من عاداته ومعتقداته السابقة على أخناتون، واستعادة رجال الدين لقوتهم ونفوذهم، والعودة إلى ترتيب قوى المجتمع السابقة على أخناتون. كما نجح أيضًا فى إثارة غضب وعداوة وحنق أقوى ملك بلا منازع فى الشرق الأدنى. فبلا أى سبب واضح، أمر توت عنخ آمون بشن هجوم على مدينة قادش، التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للحثيين. وقبل ذلك الهجوم غير المبرر، كان سبيللوليوما يولى أهمية كبيرة وعناية فائقة إلى تجنب إثارة أية عداوة مع الجارة الجنوبية، أى المملكة المصرية، ووجد فجأة أن ذلك الجار يسلك سلوكًا عدوانيًا مفاجئًا وغير مبرر. وكان رد الفعل سريعًا. وسحق الحثيون الجيش

المصرى المهاجم لقادش، وظل غضب سبيللوليوما مستعراً، حتى بعد الموت المفاجئ للفرعون الصغير بعد ذلك بفترة قصيرة.

ولا يمكننا إلا تخمين الأسباب التي حدت بتوت عنخ آمون للهجوم على الحثيين، ربما كان يسعى إلى تجسيد صورة جديدة لـ «قاهر الآسيويين» علي غرار ونمط أسلافه، إلا أنه جازف مجازفة خطيرة، وخانه قياس قوته قياساً صحيحاً، وبالتالي بالغ في تقديره لنجاح الحملة، إلا أنه مهما كانت الدوافع، فإن تلك المجازفة غير المحسوبة ألقت بظلالها على ما تلى ذلك من أحداث، وظهر ذلك من خلال نص رسالة، ولجنة عليا لتقصى الحقائق، وعمل من أعمال خرق المواثيق الذى يصل لدرجة الخيانة، والتى وضعت مصر والحثيين فى صدام لا يمكن التراجع عنه أو إصلاحه. وسوف نعود لشرح ذلك فيما بعد.

وكان الحكم القصير لآى (1327-1323) الذى خلف توت عنخ آمون على عرش مصر، والحكم الأطول نسبيًا والأكثر حيويه لحورمحب (1323 -1295)، واللذان غطيا معًا ما يزيد عن ثلاثين عامًا فى حكم مصر وهى الفترة التى شهدت تلاشى واضمحلال الأسرة 18 ومولد الأسرة 19. كانت مدينة أخناتون قد هجرت بعد موت أو اختفاء منشؤها مباشرة، وتم تدمير وتحطيم وإخفاء كل ما يدل عليها، وحرم الحديث عنها أو ذكر اسم صاحبها، كما وضعت نصوص جديدة تحقَّر وتحط من شأن أخناتون المارق أو الكافر الأعظم وكل عهده وكل ما يمت إليه بصلة. وحتى يومنا هذا فإن الدعاية السيئة التى أحاطت بتلك الشخصية العظيمة، والتى قادها توت عنخ آمون (أو مستشاريه) ثم حورمحب من بعده، ظلت تؤثر وتلقى بظلالها على الرأى العام وعلى آراء الباحثين عن ذلك الملك الذى اشتهر باسم «الملك الكافر». من بعد أخناتون ورسالته عادت مصر إلى ممارسة عقائدها التقليدية السابقة عليه. وعادت الطبقة الارستقراطية لتحتل مكانتها فى طيبة، كما عادت سلطة الكهنة والمؤسسة الدينية إلى سابق قوتها ونفوذها. وعادت المملكة المصرية من جديد إلى تبوُّء مكانتها

كقوة عظمى على المشهد السياسى الدولى فى تلك المرحلة. وكان المسرح مهيئًا تمامًا لظهور أسرة حاكمة جديدة.

فى تلك المرحلة ظهرت شخصية جديدة على مسرح الأحداث لرجل يدعى براميسيس. كان براميسيس ممن ينطبق عليهم وصف بلاد ما بين النهرين لشخصيات مماثلة يطلق عليها «ابن المجهول»، فبالرغم من أن براميسيس كان ينتمى لطبقة النبلاء، إلا أن عائلته لم تكن تتميز عن غيرها من العائلات النبيلة العريقة للأسر المصرية من الطبقة العليا، وكانت عائلته تعيش فى منطقة نائية من مناطق الدلتا. لم تكن لدى الأسرة أية أسباب تؤدى بأحد أبنائها إلى إحراز أعلى مراتب العظمة فى الإمبراطورية المصرية. إلا أن براميسيس لفت وهو فى ريعان شبابه نظر حورمحب الذى لم ينجب وليًا للعهد. وتأثر حورمحب بالصفات اللافتة للنظر فى شخصية براميسيس، ورأى فيه المقومات التى تجعل منه وليًا محتملاً للعهد، ويحتمل أنه أنفق أعوامًا عديدة فى إعداده وتدريبه لتولى ذلك المنصب العظيم. وحدث ما حدث، فحين وافت المنية حورمحب، اعتلى براميسيس عرش مصر باسم رمسيس الأول (1295 -1294). وكان صعوده للعرش بداية عهد الأسرة 19، وهى الأسرة التى اشتهرت فى التاريخ باسم الرعامسة، والتى فرض ملوكها هيمنتهم على الإمبراطورية المصرية، طوال أزهى عصورها وأكثرها رخاءً ماديًا وعطاءً فكريًا وثقافيًا.

ولسوء الحظ، لم تتوفر لرمسيس الأول أية فرصة لإنجاز أى شىء إلا فرصة وضع الأسرة على طريق الملوك، فقد مات رمسيس الأول بعد عام أو نحو ذلك من اعتلائه عرش مصر. كل ما فعله قبل موته أن جعل من ابنه سيتى الأول (1294 -1279) وليًا للعهد، وبعد أن اعتلى العرش انطلق سيتى الأول لإنجاز مهمة استعادة مصر لكامل ومطلق هيمنتها السياسية والعسكرية فى منطقة الشرق الأدنى(24). وسيَّر حملات عسكرية متتابعة علي كنعان وفلسطين، حتى هيمنت مصر عليها هيمنة مطلقة، وتلتها حملات عسكرية علي جنوب سوريا، وأصبح المشهد معدًا للصدام

بالحثينيين. وتصاعد التوتر بين الدولتين لأول مرة منذ موت توت عنخ أمون. أصبح لمصر قائد وحاكم قوى، وموارد تمكّنه من تحدى قوة الحثينيين، الذين كان يحكمهم فى ذلك الوقت مواتاللى الثانى. وبقدر ما يمكننا استخلاصه من حقائق من خلال النص البلاغي المسجل على نصب النصر التذكارى لسيتى الأول فى معبد الكرنك بالأقصر، نجد أن سيتى الأول قد أحرز نصرًا حاسمًا على الحثينيين فى معركة حربية، وقعت بسبب النزاع على الحدود ومناطق النفوذ فى بلاد العموريين ومدينة قادش. وأصبحت المنطقة من قادش باتجاه الجنوب والجزء الساحلى إلى الشمال، من العموريين بما فيها كل منطقة العموريين بسوريا، تحت هيمنة وسلطة التاج الإمبراطورى المصرى.

واستمر السلام غير المستقر بين الإمبراطوريتين، إلا أنه لم يدم طويلاً حتى وقع صدام عظيم بين مواتاللى وابن سيتى الأول، الذى اعتلى العرش بعد موت أبيه، الملك رمسيس الثانى (1279 -1213)(24) وكان ذلك في مدينة قادش بعد موت سيتى الأول بخمسة أعوام.

ومما لاشك فيه أن الشجاعة التى أظهرها رمسيس الثانى فى تلك المعركة، بعد الهجوم المفاجئ الذى شنَّه الحثينيون على فرق جيشه المتباعدة، حمت جيشه من الدمار الكلى والشامل، بل ربما كانت السبب فى نجاته هو من الموت. وانتهى ذلك اليوم وقد حقق رمسيس التوازن الذى يصل إلى درجة التعادل لقواته، التى لم تكن قد تجمعت بعد، وتفصل بين فرقها مساحات شاسعة، حين شنَّ الحثينيون هجومهم المفاجئ على الفرقة التى يقودها رمسيس الثانى بنفسه. وفى اليوم التالى لم يكن أمامه إلا التقهقر بقواته باتجاه الجنوب ومن خلفه جيش الحثينيين، الذى راح يطارده، ولم يكن لدى رمسيس الثانى أى خيار غير أن يتخلى لمواتاللى الثانى عن منطقة أوبى أو أبينا وكل ما يقع شمالاً، والتى كانت تضم مدينة دمشق. ولا يدهشنا، رأى فرعون مصر بعد انتهاء المعركة المصيرية فى تسجيلاته التى سجلها عن تلك المعركة، والتى صورها فى نقوشه

ونصوصه كنصر شخصى حققه بذاته على الحيثيين المنحطين، ومجّد رؤيته لتلك الأحداث بالكلمة والصورة على جدران ما لا يقل عن خمسة معابد مصرية هائلة.

ومهما كانت الصورة التى حاول رمسيس الثانى أن يصورها عن نفسه كقائد عسكرى عظيم، إلا أنه فى واقع الأمر لم يكن عقلية عسكرية فذة. لم يكن السبب فى نجاح الهجوم الصاعق المباغت الذى شنه الحيثيون فى قادش عائدًا إلى مهارة الحيثيين بقدر ما كان بسبب ضعف التخطيط الاستراتيجى للحملة العسكرية المصرية، وعدم كفاءة فرق الاستطلاع وضعف جهاز الاستخبارات العسكرية.

وحيث إن رمسيس كان القائد الأعلى للجيش المصرى، فقد كان يتحمل مسئولية ذلك الفشل، وكذلك كان مسئولاً عن النتيجة التى وصلت إليها تلك الحملة العسكرية وما ترتب عليها، وكان لذلك المشهد المهين لقوات الفرعون وهى تفر متراجعة والقوات الحيثية من ورائها تطاردها تداعياته التى ترتبت عليه بعد ذلك، فعلى مدى عامين بعد تلك الحملة، ظل رمسيس يحاول وضع حد لتمرد الحكام المحليين الخاضعين للتاج المصرى فى كنعان وفلسطين، والذين تشجعوا على رفع راية العصيان بعد فشل حملة رمسيس على قادش، وراحوا يسعون لنيل الاستقلال والخروج عن طاعة الفرعون. ولم يضيِّع رمسيس وقتًا فى التصدى لذلك العصيان الذى انتشر فى كثير من المدن التابعة. فقام بسلسلة من الحملات العسكرية المكثفة والحازقة، حتى تمكن من استعادة السيطرة على المتمردين وإخضاع كل المناطق التى رفعت راية العصيان.

كانت هناك تهديدات أخرى توجب عليه التصدى لها بحزم، وكانت أقرب إلى قلب مصر من تلك التى وقعت أحداثها بالشمال الشرقى. كانت أكثر تلك التهديدات خطورة تأتى من أرض ليبيا المتاخمة لصحراء مصر الغربية، كانت قبائل ليبيا قد هاجمت مصر من الغرب فى عصر أبيه سيتى الأول، وكادت تصل إلى قلب الدلتا لتستقر بأرضها الخصبة. وبنى

رمسيس الحصون العسكرية الممتدة من غرب الدلتا حتى منطقة العلمين الحالية؛ ليجبر خصومه على الدفاع بدلاً من الهجوم. إلا أن تلك الحصون لم تكن ضماناً مستديماً لأمن الحدود الغربية ضد هجمات تلك القبائل، وعاد التهديد الليبي ليزداد من جديد في عهود خلفاء رمسيس الذين حكموا من بعده.

وبالرغم من عدم اختفاء التهديدات الخارجية، إلا أن مصر طوال الستة والستين عامًا التى حكم فيها رمسيس الثانى تمتعت باستقرار ورخاء طوال عهده. فبعد معركة قادش قلّص رمسيس الدور العسكرى إلى أبعد حد ممكن. وقضى المهندسون المصريون جل عصره فى تشييد منشآته المعمارية التذكارية؛ لتخليد اسمه، وفى انعاش الاقتصاد وتكوين الثروات عن طريق التجارة، واستغلال الثروات المعدنية ومشروعات استخلاصها أكثر من اهتمامهم بالمشروعات العسكرية التوسعية. وسواء كان رمسيس واعيًا بذلك أم لا، فقد كان أقرب إلى نموذج ونمط أمونحتيب الثالث منه إلى تحتمس الثالث. كان بانيًا ومشيدًا أكثر منه سيدًا للحرب، وكان رجل دولة عالمى أكثر منه قائدًا عسكريًا يثير الفزع والخوف وطبع، بصمته كعاهل دولى على معاصريه. ولذلك حظى باحترام وتقدير أنداده من الملوك المعاصرين له، كما حاز إعجاب رعايا أنداده من الملوك، وكان ذلك انعكاساً واضحًا ومباشرًا لمواقفه فى السياسة الدولية فى عصره، والوسائل الدبلوماسية التي اتبعها فى عالمه الذى عاش فيه. كان في ذلك العالم من أهم الشخصيات التي تحظى بالاحترام والتقدير. وشهد عصره أيضا استتباب السلام بشكل نهائى مع الحثيين(25). وهناك نسخة باللغة الأكادية من نص معاهدة السلام التي وقعها مع الملك الحثينى حاتوسيليس الثالث تعتلى مدخل مجلس الأمن الدولى التابع للأمم المتحدة بنيويورك. وظلت كثير من المراسلات المكثفة التى تبودلت قبل توقيع تلك المعاهدة وبعدها بين رمسيس الثانى وحاتوسيليس الثالث محفوظة حتى وقتنا الحالى. تلك المراسلات، كما سنرى لاحقًا، لا تلقى فقط أضواء

كاشفة على مجال العلاقات الدولية فى ذلك العصر، بل تمدنا برؤى عميقة عن تفاصيل حياة من تبادلونها ومكوناتهم الشخصية.

وكحقيقة عملية فإن معاهدة السلام والتحالف بين المصريين والحثيين لم يكن لها تأثير عملى مباشر على مقدرة كل منهم على درء الأخطار الخارجية والقوى المتصاعدة التى تشكل خطرًا وتهديدًا لأى منهم. فقد واجه ابن رمسيس الثانى وخليفته ، ميرنبتاح (1213 -1203) تحديات جديدة من ليبيا، والتى أصبحت أشد خطورة بعد تحالف القبائل الليبية المهاجمة بقيادة زعيمها ميريرى مع تحالف آخر مكون من شعوب كانت تسمى شعوب البحر، ووافدة من شمال البحر المتوسط للهجوم على مصر واحتلالها. ونجح ميرنبتاح فى صد غزو الحلفاء وطردهم، كما عاد لوأد تمرد بلاد النوبة، والواضح أنه ترتب على انشغاله بالتصدى للغزاة القادمين من الغرب، وتمكن من القضاء على ذلك التمرد بنجاح، إلا أن الأسوأ كان مازال فى طى الغيب.

بموت ميرنبتاح وصلت الأسرة التاسعة عشرة إلى نهايتها، وتلتها سلسلة من الأسر الحاكمة التى لم تدم طويلاً. وكان من المهام الشاقة التى تولاها رمسيس الثالث (1184 -1153) استعادة الأمن والانضباط. كان رمسيس الثالث هو المؤسس الفعلى للأسرة العشرين، والذى احتفظ لنفسه باسم سلفه الذائع الصيت رمسيس الثانى، وفعل الشىء ذاته ثمانية ملوك ممن تلوه على عرش مصر. إلا أن رمسيس الثالث لم يكد يتهيأ له فسحة من وقت بعد اعتلائه العرش، قبل أن يجد نفسه مواجهًا بتحديات خطيرة لا قبل له بها، وتهديدات غزو من الأرض والبحر. ومن جديد تجمعت جحافل شعوب البحر القادمة من شمال المتوسط متجهين إلى جنوبه قاصدين مصر، عبر الطريق البرى على الساحل الشرقى للبحر المتوسط وعبر فلسطين، وكذلك عن طريق البحر مباشرة حتى سواحل مصر على المتوسط، وكانت هناك هجمات أخرى من قبائل ليبيا فى العامين الخامس والثامن من حكم رمسيس. ومرة أخري نجحت مصر فى صد الغزاة

وطردهم، وتمكنت من صد تجمعات شعوب البحر القادمة براً عن طريق الساحل الشرقى للمتوسط على حدود مصر فى چاهر (منطقة فينيقيا بعد ذلك)، وهزمت تجمعات شعوب البحر الغازية بعد معركة شرسة، وتم تصوير وقائعها على جدران معبد رمسيس الثالث فى مدينة هابو، كما تمكن من صد الليبيين وردهم على أعقابهم.

ولرمسيس الثالث فضل عظيم فى تلك الانتصارات علي المحن التى تجمعت على مصر فى عهده، وهيأت تلك الانتصارات لمن خلفوه من الأسرة العشرين التى أسسها الاستمرار فى حكم مصر لقرن كامل علي الأقل من بعده، أى بعد زمن طويل من انتهاء حكم الأسر التى تزامنت مع المرحلة الأخيرة من العصر البرونزى، إلا أن مصر كانت قد أنهكت وضعفت إلي حد بعيد، ولم يعد بإمكانها الادعاء أنها من الدول والقوى العالمية العظمى أكثر من ذلك. وظهرت قوتان دوليتان جديدتان مع بدايات الألف الأول قبل الميلاد، بالرغم من استمرار وجود أسماء قديمة كانت مازالت تهيمن على شئون العالم القديم، كما نهضت الإمبراطوريتان الآشورية والبابلية من جديد. واستمرت مصر متمتعة باستقلالها على مدى القرون الأولى للألفية الأولى، وكان ذلك يرجع إلى حد ما إلى موقعها الجغرافى الفريد. إلا أن بُعد المسافة النسبى وكذلك الصحراء المحيطة بها لم يضفِ عليها نوعًا من الحماية الكاملة. فأخيراً سقطت فى يد الحاكم الآشورى (إزار حدون) فى القرن السابع قبل الميلاد، وأصبحت مثل بابل، ليست إلا ولاية تابعة، ضمن كثير من الولايات التابعة للإمبراطورية الآشورية.

مملكة الحثيين (26)

«كان هناك ملك عظيم فى الأيام الخالية يدعى لابارنا. كانت بلده التى يحكمها صغيرة، ورغم صغر بلده، كان كلما خرج على رأس حمله عسكرية ضد بلد آخر، يغزوها بقدرته ويخضعها لسيطرته، واستمر فى تدمير البلاد الأخرى، قاضياً على قوتهم، حتى وصل إلي البحر

الذى أصبح حدوده».

كانت الفقرة السابقة مما سجله الملك تيليبيو فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، عن أمجاد سلف عظيم له يدعى لابارنا سبقه على عرش الحثيين. كان الملك الأسطورى لابارنا قد حول مملكته من بلد صغيره إلى مملكة كبيرة، امتدت على الجانب الشرقى من سهول الأناضول، ووصلت حدودها الجنوبية حتى سواحل البحر المتوسط. كانت الإنجازات الأسطورية للملك لابارنا بمثابة الإلهام والمثل الأعلى لكل ملوك الحثيين من بعده. وتحول اسم لابارنا ليكتسب تبجيلاً وقداسة، حتى أصبح مقطعًا من مقاطع أسماء الملوك الذين تلوه على عرش الحثيين. ويبدأ التاريخ المعروف للحثيين بالملك لابارنا، أى فى بدايات القرن السابع عشر قبل الميلاد.

كانت ممالك سابقة قد قامت فى الألف الثالث قبل الميلاد فى قلب الأناضول وفى شرقها، وكان من أبرز تلك الممالك المملكة التى نشأت فى قلب الأناضول وسميت باسم الحثينية. كانت تقع فى المنطقة التى يحدها نهر كان يطلق عليه الحثينيون اسم مارسانتيا. وكان مقر الحكم فى مدينة تسمى حاتوس، كان سكان تلك المنطقة، فى أغلبهم من سكان محليين، يسمون (الحثينيون). إلا أن هناك جماعات أخرى كانت تعيش أيضًا فى المنطقة نفسها، من المتحدثين بالهند أوربية، كانوا قد وفدوا إلى قلب منطقة الأناضول من مناطق تقع إلى شمال البحر الأسود. (ومازالت تلك الفرضية موضع جدل)، وبحلول نهاية الألف الثالث قبل الميلاد كانوا قد استقروا فى مناطق من شرق الأناضول ووسطه، ثم امتدوا إلى مناطق بغرب الأناضول بعد ذلك.

وفى بدايات الألف قبل الميلاد، وهى الحقبة الزمنية التى أسس فيها الآشوريون قواعد تجارية فى وسط وشرق الأناضول، كان الحثينيون والهند أوربيون المقيمون فى المنطقة ذاتها قد انصهرا فى شعب واحد. وبالرغم من ذلك، كانت هناك بعض المناطق التى ظلت مشغولة بشعوب

هند أوربية صرفة أو بجماعات حثينية صرفة. ونشأت أسرة قوية ويحتمل أنها من أصول هند أوربية فى شرق الأناضول فى مدينة تسمى كوسارا، وانتقلت إلى قاعدة حكم جديدة فى مدينة قريبة تدعى بنسا، وتعرف أيضًا باسم كانيش، وكانت تقع على الالتفاف الجنوبى لنهر مارسانتيا، وكانت تجاورها إدارة المستعمرات الآشورية التجارية. ومن مدينة نيسا، شنَّ الملك أنيتا بن الملك بيتانا سلسلة حروب إلى شمال النهر وجنوبه، حتى تمكن من تأسيس إمبراطورية الأناضول الشرقية، وفى مجرى تلك المعارك كان قد دمر مدينة حاتوس، وترك الأعشاب تنمو فوقها وأعلن أنه لن يسمح لتلك المدنية أن تبنى من جديد.

كانت الإمبراطورية التى شيدها أنيتا قصيرة العمر، فلم تدم لأكثر من جيل واحد بعد سلسلة الحروب التى شنها. وزامن انهيارها سحب الآشوريين لأنشطتهم التجارية من الأناضول، حوالى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد. كان التجار الآشوريون يخشون العمل فى مناطق غير مستقرة، ففككوا مستعمراتهم التجارية وانسحبوا من الأناضول. ولا تتوفر لدينا معلومات عن النصف قرن الذى تلى ذلك، فمع رحيل المحطات التجارية الآشورية لم تعد توجد سجلات مكتوبة فى تلك المنطقة، أصبحت الدلائل الآثارية المنتمية إلى تلك الفترة نادرة إن لم تكن منعدمة. والبحث عن أدلة أو وثائق عن ذلك الزمن يماثل البحث عن أدلة لعصر مظلم مصغر.

إلا أن بداية القرن السابع عشر قبل الميلاد شهد بداية عهد جديد فى تاريخ الأناضول. فعلى مدى القرون الخمس التالية سيطر الحثينيون على الأناضول وهيمنوا عليه كليًا، وأصبحت تعرف باسم المملكة الحثينية. وقد أشرنا فيما سبق إلى العصر المبكر للمملكة تحت حكم المؤسس العظيم لابارنا، الذى كان سببًا في تحول المملكة إلى أكبر قوة في كل منطقة الأناضول. والمرجح جدًا أن حفيده قد تلاه مباشرة على عرش المملكة، وهو الملك حاتوسيلى الأول (1650-1620) ومن شبه المؤكد أن حاتوسيلى الأول

من أعاد إعمار مدينة حاتوسا، لاغيًا بذلك حكم الملك أنيتا على تلك المدينة ألا تقوم لها قائمة أبدًا، واتخذ منها عاصمة للمملكة ومقرًا لعرشه. ولم يكن ذلك إلا استهلالاً لعهده كملك، فبعد ذلك لم يكتف بمجرد منافسة جده فيما أنجزه، بل سعى إلى التفوق عليه. كانت أول خطوة له السعى لتعزيز نتائج غزوات جده لابارنا، وفى طريقه لإنجاز ذلك قضى على كثير من التمردات فى مناطق مختلفة من المملكة، وحين أنجز تلك المهمة بنجاح واتته فى لحظة تاريخية فكرة التوجه بالجيش إلى سوريا. ومهما كان السبب الخفى خلف توجهه بقواته إلى سوريا، إلا أنه اعتاد بعد ذلك الخروج بحملات عسكرية ضد سوريا، وفى واحدة من تلك الحملات الناجحة تمكن من العبور بقواته نهر الفرات، مدمرًا وغانمًا كل المدن التى كانت فى طريقه. وأدت تلك الحملات السورية إلى حتمية دخوله فى حروب ضد مملكة شمال سوريا القوية، وكانت تسمى مملكة يمحد، وشن حاتوسيلى عدة حروب على عاصمتها حلب، ولكن، بالرغم من أن الحروب المتكررة أنهكت قوى مملكة شمال سوريا، إلا أن ملك الحثينيين لم يتمكن أبدًا من اقتحام عاصمتها حلب. وحين وافته المنية، كانت حلب مازالت سليمة لم تمس.

وصلت إلينا أخبار حملات حاتوسيلى على سوريا من السجلات المكتوبة بالمسمارية على ألواح طينية، اكتشفت مدفونة فى موقع سجلات العاصمة الحثينية. وتوجد ألواح بذلك الأرشيف مسجلة بثمانى لغات، إلا أنه من الثابت أن اللغة الرسمية للحثينيين كانت اللغة الهندأوربية وهى ما كان الحثينيون يطلقون عليها اسم نيسيت، والاسم مشتق من اسم مدينة نيسا، التى كانت مقر عرش الملك أنيتا أثناء تواجد المراكز التجارية الآشورية بالأناضول. وقد يشير ذلك إلى بروز نفوذ المتحدثين باللغة النيسيتية الهند أوربية فى مجال الشئون السياسية والاجتماعية بالمملكة، خاصة فى السنوات المبكرة للمملكة. غير أننا لابد أن نسقط مفهوم أن ذلك يعنى بالضرورة أن من بدءوا المملكة الحثينية وشيدوها لابد أن يكونوا من

عـرق هند أوروبى خـالص تمكن من التـغلب على السكان المحليين من الحـثـيـنيـين. فـقـد كـان سكان منطقـة وسط الأناضـول، من بدايات الألف الثانى قبل الميلاد بما فيها أرض الحثينيين، مـختلطين تمامًا بما فيهم من الحثينيين وحوريين وكذلك الهند أوربيين.

لم يتـبين وجود أى حس عـرقى بين الحـثـينيين. كـانوا، مثل المصـريين، خليطًا من أصول عرقية متباينة. لم يكن لهم اسم خاص يميزهم كبشر أو عرق بشرى، لذلك أسمـوا شـعـوبهم بـاسم الأرض التى عـاشـوا عليـهـا، أى شعب الأرض الحثينية باستخدم اسم حثين قديم، كان مستعملاً من قرون، بل ألف عام من قبل قيام المملكة الحثينية. ولابد أن نعرف أن اسم حثين اسم حـديث نسـبـيًـا، أى ظهـر تحت تأثيـر (وهذا غـيـر دقيق بدرجـة مـا) الإشارة إلى الحثينين فى التوراة.

وتلى حـاتوسيلى على العرش حفيدة مورسيلى الأول (1620 -1590)، والذى اتبع بشكل حـرفى كل سلوكـيات جـده، فلم يسـع فقط إلى تحـقـيق إنجازات مساوية لما أحرزه جده، بل سـعى إلى التفوق عليه وبوسائل غير مسبوقة ومدوية. قاد قوات الحثينيين العسكرية من جديد صوب سوريا، وضـرب حصـارًا حول حلب حتى أسـقطها ودمرها، وكـان ذلك نهاية مملكة يمحد بشمال سوريا، ولم يُمض وقتًا طويلاً فى الاسـتمتاع بذلك النصـر. وكانت جمرات حلب المحترقـة مـازالت سـاخنة حين تحـرك بقواته شـرقًا باتجاه نهـر الفرات، ثم سار بمحـاذاة النهر مـتـجـهًا إلى بابل. وفى عمل سيظل مدويًا فى التقاليد الحثينية كأعظم إنجاز للإمبراطورية الحثينية الوليدة، اجتاح مورسيلى مدينة بابل كالإعصار، ونهب كنوزها ودمرها.

وبالرغم من ذلك الانتـصـار المدوى والمشـهود إلا أنه كان بلا قيمـة للملك الحثينى ولا للمملكة. وبعد أعوام من عودته إلى حـاتوسـا عـاصـمـة ملكه، اغتاله حـانتيلى شـقيق زوجتـه. وكان ذلك العمل العنيف بداية لسلسلة من الانحدار فى مسـتقبل المملكة. وكان لابد لحانتيلى أن يلقى نفس مـصـير ضـحـيتـه. وكـان ذلك بداية عـهـد جديد، لعب فـيـه التـآمر والاغـتـيـال الدور

الرئيسى فى تحديد شاغل كرسىِّ العرش ولمدى زمنى طويل. ففى حالة الضعف والانقسام الذى انحدرت إليه المملكة الحثينية، أصبحت صيداً سهلاً للحوريين الذين اخترقوا حدودها من الجنوب الشرقى، وراحوا ينهبون ويدمرون كل ما يصادفهم بحرية مطلقة كلما أرادوا ذلك، كذلك تمردت كل الجماعات المحلية داخل المملكة مستغلين حالة ضعف الحاكم وانشغاله بالصراعات الداخلية والمؤمرات، وخرجوا عن طاعة الملك ولم يبق من المملكة إلا الأرض المحيطة بالعاصمة. ولم يتوقف الأمر عند ذلك البلاء، بل حلت فوقه موجة طويلة من الجفاف دامت لأعوام طويلة، مما أوصل المملكة إلى شفا الانهيار.

وكان اعتلاء ملك يسمى تيليبينو (1525 -1500) بمثابة ثبات وهدوء نسبى للمملكة، وتم وضع قواعد جديدة تنظم وراثة العرش، وتم تكوين هيئات إشرافية وتنظيمية، لضمان تنفيذ تلك القواعد التى وضعها تيليبينو. كما نجح ذلك الملك فى استعادة بعض الأرض التى فقدتها المملكة. إلا أنه كان واقعياً، فقد كان يدرك أن استعادة السيطرة على كل الشعب ومناطقه عملية خطيرة وباهظة الثمن، وحالة المملكة الفعلية لا تتيح له ذلك، فسعى إلى تحقيق ذلك الهدف بطرق سلمية، فعقد معاهدة مع إزبوهتاشو، ملك منطقة كيزووادنا فى جنوب شرق الأناضول، والتى كانت خاضعة للمملكة الكبرى قبل ذلك. وتحول ذلك العمل السلمى الدبلوماسى بعد ذلك ليصبح أحد الأدوات الرئيسية فى تعاملات الحثينيين، بعد ذلك فى منطقة الشرق الأدنى القديم استعمل ملوك الحثينيين أسلوب المعاهدات؛ لتقنين روابطهم بالأمراء والملوك المحليين الخاضعين لهيمنتهم، ولتحديد حقوقهم وواجباتهم فى علاقتهم بعظماء ملوك القوى الكبرى فى عصرهم فى منطقة الشرق الأدنى.

نجح تيليبينو فى تحقيق بعض الاستقرار للعرش الحثينى وللمملكة على النطاق الأكبر. وظلت تقع بعض الانقلابات الداخلية الجديدة، بالرغم من قلتها مقارنة بما كان يحدث قبل حكم تيليبينو، وظل اهتمام وتأثير

الحثينين محصوراً فى منطقة شرق الأناضول على مدى القرن التالى بأجمعه. وتركت سوريا لهيمنة القوى العظمى فى ذلك العصر، وهما الميتانيون والمصريون. ولم تصل إلى عصرنا أية معلومات عن الحكام الستة الذين تلوا تيليبينوا على عرش الحثينيين، فالذى تلاه على العرش وهو تاهور وايلى كان دخيلاً على نظام وراثة العرش، واستولى على الحكم من زوج ابنة تيليبينو، الو وامنا أما آخر الستة المجهولين، ميوواتاللى الأول، فيبدو أنه أيضًا كان دخيلاً على وراثة العرش، ووصل إلى العرش عن طريق الاغتيالات، حتى تم اغتياله هو الآخر.

ويبدو أن مغتاليه اتفقوا على تتويج ملك جديد يدعى تود حاليا (حوالى 1400 ق.م)، وكان اعتلاؤه العرش بمثابة عهد جديد فى تاريخ الحثينيين، وتميز ذلك العهد الجديد بإعادة إحياء مشاريع الغزو العسكرى خارج الحدود الحثينية - باتجاه الغرب الأقصى للأناضول ومن جديد باتجاه سوريا. ونتيجة لذلك، تحول الحثينيون فى ذلك العهد الجديد ليصبحوا فى قمة ما استطاعوا تحقيقه. وأصبحوا فى القرنين الرابع والثالث عشر قبل الميلاد، أعظم قوة فى الشرق الأدنى القديم. ويمكن أن نشير إلى مملكة الحثينيين فى ذلكما القرنين باسم المملكة الحديثة، وأحيانًا يطلق عليها الإمبراطورية الحثينية التى استمرت على مدى قرنين (حوالى 1400 -1200ق.م)، تبوأت خلالها المملكة الوضع الذى هيأ لها اتصالات مكثفة وواسعة مع الممالك العظمى المعاصرة فى الشرق الأدنى القديم.

وعلى الرغم من ذلك تراوح مصير المملكة وتذبذب كثيراً بين مد وجزر، فانتصارات تود حاليا العسكرية فى سوريا وغرب الأناضول أعاد المملكة إلى تبوتبوء وضعها وسمعتها كقوة عظمى فى المنطقة، إلا أن للتركيب البنائى للمملكة ظل هشًا وغير محكم البناء. ففى عهد أرنوواندا الذى تلاه فى الحكم بعد أن كان وليًا للعهد، كانت الأزمات تنشب فى مواضع

متباينة من المملكة. فوق ذلك، كان تحالف المصريين والميتانيين يهدد بقوة أية استعادة لنفوذ الحثينيين على سوريا، وهو النفوذ الذى استعادوه بعد الغزوات التى قام بها تود حاليا على سوريا.

ووصل الموقف إلى حالة خطيرة من التدهور في عهد تودحاليا الثالث (1375? -1350)، والذى كان له من سوء حظه أن يشهد غزو مملكته فى عصره من جميع الاتجاهات، من قبائل مجموعات كثيرة متباينة من قوى الأعداء الذين أطلق عليهم بوجه عام الغزوات المحلية أو الداخلية. وتم اختراق قلب البلاد، واضطر تود حاليا الثالث إلى الفرار إلى مدينة تسمى ساموحا على الحدود الشرقية للبلاد، حيث كوَّن بها بلاط المنفى. أما العاصمة فقد احتلت واجتاحتها القوى الغازية. فى تلك الأيام المظلمة من بدايات القرن الرابع عشر حتى منتصفه، وصل تاريخ الحثينيين تقريبًا إلى نهايته.

وبالرغم من اعتلال صحته وإصابته بكثير من الأمراض، قاد تود حاليا حروبًا متصلة، ليحرر عاصمته ويعود إلى عرشه. وبعد إصرار ودأب، نجح فى استعادة المملكة، وطرد قوى الأعداء، وطارد بعضهم حتى أعادهم إلى الأماكن التى قدموا منها، ثم دمر بلادهم وأنزل بهم هزيمة ساحقة. وربما يعود أغلب النجاح الذى حققه فى استعادة بلاده إلى المهارات العسكرية البارزة والمتميزة، التى كان يتمتع بها ابنه وقائد جيوشه سبيللوليوما، والذى اعتلى العرش من بعده (1350 -1322).

كان سبيللو ليوما بالفعل هو مهندس العمليات العسكرية الناجحة التى مكنت أباه من استعادة المملكة واسترداد عاصمته وعرشه، وبحمله عسكرية قادها ببراعة مشهودة على سوريا، قرر أن يغزو الميتانيين فى عقر دارهم، فعبر الفرات، وتمكن من غزو عاصمتهم واشو جنى، ثم استدار وغزا كل الممالك الصغرى السورية التى كانت خاضعة للميتانيين. وبذلك ضعفت قوة الميتانيين الدولية ووصلت إلى نهايتها، إلا أن اثنى عشر عامًا أخرى مرت قبل أن تسقط قرقميش، آخر مدينة حصينة للميتانيين فى

قبضة الحثيين.

وفيما يخص غرب الأناضول، راح سبيللوليوما يرسل البعثات العسكرية إلى داخل أرض أرزاوا. واستقرت قبضة الحثيين على منطقة غرب الأناضول فى عهد مورسيلى الثانى (1321 -1295) ابن سبيللوليوما، الذى قاد فى عامين متتالين حملتين عسكريتين فى العامين الثالث والرابع من حكمه. وأدت تلك الحملة الطويلة إلى إنهاء تمرد، وتفريغ المنطقة من سكانها، بعد أن كانت أشد المناطق تمردًا أو عصيانًا واستعصاءً على الترويض من بين جميع أنحاء مملكة أرزاوا، وإلى فرض الهيمنة على باقى الممالك المحلية الصغرى فى غرب الأناضول. وجاء من بعد مورسيلى الثانى ابنه ميوا تاللى الثانى (1295 -1272) ليعزز تثبيت سيطرتهم على غرب الأناضول بمزيد من إجراءات تشديد القبضة عليها، قبل أن يركز انتباهه على التهديد الذى بدأ يلوح من أقصى الجنوب من الفرعون رمسيس الثانى، والتقى الجيشان على نهر العاصى. وكما ذكرنا قبل ذلك، انتهى اليوم الأول من الصدام دون إحراز نصر حاسم لأى طرف، إلا أن الحثيين يعدون منتصرين على المدى البعيد، طبقًا لما ترتب على تلك المعركة من نتائج وانحسار النفوذ المصرى عن أغلب سوريا وانتقاله إلى الحثيين كنتيجة مترتبة على تلك المعركة.

وتلى ميواتاللى على العرش ابنه أورحى- تيشوب (1272 -1267)، الذى حظى فى بداية حكمه بدعم وتأييد عمه (أو هكذا بدا الأمر) حاتوسيلى، إلا أن خلافًا نشب بينهما، وحين حاول أورحى- تيشوبى أن يعزل عمه عن كل مناصبه الهامة، سارع عمه إلى حمل السلاح وجمع الأتباع، وهزمه واستولى على عرشه وأبعده إلى سوريا. وهكذا، بدأ عهد حكم حاتوسيلى الثالث (1267 -1237). وأصر أورحى- تيشوب على استعادة عرشه. وبعد محاولات كثيرة فاشلة لاكتساب دعمًا أجنبيًا خارجيًا يعينه على عمه، فر من مكان منفاه، ولجأ لبعض الوقت إلى بلاط رمسيس الثانى فرعون مصر، وترتب على ذلك توتر شديد فى العلاقات بين

الحثيين والمصريين، بعد أن كانت العلاقات قد أصبحت ودية بعد معركة قادش. أما رمسيس الثانى فقد أعلن اعترافه الكامل والواضح بحاتوسيلى الثالث كملك شرعي للحثيين، إلا أنه رد على مطالب حاتوسيلى الثالث المتكررة بطرد أورحى يتشوب من مصر، بأن أورحى يتشوب غير موجود بمصر أو لم يعد موجوداً بها على الإطلاق.

وفيما عدا ذلك الاستثناء، ظلت العلاقة بين البلاط الملكى الحثيني وبلاط رمسيس الثانى فى مصر تتسم بالود والحرارة، بعد إبرامهما معاهدة السلام الشهيرة (1258) والتى أنهت كل العداوات السابقة بين المملكتين، وتوثقت العلاقات بين المملكتين بالمصاهرات التحالفية، أى عن طريق الزواج.

وخلف حاتوسيلى بعد موته ابنه توداليا الرابع (1237 -1209). ومن جديد، يرث ملك حثينى جديد تلالاً من المشاكل التى كانت خليطاً من مشاكل الداخل وصراعاته، ومشاكل الخارج من أعداء متربصين. وكانت أهم المشاكل الخارجية التى واجهت توداليا الرابع نهوض الآشوريين من جديد وتنامى قوتهم باضطراد، كانت قوتهم تتزايد ونفوذهم يتمدد فى شرق نهر الفرات، وكانت قوتهم المهددة لجيرانهم قد بدأت فى النمو، بعد الدمار الذى حاق بالميتانيين. وفى محاولة منه لكبح جماح تلك القوة الصاعدة المهددة، جمع توداليا الجيوش وبدأ صراعه مع الملك الآشورى المعاصر له وهو توكولتى نينورتا الأول وحاقت بقوات توداليا هزيمة ساحقة مدوية على أيدى الملك الآشورى فى معركة نيهريا. وربما لم يكن قد انقضى إلا زمن قصير، حين واجه كارثة أخرى من الداخل على شكل انقلاب داخلى، أدى إلى فقدانه للعرش لبعض الزمن، بعد أن استولى عليه ابن عمه كورونتا. إلا أنه تمكن من استعادة العرش بعد ذلك، وبدأ فى مواجهة الاضطرابات الأمنية والتمرد الذى انتشر فى أرجاء مختلفة من مملكته.

إلا أن النهاية كانت قد باتت وشيكة، فآخر ملك حثينى معروف كان ابن توداليا، وهو سبيللوليوما الثانى (أو سبيللولياما) (1207)، والذى قام بتسجيل أنباء بعض المعارك التى خاضها ضد أعدائه، بما فيها معركة

بحرية أمام سواحل قبرص. وبالرغم من تمكنه من إحراز بعض النجاحات العسكرية، إلا أن مملكته وعصره وصلا إلى نهاية مفاجئة، وحلت تلك النهاية خلال أعوام قليلة من اعتلائه العرش. أما أسباب ذلك الانهيار النهائى فى البدايات المبكرة للقرن الثانى عشر قبل الميلاد، فمازالت قيد البحث والتنقيب وموضع جدل ونقاش. إلا أن الثابت الذى لاشك فيه أن حاتوسا العاصمة حاق بها دمار شامل، وما لبث أن اختفت من الوجود ولم تعد بها حياة. وبسقوطها، كانت نهاية مملكة الحثيين التى انتمت إلى العصر البرونزى.

مملكة الميتانيين (29)

خلال القرون الأخيرة من الألف الثالثة قبل الميلاد، ظهرت أول تسجيلات تتحدث عن مجموعات سكانية متباينة، عرفوا باسم الحوريين فى الشرق الأدنى القديم. أما موطنهم الأصلى الذى قدموا منه فغير معروف على وجه اليقين حتى الآن. ويميل بعض الباحثين إلى أنهم قدموا من منطقة كورا– أراكسيز عبر القوقاز، بينما يميل باحثون آخرون إلى ترجيح أن أصلهم من منطقة شرق الأناضول. إلا أنه مهما كان الموطن الأصلى الذى قدموا منه، فقد اندمجوا معًا اندماجًا تامًا– سياسيًا، وعسكريًا وثقافيًا– فى تلك المنطقة التي استقروا بها، أو فى خارجها مع الشعوب التى احتكوا بها وعاركوها. كانوا مجموعة من الشعوب العدوانية الميالة للتوسع عن طريق الحرب، ودل على وجودهم وانتشارهم انتشار الأسماء الحورية والمكونات الثقافية الخاصة بهم فى شمال منطقة ما بين النهرين، وشمال سوريا وشرق منطقة الأناضول. ومن الثابت، أنه حتى بعد أن تلاشت قوة الحوريين السياسية بزمن طويل، ظلت المكونات الثقافية للحوريين مؤثرة وسائدة فى المناطق التى تمكنوا يومًا من اختراقها والسيطرة عليها.

ومن الثابت لدينا الآن وجود الدولة الحورانية من القرن الثالث

والعشرين قبل الميلاد، من التسجيلات التى تظهر اشتباكهم مع الدولة الأكـادية فى حـروب قـادها نارام- سن (2254 -2218)، إلا أن الدولة الأكادية كانت قصيرة العمر، ووصلت الإمبراطورية الأكادية إلى نهايتها المفاجئة بعد ذلك بعدة عقود (2193). وبسبب الفراغ السياسى الذى ترتب على سقوط الإمبراطورية الأكادية، احتلت الشعوب المتحدثة اللغة الحورية أجزاءً من شمال ما بين النهرين وشرقها، وأسسوا دويلات فى تلك المنطقة. وظلوا على مدى قرن أو نحو ذلك بمنأى عن أى خطر خارجى أو تدخل أجنبى فى شئونهم، حتى عهد أسرة أور الثالث. ويبدو أن مؤسس تلك الأسرة الحاكمة أور- نامو (2112 -2095) بدأ فى الهجوم على تلك الدويلات الحورية، إلا أن الموقف تحول بعد تولى خليفة أور- نامو وهو القائد العسكرى شولچىَ (2094 -2047)، فبعد معارك كثيرة مظفرة فى شمال وشرق مملكته، تمكن شولچى من الانتصار على كل تلك الدويلات الحورية، وأخذ أعدادًا عظيمة من سكانها كأسرى حرب.

وفى القرون التى تلت تلاشى وزوال أسرة أور الثالث (حوالى 2000 ق.م)، أصبحت المعلومات المتوفرة عن الحوريين شذرات بسيطة ونادرة. إلا أنه بحلول نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد توحدت كثير من الولايات الصغرى، والتى كان الحوريون يشكلون أغلبيتها السكانية فى دولة واحدة أكبر، أصبح أسمها مملكة الميتانيين. أما سبب ذلك الاتحاد أو من كان خلفه فما زال سؤالا مفتوحًا يبحث عن إجابة. بعض الباحثين عزى ذلك الاتحاد إلى أسرة هند- آرية، أو هند- إيرانية حاكمة دخيلة على تلك الدويلات، وتوصلوا إلى ذلك الاستنتاج بسبب ظهور أسماء هند- إيرانية للحكام والملوك الميتانيين، وكذلك ظهور أسماء آلهة هند- إيرانية بين مجمع الآلهة الميتانية. وبالطبع لا تبدو فكرة دخول طبقة غريبة حاكمة تفرض هيمنتها وسيطرتها على مجتمعات قائمة قبل وصولهم، ليست غريبة بأى حال وليست نادرة، بل هناك أمثلة غيرها، مثل القسيطيون

الذين حكموا بابل وكانوا من خارجها، وكذلك النورماندين الذين حكموا إنجلترا. وهناك حالات أخرى مازالت قيد البحث والدراسة. ولقد أشرنا قبل ذلك إلى الافتراض شبه المؤكد والمتفق عليه من أن المملكة الحثينية قد تكونت بفضل أسرة هند أوروبية، حاكمة دخيلة على الشعوب التى كانت تقطن منطقة وسط الأناضول. وفى حالة الميتانيين، فإن نظرية النخبة الهند- إيرانية الحاكمة الدخيلة أصبحت مؤخرًا غير مؤكدة، وأقل احتمالاً عن ذى قبل، بعد ظهور أسباب جديدة تتناقض معها (30). أما ظهور أسماء هند- إيرانية للملوك وآلهة فى قمة المجتمع الميتانى، فهو إشكالية تحتاج إلى مزيد من البحث.

ومن العجيب أن تلك الحضارة - التى كان لها ذلك التأثير الثقافى العميق الذى ترك بصماته المميزة على عالم الشرق الأدنى القديم - لم يصل عنها إلا تسجيلات نادرة ونصوص قليلة. بل إن المواقع الحقيقية لعاصمتى الميتانيين، وهما واشوجانى وتايد، غير معروفة حتى الآن. وكل ما يمكن تخمينه عن تلكما العاصمتين أنهما كانتا إما فى شمال ما بين النهرين أو فى شمال سوريا، وهو أقرب ما يمكن التوصل إليه من تخمينات(31). ومن جهة أخرى، فإن الإشارات النصية إلى المملكة المذكورة فى نصوص الممالك الأخرى المعاصرة للميتانيين، والتى تذكر مملكة الميتانيين باسم الحوريين، أو الميتانية أو هانيجالبات، أما المصريون والكنعانيون فقد كانوا يطلقون عليها الاسم السامى العربى وهو نهارينا أو نهاريما. أما اسم ماتيانى والذى تحول بعد ذلك إلى ميتانِّى (أو ميتانِّى) كان يستخدم من قبل المواطنين الميتانيين أنفسهم، فقد تم التيقن منه من خلال جزء من نص منقوش، يحتمل أن تاريخه يرجع إلى عصر الفرعون تحتمس الأول(32).

وبمجرد اكتمال تكون المملكة الميتانية، بسطت نفوذها بسرعة على شمال مابين النهرين وعلى شمال سوريا حتى شرق الأناضول، ودعم الامتداد العسكرى ترسيخ الميتانيين لوجودهم وهيمنتهم على دويلات

شمال سوريا، التى أصبحت ولايات محلية منضمة تحت سيطرة الميتانيين، أى ولايات محلية تابعة للإمبراطورية الغنية سريعة النمو، إلا أن التطلعات الإمبريالية الميتانية التوسعية لم تصل أبدًا إلى درجة التشبع. كانت هناك تطلعات إلى مغانم أعظم تقع خلف جبال توروس وما يقابلها من أراضى. وفى جنوب شرق الأناضول، كان الميتانيون قد قهروا مملكة كيزو وادنا وسيطروا عليها، ويحتمل أن ذلك قد وقع بدون حرب، عن طريق الضغوط الدبلوماسية أكثر منه بالقوة العسكرية (انظر ما يلى). ولم تكن إلا مسألة وقت، بل وقت قصير، حتى أصبحت القوات العسكرية الميتانية تشكل خطرًا ماحقًا على الإمبراطورية الحثينية فى وسط وغرب الأناضول، ولم يكن التهديد للحدود الحثينية فقط، بل على قلب الإمبراطورية الحثينية فى عقر دارها. واستغرق ذلك الصراع المرير بضعة عقود من الأعوام بين الحثينيين والميتانيين، للهيمنة على المناطق التى راح كل طرف يدعى أنها تخصه مباشرة أو تخص حلفاء له، ولم تتيسر أية حلول بالطرق الودية السلمية التفاوضية. ولم يعد هناك أى أمل لإنهاء الصراع إلا بالدمار الكامل النهائى لأحد طرفيه.

وهناك إشارات عديدة فى التسجيلات الحثينية المبكرة إلى العداء المزمن بين الحثينيين والحوريين. ويذكر نص قديم منقوش أن حاتوسيلى الأول وهو أحد عظماء ملوك الحثينيين اضطر إلى العودة من حملة عسكرية كان قد بدأها على منطقة أرزاوان بسبب بدء الحوريين فى غزو بلاده. وهو الغزو الذى نجم عنه اشتعال التمرد والانشقاق فى البلاد التى كانت تحت سيطرة الحثينيين. ويحتمل أن ذلك الهجوم كان ردًا انتقاميًا على هجوم حاتوسيلى قبل ذلك على بلاد خاضعة لهيمنة الحوريين (مثل أورسو، التى كانت هدفًا للحثينيين، وحاصروها حصارًا فاشلاً) خلال حملته على مناطق شمال سوريا. واشتعلت العداوة من جديد فى عهد مورسيلى الذى خلف حاتوسيلى على عرش الحثينيين، وقام الحوريون بمهاجمته، وهو عائد من حملته العسكرية التى ضرب فيها مدينة بابل.

واشتعل الصراع مرة أخرى فى عهد قاتل مورسيلى والمستولى على عرشه حانتيلى الأول، فقد قام الحوريون بغزو أرض الحثيين، فراحوا يعيثون فيها فسادًا ويجمعون غنائمها. وواجههم حانتيلى وتمكن من إخراجهم من بلاده، إلا أنه لم يتمكن من استرجاع زوجه حاراتسيلى وولديه، الذين وقعوا فى أسر الحوريين.

وسبق أن عرفنا بظهور مملكة كيزوادانا فى المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية الفائقة جنوب شرق الأناضول، وكانت قبل ذلك من المناطق الخاضعة للحثيين، ويحتمل أن ظهور مملكة كيزوادانا المستقلة عن الحثيين قد قامت ونشأت بدعم من الحوريين، الذين حلوا بعد ذلك فى تلك المنطقة بأعداد كبيرة. ثم نشأ تحالف بين إيدريمى، وهو حاكم محلى خاضع لنفوذ باراتارنا ملك الميتانيين وبيليا حاكم كيزوادانا، مما زاد من حدة اختراق الحوريين للأناضول عبر حدودها الجنوبية الشرقية، مما ضاعف من التهديد الحورى، أو بوجه أدق التهديد الميتانى للحثيين، ولم يكن التهديد لأمن وسلامة البلاد والمناطق الشرقية الخاضعة للحثيين فقط، بل كان التهديد موجهًا ضد قلب بلاد الحثيين ذاتها، والتى ظهر من قبل أنها كانت معرضة بسهولة للهجوم من قبل عدو شديد التصميم على ذلك، ويتميز بقدر كبيرمن العدوانية.

إلا أن هناك خصمًا آخر كان على الميتانيين مواجهته. فقد شكلت الحملات العسكرية الناجحة على شمال سوريا، التى قادها الفرعون المصرى تحتمس الأول، تحديًا مباشرًا للإمبراطورية الميتانية النامية. إلا أن فشل خلفاء الفرعون المباشرين - وهما تحتمس الثانى وحتشبسوت فى انتهاج نهج تحتمس الأول، فى دعم الحملات العسكرية وترسيخ وتأمين المناطق التى غزاها فى شمال سوريا - أتاح الفرصة للميتانيين للتحرك بحرية لاستكمال هيمنتهم على شمال سوريا وشرق الأناضول.

وبتجدد النشاط العسكرى المصرى على شمال سوريا فى عهد تحتمس الثالث، تعرضت المناطق التى خضعت للهيمنة الميتانية مرة أخرى للتهديد.

ولا يوجد أى شك فى أن الحثينيين والآشوريين والبابليين رأوا فى تحتمس الثالث محرراً لهم من الطغيان الميتانى، وسارعوا جميعًا إلى توثيق أواصر العلاقات معه، بل إنهم بدءوا فى إرسال الهدايا والجزية له. إلا أن غزواته كانت مثل غزوات تحتمس الأول بلا أثر دائم فى إرساء وترسيخ النفوذ المصرى فى شمال سوريا. فقد ثبت أن هناك تحديات خطيرة تواجهه وتواجه نفوذه الشخصى فى المناطق التى غزاها، من خلال حملته السابعة عشرة والأخيرة، والتى كان دافعه إليها القضاء على التمرد فى مدينة تونيب بوسط سوريا وقادش بشمالها الشرقى. وفى بلاد الميتانيين كان الملك شوشراتار القوى قد استوى على العرش (حوالى 1420-1430ق.م) ويحتمل جداً أن التمرد السورى ضد نفوذ مصر كان يحظى بدعمه. وتحت قيادة شوشراتار القوى النشط كان الميتانيون فى سبيلهم للوصول إلى ذرى القوة والهيمنة فى عالم الشرق الأدنى القديم.

وبعد أن تحرر شوشراتار من الخوف من أى تدخل مصرى جديد فى برامجه التوسعية، بدأ بغزو آشور، فاجتاح عاصمتها آشور وحصد كل ما توصل إليه من غنائم. ثم استكمل حملته غربًا عبر نهر الفرات، فأخضع كل ممالك شمال سوريا، حتى وصل بقواته إلى ساحل البحر المتوسط، وربما كان يتطلع إلى مد نفوذه إلى الجنوب حتى فلسطين، إلا أن أغلب مناطق جنوب سوريا كانت مازالت تحت النفوذ والهيمنة المصرية. كان شوشراتار بلا أدنى شك منجذبًا إلى طموحات إخضاع كل المنطقة، بما فيها منطقة فلسطين، التى كانت توجد بها جاليات حورية كبيرة، إلا أن أى تحرك بذلك الاتجاه كان لابد أن يخضع لحسابات دقيقة، تأخذ فى اعتبارها قبل أى شىء حتمية الصدام المباشر مع مصر، حيث كانت كل مناطق جنوب سوريا وفلسطين تحت الهيمنة المصرية المباشرة فى عهد خلفاء تحتمس الثالث. كانت آفاق النجاحات العسكرية الأولية للميتانيين ضد العسكرية المصرية فى شمال سوريا جيدة للغاية، إلا أن المخاطر

بعيدة المدى كانت مما لا يمكن تجنبه.

لم تواجه شوشراتار موانع جمة أو خطيرة فى توسعه السريع فى شمال سوريا، ولم يشكل الآشوريون ولا القسيطيون البابليون أى خطر يذكر على توسعاته غرب الفرات. كانت المملكة الوحيدة التى يمكن أن تشكل خطراً عليه هى مملكة الحثينيين. إلا أن المملكة الحثينية لم تكن حتى ذلك الوقت قد استعادت مكانتها كقوة دولية عظمى. كانت بالكاد قد تمكنت فى ذلك الوقت من استعادة هيمنتها على كثير من مناطق الأناضول، التى فقدتها فى فترة الاضطرابات التى تلت اغتيال ملكها مورسيلى، إلا أنها كانت لا تزال تفتقد القدرة على استعادة قدرتها العسكرية على الغزو، والتى مكنت ملوكها الأوائل من غزو المناطق السورية. إلا أن الحثينيين اثبتوا أنهم يتمتعون بالقدرة على استعادة قوتهم فى مواجهة عدوان خارجى. لم تكن إلا مسألة وقت حتى عادت بهمة جديدة لإعادة تأسيس وجودها ونفوذها فى شمال سوريا، وكان ذلك يعنى حتمية الصراع مع الميتانيين. ولو كان الميتانيون فى ذلك الوقت مشتبكين فى صراع ضد مصر، لكانوا قد وقعوا بين عدوين قويين وقادرين، فبمجرد أن وجَّه الحثينيون اهتمامهم لاستعادة نفوذهم فى شمال سوريا، تخلى الميتانيون عن تطلعاتهم فى الجنوب.

كل تلك الاعتبارات شغلت الملك الميتانى ارتاتاما الأول، خليفة وربما ابن شوشراتار، مما دفعه إلى السعى إلى التفاوض مع فرعون مصر أمونحتب الثانى للتحالف معه، ومن الواضح أن التوصل إلى تحقيق مثل ذلك التحالف، كان لابد أن يسبقه الاتفاق بين المملكتين على حدود مناطق النفوذ التى تخص كلاً منهما. كان ذلك يعنى للميتانيين تخليهم عن تطلعاتهم إلى بسط نفوذهم على جنوب سوريا. وكانت مصر تضمن بذلك سيادة بلا تحديات تذكر على تلك المناطق، بينما تتخلى مصر للميتانيين عن كل المناطق التى كان قد غزاها كلٌ من: تحتمس الأول وتحتمس الثالث قبل ذلك فى شمال سوريا. ومن الواضح أنه كان هناك عدد من النقاط

الشــائكة فـى المفـاوضــات، قـدَّم المصــريون عـروضًــا وشــروطًا بديلة بخـصوصـهـا لتلك التى قدمـها الميـتـانيـون. ولا يوجـد أى شك فى أن كل المفـاوضـات قد بطنتـهـا الشكوك المتـبـادلة وعدم ثقـة كل طرف فـى نوايا الآخر، واسـتـمـر الحـال على ذلك حتى اعتلـى تحـتمس الرابـع عرش مـصـر وتم التـصـديق علـى الاتفـاق مـع ارتاتامـا ملك الميـتـانيين، وتوجـوا الاتفـاق بزواج تحالف(33). وبموجب ذلك الاتفـاق رسـمت حـدود مناطق النفوذ بين المملكتين، بسـيطرة مـصـر علـى المناطق التى تقع شـمـال مـصـر حتى قـادش علـى نهر العاصى، ومنطقة العموريين حتى مدينة أوجاريت علـى سـاحل البحر المتوسط، بينما تخضع كل المناطق التى تلى ذلك إلى نفوذ وهيمنة الميتانيين.

مكنت تلك المعـاهدة أرتاتامـا ملك الميـتـانيين من إحكام قـبـضـتـه على شمال سوريا، مع احتمالات ضئيلة بوجود مخاطر من الحثيين، فقد كان الحثيون مشغولين تمامًا بتأمين بلدهم ذاتها من مخاطر غزوهم فى عقر دارهم، فكما ذكرنا من قبل، تصاعد التهديد حتى تحول إلى غزو وانشقاق داخلى فى عهد تودحاليا الثالث الحثينى. ووفر ذلك للميتانيين حرية الحركة فى شـمـال سوريا وبسط نفـوذهم عليـهـا فـى تلك المرحلة. إلا أن اسـتـعـادة الحثيين لقواهم فى عهد ابن تودحاليا وخليفته سبيللوليوما أعاد انعاش العداوة التاريخية بين الحثيين والميتانيين. كان التطلع إلى بسط النفوذ من الجـانبين علـى المناطق ذاتـهـا تقـضـى علـى أى احـتـمـال للتـوصل إلى تسوية سلمية، مثل تلك التى أمكن التوصل إليها بين الميتانيين والمصريين. أصبح الحثيون والميتانيون فى مرحلة الصدام النهائى المدمر.

ولسوء حظ الميتانيين- عدا مواجهتهم لواحد من أشد ملوك الحثيين عزمًا وضـراوة- دخلت الصفوة الحاكمة للميتانيين فى نزاعات وانشقاقات خطيـرة بين تكتـلات الأسـرة الحـاكـمـة فـى صـراع على السلطة، وخلف ارتاتامـا على عرش الميـتـانيين ابنه شوتارنا الثانى، الذى وسَّع من مناطق نفوذ الميتانيين حتى أقصى منطقة فى الشمـال تسمى ايسووا. إلا أنه بعد فـتـرة قـصـيـرة من مـوته واعـتـلاء ابنه ارتاشـومـارا العـرش تعـرض ابنه

للاغتيال، مما مهد السبيل لاعتلاء شقيقه الأصغر توشراتا العرش، إلا أنه كان هناك مطالب آخر بالعرش، ارتاتاما آخر كان يحظى بدعم وتأييد الشعب الميتانى، وبالفعل أعلن نفسه ملكًا.

ورأى سبلليوليوما ملك الحثينيين أن تلك الظروف مواتية، ولابد له من استغلالها، كان قد لقى قبل ذلك هزيمة عسكرية على يدى توشراتا، مما يعنى أنه كان يواجه عدوًا قويًا، وأن النجاح فى مواجهة الميتانيين يتطلب نشاطًا دبلوماسيًا سلميًا، كما يتطلب تحقيق نجاح فى ساحة الحرب. وبذلك بدأ التفاوض مع أرتاتاما. وبموجب اتفاقهما (الذى لا أثر له حتى الآن)، يعترف سبيللوليوما ملك الحثينيين بأرتاتاما كملك شرعى عظيم للميتانيين، ويقدم له الدعم اللازم، حتى يتمكن من الانفراد بعرش الميتانيين بعد هزيمة توشراتا. ومن غير المعروف ما هو نوع الدعم أو الوعود التى وعد أرتاتاما سبيللوليوما بتحقيقها له فى المقابل، ولا الإنجازات أو المكاسب التى يمكن أن يحققها الحثينيون من وراء ذلك الاتفاق للوصول إلى نصر محقق، إلا أن الحملة العسكرية الناجحة والتى استمرت عامًا كاملاً وقادها سبيللوليوما على شمال سوريا مهدت الطريق لتحقيق انتصاره النهائى، بالرغم من تمكن توشراتا من الفرار حين بدء سبيللوليوما فى التوجه إلى عاصمة الميتانيين الملكية، وكلف التدمير النهائى للميتانيين الحثينيين اثنى عشر عامًا أخرى من المعارك. وحلت نهاية الميتانيين بغزو الحثينيين لقرقميش، آخر معقل حصين للميتانيين، وباغتيال توشراتا على يد أحد أبنائه.

وترك الدمار النهائى للإمبراطورية الميتانية فراغًا سياسيًا فى شرق الفرات، سارع الآشوريون الذين كانوا خاضعين للميتانيين لمئة بقيادة ملكهم أشور أوباليت. وتدفقت القوات الآشورية وقوات مملكة آلش واجتاحوا ما تبقى من المملكة الميتانية، واقتسموا منطقة الشمال فيما بينهم. وكان ذلك سببًا لانزعاج سبيللوليوما، لما قد يترتب على انتصاره على الميتانيين وقضائه عليهم قضاءً نهائيًا. فبتدميره أحد أعداء الحثينيين،

إنما أتاح الفرصة الملائمة لنمو وظهور عدو جديد، والذى سيثبت على مدى زمنى قصير أنه لا يقل خطورة. وربما ورد إلى ذهن سبيللوليوما بعض الاحتمالات عن الأخطار المتوقعة على مصالح الحثيين خاصة فى سوريا إذا استعاد الآشوريون قوتهم القديمة.

واتته فكرة أنه بالإمكان تجنب ذلك الخطر بصنع ملك ميتانى جديد تحت هيمنتهم ويجلسوه على عرش ما تبقى من بلاد الميتانيين، ليتكفل بتحجيم القوة الآشورية الناهضة، وعقد معاهدة مع أرتاتاما لدعمه للوصول إلى العرش هو أو خليفته، بمجرد إقصاء توشراتا عن العرش. إلا أن ارتاتاما وولده شوتارنا الثالث أظهرا بعد ذلك ميلاً غريبًا للآشوريين. فقد دعموا القوات الآشورية فى اجتياحهم وتدميرهم للعاصمة الميتانية واشوجانى ومدن ميتانية أخرى، بعد انتصار الحثيين على الميتانيين، ثم راحوا يرسلون إلى الملك الآشورى بالهدايا الثمينة، بما فيها الغنائم الثمينة، والتى كان سلفهم شوشتاتار الأول قد غنمها من الآشوريين من ستين عامًا سابقة. آخر ما كان يقبله سبيللوليوما أو يريده سبيللوليوما هو وجود حاكم أو ملك موال للآشوريين على العرش، الذى أقصوا توشراتا عنه. ولو سقط ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية فى أيدى الآشوريين أو فى نطاق نفوذهم، فإن المناطق الخاضعة للحثيين فى غرب الفرات، خاصة مدينة قرقميش ومنطقتها، والتى أصبحت مملكة تابعة للحثيين، ستصبح معرضة لخطر دائم وتهديد مستمر من الآشوريين، لذلك ارتد سبيللوليوما عن الاتفاق الذى توصل إليه مع أبى شوتارنا. بدلاً من ذلك، عاد إلى دعم ابن توشراتا. ويبدو أن كيلى- تيشوب بن توشراتا كان هو المسئول عن مصرع أبيه، وهرب بعدها إلى بابل. إلا أن البابليين رفضوا منحه حق اللجوء إليها، فاضطر إلى الرجوع إلى الشمال، ولجأ إلى عدو أبيه سبيللوليوما، وبعد أن تأكد سبيللوليوما، من ولاء كيلى- تيشوب، زوَّجه من إحدى بناته، ثم بعث به إلى قرقميش للإعداد لغزوة مشتركة عبر الفرات مع الأمير الحثينى شارى- كوشوه، الملك المعين على قرقميش. ولم

تلق تلك الغزوة إلا مقاومة ضئيلة. وتم تنتصيب كيلي- تيشوب، الذى ارتبط عن طريق الزواج بالحثينيين ملكًا على ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية تحت الهيمنة الحثينية، واكتسب اسم شانيواذا. وكما يمكن أن نتوقع، أدى ذلك الانقلاب والتحول من سبيللوليوما باحتجاجات شديدة من شوتارنا، الذى اتهم سبيللوليوما بخرق الاتفاق والمعاهدة التى عقدها من قبل مع أبيه آرتاتاما. فطبقًا لذلك الاتفاق، توقع شوتارنا الدعم الكامل من سبيللوليوما حتى يتمكن من اعتلاء عرش الميتانيين وكان محقًا فى ذلك. وبدلاً من ذلك دعم سبيللوليوما بن توشراتا عدوهما المشترك السابق. إلا أن الحق لم يكن فى جانب شوتارنا، فقد ادعى سبيللوليوما أن تعاون شوتارنا مع الآشوريين وميله إليهم يعد خرقًا من جانبه، للاتفاق المعقود مع أبيه، ويجعله باطلاً. وبغض النظر عن تلك الحجة، لم يكن سبيللوليوما من ذلك الصنف الذى يلتزم بمعاهدة أو دواعى الشرف، أو الإخلاص، أو التعامل بعدل يقف حائلاً فى طريق تحقيقه لأهدافه.

ولم تعد الإمبراطورية الميتانية التى انهارت تصنف فى مصاف القوى العظمى، وحلت محلها قوة الآشوريين التى راحت تتنامى بعد انهيارهم.

وكان نمو القوة الآشورية من جديد من النواتج الثانوية المترتبة على نجاح سبيلوليوما فى تدمير الإمبراطورية الميتانية. أما بقايا الإمبراطورية المنهارة والذى أصبح يشار إليه باسم مملكة هانيجالبات، فقد راحت تسقط بمرور الزمن تحت الهيمنة الآشورية المطلقة، وخلال حكم خليفة شاتيوازا وهو شاتيوارا الأول تضاءلت مملكة هانيجالبات، حتى أصبحت إمارة تابعة للآشوريين، وراحت علاقتها تتذبذب مع الآشوريين بحلول نهاية العصر البرونزى، بدءاً من التمرد الذى قاده ابن شاتيوارا وخليفته وازاشاتا، ولم تعد بتمتع بأى دعم، أو على الأقل أى عون يعتد به من الحثينيين فى محاولتها لتأكيد استقلالها عن الآشوريين وهيمنتهم. وتخلَّى الملوك الحثينيون المتأخرون عن أى ادعاء بحقوق لهم على الحكم على ما تبقى، مما كانت فى يوم ما الإمبراطورية الميتانية العظمى.

2

التفاعلات المتبادلة بين القوى:
الإدارة الإمبريالية والعلاقات الدولية



إدارة البلاد الخاضعة

فى كل لحظة على وجه التقريب خلال العصر البرونزى المتأخر، خضعت مناطق بدءًا بالأناضول، مروراً ببلاد ما بين النهرين، وسوريا، وفلسطين، حتى مصر، إلى هيمنة واحدة أو أكثر من الممالك العظمى، كما كانت هناك كثير من أوجه الشبه فى الوسائل التى استخدمها كبار الملوك، لفرض سيطرتهم وهيمنتهم على البلاد الخاضعة لنفوذهم. إلا أنه كانت هناك أيضًا أوجه اختلاف بين تلك الوسائل، تباينت من إمبراطورية لأخرى.

كانت لكل مملكة عظمى مساحتها الجغرافية الأصلية التى نشأت عليها، وهى المساحة الجغرافية التى تقع بها عاصمة تلك المملكة، وكان سكان وأهل تلك المساحة الجغرافية يعدّون رعايا مباشرين لتلك المملكة، ويغذون الجيش بالأفراد المحاربين، والذين كانوا يرون فى أنفسهم، على مختلف مستويات طبقات المجتمع، أعلى مستوى من أبناء البلاد الخاضعة بالغزو، وأحق بالتميز.

كان لكل مملكة عظمى لغتها الخاصة الرسمية، بالرغم من أن تلك اللغة المختارة لم تكن إلا واحدة من لغات متعددة يتحدث بها أبناء المملكة، ولم تكن بالضرورة أكثر تلك اللغات انتشاراً بين أبناء وشعب المملكة.

كذلك لم يكن الانتماء العرقى للنخب الحاكمة ينتمى إلى العرق الأوسع انتشاراً بين أبناء المملكة.

كانت بابل فى العصر البرونزى المتأخر محكومة بالملوك القسيطيين، وهم من أصل أجنبى غير بابلى.

كذلك كانت السلالة التى حكمت الحثيين، فمن المحتمل أنها كانت تنتمى إلى أعراق أجنبية عن المنطقة، ويحتمل أيضًا أنه لم يكن العرق

الأوسع انتشاراً فى بلاد الحثيين.

كذلك كانت النخبة الحاكمة للإمبراطورية الميتانية تنتمى إلى عرق أجنبى يختلف عن العرق الذى ينتمى إليه أغلب أبناء شعب الإمبراطورية، الذى كان يقطن أرجاءها المختلفة (1).

وخارج المناطق الأصلية لكل إمبراطورية، كان كل ملك يفرض هيمنته على بلاد أخرى خاضعة، وغالباً ما كان خضوعها فى الأغلب الأعم راجعاً إلى غزوها عسكرياً. كانت تلك البلاد تتكون من بلاد وممالك تابعة للمملكة العظمى، وكانت تحكم فى الأغلب بملوك محليين، بافتراض أنهم يوفون بالتزاماتهم التى يفرضها عليهم خضوعهم لملكة أكبر أو إمبراطورية أقوى، وكانوا بوجه عام أصحاب صلاحيات واسعة فى إدارة ممالكهم الصغرى أو مدنهم التى يحكمونها. ونجد فى الاتفاقات والمعاهدات التى عقدها الحثينيون مع الممالك التابعة تحديداً واضحاً للالتزامات المتبادلة بين الطرفين. كانت تلك المعاهدات تتخذ شكل العقود الشخصية ، لا بين مملكتين أو حكومتين، بل بين فردين الملك: الأعظم والحاكم المحلى الخاضع له. كان من أهم التزامات الحاكم المحلى تجاه الملك الأعظم الذى يخضع له دعمه بالقوات العسكرية عند الحاجة ودفع الجزية السنوية. مقابل ذلك كان من حق الملك الخاضع أن يحظى بدعم الملك الأعظم إذا تعرضت بلاده لمخاطر الغزو من طرف ثالث، أو إذا تعرض وضعه كحاكم للتهديد من أية جماعة داخلية أو خارجية. كذلك يضمن له الملك الأعظم أن يظل اعتلاء عرش تلك المنطقة مقصوراً على سلالة ذلك الحاكم المحلى(2).

أما فراعنة مصر العظام، فمن غير المعروف إن كانوا قد عقدوا اتفاقات مماثلة مع حكام وملوك المناطق المحلية والبلاد التى غزوها أم لا؟ فلم يعثر حتى الآن على وثائق تثبت ذلك(3).

من الثابت أن كبار المسئولين المصريين كانوا يتدخلون بشكل أعمق من المسئولين الحثينيين فى شئون إدارة البلاد الخاضعة لنفوذ أى منهما. (انظر ما يلى)، مما قلل من أهمية الحكام المحليين. غير أن عدم وجود

عقود رسمية تحدد التزامات الخاضع تجاه الفرعون والدعم المقابل من الفرعون له من الممكن أن ينتج عنه كثير من سوء الفهم بين الملك الأعظم والملك الخاضع.

وربما يفسر ذلك عديداً من الشكاوى والتذمر التى تحتوى عليها رسائل تل العمارنة من قبل الملوك الخاضعين، يعبرون فيها عن خيبة أملهم وإحساسهم بالإحباط، بعد أن فشلوا فى الحصول من الفرعون على المعونات المادية والدعم العسكرى عندما احتاجوا إليها. لم تكن تلك الشكاوى يتم تجاهلها بلا رد من الإدارة الفرعونية، بل كان يرد عليها بردود غاضبة من الملك الفرعون، يؤنبهم فيها على مداومة إزعاجهم له، وعلى فشلهم فى حل المشاكل بأنفسهم، وعدم تحملهم مسئولياتهم فى شئون مناطقهم وبلادهم التى يحكمونها، كما يؤنبهم على عدم التزامهم بالأوامر التى وجهت إليهم قبل ذلك. لذلك كان من المفيد كتابة اتفاقات رسمية تنص على الالتزامات والحقوق المتبادلة بين الملك الأعظم والملك المحلى الخاضع لهيمنته.

واختلفت درجة تدخل الملك الأعظم فى شئون الملوك الخاضعين من مملكة إلى أخرى، وأحياناً كانت تختلف بين مملكة خاضعة وأخرى داخل الإمبراطورية ذاتها. كان من النادر أن يتدخل ملوك الحثيين في الشئون المحلية للممالك الصغرى الخاضعة لهم، كانوا يتدخلون فقط فى شئون تأمين التواصل والطرق بأنفسهم لا فى الشئون الداخلية لتلك المناطق. أحياناً كانوا ينشئون حاميات عسكرية أو حصوناً فى بعض الممالك الخاضعة، إلا أن ذلك لم يكن يتخذ إلا لضرورة يحتمها تعرض تلك المناطق لعوامل عدم استقرار، أو أن تكون تلك المملكة المحلية الخاضعة لهم فى منطقة استراتيجية معرضة لمطامع الأعداء. كان النقص المزمن فى أفراد الجيوش – وشدة الاحتياج إلى توفير كل الموارد العسكرية، جاهزة تحت الطلب للحملات العسكرية الكبرى الموجهة للخارج أو لحماية أرض الدولة ذاتها– لا يسمح للحثيين بنشر قوات عسكرية دائمة فى الممالك

الصغرى، ولم ير الحثينيون أية ضرورة لاتخاذ مثل تلك القرارات.

أما البلاد والممالك والمناطق الخاضعة للهيمنة المصرية فى سوريا- فلسطين فقد كانت تقسم، لأسباب إدارية، إلى عدد من الولايات (4)، وكان المسئولون المصريون، سواء عسكريين أو مدنيين، يتدخلون بشكل أعمق فى الشئون المحلية وإدارتها فى تلك الولايات. إلا أن الملوك والبيوت الملكية المحلية فى تلك المناطق استمرت فى سدة الحكم وممارسة سلطتها، كما تركت هيئات الحكم المحلية ونظم الإدارة الهيكلية المحلية والمؤسسات السياسية تمارس أعمالها دون تدخل (5).

إلا أن مجمل الإدارة المحلية للولايات والمناطق والممالك الخاضعة ظلت خاضعة للإشراف من قبل مسئولين من لدن الفرعون، كان يطلق عليهم اسم المفوض أو المندوب الملكى (بالأكادية rabisu، وبالكنعانية sokinu)، والذين كانت مهامهم الإشراف على جمع الجزية والضرائب من الحكام المحليين. كان بعض أولئك المندوبين أو المفوضين ينتمون إلى أصول كنعانية، إلا أن الأغلبية العظمى كانوا مصريين. وخلال مرحلة العمارنة، قام المفوضون بدورهم كمفوضين جوالين، بسلطات مخولة إليهم من الفرعون مباشرة، وعلى عدد من المدن فى منطقة معينة من المناطق الخاضعة للنفوذ المصرى. كانت المسئولية العليا لاستمرار الهيمنة المصرية على سوريا وفلسطين من مهام موظف كبير معين من الفرعون مباشرة ويحمل لقب: **«المشرف العام على بلاد الشمال (الأجنبية)»**.

وكان من سلطاته كممثل شخصى للفرعون فى المنطقة المعين عليها، الإشراف على الحكام والملوك المحليين كأحد أهم مسئولياته.(6)

وكان حكام مصريون مقيمون، يعينون على المدن الحصينة الكبرى مثل غزة، وكوميدى (تم التعرف على موقعها فى منطقة كامنة اللوز فى وادى البقاع بجنوب لبنان)، وفى سومور (سيميرا باليونانية)، ومجدو، وبيت شان (وتقع كلتاهما فى وادى يزرعيل شمال فلسطين). وكانت تلك المدن العسكرية الحصينة تستخدم كمناطق قيادة للحكام المعينين من قبل

الفرعون، للإشراف على المدن المحلية الواقعة فى نطاق كل منها. وكانت صلاحياتهم تتضمن القيام بالإدارة المدنية والعسكرية معًا، بالرغم من أن الإدارة العسكرية المحضة كانت موكلة إلى ضباط عسكريين مصريين فى تلك المناطق، وبصحبة كل منهم فصائل من راكبى العجلات الحربية والمشاة وفصائل من الرماة بالنبال تحت قيادتهم المباشرة (7). وكان من مسئوليات الحاكم أو الملك المحلى أن يهتم بنفسه بإمداد تلك القوات بالغذاء الجيد وما يحتاجون إليه. وقد كتب أكيزى ملك قطنه إلي أخناتون فرعون مصر فى إحدى رسائله: **«حين وصلت القوات العسكرية والعجلات الحربية من عند مولاى، قدمنا لهم الطعام والشراب الجيد، والثيران، والأغنام والماعز والعسل والزيت»**(8).

ولا تتوفر معلومات يقينية حتى الآن عن حجم تلك القوات، والمدى الزمنى الذى كانت تتواجده فى تلك المناطق الخاضعة. إلا أننا نعتقد أن تلك القوات لم تكن لتوجد بالمناطق الخاضعة إلا فى حالة حدوث توترات بين مسئولى الإدارة المصرية والحكام المحليين ورعايا تلك المناطق الخاضعة، وقد ظهر من نصوص رسائل تل العمارنة فى مرات عديدة حدوث مثل تلك الاضطرابات. من جهة أخرى، كانت هناك مناسبات يطلب فيها الملك المحلى من الفرعون أن يوفر له حامية من القوات المصرية لفرض الأمن والمحافظة على السلم، أو لحماية حدود مملكته أو إمارته من عدوان جيرانه الطامعين.

ولا يوجد أى شك فى أن الحكم المصرى للمناطق الخاضعة لم يخل من مزايا وفوائد لتلك المناطق، ولكن حين كانت توجد بعض الممالك بالغة الصغر مستقلة فى سوريا فلسطين فقد كانت تترك لصغر شأنها، إلا أن الفرعون كان يؤكد ويصر على خضوعهم لنفوذ كبار موظفيه، وكان الحكام المحليون لتلك المدن يشار إليهم باللغة الأكادية أنهم مجرد bagannu أى «محافظين». ويعلق البروفيسور ريدفورد علي ذلك أنهم إنما بذلك كانت تخفض مراتبهم ومنازلهم لتماثل رتب محافظى المدن فى مصر، وكانت

وكانت تفرض عليهم الضرائب والخدمات مثل تلك التى تفرض على المدن والمحافظات المصرية المماثلة (9).

ربما يعود ذلك إلى أن الفرعون كان يرى أن أمراء المقاطعات والاقطاعيات الصغيرة الآسيويين لا يستحقون أكثر من تلك المنزلة. وطبقًا لتسجيلات تحتمس الثالث، لم يقل عدد الأمراء الآسيويين، وجلهم من الفلسطينين الذين حاربوه فى موقعة مجدو عن 300 أمير. وبمجرد أن خضعوا للحكم المصرى بعد المعركة، أجبر أولئك الأمراء على إرسال أولادهم إلى مصر، بحجة تعليمهم تعليمًا لائقًا بهم كأبناء أمراء، وتعويدهم على أسلوب ونمط وثقافة الحياة المصرية، ولإعدادهم إعدادًا ملائمًا لتولى الحكم بعد آبائهم على المقاطعات التى وفدوا منها. كانت إقامة أبناء أولئك الأمراء فى كنف البلاط المصرى، يعد فى حقيقة الأمر بمثابة اتخاذهم أسرى بشكل مهذب ولائق، فقد كانوا تحت يد الفرعون بمثابة ضمان لحسن سلوك آبائهم. وبدأ اتباع ذلك النهج فى عهد تحتمس الثالث، وسجل تحتمس عن ذلك: «جلبت أبناء زعماء المناطق، ليكونوا أسرى فى مصر، وإذا مات أى واحد من زعماء المناطق يرسل ابنه ليتبوأ مكان أبيه». غير أن بعض الحكام التابعين تبوأوا مكانة مرموقة لدى بعض عظماء ملوك العصر البرونزى المتأخر، وسمح لهم بممارسة صلاحيات أوسع من تلك الممنوحة لغيرهم، أولئك الذين كان بإمكانهم الاضطلاع بدور حيوى فى حماية مناطقهم بأنفسهم، بل والتوسع الجغرافى لصالح الملك الأعظم فى المناطق التى يحكمونها. والمثال البارز على ذلك الملك إيدريمى (11)، الذى كان خلفًا لأبيه على مملكة حلب، ووقع تمرد على حكمه أجبره على الفرار، وبقى سبعة أعوام فى المنفى، ولما أخضع الميتانيون مملكة حلب تحت هيمنهتم بقيادة باراتارنا ملك الميتانيين، أعاد إيدريمى الملك المنفى إلى بلاده، ودعمه، وأيده، وبوأه عرش حلب، وعقد معه اتفاقًا بذلك، ولكن تقلص حجم المملكة إلى حد كبير، وأصبح مركز العرش الجديد فى مدينة الإله (تل أسانا حاليًا). ولم يهدر إيدريمى الوقت

لإثبات جدارته بثقة باراتارنا، فبعد أن قام بغزو سبع مدن على أطراف مملكته كانت خاضعة لنفوذ الحثيين، وقَّع معاهدة مع بيليًا، ملك المملكة ذات الموقع الاستراتيجي الهام، وهي مملكة كيزوادنا الواقعة جنوب شرق الأناضول. وقام بكل ذلك بمباركة من سيده الأعلى باراتارنا ملك الميتانيين، كما وقَّع المعاهدة بعدما حصل على موافقته على توقيعها. وزاد ذلك من خطورة الميتانيين على المملكة الحثينية، ولا يوجد شك في أن ذلك كان أحد أهداف إيدريمي الرئيسية. ورأى باراتارنا بجلاء أن أحد أتباعه كان عاملاً رئيسيًا في توسيع رقعة نفوذه في الأناضول، لذلك لم يتردد أبدًا في دعم توجهات إدريمي وكل ما يقوم بفعله. وفي حقيقة الأمر كان هو الذي أوحى إليه بتلك التوجهات.

كذلك دعم سبيللوليوما الأول الأمير الميتاني اللاجئ إليه كيلي-تيشوب، والذي اكتسب بعد ذلك اسم شاتيوازا، ابن الملك المهزوم توشراتا، وزوده بالدعم العسكري اللازم لاستعادة عرش أبيه من خصم أبيه والمدعوم من الآشوريين شوتارنا. وأصبحت بقايا الإمبراطورية الميتانية «كويروانا Kuirwana»، أي مجرد «محمية» تابعة للحثينيين. تلك الحالة السياسية والتي نادرًا ما أضفيت على مملكة مغزوة، أظهرت اعتراف الحثينيين بأهمية «شاتيوازا» في حماية مصالحهم في تلك المنطقة في مواجهة التهديدات الآشورية. ذلك الاعتراف ارتفع بالحاكم التابع إلى مرتبة أعلى من مجرد حاكم تابع، وظهر ذلك الاعتراف بتلك المنزلة في مراسم الاستقبال الاحتفائية بـ«شاتيوازا»، حين كان يقوم بزيارة للعاصمة الحثينية، كما كان يظهر بصورة عملية في توفير وتقديم امتيازات خاصة لم تكن تقدم لغيره من الملوك والإمراء الخاضعين لهيمنة الإمبراطورية الحثينية. كالإعفاء من دفع الجزية، والسماح له في بعض الأحيان بضم المناطق التي غزاها إلي هيمنته المباشرة. إلا أنه في أغلب الأحوال كان حاكم مثل، تلك الولاية التابعة، لا يحظى باستقلال يزيد عن ذلك، عدا ذلك يكون له الحق في تحقيق أو ممارسة علاقات مستقلة مع أية

قوى عظمى أخرى. وبذلك لم يكن ليزد بأى حال عن كونه دمية فى يد الملك الحثينى.

اكتسبت كيزوادنا هى الأخرى صفة «كويروانا Kuirwana»، أى «محمية» تابعة للمملكة الحثينية. ومثلها مثل البلاد الأخرى الواقعة فى نطاق الهيمنة، مرت بمختلف مراحل التطور السياسى والعسكرى، كانت جزءًا من الإمبراطورية الحثينية القديمة، ثم حققت استقلالها عن الحثينيين، ثم دخلت فى تحالفات فى أزمنة مختلفة مع كل من الميتانيين والحثينيين، ثم خضعت للنفوذ الحثينى كولاية تحت الحماية Kuirwana ، ثم ضمها أخيرًا إلى مناطق النفوذ الحيوى الحثينى، ثم خضعت للحكم المباشر للحثينيين.

وعبر نهر الفرات، خضعت هانيجالبات (وهو اسم ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية) للتطور السياسى نفسه، من ولاية مستقلة نظريًا وداخلة تحت الهيمنة والنفوذ الآشورى، ثم مع سقوطها التدريجى تحت النفوذ الآشورى تحول ملكها إلى ملك تابع فى عهد الملك الآشورى عدد- نيرارى الأول، بعدما شن ملكها شاتوارا الأول هجومًا غير مبرر، وقدر له الفشل سلفًا على الدولة الآشورية. ثم قام ابنه وخليفته وازاشاتا بالتمرد على الآشوريين، وقام الملك الآشورى عدد- نيرارى بسحقه، ووجد فى تلك المناسبة الفرصة السانحة لضم هانيجالبات ضمًا نهائيًا للإمبراطورية الآشورية، بل إنه جعل من عاصمتها تايدى أحد المقار الملكية المخصصة له.

النموذج ذاته من صراع ثم غزو يتلوه ضم يمكن تبينه أيضًا فى وادى النيل. فقد أدت الغارات التى شنها كاموس، آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة على بلاد كوش (النوبة)، والذين كانوا متحالفين مع الهكسوس فى ذلك الوقت، إلى تمهيد الطريق إلى شن مزيد من الحملات العسكرية من بعده، والتى قادها الفراعنة الأوائل للأسرة الثامنة عشرة، أى أمنحتيب الأول وتحتمس الأول، وضموا كل المناطق التى غزوها إلى الأرض

المصرية، حتى أصبحت كل منطقة النوبة من بدايات المملكة الحديثة أرضًا مصرية، وتحكم حكمًا مباشرًا من فرعون مصر. وكان ذلك الضم العضوي يختلف عن الولايات الآسيوية الخاضعة للهيمنة والنفوذ المصرى، والتى كانت تحكم كما ذكرنا بحكامها المحليين، واحتفظت بقدر كبير من شكل الحكم الذاتى(12).

أما مناطق مصر الجنوبية فقد وضعت تحت الحكم الملكى المباشر عن طريق نائب ملك، مسئول أمام الملك مباشرة، حتى إنه عرف باسم ابن الملك حاكم كوش، أو المشرف العام على بلاد الجنوب. كانت المنطقة المكلف بالإشراف عليها تمتد جنوبًا من الولاية الثالثة فى صعيد مصر حتى كورجوس، الواقعة عند شلالات النيل الرابعة، وكانت تلك المنطقة تضم النوبة العليا والدنيا وظهر منصب نائب الملك أيضًا فى الإمبراطورية الحثينية من عهد سبيللوليوما الأول، وامتد فى عهود من تلوه من ملوك الحثينيين، فبعد أن دمر سبيللوليوما إمبراطورية توشراتا (الميتانية)، عين سبيللوليوما اثنين من أبنائه كنائبين له على قرقميش وحلب. وكانت تلك الخطوة بمثابة تطور هام فى السياسة الخارجية للحثينيين. فلأول مرة فى تاريخهم يمتد حكمهم المباشر إلى بلاد تقع خارج حدود الإمبراطورية ومن بين أولئك النواب، كان كثير منهم من نسل كبار الملوك، ومارسوا فى سوريا أدوارًا سياسية وقضائية وعسكرية هامة، كما كانوا يتعاملون مع الحكام المحليين نيابة عن الإمبراطور ذاته.

قبل ذلك بأربعمائة عام قام الملك الآشورى شمسى- عدد هو الآخر بتعيين ابنيه (إشمى- داجان ويسمح- عدد) فى منصبين كنائبين له على إيكالاتوم ومارى، وكانتا من أهم المدن الحيوية فى المملكة. كانت تلك التعيينات فى مناصب نواب الملك في السياسة الحثينية والآشورية إنعكاسًا لما تمثله المدن الاستراتيجية التي يتعين عليها نواب الملك، كما مثلوا لسكان المدن ذاتها علامة واضحة جلية على أهمية مدنهم، ووضعها المتميز. كان ذلك التميز يضعهم فى مرتبة أعلى من مراتب المدن المجاورة

لهم، وكان يمثل لهم في المستقبل تأكيداً لأهمية مدنهم كمراكز للقوة الإقليمية.

كانت بابل أهم الكتل الجغرافية المتماسكة من بين الإمبراطوريات العظمى فى تلك المرحلة. فتحت حكم القسيطيين تم تقسيم المملكة إلى عدد من المناطق الإدارية أو الولايات، على رأس كل منها حاكم محلى، يقيم فى قلب أكبر مراكزها الحضرية، وكان يخضع مباشرة للملك، ومن أهم مسئولياته جمع الضرائب على شكل محاصيل، وحيوانات حية، وسلع أخرى مثل الأخشاب من المناطق الريفية. كان مسئولاً أيضًا عن توفير الإقامة والغذاء للقوات العسكرية، وعن المشاريع العامة التى تقام في منطقته، بما فيها إقامة المعابر والقناطر وأسوار المدن وصيانة قنوات الرى وتطهيرها.

وتدل النقوش المسجلة على علامات الحدود للأراضى، والتى كانت تسمى كودوراس، أن الأسر القسيطية الحاكمة للإمبراطورية البابلية أدخلت إلى الإمبراطورية نظام الاقطاعيات الزراعية التى كانت تمنح لكبار موظفي الدولة، بمن فيهم رجال البلاط، والكهنة، وكبار قادة الجيش، وأحيانًا لأعضاء من الأسر الحاكمة. كما تبنى ملوك الحثيين سياسة مماثلة في منح الاقطاعيات الزراعية. كانت تلك الاقطاعيات الزراعية الممنوحة بمثابة مكافأة لأولئك الذين يخدمون الملك بإخلاص فى المجالات المختلفة، وكانت تعد دافعًا لمن يحظون بها على المداومة على إخلاصهم وولائهم للتاج. كما كانت تضمن الحصول على أقصى إنتاج يمكن تحقيقه يوضع تحت تصرف الملك، مما يؤدى إلى زيادة العوائد والضرائب التى تدخل الخزائن الملكية، إلا إذا كانت بعض الاقطاعيات تستثنى من تلك الضرائب.

انتعشت بابل تحت ذلك الحكم المركزى الذى مارسه الملوك القسيطين. وكان انتعاشها يعود إلى حد كبير إلى تماسكها، وإلى انعدام تطلع قادتها إلى توسيع رقعة المملكة، ولذلك لم تواجه إلا قليلاً من المشاكل التى كانت

تواجه الإمبراطوريات الأخرى المعاصرة لها، فى محاولاتها فرض سيطرتها الدائمة على المناطق البعيدة عنها التى غزتها وأخضعتها لهيمنتها. كما نَعِمَ قادة بابل بالفوائد التى ترتبت على اعتراف «الإخوة الملوك العظماء» بهم، دون أن يجهدوا أنفسهم عسكريًا لاكتساب ذلك الاعتراف بحد السيف. وبالرغم من أن نهوض وبعث جيرانهم الآشوريين أدى إلى زيادة التوتر والمصادمات العابرة بين المملكتين المتجاورتين، إلا أن ذلك لم يكن له أى تأثير يذكر على استقرار الإمبراطورية البابلية، ولا على رخاء أهلها حتى العقود الأخيرة من العصر البرونزى المتأخر.

إدارة العلاقات الدولية

تبين لنا أنه على طول العصر البرونزى المتأخر كانت أغلب مناطق الشرق الأدنى القديم تحت هيمنة قوة أو أكثر من القوى العظمى التى ظهرت وتكونت خلال تلك المرحلة. وهكذا نجد أنه فى قمة النجاح المصرى العسكرى فى عهد تحتمس الثالث، امتدت الهيمنة المصرية لتحتوى رقعة واسعة من البلاد من النوبة العليا حتى فلسطين وسوريا، وحتى التخوم الغربية لمنطقة ما بين النهرين. بعد ذلك بفترة قصيرة، وصلت المملكة الميتانية إلى قمة قوتها، وأصبحت قوة عظمى فى شمال ما بين النهرين وسوريا، وشكلت تهديدًا خطيرًا على المصالح الحثينية فى شرق الأناضول. وبعد أن دمر سبيللوليوما المملكة الميتانية وقضى على استقلالها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أصبح الحثينيون- بلا أى منازع- من أقوى الممالك العظمى. وفى عهد مورسلى الثانى بن سبيللوليوما امتدت البلاد الخاضعة لهيمنة ذلك الملك الحثينى العظيم من ساحل بحر إيجه إلى الشرق عبر كل منطقة الأناضول (13)، وعبر كل المنطقة التى كانت تشغلها المملكة الميتانية شمال ما بين النهرين وسوريا، حيث أصبحت مدينة قرقميش الميتانية تابعة للحثينيين، وعلى عرشها نائب من نواب الملك الحثينى، وحل الآشوريون محل الميتانيين بكونهم الخطر

الجديد الذى يشكل تهديداً على الحثينيين. استولى الآشوريون على ما تبقى من المملكة الميتانية شرق الفرات، وراحوا يتطلعون إلى الجانب الآخر الذى استولى عليه الحثينيون من المملكة الميتانية الواقع غرب الفرات حتى ساحل البحر المتوسط. إلا أن النزاع الذى نشب بينهم وبين بابل جارتهم الجنوبية أدى بالملك الآشورى تيكولتى - نينورتا الأول إلى تغيير وجهته إلى بابل، ونجح لفترة محدودة فى ضم مملكة بابل إلى مملكته.

من الواضح إذن، أنه بمصطلح القوى العظمى عن «مناطق النفوذ»، كان مشهد الجغرافيا السياسية دائم التبدل والتحول والتغير. ولو أخذنا مشاهد خاطفة للمنطقة كل بضعة أعوام لوجدنا تلك المشاهد متباينة ومختلفة على الدوام بشكل جذرى. كانت أكثر الفترات ثباتًا واستقرارًا هى تلك التى تلت توقيع معاهدة السلام الشهيرة بين مصر والحثينيين فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد. فى تلك الفترة، كانت عضوية المملكة الميتانية فى نادى القوى العظمى قد انتهت، وكان الأعضاء الأربعة، بما فيهم الملك الآشورى عدد- نيرارى الأول، مشتبكين فى علاقات دبلوماسية متبادلة. كانت المملكة المصرية والمملكة الحثينية أقوى أعضاء نادى الكبار بلا منازع. وكانت العلاقات بين الفرعون رمسيس والملك حاتوسيلى تمر بأزمات من آن لآخر حتى بعد معاهدة السلام. إلا أنه على المدى القصير على الأقل لم يكن هناك احتمال نشوب حرب شاملة بينهما. الأهم من كل ذلك أنه كان قد تم التوصل إلى اتفاق يحدد مناطق نفوذ كل منهما. وكانت المنطقتان اللتان طال النزاع حولهما وهما: منطقة قادش ومنطقة عمورو قد تخلى عنهما رمسيس للحثينيين، مقابل ذلك، احتفظت مصر بهيمنتها على أغلب فلسطين القديمة، مع شريط ساحلى على البحر المتوسط يمتد شمالاً حتى السامرة، أما فى عمق اليابسة فقد احتفظت مصر بنفوذها على منطقة دمشق وما فى جنوبها حتى فلسطين. واعترف كلٌ من الطرفين بمناطق وحدود نفوذ الطرف الآخر واحترامها.

وحتى خلال القرون السابقة على إبرام المعاهدة، كانت الحروب

الشاملة بين القوى العظمى ظاهرة نادرة نسبيًا، كان ذلك فى عالم تعد فيه الحروب ظاهرة متوطنة، حيث كان السلام، لا الحرب، استثناءً للقاعدة.

كان المتوقع والمنتظر من عظماء الملوك إظهار قدراتهم العسكرية فى ميادين القتال، وانتزاع الغنائم من ثروات وماشية وأسرى من الأعداء يعملون في خدمة الجيش، وتقديمهم كقرابين شكر يضحى بهم على مذابح آلهتهم، وكان الحصول على الغنائم يمثل أهمية خاصة لملء خزائن المملكة، وانعاش المقاطعات الزراعية، وتوسيع رقعتها، وسد النقص فى قوة العمل.

كان من المفاهيم الثابتة لدى كل ملك أن عليه منافسة من سبقه فى إنجازاته والتفوق عليه. كانت الحروب تخاض لتوسيع رقع الممالك لزيادة عوائدها وتكريس نفوذها وهيمنتها، وأحيانًا ما كانت الحروب تخاض لأسباب عدوانية إمبريالية بحتة بلا دوافع معقولة، كما كانت تخاض فى أحوال أخرى للهيمنة على طرق تجارية هامة، وفى حالات أخرى للدفاع عن حدودها أو مناطق زراعية هامة منتجة للغلال، ضد عدو طامع للاستيلاء عليها.

إلا أن الحالات التى حارب فيها عظماء الملوك بعضهم بعضًا تعد قليلة. والاستثناء الملحوظ لذلك هى حالة الحرب الدائمة التى استمرت بين ملوك الحثيين والميتانيين، والتى انتهت بالتدمير النهائى للمملكة الميتانية بانتصار سبيللوليوما علي توشراتا. باستثناء تلك الحالة، نجد صدامين وقعا فى قادش، وقع أولهما بين ميواتاللى الثانى الحثيني والفرعون المصرى سيتى الأول وخليفته. كذلك أيضا الهزيمة المروعة التى أنزلها الملك الآشورى توكولتي- نينورتا الأول بقوات الملك الحثينى تودحاليا الرابع فى معركة نهريا، بالتأكيد كانت هناك مناوشات من أن لآخر بين القوى العظمى، وعمليات عسكرية من آن لآخر يقودها أحد أولئك الملوك العظام على مناطق خاضعة لنفوذ ملك آخر. وفى آخر عقود العصر البرونزى المتأخر اشتعلت العداوة فى عدة مناسبات بين الآشوريين والبابليين. غير أنه فى عالم اعتاد الصراع الحربى والعسكرى، وبعدد لم

يقل عن أربعة من عظماء الملوك والإمبراطوريات الكبرى فى أية مرحلة زمنية يتطلع كل منهم إلى ترسيخ سلطته والمحافظة على نفوذه وهيمنته على بلاد أخرى خاضعة له، وتشكل أهمية خاصة، وكانت غالبًا تقع فى مناطق جغرافية فاصلة بين تلك الممالك، نجد أنه من اللافت للنظر بشكل واضح أن الصدامات الكبرى بين أولئك الملوك فى كل عصر كانت نادرة الحدوث. فكيف يمكن تفسير ذلك؟

فى أواخر الألفية الثالثة وباكورة الألفية الثانية قبل الميلاد، كان عالم الشرق الأدنى القديم قد شهد قيام إمبراطوريات عظمى مالت إلي التوسع، بدءًا من الإمبراطورية التى أسسها الملك الأكادى سارجون، تبعتها بعد انهيارها بمائة عام الإمبراطورية التى أسسها فى شمال ما بين النهرين أور- نامو، مؤسس أسرة أور الثالثة. وفى بدايات الألفية الثانية قبل الميلاد نهضت عدة إمبراطوريات، تنافست فيما بينها لتحقيق الهيمنة والسيطرة على مناطق شمال ما بين النهرين وسوريا، إلا أنها سرعان ما تلاشت واضمحلت. حتى إن أقوى أولئك الملوك- مثل شمسى- عدد الآشورى، وحمورابى البابلى، ويمحد في حلب- انتعشت إمبراطورياتهم وتوهجت لتنطفئ سريعًا وتسقط وتنهار، وظلت ذكرى الممالك العظمى وكبار الحكام باقية فى أذهان الأجيال التى تلتها، واضحة فى أثرها على الممالك التى تلتها. كان الملك الحثينى حاتوسيلى الأولى يقيس إنجازاته على إنجازات سارجون الأكادى العظيم، وإنجازات نارام- سن بن سارجون وخليفته، وترسخ كل ذلك فى فولكلور الشعوب، وترك آثاره وبصماته عليه، كما كان لانتصار الملك الحثينى مورسيلى الأول على مملكة حلب وعلى بابل وتدميره لهما معًا أثره فى تبوء مورسيلى الأول مكانة مرموقة فى التاريخ الحثينى العسكرى. كذلك كان للانتصارات الكبرى غير المسبوقة التى أحرزها تحتمس الثالث فى حملاته العسكرية على سوريا، أثرها فى أن يصبح تحتمس الثالث نموذجًا يحتذى به لكل الفراعنة المقاتلين الذين تلوه.

غير أن كل أولئك الملوك الذين أعجبوا بأسلافهم والذين راودتهم فكرة منافستهم والتفوق عليهم كانوا أيضا على وعى ويقين بسرعة زوال منجزات أسلافهم. زالت سريعًا كل إنجازاتهم وضاعت، أحيانًا بمجرد انتهاء عهودهم. وكانت الرسالة واضحة للأجيال التالية من الملوك.

فالنجاح فى ميادين المعارك- بغض النظر عن تحقيقها نصرًا جزئيًا، أو حاسمًا- ليست ضمانًا فى حد ذاتها لتحقيق أسس ثابتة لاستمرار الهيمنة على بلاد جديدة تم غزوها عسكريًا. لقد سقطت الممالك السابقة؛ لافتقادها لمصادر ثروات دائمة ومستمرة، والخبرة والخبراء الضروريين لترسيخ استمرار الهيمنة والسيطرة على المناطق التى غزوها على مدى زمنى معين. كما كانت تنقصهم المهارات وربما أيضًا الإدارة للتفاوض مع القوى الكبرى المجاورة حول المناطق المتنازع عليها. كانت المفاوضات السلمية بين القوى المتطلعة للهيمنة والنفوذ فى منطقة واحدة بمثابة الدعم الذى يحقق استقرارًا أطول لكل من تلك الممالك.

واستفاد خلفاؤهم من ملوك العصر البرونزى المتأخر من إدراك ما حدث لأسلافهم. ولم تكن تطلعات ملوك تلك المرحلة للوصول إلى مرتبة القوى العظمى تقل عن ذلك، ولكن، ألم تكن هناك وسائل أمام أى ملك عظيم لإشباع تطلعاته الشخصية، وتأمين مصالح مملكته ونفوذها فى المناطق الخاضعة لهيمنته خارج حدود مملكته، دون صراع عسكرى مع أنداده من ممالك عظمى أخرى؟ كانت الوسائل السياسية والدبلوماسية من الممكن أن تحقق مثل ما تحققه القوة العسكرية إن لم تزد عنها، وبتكلفة تقل كثيرًا عن تكاليف الحروب. أكثر من ذلك، بالرغم من إعجاب الملوك المصريين التالين لتحتمس بإنجازاته العسكرية، سيدرك الفراعنة المصريون التالون له أن أفضل عصور الانتعاش الاقتصادى كانت تلك العصور التى اتسمت وتميزت بأقل نشاط عسكرى، مثل عهد حتشبسوت وآمينحوتيب الثالث، وهى العصور التى تميزت بكثرة آثارها، وأرقاها فنيًا والدالة على انتعاش اقتصادى مشهود.

كانت المواقع الجغرافية للممالك العظمى ذات تأثير أيضًا على العلاقات بينهما. كانت بلاد الفراعنة تبعد كثيرًا عن الإمبراطوريات الكبرى الأخرى المعاصرة لها. كان لمصر والميتانيين اهتمامًا كبيرًا بالمنطقة الكبرى سوريا- فلسطين، وهى المنطقة الجغرافية التى كانت تفصلهما عن بعضهما، وأدى ذلك الاهتمام من كلا الطرفين بالمنطقة ذاتها إلى نشوب صراع مسلح بينهما. إلا أن الصراع أدى إلى التفاوض والتوصل إلى اتفاق، حين أدرك الطرفان أن المنطقة المتنازع عليها كانت من الاتساع، بحيث يمكن اقتسامها فيما بينهما، مما يسمح لكل طرف بضم مناطق واسعة إلي مجال نفوذه، والأهم، فرص السيطرة على مناطق غنية بالموارد لكل منهما على ساحل البحر المتوسط. وحل الحثينيون محل الميتانيين كشركاء فى الهيمنة على سوريا. إلا أن الحثينيين لم يكن لديهم تطلعات تذكر فى المناطق الواقعة جنوب دمشق. وبعد عهد تحتمس الثالث لم يصبح لدى مصر تطلعات إلي المناطق الواقعة شمال دمشق. وعلى مدى زمنى معين أصبحت منطقتا عمورو وقادش من مناطق النزاع الساخنة، وكانت مناطق فاصلة بين المملكتين العظميين. إلا أنه بعد أن تخلى رمسيس الثانى عن المنطقتين للحثينيين، أزال آخر عائق فى طريق التوصل إلى اتفاق مع أخية الحثينى. والذى انعكس على «الاتفاق الأبدى»، كما أطلقوا عليه، والذى كان مُرْضيًا لتطلعات المملكتين الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية.

كذلك قصرت بابل، فى عهد حكامها القسيطيين، تطلعاتها علي منطقة ما بين النهرين، وبالرغم من وجود الإمبراطورية الآشورية التي كانت قد انبعثت من جديد، واستعادت قوتها، التى كانت تمثل تهديدًا حقيقيًا على الولايات السورية الخاضعة للحثينيين، وكذلك علي مناطق النفوذ المصرية فى سوريا، إلا أنها لم توجه أية حملة عسكرية (فى ذلك العهد) لتوسيع رقعتها باتجاه غرب الفرات.

بوجه عام، تمكنت الممالك العظمى فى العصر البرونزى المتأخر من

المحافظة على علاقات سلمية وعلاقات تعاون وتشارك مصالح، باستثناء- كما لاحظنا- حالة صراع الحثينيين والميتانيين. فمن البدايات الأولى للمملكتين ظلا فى صراع عسكرى لم يتوقف. كان الميتانيون قد تمكنوا من تكوين تحالف مع ولايات تابعة وولايات مستقلة، تمتد من شمال ما بين النهرين وشمال سوريا حتى منطقة شرق الأناضول. وذلك حرم الحثينيين من أية فرصة تواجد فى منطقة سوريا، مما كان له أثر سيئ عليها كقوة عظمى من قوى الشرق الأدنى القديم. والأخطر، كان ذلك الامتداد الغربى للميتانيين يشكل تهديدًا خطيرًا لقلب بلاد الحثينيين ذاتها، بعد أن أصبحوا قريبين منها إلى حد الخطر. وكان الحوريون متواجدين من فترات وعهود أقدم فى شرق الأناضول. وعرف من عهد حاتوسيلى الأول الحثينى عن تعرض بلاده لهجمات خطيرة من الحوريين، والتى راحت تتكرر على مدى عهود من خلفوه. ولم يكن الحثينيون ليشعروا بالأمان أبدًا، طالما بقى الحوريون على أعتاب بلادهم.

من جهة أخرى، لم يكن الميتانيون ليتخلوا عن مناطق يعدونها من صميم حقوقهم، وجزءًا لا يتجزأ من بلادهم. لم يكن من الممكن أن يقبلوا طائعين بإرادتهم وجود قوة دخيلة فى منطقة شمال سوريا، والتى كان سكان مناطق منها من الحوريين، والذين كانوا إضافة حقيقية لقوة المملكة الميتانية وأمانها ورخائها، ولكن، فى الجانب الحثينى، أظهر حاتوسيلى الأول وخليفته مورسيلى الأول أن الحثينيين لا يمكن أن يقبلوا أية هيمنة أجنبية على شمال سوريا؛ لأن ذلك يغلق تمامًا فى وجوههم أية مساهمة أو وجود فعال فى كل المنطقة. لم يكن هناك أدنى فرصة للتصالح، وبالتالى لم يكن هناك أى مجال لمناورات دبلوماسية سلمية، خاصة حين كان يشغل العرش الميتانى ملك يكنُّ مشاعر شديدة العداء للحثينيين. وكانت النتيجة صراعًا طويلاً بلا هوادة بين المملكتين الكبيرتين، والذى انتهى بانتصار الحثينيين، واختفاء المملكة الميتانية من بين نخبة الممالك العظمى فى ذلك القصر.

كانت للعوامل الجغرافية أثر واضح على تشكيل العلاقات بين القوى العظمى فى تلك المرحلة. إلا أنه كانت هناك عوامل أخرى غيرها، فكما لاحظنا كان عظماء الملوك يكرسون أغلب وقتهم وجهدهم للإعداد للحملات العسكرية، كانت تلك الحملات تكرس فى الأغلب ضد قوى عدائية محلية تهدد البلاد ذاتها أو المناطق الخاضعة لهيمنتها، أو ضد المتمردين من سكان البلاد الخاضعة، كان فرعون مصر يسيِّر الحملات العسكرية إلى بلاد النوبة، (بالرغم من أن تلك المنطقة كانت فى الأغلب في حالة هدوء تحت حكم نائب للفرعون)، أو توجه الحملات ضد متمردين فى المناطق الآسيوية الخاضعة للنفوذ المصرى. إلا أن أخطر مشكلة كان عليه مواجهتها فى الدفاع عن بلاده هى ذلك التهديد المستمر الذى شكلته القبائل الليبية غرب مصر. كان عليه أيضًا أن يحمى السواحل البحرية الشمالية من خطر قراصنة البحر، والذين لم يكونوا إلا بدايات لجحافل بحرية، ممن أطلق عليهم اسم شعوب البحر الذين هاجموا سواحل مصر الشمالية فى عهدى ميرنبتاح ورمسيس الثالث. قاد الملوك الحثينيون أيضًا حملات عسكرية عديدة ضد متمردى المناطق الخاضعة لنفوذهم وحلفائهم فى غرب الأناضول (على وجه التخصيص)، وأحيانًا ضد متمردى الولايات السورية الخاضعة لهم. إلا أنهم بدورهم واجهوا مشكلة مزمنة تمثلت فى الهجوم على بلادهم بجحافل القبائل القوقازية القادمة من الشمال، خاصة من منطقة البحر الأسود. كانت تلك القبائل القوقازية سريعة فى انتهاز فرصة أية اضطرابات فى بلاد الحثينيين أو أية مناسبة تكون فيها المملكة تعانى من وطأة إرسال جيوشها إلى مناطق معارك بعيدة، وتنتهز الفرصة للهجوم من الشمال. كانت الانتصارات على المتمردين والأعداء المحليين تكفى فى الغالب لإظهار قدرة عظماء الملوك كقادة عسكريين، خاصة حين تترتب على تلك الانتصارات الاستيلاء على غنائم ذات قيمة. ومن جهة أخرى، كانت المواجهة مع ملك عظيم آخر تؤدى إلى استنزاف خطير للموارد للإعداد لتلك المواجهة(14)، دون أى ضمانات للنجاح، وترك المملكة

خالية من قوتها الضاربة الحامية، وتعريضها لهجمات أعداء آخرين من مناطق أخرى. كان من الأفضل كثيرًا لأى من عظماء ملوك تلك المرحلة التاريخية أن يوفروا تلك الموارد، ليستخدموها عند الضرورة القصوى ضد أعداء يهددون قلب المملكة، وأن يحل بالطرق الودية السليمة أى نزاع مع ملك عظيم آخر، قبل أن يتصاعد النزاع ويتحول إلى صراع عسكرى، والذى يمكن أن يكون مدمرًا لكلا الطرفين.

كانت هناك أيضًا فوائد مادية بحتة التى تنتج عن العلاقات الودية السليمة بين كبار الملوك، خاصة على صعيد التجارة والتبادل التجارى.

اتسم العصر البرونزى المتأخر بانتعاش التجارة العالمية فى منطقة الشرق الأدنى، وازدادت الروابط التجارية بمنطقة بحر إيجه، وانتعشت تجارة منتجات الحضارة المنوانية فى جزيرة كريت، ومنتجات الحضارة المسينية في اليونان، من بين شبكات التجارة العالمية، وظهر ذلك من انتشار مراكز التبادل التجارى على السواحل الشرقية لبحر إيجه والسواحل الشرقية للبحر المتوسط، وكذلك من محتويات حطام السفن التى عثر عليها على السواحل الجنوبية لمنطقة الأناضول، وبما نعرفه عن الأسواق العالمية الكبرى التى تواجدت على الساحل الشرقى للبحر المتوسط. وبينما انطوت الأنشطة التجارية على عنصر مخاطرة بارز، فإن حجم وتنوع المنتجات التى كان يتم تداولها يعكس بوجه عام ثبات واستقرار التجارة العالمية فى تلك المرحلة، والتى لم يكن من الممكن أن تتم دون تعاون القوى العظمى، التى هيمنت على عالم الشرق الأدنى القديم.

أحد أهم تلك العناصر، بل مفتاح تلك العناصر جميعًا في علاقات كبار ملوك تلك المرحلة هو التواصل. بالرغم من أنه بقدر ما نعرف، لم يكن «الإخوة» الملوك الكبار يلتقون، إلا أنهم تواصلوا بوسائل مختلفة، كتابة أو شفاهة. كانت الرسالة المدونة أحد أهم وسائل الاتصال والتواصل، بل إنها فى حقيقة الأمر كانت من الوسائل الرئيسية التى استخدمت لتأسيس وترسيخ العلاقات الدبلوماسية السلمية بين كبار ملوك تلك المرحلة.

وحتى هذا الموضع كنا نرسم الخلفية التاريخية والسياسية للممالك الكبرى، التى كانت موجودة فى العصر البرونزى المتأخر. وقد آن الأوان أن نتحول إلى مراسلات ملوك تلك المرحلة التاريخية، ودورها الحاسم الذى أدته فى عالم الدبلوماسية الدولية في ذلك الوقت.

الجزء الثانى

المراسلات ومضمونها

3

الرسائل والرسل



الرسائل

الألواح المسمارية

فى مجال نظم الكتابة في عالم الشرق الأدنى القديم، كانت ترسم الرموز، وتنحت، وتطلى بالألوان أو تحفر على مختلف المواد القابلة للحفر. كذلك كانت تنقش النصوص التذكارية على وجه الكتل الصخرية وعلى قواعد التماثيل، وعلى جدران القصور، والمقابر والمعابد. كانت النسخ الأصلية للوثائق الهامة مثل المعاهدات تنقش على رقائق المعادن، مثل البرونز والفضة أو الحديد. وكانت رقائق الأخشاب المفصلية شائعة الاستخدام، حيث تحفر أسطحها وتطلى بالشمع، وغير معروف أنواع الوثائق التى كانت تستخدم رقائق الخشب المفصلية فى تسجيلها(1).

كانت أوراق البردى شائعة الاستخدام فى مصر فى الأعمال الإدارية، ولأغراض أخرى متنوعة. وبعد انتهاء العصر البرونزى كانت الوثائق والرسائل رخيصة التكلفة تسجل على رقائق من الرصاص. كذلك كانت جلود الحيوانات من الأدوات الملائمة للكتابة عليها، إلا أنه من البداية المبكرة للتسجيلات المدونة فى منطقة ما بين النهرين، كانت الألواح الطينية من أكثر المواد شيوعًا فى الكتابة على أسطحها. كان الطين يشكل على هيئة ألواح مستطيلة، وأحيانًا كان سطحها يحدب، إلا أنه كانت توجد أشكال أخرى غير الألواح المستطيلة، بما فيها الشكل القمعى، أو الشكل المستدير، وأشكال أخرى متنوعة.

وبينما كان الطين مازال طريًا، كان يمثل سطحًا ملائمًا للنقش عليه فى النصوص المسمارية فى عالم الشرق الأدنى القديم، والتى كانت تنقش

رموزها على الطين الطرى بحافة قطعة خشبية مسننة. وبمقارنة طريقة النقش على الألواح الطينية بغيرها من وسائل التسجيل على المواد الأخرى، تبين أن النقش على الألواح الطينية أطول عمرًا. وحين كانت تلك الألواح تحرق فى النار، سواء بطريق المصادفة أو القصد، تتحول إلى ألواح صلبة يصعب كسرها، وثبتت صحة ذلك خلال قرنين من أعمال الحفر والتنقيب فى المواقع الآثارية المختلفة لمنطقة الشرق الأدنى. ووصل عدد الألواح المكتشفة فى تلك المناطق إلى مئات الآلاف من الألواح النصية.

كانت الوثائق الرسمية المنقوشة على الألواح الطينية تخزن فى مخازن خاصة داخل القصور، وفى المعابد الكبرى، أو فى غرف وثائق خاصة تعد كدور للمحفوظات، إلا إذا كانت معدة لإرسالها إلى ملك آخر، أو حاكم تابع، أو إدارى كبير فى أحد الأقاليم. وحين كانت تلك الرسائل ترسل إلى وجهتها، كانت تنقش نسخ منها قبل إرسالها وتودع فى الأرشيف؛ للرجوع إليها عند الحاجة. كذلك عثر على مسودات رسائل ووثائق فى مستودعات تلك الألواح الطينية، ومن تلك المسودات توصلنا إلى نتائج مثيرة عن عملية إعداد النصوص والوثائق، ومراجعتها قبل التوصل إلى كتابة النص النهائى.

لقد كشف البحث والتنقيب عن أنواع عديدة من النصوص والوثائق المسجلة على الألواح الطينية فى أنحاء مختلفة من الشرق الأدنى، كان منها نصوص احتفالية، وتراتيل دينية، وصلوات وابتهالات لآلهة مجسدة، وموجز لقوانين، وحكايات شعبية، وقصائد شعر، ومعاهدات، ونظم تشريفية، وتعليمات وأوامر لكبار رجال البلاط، ونصوص دينية وأدبية، ونصوص قصصية، وإعلانات بيانية ورسائل. واهتمامنا الرئيسى فى هذا الكتاب بآخر ألوان وأشكال تلك النصوص، وهى الرسائل. كانت الرسائل هى الوسيلة المعتمدة للتواصل داخل وبين ممالك الشرق الأدنى القديم. فقد تواصل كبار ملوك الشرق الأدنى مع نظرائهم من ملوك عن طريق

الرسائل، وكذلك مع أبنائهم الذين كانوا نوابًا لهم فى أرجاء المملكة، ومع الملوك الخاضعين لهيمنتهم، ومع كبار الموظفين المعينين علي مختلف أقاليم المملكة. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانت الرسائل تتبادل بكثرة بين مختلف أعضاء الأسرة المالكة فى كل من الإمبراطوريتين المصرية والحثينية. كان أبناء وبنات وزوجات أحد كبار الملوك يتبادلون الرسائل مع أبناء وبنات وزوجات ملك آخر.

وكان الملوك يتبادلون الرسائل أحيانًا مع زوجات ملوك آخرين وكذلك مع أزواجهم وأبنائهم. كتب الملك الميتانى توشرانا رسائل إلى الملكة تايى، الزوجة الأثيرة لأمونحتيب الثالث وأم أمونحتيب الرابع (أخناتون)، وراسل رمسيس الثانى بانتظام الملكة الحثينية بودوهيبا زوجة حاتوسيلى الثالث. كذلك كان كبار الموظفين الملكيين فى المقاطعات يكتبون لكبار الموظفين فى العاصمة، وأحياناً على حاشية رسالة كانت مرسلة من الملك إليهم. كذلك كان الكتبة أنفسهم يرسلون برسائل شخصية قصيرة إلى نظرائهم الكتبة فى البلاط الملكى على هوامش الرسائل الملكية(2).

الكتبة

عدا الوثائق، كان الكتبة مسئولين عن نقش الألواح– الرسائل الموجهة إلى ملك معين، وقراءة الرسائل الواردة إلى البلاط كرد على رسائل الملك. كان إتقان ذلك العمل يتطلب خبرة ودراية ودربة طويلة يبدأها من يمارسها وهو صبى فى مدارس خاصة ملحقة بالمعبد أو القصر(3). وعرفت تلك المنشآت التعليمية فى اللغة السومرية باسم إيدوبا زرودخ، والتى تعنى حرفيًا «بيت الألواح الطينية»، وكان كل من نظامى الكتابة المصرية والمسمارية فى غاية التعقيد؛ لاحتوائه على مئات من الرموز، وكان كثير منها، خاصة في الكتابة المسمارية، يميز بصعوبة بالغة عن غيره؛ نظرًا لتشابه وتقارب كثير من تلك الرموز. لذلك نجد مما توصلنا إليه من مصادر فى منطقة ما بين النهرين، أن النظام التعليمى المفروض

على صغار الكتبة غاية فى الصرامة، بما فيها الضرب البدنى فى حالة التقصير، أو التمرد، أو التقاعس. كان نظام تعليم القراءة والكتابة فى مصر وبين النهرين يعتمد على النسخ المستمر للنصوص، مع التدرج والانتقال من النصوص البسيطة السهلة إلى النصوص الأكثر تعقيداً وصعوبة.

وبما أن قلة نادرة من سكان تلك الممالك كانت ملمة بالقراءة والكتابة (يبلغ التقدير فى مصر القديمة نسبة 1 بالمائة). كانت مهنة الكتابة مهنة شديدة التخصص والتشدد فى انتقاء من يقومون بها، لذلك اقتصر العمل بها على عائلات معينة، كانوا يتوارثونها من جيل إلى جيل.

لذلك كان المتدربون في بلاد ما بين النهرين ينتقون من بين عائلات النخبة، وكذلك كان الأمر فى كل من سوريا وبلاد الأناضول، إلا أنها كانت من طبقات أعرض وأوسع فى مصر. كان الكتبة بإمكانهم عن طريق الكد والدأب والاجتهاد تحقيق مراتب عليا، والتوصل إلى تبوء مراكز إدارية عليا فى ممالكهم، بل كان يمكن أن يصبح أحد أعضاء الدائرة المحيطة مباشرة بالملك، وأن يصبح من خاصته ومستشاريه. ولو أخذنا فى الاعتبار شدة النظم البيروقراطية التى صبغت إدارة ممالك العصر البرونزى المتأخر، لتأكد لنا شدة الاحتياج لمهنة الكتبة المحترفين. لم يكن عدد الكتبة فى المعبد الأكبر لرب العواصف فى حاتوسا عاصمة الحثيين يقل عن اثنين وخمسين كاتبًا، وهو ما يزيد عن ربع العدد الإجمالى لكل العاملين بالمعبد. وباستثناء الكتبة الذين كانوا يعملون بالإدارة المركزية، كانت المراكز الحضرية المنتشرة بأنحاء الممالك بحاجة أيضًا إلى كتبة، لخدمة مصالح المملكة. وسنتعرف فيما يلى على بعض كتبة الأقاليم. عدا ذلك،كان عدد من الكتبة يصحب الملك أثناء حملاته وغزواته العسكرية.

هل كان يمكن تمييز الكتبة عن غيرهم من المتعلمين فى المجتمعات التى ينتمون إليها؟ إنه سؤال يصعب التوصل إلى إجابة له، حيث إنه على الأقل يستخدم مصطلح كاتب فى بعض جوانبه، للدلالة على أشخاص تتجاوز

وظائفهم مجرد الكتابة. فالأطباء، ومقيمو الشعائر الدينية والكهنة، ويحتمل كل أصحاب الوظائف العليا في الإدارة الملكية، كانوا جميعًا على درجة عالية من إجادة القراءة والكتابة- أو على الأقل بما يكفى لاضطلاعهم بأعباء وظائفهم الإدارية. بعض فراعنة مصر أيضًا كانوا غير أميين. وهناك شك كبير في أن يكون نظراؤهم من الملوك الأجانب على تلك الدرجة من المعرفة بالقراءة والكتابة.

كانت مهنة الكتابة بدورها تخضع لهيكل وظيفي هرمي. والأقل وضوحًا مدى الكفاءة الهيكلية، وإن كانت كذلك، فإلى أي مدى؟ في النصوص الحثينية، كانت هناك درجة عالية من التخصص في تلك المهنة يستدل عليها من وجود مصطلح «كاتب الألواح الخشبية»، إلا أنه دون أن نعرف على وجه التحديد ما الذى كانت تستخدم فيه تلك الألواح الخشبية، لا يمكننا أن ندرك أو نخمن اتساع أو ضيق ذلك النشاط أو مدى الأهمية التي كان عليها. وربما قضى بعض الكتبة جل أعمارهم كموظفين مرتحلين، ينسخون النصوص، ويتلقون النصوص إملاءً، أو يخزنون النصوص في دواوين الحفظ، أو يستخرجون منها ما يراد منهم إخراجه.

وحقق آخرون مستويات أعلى في تلك المهنة، وارتفع بعضهم إلى مراتب أولئك الذين يمارسون نفوذًا وتأثيرًا في شئون المملكة السياسية والإدارية.

ولعب بعض الكتاب الذين حققوا المناصب العليا المرموقة دورًا بارزًا في مجال العلاقات الدولية والنشاط الدبلوماسي. كان لتبنى اللغة الأكادية، أو البابلية بمعنى أدق(4) في العصر البرونزي المتأخر- كلغة تواصل دولية ولغة دبلوماسية دولية - ما حتم تعيين كتاب يجيدون لغتين أو ثلاثة، إن لم يكونوا متعددى الألسن في قصور كبار ملوك تلك المرحلة. وسنأخذ في اعتبارنا أعمال الترجمة التي انطوت عليها عملية تبادل الرسائل بين ملكين، لا يتحدث أي منهما اللغة الأكادية، إلا أنها كانت اللغة المعتمدة في كتابة الرسائل. كان أولئك المكلفون بأعمال الترجمة يعينون مع الوفود

الخاصة فقط، للقيام بمهمة ترجمة الرسائل، إلا أنه كانت توكل إليهم أعمال أخرى أيضًا مثل مسح الأميرات الأجنبيات بالزيت المقدس فى بلادهن، قبل رحيلهن للزواج بملكهن (5) وكان من الممكن أيضًا أن يمارسوا دور المستشار الملكى، ومراجعة محتوى الرسائل الواردة إليه، ونصحه بالرد الملائم على تلك الرسائل وإعداد مسودة الرد وعرضها عليه، بلغة الملك الوطنية قبل كتابة الصيغة النهائية. كان ذلك يتطلب كفاءة شديدة فى تلك المهام لا فى المهارات الدبلوماسية فقط، بل أيضًا فى الدراية والإلمام الواسعين بالشئون الدولية، والتغيرات الدائمة والمستجدات التى تطرأ عليها.

آليات التواصل

قبل إرسال أية رسالة ملكية، كانت تنسخ منها نسخ خاصة، إذا كانت رسالة هامة مثل تلك الرسائل المتبادلة بين بلاطين ملكيين، وتودع النسخ فى دار حفظ خاصة؛ لاستعادة النصوص بعد ذلك إذا تطلبت الظروف ذلك. وانطبق ذلك أيضًا على نصوص الوثائق الهامة، مثل المعاهدات التى كانت تبرم مع الملوك التابعين أو الملوك الأجانب. فى بعض الأحيان نجد أن بعض النصوص التى سنتعرض لها كانت الأصول المرسلة أو الصادرة إلى المرسل إليه، وفى حالات أخرى نجد أن مصدر النص نُسخٌ احتفظ بها المرسل.

ولسوء الحظ، لا يمكن أن تتاح لنا الفرصة لمقارنة النسخ بالأصول، إذ يصعب الحصول عليهما معًا، وحين نجد عند المرسل نص رسالة كانت صادرة من عنده، فمن الطبيعى أن نفترض أنها نسخة عن الرسالة الأصلية، وحين نجد نصًا عند المتلقى، فمن الطبيعى أيضًا أن نفترض أنه الأصل. وفى أغلب الأحوال نجد أن ذلك الافتراض صحيح، ولكن، كما سنرى فيما يلى، هناك استثناءات لذلك الافتراض.

ولا يوجد شك أن هناك مناسبات كثيرة حمل فيها الرسول عددًا من

الرسائل من بلاط ملك إلى بلاط ملك آخر، وكان الرسول بمثابة حامل الحقيبة الدبلوماسية، التي تحوى رسائل عديدة إلى عناوين مختلفة من مرسلين عديدين. وينطبق ذلك حرفيًا على رسائل كانت واحدة المحتوى، مرسلة من الفرعون رمسيس الثانى إلى كل من الملك الحثينى حاتوسيلى الثالث، وزوجته بودوهيبا، كما ينطبق على المراسلات المتبادلة بين الأعضاء الآخرين المتماثلين من العائلتين الملكيتين (6) وكان يعهد للكاتب أحيانًا كتابة سلسلة من الرسائل حول موضوع واحد، وترسل فى وقت واحد. ومثال لذلك أرسل كاتب حثينى رسالة بالنيابة عن الملك إلى فرعون مصر يطلب فيها إعفاء تجار آلاسيا(7) من دفع رسوم الجمارك، ثم بعث برسالة إلى مسئول كبير بآلاسيا، الذى أرسل رسالة تحتوي علي الطلب ذاته، ويفترض أنها أرسلت فى ذات الوقت إلى أحد كبار المسئولين المصريين(8).

والرسائل التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة واحدة من أهم مجموعات الرسائل التى عثرنا عليها من العصر البرونزى المتأخر، وهى الرسائل المتبادلة بين البلاط الملكى المصرى والبلاط الملكى الحثينى، أثناء حكم رمسيس الثانى وحاتوسيلى الثالث، (وقد عثر على تلك المجموعة فى أرشيف العاصمة الحثينية)، ومن ذلك يمكننا استنتاج أن الرسائل التى كانت موجهة إلى البلاط الحثيني هي الرسائل الأصلية القادمة من مصر، بينما كانت نصوص الرسائل التى عثر عليها في حاتوسا وموجهة إلى أعضاء البلاط الملكى المصرى ليست إلا نسخًا عن الرسائل الأصلية. وحيث إنه لم يعثر على أصل تلك الرسائل فى مصر حتى الآن، فمن المحتمل أن بعض تلك الرسائل- التى يفترض أنها نُسخٌ ليست إلا أصولاً- لم يتم إرسالها إلى مصر لسبب أو لآخر. وينطبق الاحتمال ذاته على نصوص رسائل عثر عليها بأرشيف تل العمارنة بمصر، والتى كانت موجهة من فرعون مصر إلى ملوك بابل وأرزاوا (وهى مملكة كانت بغرب الأناضول)، وكذلك على رسائل أخرى كانت موجهة إلى الملوك الخاضعين

له فى سوريا وفلسطين.

وأحيانًا ما كانت تكتشف رسائل لا هى بأصلية ولا هى بنسخ، بل مجرد مسودة أولية، وبتصليحات عديدة فى النص للتوصل إلى الصياغة النهائية، وسنشير فى مناسبات مختلفة إلى واحدة من أكثر الرسائل إثارة وذات دلالات كثيرة، وهى مسودة رسالة، والتى كانت (بشبه يقين) موجهة من الملكة بودوحيبا إلى الملك رمسيس (9). ولا توجد نسخة من الصياغة النهائية للرسالة، ولا نستطيع أن نؤكد أنها لم تلغ وتتلف أو تم التغاضى عن إرسالها، قبل أن تصل إلى الحالة النهائية التى توجب عمل نسخة منها، فبعض محتواها كان يحمل توبيخًا مباشرًا. إلا أننا بوجه عام نعول على النسخ أو المسودات التى فقدت أصولها، وكذلك على الأصول فى تجميع صورة العلاقات بين المرسل والمتلقى للرسائل فى العصر البرونزى المتأخر، وكذلك المواضيع الكبرى والاهتمامات التى كانت تتناولها تلك الرسائل. ويمكننا أيضًا أن نخمن محتوى الرسائل التى فقدت للأبد، وذلك من خلال الردود عليها، وأحيانًا ما كانت ردود الرسائل تحتوى على فقرات منقولة عن الرسالة الواردة، كلمة بكلمة، كما جاءت فى الرسالة الواردة، وكان لتلك العادة في نقل فقرات من الرسائل التى فقدت فى الردود عليها فوائد جمة، إذ أنها كانت تنقل من الرسائل التى فقدت فقرة بفقرة والرد الملائم على كل فقرة منها، وهو ما مكنًا من إعادة بناء الاستفسارات والطلبات والتعليقات والشكاوى، التى كانت قد سجلت فى الرسائل الواردة، والتى لم يعثر عليها.

وتبرز ذلك فقرات مستمدة من مسودة رسالة بودوحيبا إلى الملك رمسيس:

«وعن ما كتبته يا أخى لى: «هكذا أرسلت أختى لى: حين سافر الرسول لزيارة الأميرة البابلية التى أعطيت (بالزواج) إلى (ملك) مصر، تركوا ينتظرون واقفين بالخارج» وكان ذلك الرسول هو إليل- بيل- نيش الرسول الخاص لملك بابل، وهو من أخبرنى بذلك».

وهناك ثلاث رسائل تناولت الموضوع نفسه، ولا يوجد من الثلاثة إلا رسالة واحدة، وهي الرسالة الثالثة حسب ترتيبها زمنيًا (والنسخة الموجودة على شكل مسودة) إلا أنه من الممكن التوصل إلى محتوى الرسالتين السابقتين من مضمون الرسالة الثالثة. فتتابع الرسائل حدث كما يلي:

ففي الرسالة الأولى المرسلة من بودوحيبا لفرعون مصر أشارت إلى الإذلال الذى تعرض له المبعوث البابلونى فى مهمته لزيارة أميرة بابلية أصبحت إحدى زوجات الفرعون. وفي الرسالة الثانية، رد رمسيس علي رسالة ملكة الحثينيين، وفنَّد تلك الادعاءات وأنكرها، وردت بودوحيبا على الرسالة بالرسالة الثالثة التى نتناولها، وذكرت فيها أن المعلومات وردت إليها مباشرة من مبعوث ملك بابل بنفسه، وهو صاحب شكوى إهمال البلاط المصرى له.

وتعد تلك الرسالة مثالاً سهلاً وبسيطًا على تبادل الرسائل التى أشرنا إليها. وسنتعرض لأمثلة أكثر تعقيدًا بعد ذلك. إلا أنه من الهام أن نؤكد أن بعض العبارات التى تعزى إلى مرسل رسائل بعينه لم نتوصل إليها من رسائله، بل من خلال نقلها بحرفيتها فى الردود الآتية على تلك الرسائل. ومن الواضح أن كثيرًا من مراسلات العصر البرونزى المتأخر قد فقدت، أو قد تكتشف فى قادم الأيام. لهذا السبب نشعر بامتنان؛ لأن كتبة الرسائل التى توصلنا إليها كانوا يحرصون كل الحرص على أن تكون المشاكل التى كتبت، أو وردت فى رسالة من أخ ملكى أو أحد أعضاء أسرته، قد فهمت على وجهها الصحيح والدقيق، وتوضع موضع الاعتبار، ويرد عليها بدقة، نقطة بعد نقطة وموضوع بعد موضوع، بعد نقل الفقرات كما وردت حرفيًا إلى رسالة الرد، للالتزام بالرد على النص الأصلى، وإعادة تذكير المرسل بكل النقاط التى أرسلها.

وكان ذلك من الأهمية علي وجه الخصوص في الحالات التي كانت تستخدم فيها اللغة الاكادية كلغة المراسلات المعتمدة، في الوقت الذى كان

فيه المرسل والمرسل إليه من غير الأكاديين. في مثل تلك الحالات كانت نصوص الرسائل المتبادلة لابد أن تمر على ما لا يقل عن ست مراحل بدءًا من صياغة النص الأول حتى تلقى الرد. وعند إعادة بناء تلك الخطوات، سنفترض أن بداية التراسل قد بدأت من البلاط الحثيني:

1- بالتشاور مع الملك يضع الكاتب النص المبدئى باللغة التى يتحدثها الملك، وهى اللغة الحثينية التى كان الحثينيون يسمونها «نيسيت»، وتعد مسودة رسالة الملكة بودوحيبا إلى رمسيس مثالاً على ذلك.

2- بعد إدخال تعديلات وتصليحات على النص فى صورته الأولية، يعطى الملك موافقته على النسخة النهائية، ثم تترجم إلى اللغة الأكادية.

3- ترسل النسخة الأكادية إلى مصر. ولا بد أن تترجم فى مصر إلى اللغة المصرية، حتى يمكن قراءتها على الملك.

4- يكتب الرد على الرسالة باللغة المصرية أولاً، ويمر النص بعملية إصلاح وتعديل حتى يعطى الملك موافقته عليه.

5- يقوم مترجم أو مترجمون من الكتبة المصريين بكتابة نص الرسالة التى وافق عليها الفرعون باللغة الأكادية.

6- يرسل الرد المكتوب بالاكادية إلى حاتوسا عاصمة الحثينيين، حيث يترجم إلى الحثينية، ثم يقرأ على المرسل إليه.

بمرور نصوص الرسائل بكل تلك الخطوات، يبدو أن احتمال تجاوز معنى، أو صياغة خاطئة لنقطة هامة أو معنى هام، بعيد تمامًا عن احتمال حدوثه. وهكذا، عند إعداد رد على رسالة يعكف الكاتب على استخراج أهم الأمور التى تناولتها الرسالة الواردة، خاصة تلك الجوانب التى تتطلب ردًا مباشرًا وواضحًا. تلك الجوانب والنقاط الهامة كانت تعاد كتابة فى الرد كلمة بكلمة، مع الرد على كل مسألة فيها مباشرة، بعد إعادة نقل نصها الأصلى. وحين يتلقى المرسل ردًا على رسالته، فإن الردود على المسائل تقارن قياسًا على ما ورد بالرسالة الأولى، وكان لذلك أثر كبير فى

إجلاء أى سوء فهم، أو على الأقل تحقيق أدنى حد ممكن من إساءة الفهم بين المتراسلين. لتجنب إحساس خاطئ من أى طرف أنه تعرض لإهانة من الطرف الآخر فى ثنايا نصوص المراسلات، كان مرسل الرسالة يجد أنه من الضرورى أن يدافع عن نفسه ضد ما قد يعتبره اتهامًا ظالمًا له من الطرف الآخر، وهى الاتهامات التى قد تنتج عن سوء فهم أو المبالغة فى فهم أحد الأمور التى وردت بالرسالة القادمة.

الرسل

البعثات الدبلوماسية

حين تصبح الرسائل جاهزة لإرسالها، كانت توضع فى مغلفات من الطين، وتختم بخاتم المرسل، وتسلم لرسول، ليتوجه بها إلى الوجهة المنشودة، سيرًا على الأقدام أو على عربة تجرها الجياد، وأحيانًا على صهوة جواد، وفى حالات أخرى على قارب بحرى. وتشير الرسائل مرارًا وتكرارًا إلى كلمة الرسول والرسل، بالرغم من أن هذا المصطلح «رسول» وبالأكادية «مارسبرى» (mar sipri) يتضمن وينطوى على دلالات واسعة عديدة، تتراوح من مجرد حامل رسالة لتوصيلها فقط، إلى سفراء بارزين، وعظماء. وكبراء الوزراء، والذين كانوا أحيانًا أفرادًا من الأسرة المالكة الحاكمة، لهم صلاحيات واسعة بالتفاوض مع ملك أجنبى نيابة عن ملوكهم(10). وكانت المجموعة الأخيرة تعمل كوسطاء دائمين بين كبار الملوك، واكتسبت أدوارهم أهمية فائقة، على ضوء أن الملوك الكبار ذاتهم لم يكونوا ليلتقوا أبدًا، وفى هذا السياق كتبت الملكة بودوحيبا إلى رمسيس قائلة: **«بالرغم من أننا نحن كبار الملوك نعد إخوة إلا أن أيًا منا لم يلتق بالآخر، ولا يوجد إلا رسلنا الرائحون والغادون بيننا»** (11) وفى الحقيقة، كانت الرسالة المرسلة من ملك إلى أخيه الملك عادة ما تنقلها

مجموعة منتقاة من البلاط الملكي، فقد كان تسليم مثل تلك الرسائل يتم فى شكل مهمة دبلوماسية.

وحين تكون العلاقات بين كبار الملوك علاقات ودية، كانت البعثات المرسلة من ملك إلى آخر تلقي حفاوة بالغة، وتقابل باحتفالات وطقوس احتفائية (خاصة إذا كانوا يحملون معهم كثيرًا من الهدايا النفيسة القيمة)، وكانت تقدم لهم كل وسائل الترفية والإقامة المريحة، كل حسب أهميته. كانت رسالة من أحد كبار الملوك إلى أخيه الملك تعد مناسبة احتفالية تتم بمراسم خاصة. كان يسبق تسليم الرسالة كلمة تقديم، يقوم بإعلانها كبير المبعوثين، وهو الذى يتم اختياره للتقديم؛ لتمتعه بكفاءة دبلوماسية خاصة، وأحيانًا ما يكون أحد أفراد الأسرة الحاكمة. وعند الحاجة كان هناك مترجم جاهز لترجمة كلمة كبير المبعوثين إلى الملك مباشرة، قبل تقديم الرسالة.

وحين كان كبير المبعوثين يلقى كلمة التقديم، فإنه كان يقدمها عن لسان ملكه، فيضمنها كلمات التحية المماثلة لتلك الكلمات التى تتصدر الرسائل من أخ ملكى إلى أخيه الملك الآخر، مثل:

«جميع أحوالى بخير. أتمنى أن تكون جميع أحوالك بخير. كل شئون بيتك، وزوجاتك، وأبنائك، وكبار رجالك، وخيلك، وعرباتك، وبلادك أتمنى أن يكونوا جميعًا بخير. أما أنا فكل أمورى بخير، وكذلك بيتى وزوجاتى وأبنائى، وكبار رجالى، وخيلى، وقواتى العسكرية، كلهم بخير، وكل بلادى بخير».(12)

تلك الصياغة شديدة الرسمية التى تعبر عن التحيات الملكية كانت تختلف قليلاً من رسالة إلى أخرى، ويفترض أن الأمر ذاته كان ينطبق على كلمة التقديم التى يوجهها كبير الموفدين إلى الملك قبل تسليم الرسالة، إلا أنها كانت جميعًا تتسم بالرسمية الدبلوماسية، ولا يوجد شك فى أن المتحدث الماهر والذى يشعر بأهمية المناسبة كان يلقى كلمته ببلاغة وحسن بيان. فى جميع الأحوال كانت تلك الرسميات ضرورية، وبمجرد الانتهاء

منها، كان الطرفان يبدآن النقاش العملى الموضوعى.

دور كبير المبعوثين

كان برنامج كبير المبعوثين الممثل لملك يحتوى على عدد من الموضوعات والمسائل معدة للنقاش مع الملك المرسل إليه(13) إلا أن أغلب تلك المسائل كان يرتبط بمحتوى الرسالة المكلف بتسليمها، ولا يخرج عنه، فيظل ملتزمًا إلى حد بعيد بالنقاط التى وردت فى الرسالة، أو بالمسائل التى تنتج عنها وتتفرع منها. ومع أن ملكه كان يسمح له ببعض الصلاحيات، إلا أنه كانت هناك حدود فيما يحق له التكلم بشأنه، وأن كلامه يتفق ويتوافق مع ما أوجز فى الرسالة. وكان يوجد بالطبع كتبة يحضرون اللقاء ويضاهون ما يذكره كبير المبعوثين شفاهة بما جاء مكتوبًا فى الرسالة. وكانت الرسالة بمجرد تسليمها ينزع عنها ما يحفظها، ويزال خاتم التغليف، وتترجم فورًا إلى اللغة المحلية (إن لم تكن الأكادية)، ويقوم بالترجمة مترجمو المتلقى، حتى يدرس محتواها بالجدية اللازمة. وكان الاهتمام ينصب على الفقرات الموضوعية، مثل الوعود أو الطلبات التى اشتمل عليها حديث المبعوث.

وإذا فشلت الرسالة في نقل ما يراد منها، فإن الأمر يتطلب متابعة، وهذا ما أدى بملك أرزاوا تارهوندا رادو إلى الكتابة إلى ملك مصر آمونحتيب الثالث معربًا عن قلقه من التناقض بين ما ذكره المبعوث شفاهة ومحتوى الرسالة المكتوبة التى ارسلها إليه فرعون مصر، قال أرزاوا فى رسالته:

«بالنسبة لما ذكره (المبعوث) كالبايا لى (نيابة عن الفرعون) لنرتبط بعلاقة دم بالمصاهرة، أنا لست على يقين مما ذكره كالبايا في هذا الشأن، فالرسالة لم تؤكد هذا المعنى».

كذلك أكد حاتوسيلى الثالث إلى الملك أحياوا أن التوتر الذى طرأ على علاقتهما (انظر إلى الفصل 12) إنما يرجع إلى سوء أداء الرسل.

كان لسوء الأداء أو عدم الكفاءة أو سوء الفهم خاصة فى أعلى المستويات الدبلوماسية لما كلفه ملكه بنقله، أو لتعمد النقل الخاطئ يؤدى

بمن يقترفه إلى أوخم العواقب، وهذا ما بعث به الملك حاتوسيلى فى أمر مماثل:

«ابعث يا أخى واحدًا من رعيتك، وسوف أحاكم أمامه المبعوث الذى أرسلته برسالتى إليك، وسوف يرى أننى سأطيح برأسه أمامه. أما إذا لم ينقل رسولك رسالتك بدقة، سيطاح برأسه هو الآخر»(15).

كان كتابة نص الرد على رسالة ملك يتطلب أيضًا مناقشة مبعوثيه حول دقة مضمون الرسالة. وكانت بعض محتويات الرسائل تتطلب الدقة والإحكام، أو مفاوضات مع المبعوثين والاتفاق على بعض الأمور. وكانت هناك مناسبات كثيرة يجد فيها كبير المبعوثين نفسه فى مواقف تتطلب منه المبادرة أو التصرف، للتوصل إلى حلول مع مضيفه ومستشاريه حول أحد الجوانب التى وردت فى الرسالة، وربما يجد نفسه فى مواقف تتطلب كل المهارة الدبلوماسية فى معالجة آثار أية عبارات عدوانية، قد تتضمنها أو تثيرها إحدى الرسائل.

وتمتلئ كثير من الرسائل بالشكاوى والتأنيب والتوبيخ، وأحيانًا بطلبات غريبة غير معقولة.

وأحيانًا ما كان يستجاب لذلك بكلمات الطمأنة. وأحيانًا ما كان أحد كبار الملوك يحتج على ما كتبه أخوه أو أخته الملكة إليه. وهذا ما حدث فعلاً من سبيللوليوما من المحتوى الفظ للرسالة التى تلقاها من أنحسن آمون أرملة توت عنخ آمون، والتى أعماها الغضب من رده الذى لم تجده محققًا لما طلبته منه. وأرسلت مرة أخرى مؤكدة على طلبها ولكن بعبارات شديدة ومهينة لكبريائه. وألقت تلك الرسالة عبئًا كبيرًا على كبير مبعوثيها حانى، الذى كان مسئولاً عن البعثة المصرية الحاملة للرسالة إلى العاصمة حاتوسا، وكان حانى شهيرًا على المستوى الدولى بأنه من أفضل الدبلوماسيين، حتى إنه كان يماثل فى عصرنا الحالى من يقال عنه السيد حَلال المشاكل، واستعمل أقصى قدراته لتهدئة الملك سبيللوليوما والإيحاء إليه أو تحريضه على الاستجابة لما طلبته الملكة. وأثبتت الأحداث بعد ذلك

أنه كان من الأفضل ألا يستجيب. وسنذكر تلك الواقعة بتفصيل أوسع فى الفصل (11).

وهناك مصادر مستقلة أثبتت أن المبعوث كان يقوم بأداء مهمته بأمانة. كان الموفدون من أجانب، ولنقل مثلاً إلى البلاط المصرى، عادة ما يصاحبهم لدى عودتهم إلى بلادهم وفد من البلاط المصرى من كبار موظفى القصر حتى عودتهم. وكتب رمسيس عن ذلك إلى الملكة بودوحيبا الحثينية قائلاً:

«أقول لأختى أن تيلى تيشوب مبعوث أختى قد وصل إلى حضرتى ومعه رياماشسى مبعوث أختى (16)، ومعهم مبعوثى بارحيناوا وزينابا ومانيا وطمأنونى جميعًا عن صحة أبنائه، وسررت أيما سرور»(17).

بالإضافة إلى ذلك الاستقبال الرسمى العام المعلن فى البلاط للوفود الأجنبية حاملة الرسائل، كان الملك يتلقى تقارير مستقلة من موظفيه ورجال بلاطه العائدين من مهمة دبلوماسية لتسليم رسالة، خاصة عن أية لقاءات أو اجتماعات عقدوها مع أخيه الملك. وكانت تقاريرهم تؤكد على ما ورد بالرسائل التى جلبها المبعوث الأجنبى. وكانت تلك التقارير المستقلة التي يقدمها موظفو الملك تزوده بمعلومات مؤكدة تعزز من مصداقية المعلومات التى قدمها مترجمو الرسائل.

فى أحيان خاصة واستثنائية كانت كل الرسميات تنحى جانبًا، أو تختصر إلى أبعد حد، إذا أراد الملك أن يرسل فى أمر شخصى أو عاجل إلى بلاط ملك آخر، فمثلاً: أرسل رمسيس مبعوثه مانيا إلى الملكة بودوحيبا برسالة شفاهية عاجلة. وكانت العجلة أو السرعة التى تتطلبها تجعله يتجنب إضاعة الوقت فى إعداد الرسالة ثم ترجمتها ومن بعدها كتابتها، إلا أن ذلك استدعى أيضًا الاستعانة بوسائل أخرى للتأكد من صحة الرسالة. وحتى تتيقن الملكة من أن ما نقله مانيا كان نقلاً دقيقًا وصحيحًا لما ذكره ملكه حرفيًا، أعاد الملك مبعوثها ريا ماشى الذى كان لديه في بلاطه ذاكرًا له نفس ما ذكره لمانيا، وأرسله على وجه السرعة إلى

ملكته فى حاتوسا بصحبة وفد مصرى. وكل ذلك مشروح فى عجالة صاحبت كل منهما(18).

المرسلون الأجانب مقيمون و محتجزون

قد يبدو من الفقرة السابقة أنه من قبيل المصادفة كان أحد مبعوثى الملكة الحثينية موجوداً بالبلاط المصرى، حين أرسله رمسيس بتأكيدات لرسالته الشفاهية التى بعث مانيا لإبلاغها إلى الملكة الحثينية. ولكن فى حقيقة الأمر، خاصة خلال فترة سادها التواصل الودى الدبلوماسى بين البيوت المالكة، كان من الشائع جداً أن يقيم المبعوثون الأجانب لبلاط ملك أزمنة غير محددة، حتى يكونوا تحت طلب الملك المضيف إذا احتاجهم فجأة لمهمة دبلوماسية عاجلة إلى بلادهم. فى كل الأحوال، كان كبار الملوك حين يرسلون كبار رجالهم لمصاحبة وفد أجنبى عائد إلى بلاده، كانوا أيضاً بمثابة بعثة من بلادهم إلى البلاط الآخر، وكانوا بذلك يعدون حلقة من سلسلة التواصل الذى لا ينقطع بين ملكهم وأخيه الملك الآخر، لذلك لابد أن نتوقع أنه فى كل لحظة كان مبعوثو ملك يقيمون فى بلاط الملك الآخر. وكان إرسال موظفى وكبار رجال البلاط لمصاحبة بعثة عائدة إلى بلادها، يضفى على البعثة العائدة إحساساً بالأمن عند مرورهم فى بلاد مضيفهم، وخلال وعبر مناطقها المختلفة، كما يضفى عليهم الحماية ضد أية مضايقات، يمكن أن يتعرضوا لها من المواطنين أو من بيروقراطية حرس الحدود والحاميات، أو من الموظفين المحليين.

وكانت مدة البعثة من لحظة حمل الرسالة حتى تسليمها والإقامة فى بلاط المضيف تتفاوت إلى حد كبير، كما لم تكن محددة المدة، وكان ذلك يتوقف على عوامل كثيرة. كان من تلك العوامل الأحوال المناخية الموسمية. فإذا أرسلت على سبيل المثال بعثة من المملكة الحثينية إلى مصر فى آخر الخريف (ونعرف على الأقل واحدة على وجه اليقين ينطبق عليها ذلك)، فإن الجليد يمنعها من العودة فى الشتاء، ولذلك تؤجل عودتها حتى الربيع

التالى. لم يكن ذلك يشكل أية صعوبة لو قارنا شتاء مصر المعتدل بشتاء منطقة الأناضول. وقد تبينا أن عدداً من المبعوثين الدبلوماسيين كانوا يستقرون لأوقات غير محددة فى الممالك الأجنبية، أى **«مبعوثين مقيمين»**، غير أن هذا لا يقارن بالسفارات الدبلوماسية الحالية مهما صغر حجمها(19).

كانت الإقامة الطويلة فى بلد أجنبى تتيح لأفراد البعثة فرصاً جيدة لجمع المعلومات عن شتى المناحى. وكان ذلك سبباً رئيسياً فى حرمان مبعوث ما من العودة إلى بلاده. وكان أى ملك لديه أفراد بعثة أجنبية ويعلم أنهم قاموا ببعثات سابقة إلى ممالك أخرى، كان يسعى إلى استخلاص كل ما يعرفونه من معلومات عن تلك الممالك الأخرى التى ذهبوا إليها. وكان على قمة تلك المعلومات حالة العلاقات بين كبار الملوك الآخرين، فهو الموضوع الذى ظهر بشكل أو بآخر فى عدد من مراسلات كبار الملوك.

هل كانت العلاقات ودية؟ هل كانت هناك أية أنواع من النزاعات بينهم؟ وكان لا يقل أهمية لديه أن يعرف إن كان أى ملك من أنداده يحظى بمعاملة من ملكهم أفضل مما يلقاه هو.

بتلك الوسائل ظل كبار الملوك على اتصال بكل مجريات الأحداث على المستوى الدبلوماسى الدولى، ولم يكونوا ليترددوا فى إظهار أى جانب يضايقهم من الملوك الآخرين فى نصوص رسائلهم، من إهانات حقيقية مقصودة أو متخيلة،أو بسبب الاهتمام بملك آخر أكثر من الاهتمام به شخصياً، أو رداءة وتفاهة وحقارة الهدايا المرسلة إليه من ملك آخر، أو إغفال ذكر صعود ملك إلى عرش، أو مرض ملك، كما أشاروا مراراً وتكراراً فى رسائلهم إلى منع الملوك الآخرين لمبعوثهم من العودة إلى بلادهم.

كانت هناك مناسبات كثيرة منع فيها المبعوثون من العودة إلى بلادهم رغماً عنهم، ورغماً عن ملكهم، اشتكى بارنابورياش الثانى إلى أخناتون

فى إحدى رسائله قائلاً: **«لقد احتجزت مبعوثى إليك عندك عامين حتى الآن، وطلب منه إطلاق مبعوثه فى الحال»**(20). كما اتهم سلفه كاداشمان- انليل الأول امونحتيب الثالث أبا أخناتون بأنه احتجز أحد مبعوثيه إليه لمدة ستة أعوام (21). وفى مناسبة أخرى احتجز رسل أحد الولايات السورية الخاضعة لنفوذ مصر وهى ولاية تونيب، احتجزوا فى مصر لما لا يقل عن عشرين عامًا. (22)

كانت هناك أسباب عديدة، كما سنرى فيما يلى، وراء عدم عودة بعض الموفدين إلى بلادهم لأزمان طويلة. ومهما كانت تلك الأسباب، كانت عودة أى مبعوث إلى بلاده متوقفة على موافقة الملك المضيف على عودته. وتضمنت كثير من الرسائل إلى فراعنة مصر طلبًا بعدم حجز الرسول بعد انتهاء مهمته. وكتب الملك الآشورى آشور- أوباليت إلى ملك مصر قائلاً: **«لا تؤخر الرسول الذى أرسلته إليك، دعه يقوم بزيارته ثم يعود إلى بلده، دعه يعرف ويرى ما تريده أن يعرف ويرى من بلادكم، ثم اسمح له بالعودة»** (23) **«وعلى ذلك أرسلت إليك قيليا كبير وزرائى وتونيب- إبرى»،** كما كتب الملك الميتانى توشراتا إلى فرعون مصر أمونحتيب الثالث قائلاً: **«قد يسمح أخى لهم بالعودة فى الحال، حتى يمكن أن يعودوا إلىّ سريعًا»**(24).

فى حالات كثيرة، لم يكن حجز المبعوثين بمثابة عقاب لهم أو بمثابة عمل عدوانى. كانت هناك رسميات لابد من اتباعها قبل أن يسمح للموفدين بالمغادرة، وكان الانتهاء من تلك الرسميات يستلزم بعض الوقت. ولم يكن للموفدين أنفسهم ولا للملوك الذين أوفدوهم أى قدر من السيطرة على طول مدة بقائهم، إذا لم يكن الملك المضيف ذاته مهتمًا بعودتهم. كانت الإقامة الطويلة للموفدين تعود فى بعض الأحيان إلى البطء البيروقراطى الوظيفى، أو لعدم إبلاغ المسئولين للملك بشأن رجوعهم، حتى يعطى موافقته على عودتهم، أو ببساطة لهوى وغرض فى نفس الملك المضيف. وقد يعود طول الوقت أيضًا إلى طول الزمن الذى قد يستغرقه

إعداد الرد على الرسالة التى أتوا بها، ليعودوا به إلى ملكهم، أو فى إعداد الهدايا التى سترسل معهم، أو فى الانتهاء من وسائل إعداد عروس ملكية تعود معهم إلى ملكهم.

أرسل الفرعون أمونحتيب الثالث مين، أكبر مبعوثيه الدبلوماسيين وأفضلهم إلى الميتانيين، لمصاحبة تادوحيبا ابنة الملك الميتانى توشراتا للقدوم إلى مصر، ليتخذها زوجة. ومر زمن طويل منذ أن غادر المبعوث مين أرض مصر دون أية أنباء منه أو عنه. وبانزعاج شديد، كتب أمونحتيب إلى توشراتا ليعلمه بما يجرى. ولدينا رد توشراتا على تلك الرسالة، وشرح فى تلك الرسالة أن مين قد استبقى فى ميتانى، بسبب الوقت الذى يستغرقه إعداد الأميرة وتهيئتها للسفر إلى مصر. وطمأن ملك مصر ألا يقلق على أمن ورفاه مبعوثه، قال فى رده: **«إنه ليس مريضًا، إنه لا يلفظ أنفاسه الأخيرة، هو مازال كما هو. لقد قمت بالفعل بمعاملته هو وقوات أخى التى صحبته أفضل معاملة وبحفاوة وتشريف وتميز»** (25).

ولا نعلم بدقة المدة الزمنية التى بقى فيها (مين) لدى الميتانيين، حين بعث توشراتا بالرسالة السابقة إلى أمونحتيب الثالث. ولكن توشراتا أخبره أنه مازال أمامهم ستة أشهر أخرى، قبل أن تصبح الأميرة العروس جاهزة للقدوم إلى مصر، بمصاحبة (مين) كبير مبعوثى أمونحتب الثالث.

أحيانًا ما كان احتجاز الرسول يحدث كنوع من العقاب. كان الاحتجاز يوظف لمعاقبة مرسل على جرم أو سلوك سئ ارتكبه فى بلد مضيفه، وسنذكر أمثلة على هذا النوع من الاحتجاز فيما يلى، إلا أنه كان يحدث أحيانًا أن يحتجز الرسول لا لجرم ارتكبه بل لاستياء المضيف من ملك الرسول لشىء فعله أو من شىء لم يفعله، وكان يجب عليه أن يفعله. حتى على مستوى الشجار والنزاع بين الموظفين المحليين فى مختلف أنحاء المملكة، وصل إلينا تهديدات موظف لموظف آخر بأنه سيسجن أو يحجز خدمه أو من يمتون إليه بصلة إذا وطئت أقدامهم منطقة نفوذه (ارجع إلى الفصل 10). وأحيانًا ما كان المبعوثون إلى بلاط ما يجدون أنفسهم

يعاقبون، كرد فعل لما فعله ملكهم مع مبعوثى البلاط الأول. كتب توشراتا إلى أخناتون بلهجة احتجاج شديد:

«لقد أشرت إلى ذلك فيما سبق لأخى (أخناتون)، سوف أحجز (مين) رسول أخى إلى، حتى يدع أخى رسلى يرحلون من عنده ويعودون إلىّ. والآن أجد أخى يرفض تماماً أن يدع رسلى يرحلون من عنده، ووضعهم تحت حراسة مشددة».(26)

على عكس ذلك تماماً ما نجده فى عالم الدبلوماسية المعاصر لنا، ففى عالم الدبلوماسية الحالى نجد أن دولة ما تقوم بطرد أفراد البعثة الدبلوماسية عند وقوع نزاع شديد لا سجنهم ومعاقبتهم، أو عندما تستاء دولة ما من سلوك أولئك الدبلوماسيين الخارج عن التقاليد والأعراف المراعاة فى الدولة التى يمثلون بلادهم فيها. ويتشابه العالم القديم مع العالم المعاصر فى سرعة رد الفعل تجاه مثل تلك الخروقات مع اختلاف الوسائل.

قام أخناتون بحبس مبعوث مملكة آلاسيا، كنوع من الاحتجاج ضد فعل قام به بعض أبناء بلده، إذ أغاروا على ساحل مصرى كعمل من أعمال القرصنة، كان أولئك القراصنة يغيرون على السواحل الشرقية للبحر المتوسط من قاعدة لهم على الشاطئ الجنوبى لمنطقة الأناضول، فى منطقة تدعى لوكا فى النصوص الحثينية. وكتب أخناتون إلى ملك آلاسيا يتهمه هو ورعيته بالضلوع فى تلك الاعتداءات. وأنكر ملك آلاسيا تلك التهمة بسخط وغضب، وقال فى رده:

«لماذا تتهمنى يا أخى هذا الاتهام؟ أنا لم أفعل شيئاً من ذلك». وعلى عكس ذلك، أعلن كاتب الرسالة أن مملكة آلاسيا ذاتها تعانى من هجمات القراصنة:

«إن رجال لوكا يهاجمون القرى فى بلدى عاماً بعد عام»(27) ومضى فى رسالته مطمئناً فرعون مصر أن رعيته لا يمكن أن تشارك فى مثل تلك الأعمال.

وفى الحقيقة، لم تكن ادعاءات الفرعون بلا أسانيد، فبعض الأسرى من القراصنة كان من بينهم رعايا من مملكة آلاسيا. إلا أن ملك آلاسيا أراد أن يتوصل إلى الحقيقة فى تلك المشكلة، فقال فى رسالته:

«لو كان من بين الأسرى رجال من بلادى، أرسلهم إلى وسأقوم بما يجب».

ورغم ما ذكره، لم يكن ليصدق أن رعاياه من الممكن أن يقوموا بأعمال قرصنة، فأردف:

«أنت بالفعل لا تعرف شيئًا عن رجال بلادى، لا يمكن أن يقوموا بمثل تلك الأعمال».

ثم يواصل رسالته قائلاً:

«إن كان رجال من عندنا قد قاموا بتلك الأعمال فعلاً، فلك الحق أن تفعل ما تراه ملائمًا».

وتمتلئ الفقرة بأجمعها بالتناقض. وتبدو كل جملة وكأنها تناقض سابقتها، فمرة يذكر أن رجاله لا يمكن أن يسلكوا ذلك السلوك. ولكن إن كانوا قد فعلوا، فإنه يجب إرسالهم إليه لمعاقبتهم بنفسه، إلا أنه لا يمكن أن يكونوا قد فعلوا ذلك. ولكن إن كانوا قد ارتكبوا ذلك الجرم، تصرَّف أنت معهم بما تراه ملائمًا لك.

وتنبئ تلك التناقضات الكثيرة فى نص الرسالة بأنها كتبت بتعجل فى غياب الخبراء المعنيين بكتابة الرسائل الدبلوماسية، وربما كان المختص بكتابة الرسائل فى بلاطه هو المبعوث المحتجز فى البلاط المصرى. وأجبر رفض فرعون مصر إطلاق سراح مبعوث ملك آلاسيا على القيام بدور المبعوث، وبدا أن ذلك هو جوهر ولب الرسالة، إلا أن البروفيسور موران يعلق على مضمون تلك الرسالة قائلاً: «إن تلك الفقرة تحمل من التضارب والتناقض، حتى إنه يمكن تفسير النص على عدة أوجه»، وهو ما يدل دلالة واضحة أن نص الرسالة قد كتب، دون الاستعانة بالمختصين في مجال الكتابة الدبلوماسية.

وحتى لو كف أحد الملوك عن إرسال مبعوثيه إلى مملكة ما، فإن ذلك كان يعد كعمل من أعمال العدوان، ويبلغ أثر ذلك السلوك مبلغًا قد يؤدى إلى إفساد العلاقات بين المملكتين، أو على الأقل بين الملكين نفسهما. حدث ذلك حين انزعج حاتوسيلى الثالث بعد إرتقاء كاداشمان- إنليل الثانى عرش بابل، وامتنع عن إرسال أى مبعوثين من لدنه إلى البلاط الحثينى. وكتب إليه حاتوسيلى يسأله عن سبب ذلك، ورد كاداشمان على رسالته مختلقًا أعذارًا واهية: **«لأن الأحلامو يكنون عداء لنا، فقد أوقفت إرسال المبعوثين.. الملك الآشورى يمنع رسلى من المرور عبر بلاده»**. ورد عليه حاتوسيلى رافضًا تلك الأعذار المختلفة قائلاً: **«هل مملكتك من الصغر حتى إن الأحلامو يمنعون رسلك، ومن هو ذلك الملك الآشورى حتى يمنع رسلك من المرور، بينما يمضى رسلى جيئة وذهابًا عبر بلاده دون معارضة»؟.**

أما السبب الحقيقى لامتناع كاداش- إنليل الثانى عن إرسال مبعوثيه، فقد كان يرجع لسبب آخر كما ظن حاتوسيلى. كان السبب يعود إلى المستشار السئ للملك كاداش- إنليل، وهو إنى- ماردوك- بالاتو، الرجل الذى تركته الآلهة يعيش طويلاً، والذى لا يتوقف لسانه عن ذكر السوء والشر. كان ذلك على الأقل ما رآه حاتوسيلى فى وزير كاداش إنليل، والذى كان ينهج نهجًا معاديًا للحثينيين، فى الوقت الذى كان يميل فيه كل الميل للآشوريين، وكتب إليه محذرًا:

«انتبه، لا يتوقف ملكان عن تبادل المبعوثين، إلا إذا كانت بينهما عداوة» (28).

مبعوثون يعاملون بقسوة

كانت معاملة الملوك لبعض المبعوثين سببًا فى كثير من الشكاوى، حتى فى الحالات التى تكون فيها العلاقات بين ملكين على أفضل ما يراد لها من ود وتقدير متبادل.

فكبار المبعوثين الأجانب لم يكونوا ليثقوا على الدوام فى حصولهم على التقدير والاحترام، الذى يكفله لهم وضعهم المتميز. كان من الممكن أن يعاملوا بطريقة مهينة فى مملكة أجنبية أو يتم تجاهلهم، وكان ذلك يعود فى بعض الأحيان إلى أن الملك المضيف قد ضايقه سلوك ما من ملكهم، أو فى أحيان أخرى لاعتبار الملك المضيف أن ملك المبعوث لم يعد صنوًا ولا ندًا له. وذلك يفسر سلوك رمسيس المزدرى لمبعوثى بابل الذين سعوا لزيارة أميرة بابلية فى مصر. فمما ذكرناه قبل ذلك عن مسودة الرسالة التى كانت بودوحيبا قد أرسلتها إلى الملك رمسيس وذكرناها فيما سبق، يتولد لدينا انطباع بأن رمسيس لم يعد يعتبر إن حاكم بابل يستحق لقب «ملك عظيم» (29)، وإن كان قد قز فى نفسه هذا الانطباع عن ملك بابل، فإن ذلك يدفعه إلى اللامبالاة بمبعوثيه. وكان فقدان الاعتبار من ذلك الصنف من الممكن أن يؤدى إلى قطع العلاقات الودية.

كان ممثلو ومبعوثو الدول الصغرى لا يأملون ولا يمنّون أنفسهم بمقابلة أحد كبار الملوك. بغض النظر عن مدى إصرارهم وإلحاحهم على ذلك.

وأحيانًا ما كان الرسل يخاطرون باحتمال تعرضهم إلى مصير سئ فى بلاد الملك المضيف. وكان ذلك سببًا فى الاعتراض والاحتجاج شديد اللهجة الذى أرسله الملك الآشورى آشور- أو باليت إلى الملك أخناتون، بسبب معاملته السيئة للمبعوثين الآشوريين المرسلين للبلاط المصرى. كان مسئولو المراسم المصريون يتركونهم واقفين لساعات طويلة تحت شمس مصر الحارة، حتى يوشكوا على الهلاك والموت، وتساءل فى رسالته: (30)

«لماذا يجبر رسلى على الوقوف تحت أشعة الشمس لفترات طويلة، حتى يتعرضوا للموت من ضربة الشمس».

ثم يضيف:

«إذا كان فى وقوف رسولى لأوقات طويلة تحت شمس حامية أى فائدة للملك، إذن دعه يظل فى الشمس حتى يموت فى مكانه من ضربة الشمس،

هذا إذا افترضنا أن فى ذلك فائدة للملك» (31)

والسخرية واضحة فى نص الرسالة. إلا أن ذلك يثير تساؤلاً إن كان الفرعون مذنبًا فى الإساءة عن عمد لضيوفه الأجانب. وقد يكون الأمر على عكس ذلك، إذا أخذنا فى الاعتبار تفسير بروفيسور ردفورد بعيدًا عن تفسير ذلك السلوك بأنه نوع من العقاب، فإن مبعوثى آشور- أو باليت كانوا مساهمين- حتى لو كان رغم إرادتهم- فى طقوس طويلة لعبادة الشمس، التى كان يمارسها الفرعون المصرى مع كبار رجال الدولة. (32)

والفقرة التى تثير تلك التساؤلات مازالت مطروحة للبحث. ولو كان ردفورد محقًا فيما ذهب إليه، فإن تلك الفقرة تعد المصدر الوحيد (وهو غير مباشر تمامًا) في كل نصوص رسائل تل العمارنة التى تشير إلى ديانة أخناتون وعبادة الشمس. إلا أن ذلك لم يكن ليؤثر على ضيق آشور- أو باليت، فمراعاته للمعتقدات الدينية التى يؤمن بها إخوه الملك، وممارساته وطقوسه لم تكن لتحظى باهتمامه كثيرًا بقدر اهتمامه بسلامة وراحة مبعوثيه.

وفى مناسبة تالية لما سبق بعقود كثيرة كتب حاتوسيلى الثالث إلى الملك رمسيس متسائلاً عن المعاملة التى لقاها أحد المبعوثين الحثيين إلى مصر، قال فى رسالته:

«أرسلت مبعوثى زيووا إليك فى مهمة، ليحظى بمقابلة أخى الملك، ويبلغه كلماتى، فلماذا لم تدعه يعد؟» (33)

ولم يترك الفرعون لأخيه الملك مجالاً للشك عما حدث لمبعوثه، فقرر قائلاً:

«ومن يكون ذلك الكلب؟»

وأخبره أنه أمر بتكبيل ذلك التعس زيووا أيدى وأقدامًا. ولا نعلم ما الذنب الذى اقترفه المبعوث زيووا ليلقى ذلك المصير البائس، إلا أن المؤكد أنه أوقع نفسه فى مشاكل خطيرة مع السلطات المصرية. بل بلغت تلك المشكلة حدًا من الخطورة جعلته يواجه احتمال الحكم بإعدامه، فقد سجل

حـاتوسـيلى: **«ليس من الصـواب قـتل مـبـعوث»**، إلا أن رأى رمـسـيس لم يتغير. إلا أنه طمأن أخاه الملك أن المبعوث الحثينى الآخر الذى كان بمصر فى الوقت ذاته (ضـاع اسـمـه ولم يبق منه إلا حـرف «أ») سيلقى المعـاملة التى تسـعـد سـيـده وترضـيـه، أمـا مـوضـوع زيووا ومـصـيـره فـقـد أصـبـح موضوعًا منتهيًا. ويبدو أن أسوأ مخاوف ملكه (وبلا شك أسوأ مخاوفه هو أيضًا) قد تحققت.

ويبـدو من رفض رمـسـيس لطلب حـاتوسـيلى فى هذا الشـأن أن الحصـانة الدبلومـاسـية لم تكن لتـعنى شـيـئًا فى عالم العـصـر البـرونزى المتأخر.

ويحتمل أن ذلك لم يكن ليشمل كل المناسبات والظروف المماثلة. ففى عهد حكم أخناتون، سمح لمبعوثين من مبعوثى الميتانيين يدعوان ارتاشوبا وعسلى اللذين خالفا القانون، أثناء مهمة لهما بمصر بالعودة إلى بلدهما، وذلك بافتراض أن ملكهما سيتخذ بنفسه ما يراه ملائمًا لمعاقبتهما، وفى خطاب من الملك الميـتـانى توشـراتا لأخناتون، أكد له أن العـدالـة سـتـأخـذ مجراها بدقة شديدة فى حق المبعوثين المخالفين للقانون المصرى، ومَثُل المذنبان أمام توشراتا مكبلين بالأغلال والأصـفـاد، وتم نفـيـهـمـا إلى مدينة حدودية من بلاد الميـتانيين. ولم يقدم توشراتا على إعدامهما، على الأقل حتى تصله معلومات تفصيلية عن طبيعة الجرم الذى ارتكباه (34).

مزايا ومخاطر العمل الدبلوماسى قديمًا

انضـوى فى عـالم الدبلومـاسـيـة القديمة بعض الأشرار وحثالة البشر، كـمـا سـنرى فـيـمـا يلى. إلا أن عـالم الدبلومـاسـيـة القـديم ضـم أيضًـا بين صفوفه كثيرًا من الشرفاء أصحاب المراكز المرموقة، والذين نالوا احترام وثقة الملوك الأجانب، بنفس القدر الذى حظوا به من ملوكهم. وقد قـامـوا بالفعل بمهام فى غاية الأهمية فى مجال العلاقات بين كبار الملوك، حتى بلغ الأمر أن أحد الملوك كان يطلب من أخيه الملك أن يوافيه بمبعوث معين

بالاسم؛ للاستفادة من خدماته. وهكذا، نجد أن بارنا بورياش الثانى طلب من أخناتون أن يبعث إليه بعظيم القدر حايا، ليرأس الوفد المرافق للأميرة البابلية القادمة من بابل، لتصبح زوجة أو إحدى زوجات فرعون مصر(35). كذلك أصبح المبعوث المصرى (مين) من أقرب المقربين والمفضل لدى توشراتا ملك الميتانيين، وذلك أثناء وجوده هناك، أثناء تجهيز ابنة توشراتا، قبل انتقالها إلى مصر للزواج بالفرعون. وذكر توشراتا عن مين فى إحدى رسائله للفرعون(36):

«لا يوجد مثيل له فى العالم كله»

وحين كتب توشراتا بعد ذلك إلى آمونحتيب ملك مصر، طالبًا منه إرسال مبعوث مصرى لمصاحبة رسله العائدين من مصر إلى بلادهم، لم يترك طلبه دون أن يذكر من يريده على وجه التخصيص:

«هل لأخى أن يرسل (مين). ليعلم أخى أنه لو أرسل أحدًا غير مين، أنا لا أريده، كلا، لا ترسل سوى مين»(37).

كان المبعوثون يتلقون أيضًا هبات ثمينة من الملوك المرسلين إليهم. كانت الهدايا تأتى فى قيمتها في مرتبة تالية للهدايا المرسلة معهم إلى ملوكهم. وكانت المكافآت والهدايا التى يحصلون عليها تتناسب مع المهام الملقاه على عواتقهم. وباستثناء المهارات السياسية العالية التى تتطلبها مهنتهم، كان نمط الحياة التى يحيونها في خدمة سادتهم يلقي عليهم أعباء بدنية هائلة، وأحيانًا ما كانت تلك المهام تعرضهم لمخاطر شديدة، فى انتقالهم سيرًا على الأقدام أو على عربة تجرها خيول، وكانوا معرضين لاجتياز بلاد ومناطق غير مضمون سلامتهم فيها، حتى لو كانت تصحبهم حراسة عسكرية ٠(انظر الصفحة التالية). كانت الأحوال البيئية القاسية، والطقس القائظ الحرارة، وشح مصادر المياه أو انعدامها فى بعض المناطق، جانبًا من المخاطر الطبيعية التى يواجهونها، وهو ما ذكره بورنا بورياش لأخناتون فى إحدى رسائله إليه(38). عدا ذلك كانوا يواجهون مخاطر الحيوانات المفترسة، وبنفس القدر من الأفراد الخارجين على

القانون، قال بورنا بورياش فى رسالته عن المبعوثين:

«يذهب حامل الرسائل إلى بلاد أجنبية، بعد أن يوزع أملاكه على أبنائه، فهو معرض لهجوم الأسود أو هجوم الأسيويين» (39) وكانت السلطات المحلية في الأقاليم تعجز عن حماية المبعوثين، عند مرورهم عبرها من هجمات الخارجين على القانون أو جماعات المتمردين. كان المبعوثون يلجأون للتغلب علي تلك المخاطر إلى الانضمام إلى جماعات كبيرة مرتحلة في مساره ذاته مثل قوافل التجارة. وبالفعل قام التجار فى بعض الأحيان بمهمة المبعوثين من ملوكهم (40). ولكن بالرغم من أن القوافل الكبيرة ذاتها فى أحيان كثيرة لم تكن ضمانًا كافيًا للحماية من هجمات الجماعات المتمردة بالجبال مثل عصابات الحابيرو (41) وإن أخذنا على محمل الجد شكوى أخرى لبورنا بورياش بعث بها إلى فرعون مصر، فإن الحكام التابعين لفرعون مصر، مثل حاكم دمشق، لم يكن ليتعفف عن مهاجمة ونهب القوافل التجارية البابلية (42). ومن غير المعروف إن كان أخناتون قد صوَّب وقوَّم تلك السلوكيات أم دفع التعويض الذى طلبه أخوه الملك البابلى؟ ونظن أن كثيرًا من الجرائم من ذلك الصنف قد مرت دون عقاب، وكان ذلك بحد ذاته حافزًا على مزيد من الاعتداء على العابرين الأجانب، سواء كانوا مبعوثين أو تجارًا.

وسواء كانوا ينتقلون مستقلين أو برفقة قافلة تجارية، كانت الوفود الأجنبية بوجه عام تزود بحماية عسكرية، سواء من بلدهم أو من لدن الملك المضيف، وهم فى طريق عودتهم إلى بلادهم. كان حجم فرقة الحماية العسكرية يزيد حين تكون بصحبة الوفد كميات كبيرة من الهدايا الثمينة، وعلى وجه الخصوص إذا ضمَّت البعثة المرتحلة شخصيات مرموقة مثل عروس ملكية تنتقل إلى زوج المستقبل فى الدولة المنتقلة إليها.

كان الوقت الذى يستغرقه رسول فى الانتقال من بلاط ملكه إلى بلاط الملك المرسل إليه يتوقف على عناصر كثيرة. وتم تقدير المسافة التى يمكن أن يقطعها الرسول فى اليوم أنها تتراوح من 27 إلى 37 كيلو مترًا، أو 17

إلى 23 ميلاً (43). ونعرف من إحدى رسائل توشراتا إلى أخناتو أن قطع المسافة بينهما والعودة فى ثلاثة أشهر يعد زمنًا قصيرًا (44) ونعرف من تلك الرسالة أيضًا أن الرسول جلب معه عند عودته إلى عاصمة الميتانيين أربعة أجولة مليئة بالذهب، وكثيرًا من المجوهرات والمشغولات الثمينة كهدية من فرعون مصر إلى توشراتا ملك الميتانيين، ولابد أن نفترض أنه اصطحب معه هدايا لا تقل قيمة إلى فرعون مصر من ملك الميتانيين. ولابد أن اصطحاب هدايا بذلك القدر كان يبطئ من حركة الرسول، بافتراض أن وسائل حماية البعثة متوفرة في الذهاب والعودة في مثل تلك الحالات، وطبقًا لحجم البعثة وحراستها، فإننا نتوقع أن أية رحلة بين بلاط الفرعون المصرى وبلاط أحد كبار الملوك المعاصرين له والعودة ، كانت تستغرق على الأقل بين أربعة وستة أشهر (45).

لقد أشرنا إلى المخاطر البشرية والطبيعية التي كان مبعوثو الملوك يتعرضون لها أثناء قيامهم بذلك العمل. كما لم نستثن الموظفين المحليين، الذين كانوا أحيانًا وراء الهجوم على المرتحلين من مبعوثين، وحتى لو لم يصل بهم الأمر إلي الهجوم واغتصاب المقتنيات الثمينة المرسلة من أحد الملوك إلي ملك آخر، فقد كانوا يطلبون دفع جعل من المال علي تلك المقتنيات. وكانت البعثات الأجنبية القادمة إلي دولة ما والمصحوبة بممثلين لملك الدولة المضيفة يستثنون من ذلك. وفي المناسبات كان أحد الملوك يتلقى طلبًا من أخيه الملك أن يؤمن ويضمن سلامة مرور التجار التابعين له، وإعفائهم من دفع ضرائب عند مرورهم فى بلاد الملك الآخر (46).

وأحيانًا ما كانت البعثات والوفود الأجنبية تزود بنوع من وثائق السفر مماثل لجواز السفر الحالي وصادر عن بلاط ملكى، مثل وثائق السفر التي زوَّد بها الملك توشراتا مبعوثيه، لتسهيل سفرهم إلي مصر، وتيسير انتقالهم عبر البلاد الخاضعة لهيمنة الفرعون، ومسجل بتلك الوثائق النص التالي:

«رسالة إلى كل ملوك كنعان، رعايا أخى (ملك مصر). هذا ما يذكره

الملك (الميتانى): «أنا أبعث رسولى أكيا إلى ملك مصر، أخى، فى مهمة عاجلة. ممنوع على أى إنسان تعويقه. سهّلوا له الوصول الآمن إلى مصر. واصحبوه إلى مسئولى الحدود المصريين. وممنوع على أى إنسان مهما كان السبب أن يمسه بأى سوء»(47)

ولا نعلم مدى فاعلية تلك الوثائق فى حماية المبعوثين من مضايقات المسئولين المحليين في المناطق الخاضعة. وفى أغلب الأحوال كان الأمر يتوقف على حجم البعثة العسكرية المرافقة للرسل؛ لتأمينهم وحمايتهم، والتأكد من توفير المرور الآمن لهم.

4



الحب الأخوى

كانت المراسلات بين كبار الملوك تفيض بعبارات الحب الأخوى من ملك لأخيه، وإعلان المشاعر القلبية، وتمنى أفضل الأحوال الصحية وكامل الرفاه لملكة أخيه بأجمعها، بادئًا بعائلة أخيه الملك، ومنتهيًا إلى كل رجال بلده، وخيوله، وعرباته، بل وكل البلاد الخاضعة له. وأثناء حقبة تل العمارنة أصبح «الحب» أحد المصطلحات الدبلوماسية الدولية(1).

وأصبح المصطلح الأكادى الذى يعنى «الحب» رامو ramu أو راآمو ramu (ومشتقاته)، يعنى الحب المخلص والتفانى فيه، وراح يذكر بغزارة في المراسلات المتبادلة بين الدولة المصرية والدولة الميتانية. وأثناء الأعوام الأخيرة من حكم آمونحتيب الثالث كان التحالف المصرى الميتانى قد توثق بزواج الفرعون من الأميرة الميتانية «تادوحيبا»، ابنة الملك توشراتا(2). إلا أن لحم وليمة العرس المطهى كاد أن يكون جزءًا من وليمة دفن آمونحوتيب. والمعتقد أن آمونحتيب قد مات بعد فترة قصيرة بعد زواجه من الأميرة الميتانية، وكان الشغل الشاغل لزوجته الأثيرة الأولى والمفضلة (تايى) أن تظل الروابط القوية التى أرساها زوجها الراحل بنفس القوة والمتانة فى عهد ابنها أخناتون، الذى خلف أباه على عرش مصر. كان وجود ملك جديد يعنى التوصل إلى اتفاقات جديدة مع الملك الميتانى توشراتا، وودت الملكة الأم (تايى) أن لا تنقطع العلاقات الودية والدبلوماسية بين الدولتين.

واستدعت الملكة (تايى) السفير الميتانى (كيليا)، وسلمته رسالة شخصية منها إلى ملكه. وفي تلك الرسالة ذكَّرت (تايى) توشراتا بالروابط

القوية التى كانت تربط بين زوجها ووالد توشراتا الملك شوتارنا الثانى وهى الروابط التى حافظ عليها توشراتا ذاته بعد موت أبيه. وانعكس ذلك على السفارات التى دأب آمونحتيب على إرسالها إلي البلاط الميتانى.

وطلبت تايى من توشراتا أن يحفظ تلك الروابط قائلة:

«لا تنس حبك لـ «ميميوريا» (آمونحتيب)، وليكن لديك حب أكبر لـ «نافوريا» (أخناتون)، واستمر فى إرسال سفاراتك، واحدة بعد أخرى. لا تقطع الاتصال ولا توقف مبعوثيك».

وسرعان ما راح توشراتا يطمئنها قائلاً:

«لن أنسى أبدًا حبى لزوجك، أما ابنك نافوريا، فإن حبى له سيتضاعف عشر مرات» (4).

وأرسل توشراتا رسالة إلي الفرعون الجديد تحمل المعنى نفسه: **«يذكر أخى ذلك: بقدر ما أظهرت حبك لأبى ميموريا، فأظهر الآن حبك لى. وبما أن أخى راغب فى حبى له، هل لا أرغب أنا فى حبه لى؟ فى هذه اللحظة ذاتها أنا أظهر لك حبًا يفوق حبى لأبيك عشر مرات»** (5)

ولو أخذنا فى الاعتبار الصدام اللائح فى الأفق بين الميتانيين والحثينيين، فلا تدهشنا تلك الاستجابة الحميمة من توشراتا لمبادرة أخناتون وأمه. فتجديد العهود وتقوية التحالف مع مصر ستترتب عليه فوائد استراتيجية كثيرة، قبل وقوع التناطح المصيرى بين الميتانيين والحثينيين.

وحتي تتوافق مواقفه مع تعبيرات الحب الأخوى والاهتمام بملك عظيم، كانت الأخلاقيات الدبلوماسية تتطلب إظهار الأسى والحزن علي موت ذلك الملك الزميل، فكتب توشراتا إلى أخناتون قائلاً:

«حين علمت بموت أخى نيموريا(6)، بكيت في ذلك اليوم، ولم أذق طعامًا ولا شرابا. وفى غمرة أحزانى قلت: ليتنى أموت، أو ياليت عشرة آلاف من بلدى أو عشرة آلاف من بلد أخي يموتون ويحيا أخى الذى أحبه والذى أحبني عمرًا مديدًا كالسماء والأرض»(7).

ومن الواضح أنه كانت هناك مغالاة فى إظهار المشاعر، إلا أنها لم تكن لتخلو من حزن حقيقى لموت أخ ملكى، ولو حتى لأسباب نفعية. فقد وجد حاتوسيلي الثالث ملك الحثيين بعد موت الملك كاداشمان- تورجو الذى كان حليفًا له، أن من خلفه على العرش (كاداشمان- إنليل)- ميلاً أقل من والده للصداقة والتعاون مع حاتوسيلى،على الأقل فى البدايات المبكرة لارتقائه العرش، ومن ثم كانت الرغبة في الحفاظ علي الاتصال مع ملك جديد للإبقاء على العلاقات القوية التي تم تأسيسها مع الملك الراحل، بل تقويتها إن أمكن، لذلك كتب حاتوسيلى إلي الملك الميتاني الجديد كاداشمان- إنليل قائلاً:

«حين أقمنا أنا وأبوك علاقات ودية وأصبحنا أخوين محبين لبعضهما، لم نكن إخوة ليوم واحد فقط، ألم نؤسس علاقة الإخوة لتكون أبدية؟ ثم توصلنا إلى اتفاق فيما بيننا كما يلي: نحن فانون، من يبقى حيًا بعد أخيه سوف يحمى أبناء من يمت أولا»(8).

كانت الاستمرارية هى مفتاح الاستقرار، وكان الحزن على موت ملك راحل تختلط بفرحة صعود ملك جديد من بعده، وإعلان جديد بالثقة أن كل شيء فى المستقبل سيظل كما كان فيما مضى. فبعد أن أظهر توشراتا الحزن اللائق بموت أمونحتيب، أردف قائلاً:

«وحين علمت أن أكبر أبنائه نافوريا(9) أصبح الآن ملكًا محل أبيه، قلت: لم يمت أخي نيموريا. ابنه الأكبر نافوريا أصبح ملكًا فى مكان أبيه. لم يتغير شيء عما كان عليه فيما سبق» (10).

وآخر جملة هى التى تحمل المعنى والمغزى المراد قوله، وهو أن: **«شيئًا لم يتغير عما كان عليه فيما سبق»**، إلا أن كل طرف كان يتطلب تطمينًا مستمرًا وتأكيدًا متكررًا لذاك المعنى. لذلك كانت تتكرر الشكوى أن الهدايا المرسلة لأخ ملكى كانت أقل وأردأ من تلك التى كان يرسلها أبوه الراحل، سواء إلى المرسل إليه أو إلى سلفه المتوفى.

وكما لاحظنا من قبل، كانت المشاعر الحميمة ودرجة المحبة الأخوية

تترجم بلا أى خجل، أو تحشم إلى مصطلحات مادية. كانت الهدايا تمثل أسهل طريقة ملموسة لقياس مقدار ذلك الحب. وسنرى عدداً من الأمثلة على ذلك فى الفصل التالى.

عامل الجغرافيا

كانت هناك وسائل أخرى لقياس ذلك الحب الأخوى، أو انعدامه الظاهر. فمثل زوج قلق من زواج غير مستقر، يصبح ملك فى علاقته بملك آخر على درجة عالية من الحساسية، لأسباب حقيقية أو متخيلة. وهكذا، نجد أن بارنابورياش يشتكى من أن أخناتون لم يظهر أى قدر من المشاعر حين اعتلت صحته:

«منذ أن وصل رسول أخى إلى، كنت مريضاً. اسأل رسولك وسوف يؤكد لك ذلك، ومازلت فى فترة النقاهة من ذلك المرض. ألم يعلم أخى بمرضى؟ لماذا لم يظهر أخى الاهتمام بذلك؟ لماذا لم ترسل أحد مبعوثيك لزيارتى؟» وسعى مبعوث أخناتون إلى طمأنة بورنابورياش من أن ذلك لم يكن متعمداً، وقال له:

«بالطبع كان أخوكم يبعث برسول إليكم (للاستفسار عن صحتكم) لو كان قد علم بمرضكم».

وأشار المبعوث إلى بعد المسافة إلى مصر، وأردف: «**من كان بإمكانه أن يخبر أخاكم على الفور بمرضكم حتى يبعث اليكم بتمنياته الطيبة؟»**

وأبدى بورنا بورياش دهشته من ذلك القول ورد عليه قائلاً:

«إن أخى ملك عظيم الشأن، هل تبعد عليه بلد ما وتقرب إليه بلد أخرى؟»

وأكد عليه المبعوث المصرى أنه ومبعوث بورنابورياش متأكدان من ذلك الأمر، وأن بإمكانه التحقق من صحة ذلك من مبعوثه، وهذا ما فعله بورنابورياش بالفعل قال:

«حين تحققت من رسولى وأكد لى أن مصر على مسافة بعيدة جداً، لم يعد بى غضب»(11).

وجهل بورنابورياش الواضح بجغرافية المنطقة لا يمكن قبوله كحقيقة إلا أنه من المحقق، أنه بعد اندثار أسرة حمورابى، كان حكام بابل نادراً ما ينتقلون إلى ما هو أبعد من الحدود الجنوبية لملكة ما بين النهرين، وظل ذلك قائمًا -على الأقل- حتى بدأ آخر ملوك بابل القسطيين يرسلون الحملات العسكرية لمهاجمة الآشوريين فى شمال ما بين النهرين، ولكن لم يتجاوز أى منهم أبدًا إلى غرب الفرات. ولذلك كانوا- يعكس كثير من إخوانهم الملوك الذين قادوا حملات عسكرية إلى بلاد تبعد كثيراً عن موطنهم- لايعرفون كثيراً من المعلومات الأولية مثل سعة الشرق الأدنى وترامى أطرافه، خاصة إذا أضفنا مصر إلى الشرق الأدنى القديم. إلا أنهم كانوا مدركين أن المسافات التى تفصلهم عن عواصم الممالك الكبرى الأخرى مسافات شاسعة، فعلى سبيل المثال كانت المسافة بين بابل وأخيتاتون حوالى 2000 كيلو متراً، وحتى لو كان الرسول يرحل بأسرع ما يمكنه فى رحلة بين بلاط الفرعون المصرى إلى بلاط أحد الإخوة من كبار الملوك، فإن الرحلة كانت تستغرق من شهرين إلى ثلاثة أشهر، أما البعثات كبيرة العدد كاملة الهيئة، فقد كانت تستغرق وقتًا أطول كثيراً من ذلك، خاصة إذا كانت تصطحب معها حمولة كبيرة من الهدايا. كان بورنابورياش يدرك تمامًا المسافة التى يقطعها مبعوثوه، حتى يصلوا إلى بلاط فرعون مصر والزمن الذى قد يستغرقونه فى مثل تلك المهام. كذلك كان يدرك على نحو واضح أن فرعون مصر لن يقبل للحظة ادعاءه بالجهل ببعد المسافة بينهما.

فكيف يمكننا أن نفسر إذن ذلك الادعاء بعدم المعرفة؟ طبقًا لتفسير بروفيسور جونسون، كان هناك سبب تكتيكى وراء ذلك الادعاء بالجهل الذى اتضح فى نهاية الرسالة، فقد كان بورنابورياش يرسل رسالة ما بين السطور. لم يكن ليشعر بالرضا تجاه فرعون مصر- كان متضايقًا من أمر فعله أو أمر فشل فى فعله- وعبر عن ذلك رمزيًا بأن أرسل إليه هدايا تافهة تقل كثيراً عما هو متوقع، فى الوقت ذاته لم يكن يريد لأن يترك

انطباعًا بأنه بخيل أو غير قادر. لذلك استغل ادعاء طول المسافة ومتاعب السفر (وذلك من المعلومات التى ذكرها المبعوث المصرى والتى تم مضاهاتها والتأكد من صحتها من مبعوثه)، ليبرر بها عدم إرساله هدايا قيمة وثمينة فى تلك المرة (12). ولو اتبعنا تفسير جونسون، لابد أن نفترض أنه كان لدى بورنا بورياش سبب ما لعدم إظهار السبب الحقيقى، لضيقه من فرعون مصر. بدلاً من إعلان سبب ضيقه، استخدم تلك الوسيلة والتى كان يعلم جيدًا أن فرعون مصر سيدرك مغزاها، فضلاً عن ذلك أظهر عدم رضاه وهو متأكد من أن هداياه قليلة القيمة لن تعزى إلى عدم كرمه أو عدم قدرته، وكل ذلك ثابت لدى الفرعون، والذى كان ولابد أن يعرف السبب الحقيقى لضيق أخيه الملك.

إلا أن ادعاء بورنابورياش الجهل بمدى المسافة التى تفصل بلاطه عن البلاط المصرى من الممكن أن يكون حقيقة لا ادعاء. كانت الروابط الأخوية تتطلب أن يواظب كل منهما على الاطمئنان على صحة أخيه الملك وسلامته، وأن يرسل إليه بعبارات الود والاهتمام بشئونه إن علم أنه مريض.

إلا أن بورنابورياش لم يجد بين رسائل الاطمئنان التى وردت إليه من الممالك الأخرى بعد زيوع نبأ مرضه أية رسالة اطمئنان وتمنٍ بالشفاء من فرعون مصر. كان أخناتون على وجه اليقين لم تصله أنباء بمرض بورنابورياش فى وقت مرضه ليرسل له تمنياته بالشفاء، وكان بورنابورياش هو الآخر على يقين من ذلك. إلا أنه كان من الأنسب لبورنابورياش أن يتعامل طبقًا للسبب الحقيقى لإنقاذ ماء الوجه. وبقدر ما أظهر باقى الملوك اهتمامهم بمرض بورنابورياش، أظهر فرعون مصر لامبالاته، وكانوا سيبقون على تلك القناعة لو لم ينكر الفرعون تلك التهمة بنفسه، أو على الأقل عن طريق مفوضيه ومبعوثيه.

لقد لعب بورنابورياش تلك اللعبة الدبلوماسية، فقد راح يظهر غضبه من لامبالاة فرعون مصر بمرضه، وحرص على أن يظهر ذلك لمبعوثى

الفرعون، وأصر على أن يقدموا له تفسيرًا لذلك، وعلى اعتذار لائق عن لامبالاة سيدهم بنبأ مرضه.

وقام مبعوثو الفرعون بما هو متوقع ومنتظر منهم. راح مبعوثو فرعون مصر يؤكدون لبورنابورياش أن عدم وصول رسالة اطمئنان على صحته من فرعون مصر لا يعنى أنه لا يبالى به، بل إن ذلك بسبب طول المسافة التى تفصل بين المملكتين، مما يحول دون وصول نبأ مرضه لفرعون مصر، حتى يقوم بما يجب ويرسل تمنياته بالشفاء. وهكذا، حصل منهم بورنابورياش على التصريح الذى يريده، وسأل مبعوثيه للتأكد من مدى بعد المسافة بين بابل ومصر. كان الادعاء الشديد بالجهل بجغرافية المنطقة ليس إلا وسيلة بلاغية استعملها للتأكيد على الإجابة التى زوده بها مبعوثو الفرعون، وهي استحالة أن يعلم الفرعون بمرض أخيه الملك، فى وقت يسمح له بإرسال تمنياته له بالشفاء، ويعلن له فيها اهتمامه بصحته وأحواله.

لقد كان يهم بورنابورياش إلى حد بعيد أن يسمع كل الموجودين ببلاطه أسباب عدم وصول رسالة من فرعون مصر للاطمئنان على صحته، وأن يبعد عن الأذهان أى مفهوم بأن اهتمام فرعون مصر به قد قل عن ذى قبل.

وهناك احتمال آخر يفسر إدعاء بورنابورياش الجهل بالمسافة الشاسعة التى تفصل بين بلاده ومصر. فمما لاشك فيه أن كل المبعوثين الأجانب إلى مصر كانوا يتعرضون لدعاية مكثفة وهم بمصر عن قدرة الإمبراطورية المصرية واتساع مساحته، وأنها أعظم إمبراطورية ظهرت حتى ذلك الوقت، وأنه لا يوجد مكان بالعالم يبعد عن متناول ملوكها العظماء، وأنه لا شيء يحدث فى العالم إلا ويعرف به فرعونها، وأن ملك بمثل تلك القوة لا تمثل المسافات عائقًا أمامه. كل تلك المعلومات كانت تغرس فى عقول كل المبعوثين الأجانب لدى مصر. وبالرغم من ذلك، ها هو المبعوث المصرى لدى بابل يعتذر ببعد المسافة عن إحجام ملكهم عن

إرسـال رسـالة تمن بالشـفـاء لأخـيـه ملك بابل. وسـرعـان مـا أمـسك بورنابورياش بتـلابيب ذلك العذر، وربما كـان ذلك العذر هـو السبب في تساؤله: **«هل يوجد مكان بعيد عن أخي الملك العظيم ومكان آخر قريب؟»** إلا أن مرماه غاب عن إدراك المبعوث المصرى الذى أخذ التساؤل بحرفيته على محمل الجد. ثم أخذ بورنابورياش بنصيحة المبعوث المصرى، وتأكد من صحة المعلومة من مبعوثيه.

كانت كل تلك التساؤلات جانبًا من الخطة التى برأسه. إلا أن المفهوم الحقيقى لتساؤله لم يكن ليخفى على الفرعون. فالملوك العظماء لم يكونوا ليـترددوا من النيل من إخوتهم الملوك الآخـرين، حين تواتيـهم الفرصـة الملائمة. وسوف نعرض مزيدًا من الأمثلة عن ذلك.

حق استعمال مصطلح «أخ ملكى»

لعب استـخدام مصطلحـات القرابة العائلية فى الرسائل المتبادلة بين الملوك دورًا كبيرًا. كان لمفهوم العائلة التى تقدم ملكين كبيرين كأخوين يستـخدم أيضًا بين أصحاب المراكز العليا المتماثلة فى مملكتين. كذلك خاطب ابن رمسيس الثانى الأمير سوتاحابساب الملك حاتوسيلى بـ «أبى» كذلك وجَّه رمسيس الثانى الخطاب للأمير الحثينى تاشمى- شروما بـ «إبنى»، كذلك استخدم رمسيس الثانى والملكة بودوحيبا زوجة حاتوسيلى فى مخاطبتهما لبعضـهما في نصوص الرسائل صفتى «أختى» و«أخى»، كـذلك خـاطبت زوجـة رمـسـيس الثـانى الملكة نفـرتارى (ناتتـيـرا) الملكة بودوحيبا بلقب «أختى». وأضافت روابط الزواج أبعادًا أخرى للعلاقات بين بيتين ملكيين. وهكذا، أصبح الملك الميتانى توشراتا يخاطب الملك أخناتون فى رسائله بـ «أخى» أحيانًا و«ابنى»، مما يشى بدلالة واضحة ان ابنته تادوحيبا قد انتقلت إلى حريم أخناتون بعد موت أمونحوتيب الثالث.

إلا أن حق توجيه الخطاب إلى ملك كبير بصفته أخ أو إلى أعضاء أسرته بصفتهم أخت أو ابن أو ابنه لم يك مباحًا بلا ضوابط. وهذا يظهر

قبل أى شىء، أن من يخوّل له هذا الحق لابد أن يكون قد حقق لنفسه أولا وضع وصفة «ملك عظيم»، فالإخوة كصفة كانت لابد لتحققها المجازى أن تكون بين طرفين متكافئين. وهكذا، نجد أن الآشوريين حين اتجهوا بكل قوتهم لملء فراغ القوة، الذى نشأ شرق الفرات بعد انهيار المملكة الميتانية. سعى ملكهم آشور- أوباليت إلي تحقيق وضع كبار اللاعبين السياسيين فى المشهد السياسى الدولى، فقرر أن يبادر هو بالكتابة إلى الملك أخناتون وشفع رسالته بهدايا ثمينة إليه:

هكذا يتحدث آشور- أو باليت ملك آشور إلى مصر:

«بالرغم من أنه لم يسبق لأحد من أسلافى الكتابة إلى ملك مصر، ها أنذا أكتب إليك اليوم. وأرسل إليك رسولى، لزيارتك وزيارة بلدك. وأبعث إليك أيضًا، كهدية، عربة رائعة، وجوادين، وشجرة نخيل من اللازورد النقى».(13) ويبدو من لهجة الرسالة، ومحتواها ومصطلحاتها التى تشى بالتواضع كأول محاولة مترددة للتواصل بين آشور- أوباليت وفرعون مصر، كتمهيد لمحاولة إرساء وتأسيس روابط دبلوماسية ودية مع فرعون مصر. وكما يذكر دكتور كوهرت، فإن آشور- أو باليت أرسل هداياه دون أن يطلب مقابلها هدايا أو أية مطالب معينة، على عكس ما كان متبعًا(14).

لم يطلب إلا طلبًا واحدًا من فرعون مصر، وهو ألا يعوق رسوله ولا يحتجزه فى مصر، قال:

«اسمح له أن ينتهى من زيارته، ويرجع إلى بلادنا»، ودون أى شك كان آشور- أو باليت يدرك بوضوح أن رسل كبار الملوك عرضة للتأخر لأوقات متباينة، قبل أن يحصلوا على الموافقة للمثول بين يدى الملك المضيف، أو من الممكن أن يعوقوا حتى بعد المثول بين يدى المضيف لأوقات متباينة، حتى يحصلوا على إذن الملك المضيف لهم بالمغادرة. وبإدراكه لذلك، لم يطلب الملك الآشورى من أخناتون إلا سرعة السماح لممثله بالعودة إلى بلاده. كان الهدف الأساسى من تلك المهمة هى اكتشاف أو معرفة إن كان

الفرعون سيقبل إقامة علاقات ودية معه أم لا. وكان تواقًا لمعرفة كيفية استقبال البلاط والفرعون المصرى له. فى أول رسالة ودية، كان آشور- أو باليت يظهر تواضعه المتعمد. لم ينعت نفسه فى تلك الرسالة بصفة **«ملك عظيم»**، كما لم يوجه الخطاب إلى أخناتون بصفته أخيه. كما لم يطلب هدايا مقابل هداياه التى بعث بها رسوله إلا أنه من الواضح أنه تلقى ردودًا إيجابية على مبادرته، ففى رسالة منه إلى أحد خلفاء أخناتون، وتحتمل أنها كانت مرسلة إما إلى توت عنخ آمون أو إلى آى، كتب نص رسالته كما يكتبها أحد أكابر الملوك إلى ند له، أو أخ ملكى إلى أخيه الملك(15).

ويتسق مع طبيعة تلك المراسلات فى عديد منها شكواه من تفاهة الهدايا المرسلة إليه من الفرعون، ويذكر فى تلك الشكوى:

«يمكن لأى امرئ فى بلدكم أن يلتقط الذهب كما يلتقط التراب، وتحصلون عليه بكل سهولة».

«لماذا تشح فى وهبة؟ أنا أشيد الآن قصرًا جديدًا. أرسل إلى بقدر ما تستطيع من ذهب حتى يصبح القصر لائقًا». (16)

وراح يذكره بالماضى، وبالهدايا التى أرسلها أبوه الفرعون إلى ملك هانيجاليت (ما تبقى من المملكة الميتانية) مؤكدًا أنه أصبح الآن فى مرتبة لا تقل عن مرتبته(17).

ويعلق البروفيسور آرتزى أن استقبال الفرعون للوفد الأشورى يعد نقطة تحول فى السياسة الخارجية المصرية، فذلك الحدث يماثل بداية تبادل التمثيل الدبلوماسى بين دولتين فى حياتنا المعاصرة، كان ذلك يعنى اعتراف مصر بأن آشور أصبحت على درجة مساوية للمملكة المصرية(18).

ولا نحتاج إلى ذكر أن الملك البابلى بورنابورياش كان يراقب المبادرات الدبلوماسية الأشورية بانزعاج شديد. وكرد فعل للأنباء التى وصلته عن استمرار الاتصالات الآشورية المصرية، كتب رسالة مليئة بالغضب

والسخط إلى فرعون مصر فى ذلك الوقت، ويحتمل أنه كان توت عنخ أمون، قال فى رسالته:

«الآشوريون من رعاياى، إلا أننى لم أرسلهم إليك، لماذا يهتمون بالحضور إلى بلدكم؟ إن كنت تحبنى، دعهم ينهون عملهم عندك، ثم أرسلهم إلىَّ وأيديهم فارغة».(19)

كان بورنابورياش يلوى الحقائق بوقاحة، بل وصل فى ذلك إلى مرحلة خلق مشكله بادعائه أن الآشوريين من رعاياه، ويمكن تفهم أسباب انزعاجه المتزايد من جيرانه الشماليين، الذين راحوا ينمون بسرعة، حتى اكتسبوا وحققوا من القوة ما خوَّل لهم اعتبارهم من القوى العظمى، فى المنطقة التى كان يحكمها من قبلهم الميتانيين. كانت المسألة مجرد وقت حتى تشكل المملكة الآشورية تهديدًا خطيرًا على مملكة بابل، خاصة بعدما حقق ملكها الاعتراف به على المسرح الدولى كملك عظيم من كبار الملوك.

إلا أن إحراز مرتبة ملك عظيم من كبار الملوك لم تكن تعطى صاحبها الحق بطريقة آليه بمخاطبة أحد كبار الملوك بصفة **«أخى»**، كما لم يكن توفر ذلك الحق فى مخاطبة أحد كبار الملوك بصفة أخى، يتيح للملك المعنى بصورة آليه مخاطبة باقى كبار الملوك الآخرين بصفتهم إخوته. وأوضح أورحى- تيشوب ذلك بكل جلاء. أثناء شغلة لوقت قصير للعرش الحثينى للملك الآشورى عدد- نيرارى الأول. كان عدد- نيرارى قد جعل من المملكة الآشورية أقوى قوة في شرق الفرات حين اكمل احتلاله لـ"هانيجالبت(20)، آخر ما تبقى من المملكة الميتانية وضمها لملكته وأصبحت جزءًا منها. وأدى ذلك إلى إفساد كلى لعلاقته بالحثينيين، فقد امتدت المملكة الآشورية حتى أصبحت متاخمة لولاية قرقميش الخاضعة للحثينيين. وسعى عدد- نيرارى إلى طمانة أورحى- تيشوب. وعن رغبته فى إقامة علاقات سلمية مع الحثينيين، وبسبب تطلعه إلى ذلك ورغبته الشديدة فيه ارتكب خطأ بخطابه الملك الحثينى بصفة أخى. وترتب على ذلك تلقيه رسالة توبيخ شديدة اللهجة من أورحى- تيشوب، قال فيها:

«لماذا مازلت مستمرًا فى ذكر الإخوة. وما هى الأسباب التى تجعلنى أكتب إليك بصفة الإخوة؟.. هل يكتب الذين لا تجمعهم علاقات طيبة إلى بعضهم بلقب الإخوة؟ وما هى الأسس التى تجعلنى أكتب إليك بصفة الإخوة؟ هل ولدتنا أم واحدة؟ لم يكتب جدى ولا أبى لملك آشور بصفة الإخوة، بوصفك من كبار الملوك. لا أرغب فى ذلك»(21).

لقد قبل أورحى- تيشوب على مضض الإنجازات العسكرية الآشورية والتى جعلت ملكها يحقق صفة ملك عظيم، إلا أن تلك الإنجازات فى رأيه لا تخول له أن يخاطبه بلقب «أخى»، والذى يعنى ويتضمن وجود روابط شخصية حميمة بين بيتين ملكين، والتى كانت تدعم فى أغلب الأحيان بزيجات ومصاهرات ملكية بين البيتين، وتنعكس على التبادل المستمر للمبعوثين والرسل وتبادل الهدايا وتوثيق عرى الصداقة والتعاون (22). كان أورحى- تيشوب قد عانى بعض الهوان بعد أن انتزع الملك الآشورى آخر ما تبقى من المملكة الميتانية، والتي كانت خاضعة لنفوذ الحثيين قبل ذلك فى شرق الفرات.

إلا أن عدد- نيرارى، ظن بتهور متعجل من جانبه، أن تلك الانتصارات العسكرية تعطيه الحق الفورى فى اكتساب صفة الإخوة الملكية، مع الملك الذى كانت تلك الانتصارات العسكرية تقتطع من نفوذه. ويبدو أن العاهل الآشورى داوم علي محاولاته وسعيه لتأسيس روابط وعلاقات أفضل مع الحثيين خلال فترة حكمه، إلا أنه لم يحرز أي نجاح في ذلك، استرشادًا بتعليق ورد فى رسالة كتبها حاتوسيلى عم أورحى- تيشوب إلى عدد- نيرارى، فى تلك الرسالة، أشار إلى المعاملة السيئة التي كان يلقاها ممثلو عدد- نيرارى ومبعوثوه في بلاط أورحى. تيشوب.

إن السفراء الذين كنت تداوم على إرسالهم إلى بلاط أوحى تيشوب كان يقابلون بغضب مهين (23).

أما حاتوسيلى ذاته، حين اعتلى العرش الحثينى بعد ابن اخيه فلم يتردد فى اعتبار عدد- نيرارى ندًا له وملكًا من كبار الملوك. كان بالطبع

يسعى إلى تملق كبار الملوك الأجانب وكسب ودهم، خاصة فى ضوء الظروف والوسائل المشبوهة التى ارتقى عن طريقها عرش الحثينيين، ومن أجل أن يحظى باعترافهم، بكونه ملكًا شرعيًا على العرش الحثيني. ولابد أن نتوقع أن الملك الآشورى قد رحب كل الترحيب باعتلاء حاتوسيلى العرش الحثينى، فقد كانت فرصة سانحة لتأسيس علاقات أفضل مع الحثينيين بعد العداوة التى أظهرها سلفه ضد الآشوريين. ولكن ما حدث أن عدد- نيرارى امتنع عن الاعتراف والتودد إلى مرتقى العرش الحثينى الجديد. كان من الواضح غياب أى ممثل للآشوريين عند تتويج حاتوسيلى. لم يبعث عدد- نيرارى بأى رمز أو إشارة أو حركة تدل على اعترافه بالملك الحثينى الجديد. وكتب إليه حاتوسيلى رسالة تشى ببعض الانزعاج: **«حين حصلت على الملك، لم تبعث رسولاً إلىَّ، حين يعتلى ملك جديد عرش بلاده، يقوم الملوك المساوون له فى المنزلة بإرسال هدايا تذكارية لتلك المناسبة، وملابس تليق بالمنزلة الملكية، وزيوت عطرية للتطيب. إلا أنك لم تفعل ذلك»**(24) كانت المملكة الآشورية بالفعل آخر الممالك الكبرى التى اعترفت بالنظام الجديد فى حاتوسا، ويذكرنا ذلك بالتوبيخ الذى وجهه رمسيس إلى حاتوسيلى: **«أنت لست إلا بديلاً لملك عظيم»**(25).

من الواضح أن استخدام صفة «ملك عظيم» وصفة أخى فى توجيه الخطاب لملك عظيم آخر كان من الامتيازات العظمى، وكان المخولون بذلك التميز يرفضون أن يهبوه لمن لا يستحقونه. وذلك يفسر اعتراض أورحى- تيشوب الشديد أن يوجه له الملك الآشورى عدد- نيرارى حديث العهد في نادى كبار الملوك الحديث بصفة أخى، والتوبيخ الواضح والانتقاد من رمسيس لحاتوسيلى لمعاملته لحاكم بابل بصفته من كبار الملوك، كان فشل عاهل في الحصول علي أو المحافظة على صفة ملك عظيم. والإخوة الملكية تعني حرمانه من الفوائد المادية والسياسية التى تترتب على العلاقات الدبلوماسية الودية، بما فيها المصاهرات الاستراتيجية والتحالفات السياسية، والتعاون في فرض النظام والأمن على البلاد الخاضعة،

والحصول من خلال تبادل الهدايا على منتجات بلاد أخيه الملك .

فضلاً عن ذلك، كان الاعتراف الدولى بشاغل عرش كـ «ملك عظيم» وتوجيه باقى كبار الملوك الخطاب له بصفة «أخ» يدعم ترسيخ شرعية ذلك الملك بين رعيته داخل بلاده.

أحيانًا ما كان ملك صغير يوجه الخطاب إلى أحد ملوك النخبة الكبار بصفة «أخى»، دون أن يعتبر الملك العظيم أنها إهانة أو نوع من التجاوز، لهذا نجد أن ملك مملكة آلاسيا، والذى كانت مملكته تقع بجزيرة قبرص دأب على توجيه الخطاب إلى أخناتون بصفة «أخى» فى كل رسائله التى أرسلها إلى أخناتون (26). ويبدو أن مملكة آلاسيا بصفة خاصة كانت تتمتع بعلاقات شديدة التميز مع مصر خلال فترة تل العمارنة، كما اتسمت العلاقة بين الدولتين بتبادلات تجارية منتعشة. ومن بين السلع ذات الأهمية الخاصة التى كانت قبرص ترسلها إلى مصر مادة النحاس(27) فى مقابل الفضة المصرية(28) كهدايا متبادلة بين الجانبين. كانت مملكة آلاسيا تتمتع بروابط تجارية قوية مع ممالك أخرى بطبيعة الحال، إلا أن أيًا من علاقاتها التجارية الأخرى لم ترقَ إلى المستوى الذى كانت عليه العلاقات التجارية بين مصر وقبرص. وربما كانت هناك ظروف خاصة، منها روابط الدم بين البيتين الملكيين في كل من آلاسيا ومصر، وهى الروابط التي خوَّلت لملك آلاسيا أن يوجه الخطاب لملك مصر بطريقة وبصفات مخصصة بكل تشدد لأنداده من كبار الملوك وحدهم، لذلك لم يكن بإمكان ملك آلاسيا أن يوجه الخطاب إلى أحد كبار الملوك الآخرين بصفة «أخى»، فلم يصل إلى الدرجة ولا حقق الامتيازات التي تعطيه ذلك الحق. وسنعرض فى موضع آخر رسالة شهيرة من حاتوسيلى الثالث كتبها إلى ملك أحياوا، وهى مملكة حيثينية إغريقية، وجه له فيها الخطاب بصفة «أخى»، ويصفة فيها أنه من عظماء الملوك وكبارهم. (الفصل 12). ولكنه بقدر ما نعلم لم يفعل ذلك إلا مرة واحدة كوسيلة لموقف نفعى بحت، فلم يكن ملكا آلاسيا وأحياوا قد اعتبرا فى يوم ما من مجموعة ملوك

النخبة القليلة، الذين تقاسموا السيطرة علي مصائر عالم الشرق الأدنى القديم.

هل التقى كبار الملوك أبداً؟

على مستوى شخصى بحت، ما الذى كان يتصوره كل ملك من أولئك الملوك الكبار عن أمثاله من كبار الملوك؟ لا نحتاج بالطبع إلى التأكيد على أن سيل وفيض عبارات الحب والإخلاص لم تزد أبداً عن كونها عبارات دبلوماسية بحتة. كانت أحياناً تخفى وراءها مشاعر دفينة من العداء المتبادل، والشكوك وعدم الثقة. وكما لاحظنا، كانوا سريعى الإحساس بالمهانة لأبسط الأسباب الحقيقية أو المتخيلة من أندادهم، حتى إنهم لم يكونوا ليترددوا للحظة في معاقبة أو حجز رسل إخوانهم الملوك، للتعبير عن عدم رضاهم عن سلوك فعله أو أمر أخفق أو توانى عن فعله، وكان تقديرهم وحبهم لبعضهم بعضاً يقاس إلي حد كبير بنوعية وكمية الهدايا المرسلة والمتلقاة. ولا يدعو ذلك للدهشة فى عالم العصر البرونزى المتأخر، حين كانت الروابط بين كبار الملوك تتأسس على أسباب شخصية ومنافع سياسية (ويصدق ذلك على كل التحالفات الدولية فى جميع مراحل التاريخ). لم تكن الشراكة التى تجمعهم ترجع إلى نظرة شاملة ومفاهيم عميقة، للسعى إلى تحقيق عالم متحد فى سلام وتناسق وتناغم، ولا برغبتهم فى تحقيق استقرار دائم وانتعاش للشعوب والدول والمجتمعات الخاضعة لهيمنتهم ونفوذهم، بل تعود إلي حد كبير إلى اهتماماتهم الشخصية. لم تجمع أبداً أية مناسبة أولئك الملوك ولم يلتقوا أبداً، لمناقشة أى أمر يخصهم معاً أو يؤثر عليهم. تعامل كل منهم مع كبار الملوك الآخرين على أساس فردى من ملك لملك ومن خلال المبعوثين المفوضين والنواب. وكان كل منهم على اضطلاع مستمر من خلال مبعوثيه أو المبعوثين الأجانب بمواقف الملك الآخر مع باقى الأطراف، بل حتى لم يغفلوا المعلومات التفصيلية الدقيقة عن طريقة استقبال الملك الآخر

لمندوبيهم ورسلهم والهدايا التى تلقاها والتى بعث بها لملوك آخرين.

ومما لاشك فيه أيضًا، أن مبعوثى أى ملك بعد عودتهم من مهمة لدى بلاط ملك أجنبى لم يكونوا ليسجلوا في تقاريرهم النتائج الرسمية للزيارة فقط. بل كانوا يزودون ملوكهم بمعلومات وفيرة، عن جوانب أخرى كثيرة غيرالجوانب الرسمية للزيارة، وتشمل تلك الجوانب بالدرجة الأولى انطباعاتهم الشخصية عن نوعية الملك الأجنبى ونقاط ضعفه ومزاجه الشخصى. كانت تلك الانطباعات عن شخصية الملك الآخر تستخدم فى وضع مخططات ووسائل وسبل التعاملات القادمة معه، وكذلك تحديد أنواع الهدايا التى يمكن أن تبهجه، ونقاط ضعفه وكيفية استغلالها. ومما لا شك فيه أيضًا أنه لم يكن بدافع الفضول الشخصى. كان كل ملك عظيم يهتم بمعرفة شخصية الملك الآخر كإنسان وماذا يشبه؟ ولا توجد أية مناسبة نعرفها التقى فيها أولئك الملوك وجهًا لوجه، بل ولا واحد منهم مع آخر، ويدعو ذلك إلى الدهشة، على ضوء تأكيداتهم المستمرة فى رسائلهم على أهمية تقوية الروابط التى تجمعهم، حتى لو سلمنا أن الحب والتقدير الذى يكنونه لبعضهم البعض لم يكن إلا من قبيل الدواعى الدبلوماسية، إلا أننا ننحى ذلك جانبًا فى هذه اللحظة، لنؤكد أنه كان يمكن تحقيق إنجازات كثيرة، لو كان قد حدث والتقى ملكان عظيمان، خاصة لو وضعنا فى الاعتبار أن المفاوضات التى كانت تتم بين ممثليهما نيابة عنهما كانت تمتد أحيانًا لبضعة أعوام، مع استهلاك أغلب ذلك الوقت فى الذهاب والعودة بين البلاطين الملكيين المعنيين. فهل بذلت أية جهود سابقة لاختصار الوقت والمجهود لتدبير لقاء مباشر بين أية ملكين بنفسهما؟ بينما لم نتوصل إلى أية معلومات عن أية محاولات أو مساع لترتيب ما يماثل لقاءات القمة، إلا أن هناك مناسبتين أو حدثين مسجلين، ترتفع فيهما نسبة توقع أن يكون أحد كبار الملوك قد قام بزيارة احتفائية إلي بلاط أخ ملكى، ففى رسالة إلى أمونحتيب الثالث، يشتكى ملك بابل كاداشمان- إنليل الأول أن الفرعون لم يقم بدعوته لحضور مهرجان احتفالى يقام بمصر:

«حين أقمتم الاحتفال الكبير، لم ترسل رسولك إلىَّ قائلاً: احضر، لتأكل وتشرب»(29) .

وسلط كاداشمان- إنليل الضوء على عدم كياسة الفرعون بتجاهله دعوته للحضور، وبادر هو بدعوة الفرعون لمصاحبته فى افتتاح قصر جديد فى بابل:

«سأقوم بافتتاح احتفالى بالقصر. احضر بنفسك لتأكل وتشرب معى. لن أفعل مثلك»(30)

ولابد أن نأخذ شكوى كاداشمان- إنليل بحرفيتها المرة واللاذعة. ولا يوجد أى احتمال ضئيل أن يكون قد قَبِل فى أى وقت دعوة لزيارة مصر. حتى لو ظن (ادعاءً مثل خلفه بورنابورياش) أن مصر قريبة جداً من بابل؛ كما لم يتوقع جديًا أن يلبى الفرعون دعوته. كانت هناك أسباب قوية (سنعود إليها) لامتناع أى من كبار الملوك عن زيارة ملك آخر من أنداده. حين كانت احتفالات هامة تقام فى مملكة واحد من كبار الملوك، كان من العادة إرسال دعوات إلى كبار الملوك الآخرين لحضور تلك الاحتفالات، إلا أنها كانت دعوات شكلية دون أى توقع بالاستجابة لها. ومما لاشك فيه أن المدعوين كانوا يرسلون وفودًا برئاسة كبار رجالهم؛ لتمثيلهم فى تلك الاحتفالات، مثلما حدث فى الحفلة الكبرى التى أقامها أخناتون للاحتفاء بالعام الثانى عشر من ارتقائه العرش. وحضر ذلك الاحتفال ممثلو الملك الحثينى، ووفود من النوبة، وليبيا، ودول أخرى، لذلك لم يكن كاداشمان- أنليل جادًا فى شكواه لأمونحتيب الثالث، حين لم يدعه لحضور الاحتفال الكبير، إذ لم يكن يرى بجدية أنها فرصة ضاعت لزيارة مصر وبلاد النيل، ما كان يعنيه فعلاً إهمال أخيه الملك للقواعد المرعية، وتجاهل دعوته، خاصة إذا كان كبار الملوك الآخرين قد تلقوا دعاوى لحضور ذلك الاحتفال.

من جهة أخرى، نجد دعوة وجهها رمسيس الثانى إلى الملك الحثينى حاتوسيلى الثالث، ووجهها بجدية وعن نية حقيقية. كانت المناسبة التى

اختارها مناسبة تتطلب احتفاءً واحتفالاً ثنائيًا من الطرفين معاً. كانت المعاهدة الشهيرة بين الإمبراطوريتين قد أبرمت بالكاد، وكان كل منهما قد أرسل إلى الآخر نسخته الموقعة على لوح من الفضة. وكانت تلك المناسبة من المناسبات التي يجب الاحتفاء بها بشكل خاص، لذلك وجَّه رمسيس دعوته إليه. ولا نعرف كيفية استجابة حاتوسيلى ذاته للدعوة، ولكن لو حكمنا من نص رسالة تالية من رمسيس نعرف أنه قبل الدعوة مبدئيًا. وهذا ما كتب به رمسيس إليه، ناسخاً فقرة من رسالة حاتوسيلى إليه:

كتب إلىَّ أخى كما يلى: **«أخوك الملك سيحضر إليك، أخوك الملك سيلبى دعوتك لزيارته، أخوك سيحضر إليك في بلدك، حتى يظهر فى حضرة أخيه»** (31) وفى الحقيقة، كان قبول حاتوسيلى للدعوة قد أخذ بجدية أكثر من حقيقة نيته، وأخذ الفرعون قبوله للدعوة بقدر أكبر من حقيقته. ورداً على رسالة حاتوسيلى كرر رمسيس الدعوة، معبرًا عن خالص أمله وعميق رغبته فى تحقيقها:

«سيحقق إله الشمس وإله العواصف وآلهتى وآلهتك رؤية أخى لأخيه، فليأت أخى إلى أخيه وأتمنى أن يحقق هذه الدعوة لزيارتى، وأن يأت أحدنا للآخر ويظهر فى حضور الآخر فى القصر الذى يوجد فيه عرش الملك.».

ولمزيد من إقناع حاتوسيلى، أو ربما كرد فعل للشكوك التى أبداها حاتوسيلى، عرض رمسيس أن يلتقى بجلالة أخيه فى خارج مصر أثناء رحلته إلى كنعان التى كانت خاضعة للنفوذ المصرى:

«سأقوم أنا الملك العظيم، ملك مصر إلى بلاد كينا حى (أى بلاد كنعان حيث كان لرمسيس بها قصر ملكى) لأرى الملك العظيم، ملك بلاد الحثيين، أخى، وأظهر فى حضور أخى، وأستقبله فى بلادى». ووصل الإعداد للزيارة مراحل متقدمة إلى المرحلة التى أرسل فيها رمسيس كبار رجال الدولة لاستقبال حاتوسيلى فى بلاد أوبى (32). وهى المنطقة المحيطة بدمشق، وكانت فيما سبق خاضعة للنفوذ الحثينى، إلا أنها كانت

فى ذلك الوقت تحت الهيمنة المصرية بعد اتفاق السلام. ومما لاشك فيه أن لجنة الاستقبال المصرية الرسمية كانت قد كلفت بمرافقة حاتوسيلى حتى مكان المقابلة بقصر رمسيس فى أرض كنعان، ثم يصحبه رمسيس بنفسه إلى عاصمته الجديدة التى أطلق عليها بى- راميس فى دلتا مصر. فضلاً على ذلك، كان رمسيس قد ذكره فى هذا الصدد بتحقير ملك آشور له ورفضه إياه، ونعته بأنه مجرد بديل لملك عظيم، وكان ذلك التذكير بالإهانة لا مبرر ولا مسوغ له ولم يكن ذلك موضعه. إلا أنه يبدو أن رمسيس لجأ إلى ذلك الأسلوب لمزيد من الإقناع والضغط على الملك المتمنع عن زيارة مصر. وكما لاحظنا، كان حاتوسيلى يتطلع بشغف إلى قبول أحد كبار الملوك له واعترافه به وبحقه فى الجلوس على عرش الحثيين. وكان الملك الآشورى قد رفض الاعتراف له بذلك الحق. كانت زيارته لمصر تلبية لدعوة فرعونها يعد أقوى اعتراف أجنبى بشرعية حاتوسيلى كملك للحثيين، ويلغى أى أثر لعدم الاعتراف الآشورى.

وكان ذلك آخر ما عرف عن تلك الدعوة لزيارة الفرعون. ويبدو بشكل يقرب من اليقين أنها لم تتم، إذ يبدو أن أحد علل حاتوسيلى قد اشتدت عليه، مما حدا به إلى تأجيل الزيارة أو إلغائها كليًا.

ونعرف عن حاتوسيلى أنه كان يعانى من حالة مرضية مزمنه، تسبب له حرقان شديدًا بالقدم أو «نار القدم»، كما ذكرت فى صلوات قرينته بودوحيبا. وقد وصل ذلك الأمر إلى معرفة فرعون مصر، ربما فى سياق العذر الذى ساقه حاتوسيلى لعدم قيامه بالزيارة المتفق عليها (33) وأرسل رمسيس إليه بدهانات طبية لعلاج تلك العلة (انظر الفصل7)، ولكن باستثناء الحالة الصحية لحاتوسيلى، والمشاكل الكثيرة الضاغطة عليه في كل البلاد الخاضعة لنفوذه، خاصة فى منطقة غرب الأناضول، قد أديا به إلى إعادة النظر في تلك الزيارة لمصر. كانت مثل تلك الزيارة تبقيه بعيداً عن مملكته لثلاثة أشهر أو أزيد، وهو غياب لا يقدر عليه، خاصة إذا كانت لديه مخاوف من وقوع تمردات وثورات من الشعوب الخاضعة له أو من

الممالك المجاورة له.

ولكن لنفترض للحظة أن حاتوسيلي قد قام بالفعل بزيارة مصر، كان التناقض البدني بين الملكين سيبدو مدهشًا ولافتًا للانتباه، ففي الوقت الذي توصلت فيه الإمبراطوريتان إلي اتفاق السلام، كان حاتوسيلي في أواخر الخمسينيات من عمره أو بدايات الستينيات، وكان سيبدو أكبر كثيرًا في العمر، خاصة مع الأمراض الكثيرة التي كانت تعتريه. كان رمسيس أصغر منه بحوالي عشرة أعوام، وكان مازال يحظى بهيئة وشكل مؤثرين، وشعر أسود مائل للحمرة وقوام متميز، وكان وجيهًا وبهيًا. وبطول بلغ 1,70 مترًا. كان يبدو أطول من كل معاصريه، وكان سيبدو كذلك بالنسبة لأخيه الملك الحيثي إن كان قد حقق الزيارة. كان هيئة وشكل الملك الحيثي يصب في صالح الملك رمسيس، لو كانا قد التقيا، ليس فقط في عيون رعاياه المصريين، بل أيضًا في عيون المبعوثين من البلاد الأخرى المدعوين للمشاركة في الاحتفالات والمراسم في أثناء زيارة الملك الحيثي لمصر. وكانت بودوحيبا تهتم بتلك الاعتبارات، ومن المحتمل جدًا أنها استخدمت تأثيرها ونفوذها لإثنائه عن إتمام تلك الزيارة. ولكن في كل الأحوال، لا يحتمل أبدا أن حاتوسيلي فكر جديًا في القيام بالزيارة. الأقرب للاحتمال في قيام رمسيس بالإعداد الفعلي للزيارة، أنه ذهب بعيدًا في افتراضاته، نتيجة ما يفترض أنه قبول مهذب من حاتوسيلي، لم يصل إلى حد تنفيذ الدعوة الأولية التي تلقاها.

كان هناك اعتبار آخر فيه فصل الخطاب في تنحية أية نية لدى حاتوسيلي للذهاب إلى مصر. وكان ذلك الاعتبار خاصًا بكيفية إظهار رمسيس لتلك الزيارة، في حال تحققها لرعاياه ولأنداده الآخرين من كبار الملوك.

لذلك نؤكد مرة ثانية أنه لم يكن من عادات كبار الملوك أن يقوموا بزيارة أحد رفاقهم من كبار الملوك في مقار عروشهم. فذلك ما كان يفعله الملوك التابعون ودافعو الجزية من صغار الملوك. وذلك هو السبب الذي

جعل كبار الملوك يقومون بالتفاوض مع أندادهم من كبار الملوك من خلال البعثات الدبلوماسية. وسنرى أن رمسيس، بعد ذلك بعدة أعوام، لم يتردد فى إظهار وصول عروسه الحثينية إلى مصر على أنه نوع من الجزية والترضية وكسب الود من الملك الحثينى (انظر الفصل 6)، أما أن يأتى الملك الحثينى نفسه إلى البلاط المصرى، فإن ذلك قمة الدعاية التى لا نظير لها لرمسيس.

لا تذكر الحرب

بالرغم من الرغبة المشتركة بين كلٍ من حاتوسيلى ورمسيس فى إرساء أسس من التواصل الدبلوماسى الودى، والتفاوض لوضع معاهدة سلام، إلا أن التوتر ظل سائدًا بينهما. كانت مشكلة أورحى- تيشوب بكل تأكيد أهم وأكبر الأسباب لدوام ذلك التوتر. وكان الفشل فى نسيان أشباح أحداث موقعة قادش سببًا آخر فى استمرار التوتر. كان من المستحيل على أى زائر أو مبعوث من البلاط الحثينى إلى مصر إلا ويكون سببًا فى تذكر صراع معركة قادش، أو رؤية النسخة التى يرويها رمسيس عن تلك المعركة، التى عمد رمسيس إلى تصويرها، وتسجيلها كتابة على جدران خمسة معابد من أكبر المعابد المصرية. ومما لاشك فيه أن رمسيس كان يتعمد ويقصد أن يكون المبعوثون الحثينيون قد رأوا تسجيلاته ورؤيته التى سجلها عن معركة قادش، ويحتمل أنه كان يحقق ذلك من خلال إعداد زيارات للضيوف لتلك المعابد. ما ضايق حاتوسيلى هو ادعاء إخوة الملك أنه انتصر فى تلك المعركة، بل وبيد واحدة، وتصويره للخصوم وهم يخضعون له. وظل رمسيس مصرًا على أنه انتصر على الملك الحثينى العظيم، أو الحثينين الفاشلين، كما أطلق عليهم. وكان حاتوسيلى على علم يقينى بحقيقة ما حدث فى تلك المعركة. كان خصم رمسيس الرئيس فى تلك المعركة ميواتاللى شقيق حاتوسيلى، وكان حاتوسيلى بنفسه مشاركًا فى تلك المعركة التى خاضها قبل أن يعتلى عرش الحثينين، وكان

بالتالى من المشاركين فى مطاردة الجيوش المصرية حتى جنوب منطقة دمشق. وسقطت تلك المنطقة التى كانت خاضعة للنفوذ المصرى فى قبضة الحثيين، وبقيت لفترة تحت سيطرة حاتوسيلى ذاته. إلا أن رمسيس ظل مصراً بعناد على أنه المنتصر فى تلك المعركة.

ولم يصل الطرفان أبدًا إلى اتفاق فى وجهات النظر حول حقيقة ماوقع فى قادش، ولم تؤد إثارة الموضوع فى أى وقت إلا لتصعيد التوتر من جديد. كان حاتوسيلى قد أرسل بخطاب عدوانى شديد اللهجة بسبب رفض رمسيس تسليم أورحى- تيشوب، ملك الحثيين السابق، الذى فرَّ إلى مصر لاجئًا إليها (انظر الفصل 13)، واعترض رمسيس على لهجة الخطاب العدائية، ورد قائلاً:

«حين علمت أنت بهذا الموضوع، كتبت إلى أخيك تلك العبارات العدائية حتى تنتهز أول فرصة لإثارة الشجار والنزاع، دون أن ينعكس ذلك على إخوّتنا وعلى السلام القائم بيننا» (34). أكثر ما كان يثير حنق رمسيس تهديدات حاتوسيلى المبطنة بقيامه بعمل عسكرى. وأردف رمسيس:

«فضلا عن ذلك، أنت تثير العداوة (القديمة) بين بلدينا بكلامك هذا:»

«هل نسيت أيام العداوة مع بلاد الحثيين؟».

وكان ذلك من حاتوسيلى إشارة واضحة للانتصار الذى يدعيه الحثيون فى قادش. كان يحذر رمسيس من أنه قد يجد نفسه عرضة من جديد للانتقام العسكرى الحثيى إذا لم يسلم أورحى- تيشوب.

وفى رد رمسيس على تلك الرسالة تناول رمسيس فى آخرها الادعاء الخاص بأورحى- تيشوب، إلا أنه قبل أن ينتقل فى رسالته إلى ذلك الموضوع لم يكن بإمكانه أن يدع الادعاء الحثيى عن معركة قادش أن يمر دون أن يتحداه فى ذلك، فقد كان ذلك أهم لديه من استرضاء أخيه الملك. كان حاتوسيلى يهدده بقادش أخرى. وكان مضمون التهديد يعنى أن رمسيس قد هزم فى قادش، مما يتناقض مع النسخة التى يرويها رمسيس عن تلك المعركة، وما يرى أنه أعظم انتصار حربى له. لم يكن

بقدرته أن يترك الادعاء الحثيني أن يمضي دون تحد منه، وكان عليه أن يعيد رواية ماحدث، طبقًا لرواية رمسيس في ذلك اليوم المصيري:

«اخترقت قلب صفوف الأعداء القادمين من بلاد الحثيين وضربت العدو، حين جاء جيش ميواتاللي ملك الحثيين مع جيوش بلاد كثيرة جاءت معه.. وهجم ملك بلاد الحثيين عليَّ بجيشه وبجيوش كل البلاد التي جاءت معه، إلا أنني هزمتهم جميعاً بيد واحدة، بالرغم من أن جيشي لم يكن معي، وعجلات جيشي الحربية لم تكن معي، وسقت جيش الأعداء من بلاد الحثيين تلك وجلبتهم أسرى إلى أرض مصر».

ولم يؤد إصرار رمسيس على تأكيد صحة النسخة التي يرويها عن معركة قادش إلى أي تحسن في العلاقات مع الحثيين. إلا أن ما أثار الفرعون بهذه الطريقة إصرار أخيه الملك الحثيني على أن الحثيين هم من كسبوا وانتصروا في معركة قادش. لم يكن من الممكن أبدًا إنهاء ذلك النزاع وديًا، لذلك ظهر ميل مشترك بين الأخين الملكين أن يدعا فرصة للجراح القديمة للالتئام بعدم ذكر قادش بعد ذلك أو الإشارة إليها. وعلى الأقل ألا يشار إليها في المراسلات المتبادلة بعد ذلك، والتي بقيت حتى وقتنا هذا.

الإخوة الملوك يتوافقون

كانت اعتبارات نفعية بحتة هي التي أجبرت حاتوسيلي على الحفاظ على علاقات طيبة بفرعون مصر، بالرغم من نكهة العداوة التي كانت تغلف علاقتهما. كان يطمح إلى اعتراف الفرعون به كملك شرعي على عرش الحثيين وقبوله كملك ضمن الملوك الأنداد. وتطلب ذلك اعترافًا صريحًا ومعلنًا من الفرعون به، في الوقت الذي كان إيواء الفرعون للملك الحثيني السابق يظهر الفرعون بمظهر المؤيد له ولقضيته. ومما لا شك فيه أن حاتوسيلي كان مازال يستشعر ألم الإهانة من توبيخ الملك الآشوري له وربما من الملك البابلي الجديد أيضًا، لذلك سرعان ما شعر بالإساءة

والإهانة حين لم يوجِّه إليه رمسيس الخطاب فى رسالته بأسلوب يليق به كأحد كبار الملوك، وظن أن وجود الملك الهارب أورحى- تيشوب بمصر له علاقة بذلك الأمر، فكتب إلى رمسيس باحتجاج قائلاً:

«**لماذا تكتب تلك الكلمات القليلة إلىَّ كما لو كنت خادماً؟ أنا الآن ملك الحثيين لا أورحى- تيشوب**» (35) وردَّ عليه رمسيس بسخط، فى الوقت الذى حاول فيه أن يطمئنه: «**علمت الآن برسالتك الفظة التى كتبتها إلىَّ. وأن أكون قد كتبت إليك كما أكتب لأحد خدمى، فهذا غير صحيح، ألم تصبح ملكًا، أتظن أنى لم أعلم بذلك؟ ألم أعلم ذلك علم اليقين؟ أنت ملك عظيم على بلاد الحثيين أنت بطل على كل البلاد. أراد رب الشمس ورب العواصف أن تكون ملكًا على الحثيين مكان جدك. يجب ألا تظن أنى كتبت إليك كما أكتب لخادم، وما يجب أن تكتب به إلى هو «قد يمتلئ قلبك بالسعادة والسرور كل يوم» لا تلك الكلمات الفارغة التى بلا أساس. هكذا أتحدث مع أخى. وبسبب العلاقة الحميمة التى أرسيناها بيننا كتبت لك هذا**» .

كان من المعروف عن رمسيس كياسته الجمة. لذلك لم يكن غريبًا أن يشعر حاتوسيلى بالمهانة من تكبر وعجرفة ونغمة التعالى التى شابت رسالة الفرعون إليه. ولكن يحتمل أن رمسيس كان يكتب بالطريقة ذاتها إلى كل الإخوة الملوك. لقد كان رغم أى شىء رمسيس مصر، وكان بلاشك يعتبر نفسه الأعظم بين كل عظماء الملوك. وكانت تعترى حاتوسيلى مشاعر الإحساس بالذنب بسبب الطريقة التى استولى بها على عرش الحثيين، بالرغم من محاولاته إضفاء شرعية على سلوكه وكانت مشاعر الخوف من فقدانه للعرش تجعله شديد الحساسية تجاه كل ما يشعره أنه ليس أهلاً لذلك الملك، خاصة إذا جاء من أنداده الملوك. كانت حساسيته مبررة فى بعض الأحوال. قوبلت أول محاولة منه للتودد للملك الآشورى بزجر ورفض، وكان رمسيس يشعر بالمتعة بتذكيره بذلك.

فعلى أى حال، كما رأى رمسيس، لا يوجد ضر إذا عمق رمسيس لديه

الإحساس بشهامته وكرمه مقارنة بالملوك الآخرين الذين زجروه، وأن يكون حاتوسيلى مدينًا له بذلك الموقف.

وفى الحقيقة، كان لاعتراف رمسيس بحاتوسيلى ملكًا على الحثينيين كثير من التداعيات المفيدة لحاتوسيلى. ففيما يخص الولايات الخاضعة للحثينيين بغرب الأناضول، كتب ملكها إلى رمسيس حين علم بفرار أورحى- تيشوب ملك الحثينيين الشرعى السابق إلى مصر ووجوده بضيافة رمسيس، وكان الهدف من رسالته أن يعرف إن كان رمسيس يؤيد الملك الحثينى السابق ويعمل على إعادته إلى عرشه أم لا. ولم نعثر بالطبع على نص رسالة (كوبانتا - كورونتا) إلى رمسيس، ولا يمكننا أن نعرف من نص رد رمسيس إن كان يؤيد حاتوسيلى أم أورحى- تيشوب. والمحتمل أنه لم يظهر في تلك الرسالة تأييده لأى منهما. كانت رسالة رمسيس قد صيغت بعناية شديدة، لتظهر موقف رمسيس من أورحى- تيشوب. كان رد رمسيس يهدف إلى معرفة إن كان ملك غرب الأناضول الخاضع للهيمنة الحثينية مازال يؤيد الملك السابق أورحى- تيشوب الذى أقصى عن عرشه، حيث كان لابد عليه أن يفعل ذلك، لارتباطه بشروط المعاهدة التى وقعها مع مورسيلى جد أورحى- تيشوب (36)، أم يظل مخلصًا للملك المخلوع، ويتمرد على حاتوسيلى مغتصب العرش، ويعرض مملكته فى غرب الأناضول لمخاطر جمة؟ إلا أن رمسيس انحاز بوضوح تام لحاتوسيلى، وأظهر ذلك بشكل رسمى واضح:

«تذكر التحالف الذى عقده الملك العظيم، ملك بلاد مصر مع الملك العظيم، ملك بلاد الحثينيين، أخى، إخوة صادقة، وسلام مؤكد. وضمن إله الشمس وإله العواصف ذلك الاتفاق للأبد. وإليك ملاحظة أخرى، فيما يخص أمر أورحى- تيشوب الذى كتبت إلىَّ بشأنه، فإن الملك العظيم، ملك بلاد الحثينيين قد عالج هذا الأمر بالطريقة التى رغبتها».(37)

كان المقصود أن تترك تلك الرسالة أثرها. ولكن لدى من، وبأى وسيلة؟ فبالرغم من أن الرسالة مكتوبة لـ (كوبانتا- كورونتا)، إلا أنها لم ترسل

إليه بل أرسلت إلى حاتوسا عاصمة الحثيين. فهل كان ذلك مجرد بروتوكول؟ يعلق بروفيسور بيكمان على ذلك الموقف بأنه كان من غير اللائق أن يتواصل أحد الملوك الخاضعين بأحد كبار الملوك مباشرة(38). وقد خرج (كوبانتا- كورونتا) عن تلك التقاليد المرعية بكتابته مباشرة إلى رمسيس، ومن الواضح أنه كتب رسالته دون علم حاتوسيلى، فمن المعروف أن حاتوسيلى لم يكن ليسمح لأى ملك تابع له بالكتابة إلى ملك أجنبى مباشرة لأى سبب كان، فما بالك بأن يكون السبب هو التساؤل عمن يكون صاحب الحق فى الجلوس على العرش الذى يخضع المرسل لهيمنته؟

وكالعادة، انتهز رمسيس الفرصة إلى حدها الأقصى. فلم يكن دافعه للرد على رسالة (كوبانتا- كورونتا) مراعاة قواعد البروتوكول وإرسال الرد إلى حاتوسا. لقد واتته فرصة جديدة لمضايقة أخيه الملك، فقد كان الفرعون على يقين أن الرسالة ستقع بين يديه، وحينئذ يعلم حاتوسيلى ربما لأول مرة، أن واحداً من أهم الحكام الخاضعين للنفوذ الحثينى قد ناقش شرعية اعتلائه للعرش الحثينى مع ملك أجنبى. وكان أقل ما يمثله ذلك أنه يشكل إهانة وإذلالاً لحاتوسيلى. ولا يمكنه إزاء ذلك الموقف أن يلقى بأى لوم على الفرعون. ففى كل الأحوال لم يكن الفرعون من بادر بالكتابة إلى (كوبانتا- كورونتا)، كما قام بمراعاة القواعد المرعية بحرصه على أن يعلم حاتوسيلى بأمر الرسالة، كما أعلن دعمه غير المشروط لحاتوسيلى فى رده على الرسالة. كما ترتبت بالطبع تبعات كثيرة على تأييد الفرعون ودعمه لحاتوسيلى، فقد كان حاتوسيلى لا يشك أبداً فى ولاء ملوك غرب الأناضول، ولا فى ولاء حكام المناطق الأخرى الخاضعة للنفوذ الحثينى، وهو يدين بذلك إلى الفرعون الذى أعلن تأييده له، ومما لاشك فيه أن ذلك عجَّل بوضع رمسيس كشريك رئيسى فى علاقته بحاتوسيلى.

ويدل العثور على رد رمسيس على (كوبانتا- كورونتا) فى حاتوسا

على أن الرسالة لم توجه أبدًا إلى عنوان المرسل إليه، إلا إذا كان قد تم نسخ نسخة عن الرسالة الأصلية (39). وسيان وصل محتواها أم لم يصل إلى (كوبانتا - كورونتا) فإن ذلك لم يكن ليعنى رمسيس بأى درجة. فما كتبه فى ذلك الرد قصد منه بالدرجة الأولى أن يصل إلى علم حاتوسيلى.

إلا أنه من الواضح أيضًا أنه كان يهم حاتوسيلى أن يصل مضمون ذلك الرد إلى (كوبانتا- كورونتا) بطريقة أو بأخرى، ليدرك مدى تأييد الفرعون ودعمه له. ومما لا شك فيه أيضًا أنه انتهز تلك الفرصة هو الآخر ليوبخ (كوبانتا- كورونتا) لإقدامه على الكتابة إلى رمسيس متجاوزًا إياه وهو ذنب عظيم.

5

تبادل الهدايا

نظم وأنساق مذهلة

كان السفراء الأجانب يلقون ترحيبًا من كبار الملوك. وكانوا يحملون إليهم عبارات التحية الحميمة من ملوكهم. وكانوا يحملون معهم رسائل لجلالة الملك ولباقى أفراد الأسرة الملكية. وكانت هناك أيضًا هدايا، أشكال كثيرة متعددة من ألوان الهدايا، كلها من أرقى النوعيات. وكانت تلك الهدايا أفضل السبل لكل ملك عظيم، ليعبر بها عن حبه اللامحدود وتقديره لأخيه الملك، بالرغم من أنه لم يره فى حياته، وفى أغلب الأحوال لا تتاح له الفرصة ولا تتوفر لديه النية ولا الرغبة لرؤيته. لم يكن ذلك إلا وجهًا دبلوماسيًا فقط ميز علاقات حكام الممالك الكبرى. إلا أن الهدايا كانت حقيقية وأصلية إن لم تكن المشاعر التى ينقلها حاملوها كذلك. وكان تسليم الهدايا يعد مناسبة يحضرها كل كبار رجال الدولة، وكذلك كبار ضيوف الدولة من الأجانب لمشاهدة الهدايا المبهرة والأشياء الثمينة الآتية من مملكة بعيدة؛ لتعد دليلاً حيًا وملموسًا على التقدير الدولى الذى يتمتع به الملك.

وبالطبع، كان من الحكمة إعلان محتويات كل صندوق أو لفافة قبل فتحها للتأكد من الأثر الذى يتركه وتوقع ما تحويه كل لفافة.

وكان ذلك بلا شك أحد الأسباب التى جعلت مرسلى الهدايا يتجشمون عناء تسجيلها فى خطاباتهم المرافقة للهدايا؛ ليعلموا المتلقى بما أرسلوه إليه.

ذهب.. وذهب، ثم ذهب! كان ذلك المعدن الثمين دائم الذكر فى القوائم التفصيلية للهدايا التى يبعث بها الفرعون إلى الإخوة الملوك، فقد كان الذهب أكثر نفاسة من أية مادة أخرى وأصبح السمة الرئيسية الدالة على

ثراء مصر. كانت هناك أصناف وأشكال لانهائية من الأدوات التى تصنع من الذهب أو المطلية به: تماثيل صغيرة من الذهب، قنانى من الذهب للزيوت العطرية، أوانى تجميل، أقواس، مغارف، كئوس، عقود، أساور، خواتم، عربات خشبية مكفتة برقائق الذهب، قوارب من خشب الأرز مكفته برقائق الذهب، أسرَّة، ومساند رأس، مقاعد وكراسى عروش من الذهب. وفى بعثة هدايا واحدة مرسلة من أخناتون إلى بورنا بورياش ملك بابل بلغ وزن الذهب 1200 منياس، أى حوالى 600 كجم(1). ويضاف إلى ذلك مجموعات كبيرة أخرى من الهدايا صيغت من الفضة، مثل أوانى الاستحمام والاغتسال، آنية قياس سوائل، مغارف، مناخل، ودلاء، وأدوات لجعل شعور النساء لولبية الشكل، عروش، مرايا، آنية تجميل، وتماثيل طريفة لقردة من الفضة تحمل صغارها فى حجرها، كما كانت هناك هدايا كثيرة من البرونز، وأخرى منحوتة من الصخور والحجارة. كانت هناك أيضًا مصوغات دقيقة منحوتة من العاج ومن خشب الأبنوس، وكذلك أمشاط للشعر من العاج، وآنية مصنوعة للزيوت العطرية من العاج أيضًا على شكل ثور أو أشكال مزينة على هيئة تفاح ورمان وبلح. فوق ذلك كانت الهدايا تتضمن كميات كبيرة من المنسوجات وأردية كتانية من أرق أنواع الأنسجة، ما يزيد على 1000 قطعة.

كل صنف كان يوصف ويسجل منفردًا ويوضع فى موضعه الملائم من القائمة حسب المادة التى صنع منها، وفى حالة تعدد الصنف الواحد كان عدد القطع يذكر بدقة، وكذلك أيضًا وزنه الإجمالى يذكر بالترتيب، إن كانت تلك الأصناف من ذهب وتليها التى من فضة ثم تلك التى من برونز.

وذكر حاتوسيلى فى إحدى رسائله إلى رمسيس: **«لقد سجلت قائمة المنقولات التى ستصحب العروس»**، ووعده أن تفوق منقولاتها منقولات كل الأميرات الأجانب التى أرسلت إلى رمسيس من بلاد بابل أو من زولابى(2).

كل صنف كان يسجل ويوزن، قطعة بعد قطعة قبل أن تحزم وتغلف

وتختم. وكانت القائمة ترسل مصاحبة للمنقولات، وعند وصولها، كان كل صنف تفضّ أغلفته ثم يوزن، قطعة بعد قطعة بعد فض الأختام بطريقة رسمية، لم تكن هناك أية احتمالات أو فرص للتلاعب أو الاختلاس ما بين إرسالها وتلقيها. أو على الأقل كان ذلك هو الغرض.

كذلك كانت الهدايا المرسلة من الملك الميتانى إلى فرعون مصر، تسجل جميعها بالتفصيل الدقيق. كانت هدايا الزواج التى صحبت الأميرة الميتانية تادوحيبا إلى مصر، ليتزوجها أمونحتيب الثالث(3) تضارع فى تنوعها وقيمتها الهدايا التى تلقاها الملك الميتانى من بلاد النيل.

كان من بين الهدايا مجوهرات شخصية: حلى، تماثيل صغيرة، أوانى تجميل، آنية، كئوس، آنية زيوت عطرية وأدوات أخرى كلها من الذهب والفضة والبرونز والمرمر والعاج، هذا عدا مجموعات أخرى من مواد ثمينة ونفيسة، سجلت كلها بالتفصيل فى القائمة التى أرسلها توشراتا ملك الميتانيين. وتظهر بالقائمة أيضًا أصناف مصنوعة من الحديد (وهناك المزيد سنذكره لاحقًا عن هذا المعدن). كان العقيق نادرًا فى مصر، وكانت مصر تتحصل عليه فقط من المصادر الخارجية، وزينت به الهدايا التى أرسلت إلى الفرعون مثل الخناجر والمذبات. كما كانت هناك أيضًا أحذية وجوارب وأردية وأغطية رأس من الصوف المصبوغ أو الكتان المصبوغ، وكذلك صناديق من خشب الأبنوس، وأسلحة احتفالية مزينة سجلت بدورها فى قائمة الهدايا، مثل: البلط، والحراب والخناجر والسهام، والهراوات ذات النتوءات والدروع والخوذات، وشملت الهدايا الخيل والعربات المذهبة، كما كانت هناك كثير من الكماليات من لجامات خيل للرسن، وسيور اللجامات، وسروج مطعمة أو مصنوعة من العاج أو المعادن الثمينة، وكانت الخيل من أرقى أنواع الخيل، فقد كان الحوريون من أفضل مربى الخيول فى العالم القديم فى العصر البرونزى المتأخر.

كان الكرم والسخاء من الجوانب التى تمثل أهمية قصوى فى تبادل الهدايا بين القصور الملكية، كانت الهدايا السخية للملك تضيف كثيرًا لهيبة

المانح، وكانت تظهر مدى الثراء والرخاء والانتعاش الذى تنعم به مملكته، كما كانت تظهر تنوع وكثرة المصادر المادية المتوفرة تحت أمره، كما كانت مقياسًا لمدى حبه لأخيه الملك، فكلما عظم العطاء، كلما دل على حب أعظم، كانت تلك النظرية على الأقل هى التى تحدد العلاقات، فقد كتب آشور – أوباليت ملك الآشوريين إلى أخناتون قائلاً:

«ابعث إلى بذهب كثير»(4).

كذلك أشار بورنابورياش الثانى ملك بابل إلى كميات الذهب الهائلة التى أرسلها أمونحتيب الثالث أبو أخناتون إلى كوريجالزو الذى سبق سلفه على العرش(5)، تلك الهدايا كانت برهانًا واضحًا للملوك الآخرين على الصداقة، والإخوة والسلام الذى يجمع ويربط بين حكام بابل ومصر.

كان حجم وغزارة الهدايا الذى ذكرناه يتجاوز كثيرًا الحجم والكم الذى يتوقعه المتلقى فى الأحوال العادية، وكان ذلك يحدث عادة فى المناسبات الخاصة، وكانت الأعراس من المناسبات الهامة التى يتم فيها تبادل الهدايا بسخاء شديد، على هيئة تقدمات للعروس وبائنة ودوطة من أهل العروس أرسل توشراتا عددًا كبيرًا من العبيد والرقيق (270 فتاة و 30 شابًا) إلى أمونحتيب الثالث كجزء من هدية العرس، وعشرة أطقم من الخيول، وعشر عربات مجهزة تجهيزًا كاملاً، وكانت مناسبات التتويج أيضًا من المناسبات الملائمة لإرسال الهدايا، وكان الملوك الأجانب يذكرون بذلك فى الرسائل الواردة إليهم، وكما لاحظنا فى الفصل السابق، لم يتوان حاتوسيلى عن الشكوى لنظيره الآشورى عدد – نيرارى، حين لم يرسل إليه هدايا ارتقائه للعرش الحثينى.

أما فى مناسبات تبادل الرسائل والمبعوثين فى الأحوال العادية، كانت الهدايا تقل كثيرًا عما سبق ذكره. فقد أرسل بورنابورياش ملك بابل إلى أخناتون هدية عبارة عن عشر قطع من العقيق الخام غير المشكل، وإلى الملكة عشرين نموذجًا لصرار الليل صيغت من العقيق. أما أمونحتيب

الثالث، فقد أرسل إلى كاداتشمان – إنليل ملك بابل أثاثًا لقصره الجديد عبارة عن سرير من خشب الأبنوس مطعَّم بالذهب والعاج وعشرة مقاعد من الأبنوس مكفتة بالذهب.

وتلقى رمسيس جيادًا من البلاط الحثيني، وكأسًا مطعمة بالأحجار الكريمة، وكأسًا مماثلة منقوشة بالأسلوب البابلى ومطعَّمة بأشكال من الذهب، وسرير مكفت بالذهب. وتلقى أيضًا من الملك الحثينى تمثالاً من الذهب يزن 33,5 شاقلاً، وأرسل رمسيس لحاتوسيلى غوريلا. كان العبيد أيضًا يرسلون كهدايا بين البلاطين الحثينى والمصرى. كان المبعوثون الزائرون يتلقـون هم أيضًـا هدايا من الذهب والفـضــة والزيوت من مضيفهم، وأحيانًا (لذوى المراتب العليا) كانت الهدايا التى يتلقونها لا تقل كثيرًا عن تلك الهدايا المرسلة إلى ملوكهم(6).

كانت الهدايا تتبادل أيضًا بين أعضاء أسر كبار الملوك. كان المبعوثون يحضرون بطريقة روتينية الهدايا من بلاط ملوكهم، لا للملك فقط، بل أحيانًا لكل أفراد أسرته ولكبار رجال الدولة، فعن طريق رسول زوجة رمسيس الملكة نفرتارى (نابيترا) وكان اسمه باريحناوا أرسلت إلى الملكة الحثينية بودوحيبا عقدًا من اثنتى عشرة خرزة ذهبية يزن 88 شاقلاً، وثوبًا من الكتان المصبوغ، كما أرسل الأمير المصرى سوتاحبساب إلى حاتوسيلى كأسًا من الذهب الخالص منقوش عليه ثور بقرون من صخر أبيض وعيون سوداء، وبلغ وزن ما به من ذهب 93 شاقلاً، مع أربعة ثياب من الكتان الرقيق(7)، كانت تصحب تلك الهدايا رسائل تحمل تحيات مرسلها وتمنياته الطيبة للمرسلة إليه، كذلك نجد أن نفرتارى طمأنت أختها الملكة بودوحيبا أنها هى وبلادها بكل خير، وتمنت أن تكون بودوحيبا وبلادها بكل خير أيضًا، وشكرت بودوحيبا لاستفسارها عن أحوالها الصحية، وسجلت أن بودوحيبا قد كتبت إليها عن السلام المستتب بين بلديهما، وعن العلاقة الطيبة التى تربط بين زوجيهما(8).

كان ذلك النوع من الرسائل شكلاً من أشكال الصيغ الرسمية، يكتبها

الناسخون عن نماذج ثابتة معدة لذلك، دون أى جانب شخصى من المرسل، باستثناء تحديد الهدايا المرسلة مع الرسالة، ووصفها وعددها، وبالرغم من أنها كانت ترسل بصفة شخصية، كان الهدف الأول منها ذكر ووصف الهدايا المرسلة، والذكر الدقيق لاسم مرسلها، وكذلك اسم المرسلة إليه تلك الهدايا(9). وسنشرح فيما يلى أهمية كتابة وتسجيل الهدايا وأسماء المرسل والمرسل إليه.

شكاوى متلقى الهدايا

كما لاحظنا، كانت الهدايا تعد تعبيرًا حميمًا لمرسلها، يعرب عن طريقها عن حبه وتقديره للمرسلة إليه، وكان تسليم الهدايا يساعد على خلق جو إيجابى للمناقشات التى ستلى تسليمها بين المبعوث القادم بالهدايا والملك المرسلة إليه، بافتراض أن الهدايا كانت عند حسن ظن متلقيها. فى هذا الصدد، لم تكن المشاعر المصاحبة مشاعر هبة تمنح بلا مقابل وإحساس بالامتنان للتلقى. على العكس، كانت الهدايا – فى أغلب الأحوال – سببًا كبيرًا للإحساس بعدم الرضى، ومصدرًا للشكوى.

وهناك رسائل من متلقى الهدايا تعبر عن خيبة أملهم واحتجاجهم على شح وبخل مرسل الهدايا، وأحيانًا ما كانت تعقد المقارنات بين الهدايا التى تلقوها وتلك التى أرسلها المرسل إلى غيرهم من ملوك أو أسلافهم. وقد عرضنا قبل ذلك شكوى آشور أوباليت لفرعون مصر التى قال فيها:

«يلتقط أى أمرىء الذهب فى بلدكم كما يلتقط التراب، لماذا تشح فى وهبه؟ حين كتب سلفى آشور – نادبين – أحىَّ إلى مصر، أرسلتم إليه عشرين جعلاً من الذهب»(10).

«ولم يقم أخى الملك بإرسال التماثيل الذهبية التى كان والدكم سيرسلها. وبدلاً منها أرسلت إلى تماثيلاً خشبية مطلية بالذهب»(11).

كان توشراتا هو الآخر قد أرسل احتجاجًا مريرًا إلى أبى أخناتون، أمونحتيب الثالث، بعد ما تلقى منه ما كان يفترض أن يكون كمية كبيرة

من الذهب النقى. وحضر كبار الضيوف فض أختام الهدية، فقد كانت المحتويات ستظهر - بما لا يدع مجالاً لشك - مكانة الملك الميتانى بين كبار الملوك وتقديرهم له وحبهم. ثم حين رُصت كل الهدايا واللفائف، تم فتحها وفض أختامها وأخرجت الهدايا. وأطبق الصمت على الجميع من الصدمة، فبدلاً من أن تذهل الحضور المجتمعين لنفاستها، لم تكن للقضبان المعدنية من أثر إلا الدهشة والصمت، ثم بدأ التهامس: «هل هذه فعلاً من ذهب؟ بكل تأكيد ليست من ذهب». كان لون المعدن الرصاصى يشى بوضوح لكل الحضور أنها مغشوشة بمعدن غير ثمين. وكان المشهد كفيلاً بدفع الدموع إلى التجمع فى عيون الحاضرين، لذلك عبر توشراتا عن ضيقه قائلاً:

«الذهب فى مصر أكثر من التراب»

وظل الضيوف يذكرون بعضهم بتلك المناسبة وبذلك القول، وجعل ذلك من المهانة أشد وطأة وقسوة، كان الفرعون يدعى أنه يحب أخاه الملك الميتانى حبًا جمًا. ولكن كيف له أن يحب أحدًا بهذا القدر ويرسل إليه مثل تلك الهدية، خاصة إذا كان الذهب فى مصر كما يعلم الجميع ملقى فى كل مكان، ينتظر فقط من يمد يده ليلتقطه(12).

وعانى بورنا بورياش ملك بابل من خيبة الأمل ذاتها عند تلقيه هدية من أخناتون، كان يفترض أنها من ذهب خالص. ومرة أخرى فضح اللون الرصاصى للمعدن مكوناته المخلوطة، وحتى يتأكد بورنا بورياش من ظنونه صهر الهدية، وصدمته النتيجة، وذكر فى رسالة منه:

«أربعون وزنة من الذهب أهديت إلىّ، ولكن أقسم أننى بعد ما صهرتها لم استخلص منها إلا عشر وزنات»(13).

ولا يمكن الاقتناع أن الفراعنة كانوا يعمدون إلى إهانة رفاقهم من كبار الملوك بإرسال ذهب مغشوش إليهم؛ لأن ذلك سينعكس بآثار سيئة عليهم وعلى متلقى تلك الهدايا، ويبدو فى الحالتين السابقتين أن المختلسين كانوا وراء ما حدث، ولم يشك بورنابورياش فى ذلك، ولذلك

نصح الفرعون فى رسالة قائلاً:

«لا ينتدب أخى أحداً لإرسال الذهب الذى سيرسله إلى، يجب أن يفحصه أخى بنفسه، ويشرف على تغليفه ثم يرسله إلى. من المؤكد أن أخى لم يقم بفحص الشحنة السابقة من الذهب التى أرسلها. ترك أخى ذلك لشخص آخر يغلفها ويرسله»!(14).

ومما لا شك فيه أنه كان من الصعب على كثير من رجال الملوك ورسلهم أن يقاوموا إغراء سرقة أو اختلاس الهدايا الملكية، كلما واتتهم الفرصة، حتى لو قام الملك ذاته بفحص الهدايا والإشراف على تغليفها قبل إرسالها، كما نصحه بورنابورياش، فإن ذلك أيضًا لم يكن ضمانًا كافيًا أنها ستصل للمهدى إليه سليمة كما هى، ومما لا شك فيه أنه كان هناك خبراء فى إعادة تغليف اللفائف كما كانت، بعد فضها والعبث بمحتوياتها، واختلاس وسرقة ما يمكن سرقته، فلا يتركون أثرًا يدل على عبثهم بالمحتويات، لذلك نكتشف أهمية كتابة قائمة مفصلة بالأصناف المرسلة إلى أى بلاط ملكى، بما فيها الوزن الافرادى لكل قطعة، والوزن الإجمالى لها جميعًا، خاصة إذا كانت تلك الأصناف من المعادن النفيسة، حتى يمكن مراجعتها والتأكد من وصولها، وكان الوصف الدقيق يذكر بعد ذلك.

وأدى اختلاس الهدايا وسرقتها إلى نشوب نزاع بين آمونحتيب وملك بابل كاداشمان - إنليل. كان كاداشمان - إنليل يشتكى أن مبعوثيه إلى الفرعون قد عادوا خاليِّ الوفاض، دون هدايا من الفرعون لأخيه الملك، ورد آمونحتيب قائلاً:

«ليس صحيحًا ما تقول. هل حدث قبل ذلك لمرة واحدة أن أتى رسلك إلىَّ دون أن يتلقوا الفضة والذهب والزيوت والاردية الرقيقة بكميات لا نظير لها فى أى بلد آخر؟ رسلك لا تذكر لك الحقيقة. أفواههم نطقت بالكذب قبل ذلك لأبيك والآن لك».

ثم أضاف بفظاظة:

«سواء أعطيتهم أى شىء أو لم أعطهم، سيظلون يبلغونك أكاذيب، لذلك قررت ألا أعطيهم شيئًا بعد ذلك»(15).

كان ذلك الخداع من رجال كاداشمان - إنليل بمثابة سبب آخر يبرر أهمية إرسال قائمة مفصلة بالأصناف المرسلة، وكانت فاعلية وكفاءة تلك الوسيلة تعتمد على ثقة الواهب فيمن يعدون ويسجلون القائمة وعلى الرسول المسئول عن نقل الهدايا وتسليمها، وكانت القوائم أيضًا عرضة للتلاعب، كما يحدث للأصناف ذاتها.

أخلاقيات تبادل الهدايا

فى كل الأحوال، كان مصطلح «هدية» فى المراسلات الملكية مصطلح غير دقيق المدلول. ولذلك، كان الفعل كله أقرب ما يكون إلى شكل راق من التبادل التجارى بين الملوك، إلا أنه لم يكن من اللائق أن يشير إليه أى ملك بتلك الصفة، وبالفعل لم يكن يليق بملك أن يمارس أعمال التجارة والأنشطة التجارية، خاصة مع أنداده من الملوك، وكانت التجارة قاصرة على الطبقات الأدنى الفانية، كانت هناك وسيلتان ساميتان أمام أى ملك، ليحظى بالأصناف والبضائع الثمينة: إما عن طريق تلقيها كهدايا أو جزية، أو عن طريق اغتنامها ونهبها بالوسائل العسكرية، وكانت الوسيلة الأولى بالفعل لا تزيد عن كونها شكلاً من أشكال التجارة المستترة، تحت شكل تبادل الهدايا - هدايا توهب وتتلقى كبرهان على الحب والمودة المتبادلة والإخلاص والاحترام الذى يكنه ملكان لبعضهما، وكان ذلك الشكل يتفق ويتوافق مع صورة «الإخوة» بين الملوك، فالإخوة لا يتاجرون على بعضهم، فالتجارة تعنى الحصول على مكاسب من شخص آخر، أما الأخوة، فيمكنهم تبادل الهدايا ذات القيم المتساوية(16).

وكان لمفهوم تبادل الهدايا بعد آخر أيضًا. ففى كل المشروعات التجارية المعتادة بين البشر يقوم التاجر بالاتجار بأصناف نادرة أو غير موجودة أو ناقصة فى بلده، ولكن كبار الملوك كانوا يحبون الظهور بصورة

من لا يعوزهم ولا ينقصهم أى شىء، ويؤكد على أن مملكته لديها كل ما تحتاجه، وغنية بكل المصادر، وفى تلك الحالة يدعى أن الهدايا التى يتلقاها لم تكن من الضرورات، إلا أنه يرحب بالهدايا التى ترسل إليه، كبرهان فقط على العلاقات الدافئة التى تربط بينه وبين المرسل، لذلك كتب بورنابورياش رسالة لأخناتون يقول فيها:

«عرفت أن بلد أخى يتوفر بها كل شىء وأن أخى لا يحتاج إلى أى شىء، كذلك يتوفر كل شىء فى بلدى وأنا أيضًا لا أحتاج أى شىء، ولكن بما أننا ورثنا عن أسلافنا علاقات حميمة تربط بيننا، فلنرسل التحيات (الهدايا) لبعضنا»(17).

ولو وضعنا مصطلح هدايا التحية كبديل دبلوماسى راقٍ لكلمة تجارة على مستوى عال، خاصة فى الأصناف النفيسة المترفة، سنتفهم بسهولة سبب الفظاظة الواضحة التى يبديها متلقى الهدايا، إذا اعتقد أنه تلقى أقل مما كان يتوقع، كان أغلب ذلك التبادل يعتمد على نظام من التكافؤ السلعى بين ما وهب وما تلقى، وهو سبب آخر هام ووجيه، يفسر أهمية وضرورة تسجيل قوائم بكميات وأصناف الهدايا.

ويفسر ذلك أيضا الطلبات الكثيرة التى كان الفرعون يتلقاها من إخوته الملوك الأجانب، فملك ألاسيا التى كانت تقع فى جزيرة قبرص بعث إلى أخناتون(18) قائمة بالهدايا المطلوبة تحتوى على كميات كبيرة من أنقى أنواع الفضة، وثور، ووعائين للزيت الحلو، وخبير فى تدريب النسور(19)، إلا أن الطلب الشائع من الفرعون كان كميات كبيرة من الذهب.

وكتب بورنابورياش باحتقار عن وزنتين تافهتين من الذهب أرسلهما إليه أخناتون، وكانت تلك الكمية الضئيلة لا تفى بأى جانب من احتياجات المعبد الذى كان يشيده، وقال له:

«ابعث إلىَّ من الذهب كميات بقدر ما بعثه كل أجدادك.
أما إذا كان الذهب قد شح، فابعث نصف الكمية»(20).

أما تو شراتا فقد طلب من أمونحتب أن يعامله بأفضل مما كان يعامل أباه بعشرة أضعاف، وأن يظهر له مزيداً من الحب، وبعبارة أخرى، أن يرسل إليه كميات كبيرة من الذهب، وكان يعد في تلك الحالة كجزء من مهر العروس، ابنته تادوحيبا، وجزء لبناء مقبرة(21)، مباشرة بعد العرس، وطلب منه تو شراتا أيضًا أن يرسل إليه تمثالاً من الذهب على هيئة ابنته العروس التى كانت قد أصبحت زوجة للفرعون(22)، وتمنى بحرارة أن لا يكسر بخاطره ويرفض طلبه هو أخوه وابنة بالمصاهرة فى آن، وربما كانت لفتة عاطفية من الملك الميتانى الذى شعر بوحشة محزنة لابنته الحبيبة وأراد تذكارًا ملموسًا يذكره بها.

أو أنه كان يبتكر أفكارًا خلاقة، لدفع أخيه الملك لزيادة الذهب الذى يرسله إلى بابل.

ويثير كل ذلك موضوعًا ذا دلالة، كان «إخوة» الفرعون من الملوك الأجانب، يحرصون على تجنب إثارة أى انطباع بأن طلبهم للذهب لا يدفعهم إليه رغبتهم لتخزين المواد الثمينة لذاتها، بل على عكس ذلك، إنما كانوا يطلبونه (أى الذهب) لأغراض محددة، كان من المقبول تمامًا والمفهوم أن أيًا من كبار الملوك كان يستخدم الذهب فى بناء معبد أو مقبرة، أو لصنع تمثال، فى حين لم يكن من المقبول له اختزانه، أو الأسوأ من ذلك، استعماله كشكل من أشكال النقد، كان ذلك يشين الممارسة النبيلة لتبادل الهدايا ويهبط بها إلى مصاف الباعة الجائلين(23).

ويحتمل أن الملك البابلى كاداشمان إنليل الأول اشترط عند إرسال إحدى بناته، لتصبح زوجة للفرعون أن يرسل إليه الذهب الذى طلبه منه، إلا أنه كان يطلب ذلك الذهب لمشروع إنشائى، وأكد على الفرعون أنه لا يطلب الذهب لذاته، وأنه إذا أزف الموعد النهائى، الذى كان مقرراً الانتهاء فيه من التشييد والبناء، لن يكون بحاجة إلى ذلك الذهب:

«إذا أتممت العمل الذى أشيده، ما حاجتى إلى الذهب ابعث إلىَّ 3000 وزنة ذهب (90 طنًا) ولن أقبلها.

سأعيده إليك إن أرسلته، ولن أعطيك ابنتى زوجة»(24).

ويجب أن نذكر أيضًا أن قوائم طلبات الهدايا التى كان كبار الملوك يطلبونها من أندادهم كانوا يختمونها بعروض كريمة مفتوحة، فقد ختم بورنابورياش قائمة طلباته من أخناتون قائلاً:

«ما على أخى إلا الكتابة إلىّ مهما كان ما يريده، وسوف أبعث إليك به من بيتى»(25).

كذلك أيضا وعد ملك آلاسيا أن يبعث إلى الفرعون أى شىء يريده، وخاصة كميات من النحاس بقدر ما يريد ويشتهى، كذلك طلب توشراتا كميات كبيرة من ذهب مصر كان يقابله مجموعات كبيرة من هدايا العرس التى أرسلها إلى مصر بصحبة ابنته العروس.

إلا أنه لا يوجد أى شك فى أن الإخوة الملوك من غير المصريين قد بالغوا فى تقدير كميات الذهب الموجودة بمصر، حتى بعد الاستنزاف المكثف لمناجم الذهب فى النوبة فى عهد رمسيس الثانى، كان ملوك الشمال يطلبون الذهب بمنطق تواجده بكميات غير محدودة:

«يمكن لأى امرئ فى بلدكم أن يلتقط الذهب كما يلتقط التراب» وكانوا يغرمون بذكر ذلك، وبعيداً عن توقعاتهم غير الواقعية، هناك عوامل أخرى لا بد أن تؤخذ فى الاعتبار، فبينما كان من دواعى الشرف تلبية طلب أخ ملكى، كان ذلك يعد سابقة تقاس عليها الطلبات التالية من الملك ذاته أو ممن يخلفه، وكان الجميع يتوقعون نفس الكرم السابق، إن لم يزد عنه، وكان المبعوث يناقش مع مضيفه قوائم طلباته بلباقة، لدفعه إلى الاعتدال وعدم الشطط والمغالاة.

وهناك وجه آخر لنظام تبادل الهدايا، وهو وجه لا يجب المغالاة فى تقديره، وهو يتعلق بمكانة كبار الملوك واعتبارهم الشخصى، على المستوى الدولى وبين رعاياهم، لقد لاحظنا اندفاع متلقى الهدايا للشكوى، إذا رأى أن الهدايا المرسلة إليه أقل من الهدايا التى كانت ترسل لسلفه، أو التى ترسل إلى ملك آخر معاصر له، ولم يكن ذلك يعود إلى مجرد طمع أو

مشاعر غيرة، كان إرسال هدية تافهة من ملك إلى ملك آخر تعد من أعمال التحقير والإهانة والحط من شأنه، وكان ذلك يقلل من شأنه وهيبته فى عيون كبار الملوك الآخرين، كما يقلل من هيبته فى عيون رعيته والملوك الخاضعين لنفوذه. وتم دراسة مثل تلك المواقف دراسة مفصلة وسجلت حالات كثيرة منها(26). لقد لاحظنا أن وصول مبعوثين بهدايا من ملك أجنبى كان يعد فى أغلب الأحوال مناسبة هامة وعامة فى القصور، يدعى لحضورها أهم الشخصيات والممثلين الأجانب لبلادهم، وتفض أختام اللفائف وصناديق الهدايا فى حضورهم وتعرض أمامهم. لذلك يمكننا أن نتفهم الحرج الشديد والإحساس بالمهانة الذى شعر به توشراتا، حين وجد أن الهدية ليست إلا ذهبًا مغشوشًا لا يخفى أمره على كبار الشخصيات الحاضرة، وكان تلقى مثل تلك الهدايا التافهة يشكل إهانة وتحقيرًا شديدًا لمتلقيها.

ومرة أخرى، لا بد أن نؤكد على العلاقة المباشرة بين إهداء الهدايا ومكانة الشخص، كما تبدو فى نظر مانح الهدية، كان يشار إلى الهدايا فى الرسائل بصفتها تعبيرًا حميمًا عن علاقة قوية تربط بين ملكين. كما كانت فى حقيقة الأمر تعبيرًا سياسيًا قويًا، وفى عالم مبنى على التحالفات الاستراتيجية بين الأقوياء، كان من الضرورى أن يظهر أخوك الملك على وفاق معك، وأن تظهر على وفاق معه، بشرط التكافؤ التام وعلى قدم المساواة، وأن يتعامل معك بقدر الاحترام نفسه الذى يظهره لكبار الملوك الآخرين المتحالف معهم.

وكان منح الهدايا من أهم المقاييس التى تظهر قدر ملك ما بين أقرانه من كبار الملوك. لقد كان المغزى السياسى ذاته، لا قيمة الهدايا، ما جعل حاتو سيلى يغضب من إهمال عدد - نيرارى الآشورى إرسال هدايا له بعد ارتقائه العرش الحثينى، وهو ما سبب للملك الحثينى انزعاجًا شديدًا.

وكانت أحيانًا ما تساق الأعذار للتأخر فى إرسال هدايا. فبعد ما عرض ملك آلاسيا على فرعون مصر أن يطلب أى كميات يريدها من

النحاس، تلى ذلك بإخباره ألا يتضايق إذا استغرق وصول النحاس بعض الوقت، فقد كان الطاعون منتشرًا بين سكان آلاسيا، وقال فى رسالته:

«لقد وضع الإله نيرجال يده على بلادى، وقضى على كل الرجال ولم يترك عامل نحاس واحد»(27).

كما كانت أحوال الطقس السيئة تعوق إرسال كميات كبيرة من الهدايا، كما ذكر بورنا بورياش لأخناتون فى إحدى رسائله:

«لقد علمت أن السفر أصبح متعذرًا، الطقس حار ومصادر المياه شحت فى الطريق، لذلك لم أرسل إليك فى الوقت الحالى عددًا كبيرًا من هدايا التحية الثمينة، مجرد أربع وزنات من العقيق النقى وخمس مجموعات من الجياد، بمجرد أن يتحسن الطقس، سأبعث مع رسولى هدايا ثمينة كثيرة إلى أخى»(28).

كان عدد – نيرارى قد أرسل رسالة إلى حاتو سيلى يطلب منه إرسال هدية من الحديد، وكان شديد الندرة فى تلك الأيام قبل التوصل إلى طرق استخلاصه، فكان يعد من المعادن الثمينة، لذلك كانت المشغولات القليلة التى صنعت من الحديد تصنع من الكتل الطبيعية من الحديد التى يعثر عليها، أى الحديد النيزكى، وكان الحثيثيون – على وجه الخصوص – قد توصلوا إلى طريقة بدائية لصهر ذلك الحديد النيزكى واستخلاصه وتشكيله، إلا أنه كان من الناحية العملية أردأ كثيرًا من خليط سبائك البرونز، إلا أنه لندرته كان يلقى تقديرًا عاليًا، وكان يستخدم فى صناعة ألواح الكتابة، والمجوهرات والأسلحة التذكارية، وكانت الأسلحة التذكارية ترسل كهدايا ملكية(29).

وكان من بين الهدايا المرسلة من توشراتا – بصحبة ابنته عروس فرعون مصر – زوج من الأساور الحديدية المطلية بالذهب، كذلك هراوة مسننة، ونصل خنجر من الحديد المطلى بالذهب، إلا أن الهدايا المصنوعة من الحديد كانت تقل كثيرًا فى العدد عن الهدايا الأخرى المصنوعة من المعادن الثمينة الأخرى. ويبدو أن عدد – نيرارى كان لديه تقدير مبالغ فيه

عن قدرة الحثيين على إنتاج الحديد، لذلك رد عليه حاتوسيلى ليخبره أن طلبه الحالى لا يمكن تحقيقه، لذلك أرسل إليه هدية أخرى تعبيرًا عن الود، مع وعد بهدايا أخرى فى الوقت الملائم، قال فى رسالته:

«بالنسبة للحديد النقى الذى أرسلت فى طلبه منى، فإن الحديد النقى لا يوجد فى خزائن فى مدينتى كيزوادنا، وكتبت إليك أن الوقت غير ملائم لصناعة الحديد، سوف يصنعون حديد نقى، ولكنهم لم ينتهوا من صنعه بعد، عندما ينتهون من صنعه، سأبعث به إليك، أما حاليًا، فأنا أرسل إليك نصل خنجر من الحديد»(30).

مخاطر نقل الهدايا

كان جمع الهدايا أحد الجوانب، أما إرسالها إلى الوجهة المرسلة إليها، فقد كان أمرًا آخر، كانت أحوال الطقس تشكل واحدة من مخاطر النقل، كما ذكر بورنابورياش، خاصة للقوافل، فقد كانت أبطأ فى الانتقال. وكانت العصابات تشكل تهديدًا مستمرًا، وكانت معرفة أن قافلة ما ترتحل فى خدمة الملك لا يعطيها استثناءً ولا حماية من هجمات العصابات، بغض النظر عما يعتقده الملك عن ضبطه للأمن فى الأراضى الخاضعة لسلطته، كان الانتقال عبرها يعد دائمًا نوعًا من أنواع المخاطرة، خاصة تلك القوافل التى تنقل أصنافًا ذات قيمة ثمينة، لم تكن القوافل الملكية تأمن حتى مخاطر المرور عبر أراضى الملك الصديق الذاهبة إليه، لقد كتب بورنا بورياش إلى أخناتون متشكيًا أن القوافل من بابل والمتجهة بهدايا إلى فرعون مصر تعرضت مرتين للسرقة من موظفى الفرعون أنفسهم(31). كما اشتكى عزيرو - أحد الملوك المشاغبين الخاضعين للنفوذ المصرى - أن نصف هدايا الفرعون المرسلة إليه من الذهب والفضة قد قام بسرقتها موظف مصرى يدعى حتيب(32).

أما التجار العاديون الذين كانوا ينتقلون فى رحلاتهم التجارية عبر منطقة سورى، فقد كانوا فى أغلب الأحوال يقعون ضحايا للعصابات،

فيسرقونهم وأحيانًا يسرقونهم ويقتلونهم. وكتب بورنا بورياش مرة أخرى إلى أخناتون متشكيًا من أن التجار البابليين قد هوجموا وسرقوا وقتلوا فى منطقة كنعان الخاضعة لنفوذ الفرعون. وطلب منه فى رسالته أن:

«يحيل الجناة إلى العدالة، ويعوض التجار عن الأموال التى سرقت، وإعدام الجناة لقتلهم تجارنا، قم بقصاص الدم»(33).

إلا أن القصاص لم يكن المطلب الوحيد فى تلك الرسالة:

«إذا لم تعدم الجناة، سيقتلون تجارًا آخرين، سواء كانت قافلة لنا أو من مبعوثيك. وسيترتب على ذلك انقطاع الرسل بيننا»(34).

وكانت الفقرة الأخيرة تحريضًا مباشرًا لمساسه بمصالح الفرعون، حتى الشحنات الصغيرة من الهدايا كانت بحاجة إلى قوة عسكرية مرافقة ذات حجم كاف لدرء خطر العصابات، كانت بعثة واحدة على سبيل المثال من لدن أخناتون إلى بابل تحتاج إلى قوة عسكرية من المشاة والعجلات الحربية تظل مرتبطة بها لأشهر عديدة، كانت البضائع تنقل على اليابسة على الحمير، وأحيانًا على السفن البحرية فى جزء من الطريق(35)، كانت مشاكل النقل تزداد خطورة إذا كانت الهدايا تشمل عبيدًا أو حيوانات حية، وكانت هبة العروس الحثينية المرسلة كزوجة لرمسيس الثانى تشمل الخيل، والخراف والماعز والماشية وعددًا من العبيد، أسرى حروب الحثيين من شعب القوقاز شمال الأناضول، وكانت ترتيبات نقل العروس والهدايا والموكب بأجمعه موضع مناقشات عبر رسائل عديدة، تبودلت بين رمسيس وبودوحيبا، وسوف نعرض تلك الرسائل فى الفصل التالى، مع عرض التحضيرات الكثيرة السابقة على الزواج والتى أثمرت عن ترسيخ العلاقات بين البيتين الملكيين، الحثينى والمصرى.

6

سوق الزواج

فى طريق عودة الأمير الحثينى حاتوسيلى، والذى أصبح بعد ذلك الملك حاتوسيلى الثالث من قيادة الجيش فى سوريا مر بمدينة لوازنتيًا، مركز العبادة والكهانة الشهير فى منطقة كيزُوادنا، وهناك التقى بزوجة المستقبل بودوحيبا، ابنة الكاهن الحورانى بنتى بشارى.

وفى منامه رأى حاتوسيلى الربة عشتار وأعلمته أنه سيتزوج من بودوحيبا، وكان يقول عن ذلك: **«وهبتنا الربة حب الزوج والزوجة»**، وكان يتحدث عن زواجه بصفته زواجًا صنعته السماوات العلى، أما فى الحقيقة، فيبدو أن حاتوسيلى قد صرعته مفاتن بودوحيبا من أول لحظة وقعت عيناه عليها، بمساعدة الربة أو دون مساعدتها، إلا أن الحب كسبب أول للزواج كان نادرًا، إن لم يكن فريدًا فى عالم ملوك الشرق الأدنى القديم.

ترتيب وتنظيم الزيجات الملكية

فى مجتمع عواهل الحكم عبر التاريخ بأجمعه، وكذلك فى العصر البرونزى المتأخر، كان الزواج من أهم الوسائل فى تقوية التحالفات السياسية والعسكرية بين حليفين، كانت الأميرات من أهم الأدوات الدبلوماسية لتحقيق هذا الغرض.

كان أى ملك عظيم رزق بكثير من البنات يصبح تحت يده ورهن تصرفه بناته الأميرات، واللائى يمكن اختيار عرائس من بينهن لإرسالهن إلى فراش الأزواج من إخوته الملوك، وساهمت الخليلات والمحظيات فى إنجاب الكثير من الأميرات للملوك، كان «الحريم» من زوجات الصف الثانى والخليلات والمحظيات من الجوانب المألوفة فى كل مملكة، كحالة رمزية أو ترفيهية فعلية لضمان متعة جلالته. وتذكر الملكة بودوحيبا أن

البلاط الحثيني كان يموج بالأمراء والأميرات، في مختلف المراحل العمرية، حين دخلت ذلك البلاط لأول مرة كزوجة، وكان بإمكان جلالته أن يختار من بين كل الأميرات من بناته الأميرة ذات السن الملائم، لتصبح زوجة لأحد الإخوة الملوك إذا طلب منه إحدى بناته للزواج، في أغلب الحالات تكون الأميرة المفضلة من بين أرفع الأميرات، أي من بنات الزوجة المفضلة، وكان يحتفظ بهن للزيجات الهامة، أي للزواج من أهم حلفائه. إلا أن الصفات الشخصية للمرشحة كانت أيضًا من العناصر الهامة في الانتقاء، بالإضافة إلى أية مواهب وكفاءات أخرى قد تتوفر فيها، فالأميرة المرشحة للزواج من أحد كبار الملوك كان لا بد لها أن تكون ذات جمال أخاذ.

ومن غير المعروف إن كان لمبعوث العريس الحق في الفحص المبكر للعروس أم لا، فالذي اختارها أبوها، حتى يتأكد للمبعوث ملائمتها لملكهم. ولكن من المفترض أنه كانت لدى الزوج المرشح وسائله للتأكد من أنه لن يتزوج بعروس دميمة، وبالطبع، لم يكن من صالح أحد كبار الملوك أن يرسل ابنته للزواج من ملك عظيم آخر، لتتعسه ولا تحظى بإعجابه. في كل الأحوال كانت توجد فرصة واحدة على الأقل لفحص العروس قبل أن تنتهي، وتكتمل تحضيرات الزواج، كان مبعوث يرسل من لدن زوج المستقبل لرؤية العروس وتكريس الموافقة عليها، ولم يكن ذلك إلا جانبًا من الرسميات، بالرغم من أنها كانت فرصة للمبعوث للتأكد من أن العروس في حالة جيدة وأنها تصلح لما هو منتظر منها.

ولا نعرف عن حالات فشل فيها إتمام الزواج بسبب مشاكل اللحظة الأخيرة، بل على العكس، كان مبعوث العريس يعرب عن إعجابه بالعروس المختارة، كما فعل مين مبعوث أمونحتيب الثالث بعد ما رأى ابنة توشراتا، وقال أبوها في رسالة لأمونحتيب:

«أريت مين العروس المطلوبة لأخي، ولما رآها، امتدحها كثيرًا»(1).

كذلك أيضًا، حين طلب أمونحتيب زواج تحالف من ابنة ملك ارزاوا

الملك تارحوندا رادو، رتب وسيلة لمعاينتها قبل الاتفاق النهائي:

«أترى ! لقد أرسلت إليك إيرشابًا، مبعوثى، (بتعليمات): دعنا نعاين الابنة التى سيقدمونها إلى ملكى للزواج، وسوف يسكب على رأسها زيت التمسيح»(2).

ومـا حـدث فـعـلاً أن ذلك الزواج لم يتم، لا لقـصـور بالعـروس عند معاينتها، بل للأحداث السياسية التى وقعت، واسترداد الحثيين لكامل نفوذهم على كل منطقة الأناضـول وفقدان الملك أرزاوا لنفوذه الذى كان قصير العمر فى تلك المنطقة، لم يعد لأرزاوا الأهمية والنفوذ، حتى يحظى بميزة انضمامه لعضوية أصهار ملك مصر.

وهناك سمة هامة واضحة نلاحظها مما سبق.

كان طريق الزواج والمصاهرات مع ملوك مصر ذا اتجاه واحد.

كان فرعون مصر راغبًا على الدوام فى استقبال زوجات أجنبيات ذوات حسب رفيع. إلا أن أيًا من فراعنة مصر لم يوافق أبدًا على إرسال أميرات مصريات ليكن زوجات لملوك أجانب، كـان ذلك تقليدًا راسـخًا لا استثناء له، ولم يكن ذلك بالطبع بسبب قلة عدد بنات الفراعنة. فقد كانت هناك أعداد وفيرة منهن (وكن على درجات متباينة فى الترتيب الوراثى حسب وضع أمهاتهن)، كما لم يكن السبب كما ظن الكثيرون من الباحثين يعود إلى احتمال موت تلك الأميرة خارج مصر، فلا يحظى جسمهانها بطقوس الدفن، طبقًا للمعتقدات المصرية الدينية، والتى تضمن لها الخلود فى العالم الآخر، بل كان السبب يعود إلى كبرياء الفراعنة واعتدادهم بأنفسهم، وفى المحافظة على صورة الفراعنة الراسخة كأهم وأعظم ملوك المنطقة(3).

وأن يرسل حـاكم أجنبى إحدى بناته إلى البلاط المصرى - كعروس للفرعون دون أى احتمال أن يبعث الفرعون بأميرة مصرية بالمقابل - كان يعزز من وضع الفرعون وعلوه على كل الملوك، أو على الأقل كانت تلك هى المفاهيم المصرية، ويبدو أن الملوك الأجانب قد تفهموا ذلك وقبلوه، ومادام

حظر تصدير الأميرات المصريات كزوجات يسرى على كل الملوك الأجانب، مادامت المصالح السياسية والاستراتيجية والمادية واستمرار العلاقات الدبلوماسية مع مصر قد تأسست على المصاهرة من جانب واحد، والتى كان الفراعنة يصرون عليها.

غير أن الملك البابلى كاداشمان - إنليل حاول اختبار متانة وقوة ذلك العرف المصرى، وكتب إلى أمونحتيب الثالث يطلب منه ابنته كزوجة له. وأتت الإجابة حاسمة:

«لم يحدث من بداية الزمن أن أعطيت ابنة ملك مصرى كزوجة لأى ملك أجنبى».

وأصر كاداشمان - إنليل على طلبه فى رسالة تالية:

«أنت الملك، بإمكانك أن تفعل ما تشاء»

وظل فرعون مصر على صلابته، لذلك لجأ كاداشمان - إنليل إلى وسيلة أخرى، قال للفرعون إنه بإمكانه تلبية طلبه، وفى الوقت نفسه يظل محافظًا على ذلك التقليد المصرى الأصيل بأن يرسل إليه أميرة مصرية مزيفة، أى ليست من بنات الملك، وعرض ذلك قائلاً فى رسالة:

«لا بد أن هناك فى مصر من لديه بنات جميلات صالحات للزواج فلماذا لا ترسل لى أية فتاة جميلة على أنها إحدى بناتك؟ ومن الذى يجرؤ على القول: إنها ليست ابنة للملك؟»(4)

كان يقترح على فرعون مصر عملية تزييف صارخ.

وبالطبع، لم يكن ذلك السبب الرئيسى فى امتناع فراعنة مصر عن إعطاء بناتهم كزوجات لملوك أجانب، كان كل الأمر يتعلق بصورة الفرعون، ووعى الشعوب بتلك الصورة، فإذا وافق على إرسال أميرة مزيفة على أنها ابنة حقيقية للفرعون، على عكس حقيقة الأمر، فإن ما سيعرف بين الناس هو أن الفرعون خرج على التقليد الراسخ، وقام بتقديم ما لم يقدم إلى أى ملك آخر. فلم يكن أى أجنبى مهما كانت مكانته يستحق شرف الحصول على أميرة مصرية. وإن حدث ذلك فإنه كان يعزز مكانة الملك الميتانى فى

أعين نظرائه من الملوك الأجانب، فى الوقت الذى تنتقص فيه هيبة ومكانة فرعون مصر. ولا يوجد شك فى أن الفرعون لم يولِ ذلك الاقتراح أدنى اهتمام.

ويثير ذلك سؤالاً آخر. فإلى أى مدى كان أى ملك يرتبط بابنة ملك آخر على يقين من أصالة الزوجة المرسلة إليه؟ فالخدعة التى طلب كاداشمان - إنليل من فرعون مصر مشاركته فيها لم تكن نادرة الحدوث، كان إيفاد مبعوث لمعاينة العروس يساهم إلى حد بعيد فى التأكد من أصالتها. إلا أن مشاكل عدم اليقين كانت تظهر من آن لآخر. ففى بعض الأحيان كان يصعب على أبناء وطن الأميرة ذاتها ومواطنيها التعرف عليها. وأدى ذلك إلى زيادة توتر مفاوضات الزواج بين كاداشمان - إنليل وآمونحوتيب الخاصة بزواج آمونحوتيب من أميرة بابلية، كان آمونحتيب قد طلب يد أميرة بابلية، ومثَّل ذلك الطلب مشكلة لكاداشمان - إنليل، كانت شقيقته قد أرسلت فيما قبل إلى مصر كزوجة لآمونحتيب - أثناء حكم أبيه - ولم يسمعوا أو يعرفوا عنها شيئًا من ذلك الحين، كان كاداشمان - إنليل يرسل مبعوثيه لزيارة شقيقته والاطمئنان عليها، إلا أن أيًا منهم لم يمكنه التأكد إن كانت مازالت حية أم ميتة. وليطمئنهم، أشار آمونحتيب إلى امرأة بين زوجاته وقال للمبعوثين البابليين إن تلك هى الأميرة البابلية، إلا أن المبعوثين ظلوا على تشككهم، ولم يستطيعوا التأكد إن كانت هى فعلاً شقيقة ملكهم أم لا، وأبلغوا ملكهم بذلك، فأرسل كاداشمان - إنليل بشكواه إلى أخيه الملك، وكان جوهر الرسالة:

«كان أبى قد أرسل شقيقتى كعروس لكم واختفت، وأنت الآن تطلب ابنتى أيضا؟»

وكان آمونحتيب سريع الرد على ذلك الأمر، وقال:

«إن الرجال الذين أرسلتهم لا صفة لهم، بل إن أحدهم كان راعيًا للحمير والبغال، لا يوجد منهم من كان مقربًا من أبيك ليعرف أختك ويستطيع التعرف عليها، لماذا لم ترسل واحد من كبار رجالك وعظمائهم يعرف أختك، بحيث يمكنه التحدث معها والتعرف عليها؟ لو كنت قد قمت

بذلك لكنت عرفت الحقيقة، وهى حية وبأحسن حال. ويمكن أن يزوروها بجناحها الذى تقيم فيه؛ ليتأكدوا أنها سعيدة بعلاقتها مع الملك، ولو كانت قد ماتت لماذا أخفى تلك الحقيقة عنك؟»(5)

ولا نعلم إن كانت مشكلة شقيقة الملك المفقودة بمصر قد ظهرت حقيقتها أم لا؟ ولكن حتى، بعيدًا عن تلك المشكلة، كانت العلاقة بين ملكى بابل ومصر غير بسيطة ويسودها الشد والجذب، والأقرب إلى الاحتمال أن شقيقة كاداشمان - إنليل كانت مازالت حية بالبلاط المصرى، إلا أنها أصبحت مهملة بين حريم الملك، ولو كان قد سمح لها أن تلتقى بمبعوثى أخيها كاداشمان إنليل، فمن المحتمل جدًا أنها لم تكن لتقدم لهم صورة وردية عن حياة أميرة أجنبية تنتهى أيامها المبهجة بمجرد انتهاء عزف موسيقى الزواج، وأصبحت بعد ذلك امرأة غير مميزة ضمن كثيرات أخريات، وفى مفاوضات زواج أمونحتيب بأميرة أخرى من البيت الملكى البابلى، وهى ابنة الملك، فى المرة الثانية ربما اعتقد أمونحتيب أن من الأفضل له أن لا يعطى أى فرصة لمبعوثى ملك بابل للقاء زوجته البابلية شقيقة الملك.

مثالب سوق الزواج الدولى

وكانت هناك مناسبات انقلبت فيها روابط الزواج، أو مشاريع الارتباط بالزواج بين البيوت الملكية إلى مآسى وكوارث. فابنة بورنابورياش الثانى، التى تزوجت من الملك الحثينى سبيللوليوما، أصبحت بعد الزواج أقوى وأخطر وأشد أسباب التمزق فى كل العصر البرونزى المتأخر من بين كل الزوجات المجلوبات من خارج بلاد أزواجهن، كان سبيللوليوما قد هجر زوجته الحثينية، ليتزوج من الأميرة البابلية وأطلق عليها اسم تاوانانًا، واتخذها زوجة أولى شريكة فى الملك، ومن خلال ما سجله ابن زوجها مورسيلى والذى أصبح ملكًا بعد ذلك، نعرف أنها سرعان ما أصبحت ذات أقوى نفوذ فى جميع أرجاء المملكة، واستبدت بكل ثروات المملكة أثناء

حكم زوجها وبعده أيضا، كما أدخلت تقاليع وعادات غريبة على المجتمع، وتقرب وتدعم من ترضى عنهم، وتغتال أبناء زوجها من زوجاته الأخريات، حتى أمكن نزع كل سلطاتها وطردت إلى المنفى.

كما حدثت اضطرابات شديدة فى بابل حين اعتلى أحد أبناء بورنابورياش ويدعى كاريندااش العرش، وتزوج من أميرة آشورية ابنة للملك الآشورى آشور - أوباليت، ثم اعتلى ابنهما ويدعى كاراها رداش عرش بابل، إلا أن كاراهارداش تم اغتياله على أيدى القادة العسكريين البابليين؛ لرفضهم أن يكون ملكًا عليهم من تجرى فى عروقه دماء نصف آشورية، وغضب آشور أوباليت؛ لاغتيال حفيده الذى أصبح ملكًا على بابل، وهاجم بابل منتقمًا وأعدم الملك الذى انتزع عرش حفيده (ارجع للفصل الأول).

كذلك أيضا شن سبيللوليوما هجومًا انتقاميًا على الحدود المصرية، فقد كان أرسل ابنه زانّانزا، للاقتران من أرملة توت عنخ آمون، إلا أنه مات فى الطريق ميتة غامضة وفى ظروف مريبة، واعتبر سبيللوليوما أن المصريين هم المسئولون عن موت ابنه (انظر الفصل 11).

كذلك أدى زواج الملك الحثينى تودحاليا الرابع من أميرة بابلية أخرى إلى اضطرابات وصراعات داخل القصر الحثينى، حين تشاجرت العروس مع حماتها الشهيرة شديدة المراس بودوحيبا، والتى قادت كل معارضى ذلك الزواج ضد كل مؤيديه(6).

أما على مستوى الملوك الخاضعين لهيمنة ونفوذ ملوك آخرين أقوى منهم، فنجد أن زواج أميشتامرو الثانى ملك أوجاريت الشاب من ابنة بنتشينا ملك عمورو قد انتهى بمأساة، وطلاق مدو، ويحتمل جدًا بإعدام العروس(7).

لذلك من الممكن أن يسفر زواج التحالف بين بيتين ملكيين عن مشاكل خطيرة، وأحيانًا قبل أن يتم الزواج.. بل حتى كان السفر من بلد العروس إلى بلد العريس يتسم بمخاطر شديدة. وكانت الحراسة العسكرية

ضرورية فى مثل تلك الحالات، وقد أثار بورنابورياش تلك المشكلة حين كان يعد ابنته لتكون زوجة لأخناتون(8)، وكان واضحًا أن تلك العروس كانت بديلاً لعروس أخرى مرشحة للزواج من أخناتون، إلا أنها ماتت، واشتكى بورنابورياش من ضعف قوة الحراسة وصغرها التى أرسلها أخناتون لحراسة عروسه القادمة إلى مصر، وقال فى تلك الرسالة:

«حايا (المسئول المصرى) ليس تحت إمرته إلا خمس عجلات حربية، فهل بإمكانه مرافقتها إلى مصر بخمس عجلات فقط؟ هل يجب على أن أدعها تغادر بيتى فى هذه الظروف؟»

مما لا شك فيه أن انزعاج بورنابورياش كان سببه حرصه على سلامة ابنته، إلا أنه كان منزعجًا أيضا من قلة التقدير التى سيبدو عليها فى نظر الملوك الآخرين، حين يعلمون أن فرعون مصر قد أرسل تلك الحراسة البائسة لصاحبتها، واشتكى قائلاً: فى الرسالة نفسها:

«جيرانى الملوك قد يقولون: لقد استخدموا خمس عجلات فقط لنقل ابنة ملك عظيم إلى مصر»(9)

وراح بونابورياش يذكّر الفرعون أن فى الجيل الذى سبقه أرسل أبوه أمونحوتيب الثالث قوة قوامها ٣٠٠٠ جندى مقاتل لمرافقة أميرة بابلية إلى مصر.

وأن تكون الفتاة ابنة ملك عظيم لم يكن امتيازًا عظيمًا تحسد عليه. كانت الأميرات فى حقيقة الأمر لا يزدن عن كونهن جوارى ولكن من طبقة عالية، وكن يعاملن أحيانًا كسلع زائدة لدى من يقترن بهن من ملوك أجانب، وكما لاحظنا، جعل الملك البابلى كاداشمان – إنليل موافقته على زواج ابنته لأمونحوتيب مشروطة بإرسال أمونحوتيب كميات الذهب التى طلبها لمشروعاته الإنشائية فى بابل، وكانت مثل تلك الطلبات التى تبدو كمقايضة تثير الحنق الذى يدفع الطرف الثانى ليوبخه توبيخًا مستحقًا، فقد رد أمونحوتيب على ذلك الشرط قائلاً(10):

«شىء لطيف أن تهب بناتك من أجل الحصول على حفنة من الذهب»

استغلت أميرات كثيرات كأدوات دبلوماسية بإرسالهن إلى بلاد أجنبية كأفضل وسيلة ملائمة لتحقيق مصالح ممالك آبائهن، كان ذلك هو مصير الأميرات عبر كل العصور، وكان المصير يتحول إلى أسوأ حين كانت أى منهن تقترن بملك له كثير من الزوجات، كما كانت تتكرر الصورة على الدوام، حين يجدن أنفسهن فى بلد أجنبى حيث عليهن أن يقضين كل عمرهن دون أن يعرفوا كلمة واحدة من لغتة ولا عادات قومه.

كانت العروس الملكية تأتى إلى موطنها الجديد تصحبها مجموعة من الخدم من موطنها الأصلى (على سبيل المثال، جاءت الأميرة الميتانية كيلوحيبا إلى مصر ويرفقتها 317 امرأة من خدمها(11)) وكانت مرافقتهم لها تمثل بعض العزاء أثناء إقامتهن فى الأوطان الغريبة عنهن، كن على الأرجح موضع ترحيب واحتفاء طوال فترة الاحتفالات بالزواج، ثم بعد ذلك وتدريجيًا تنحدرن إلى زوايا الاهمال والنسيان، حتى إنه لا يبقى لديهن من سلوى إلا خدمهن الذين صحبوهن من مواطنهم الأصلية، ولا يوجد شك أن آبائهن الملوك كانوا يعدونهن عند رحيلهن من بلادهن بأنهم سيبعثون من يزورهن ويطمئن عليهن بانتظام. ولكن تبدأ تلك الزيارات فى التناقص والتباعد، وكما رأينا، فإن زوجها وسيدها الجديد من الممكن أن يمنع مبعوثى أبيها من رؤيتها أو التحدث إليها..

ولم يكن من غير المعتاد لأى فرعون أن يطلب أكثر من عروس من مملكة واحدة، وكما رأينا، كان على ابنة توشراتا أن تنضم إلى عمتها كشاغلات لغرف نوم أمونحوتيب الثالث، إلا أن مصاهرات التحالف المصرى – الميتانى كانت قد بدأت فى عهد تحتمس الرابع أبى أمونحوتيب الثالث، وكان قد كتب إلى أرتاتاما ملك الميتانيين طالبًا يد ابنته، وأظهر ارتاتاما أنه مساوم شديد البراعة، فقد طالت مفاوضات الزواج حتى توصلا إلى اتفاق فى نهاية الأمر لذلك، راح توشراتا فى سياق خطاب طويل يذكر أخناتون بتاريخ العلاقة بين المملكتين، وجاء فى تلك الرسالة:

«حين طلب جدك (تحتمس) من جدى ارتاتاما يد ابنته أخت أبى

شوتارنا كتب إليه خمس وست مرات، ورغم ذلك رفض جدى، ولم يوافق جدى إلا بعد أن كتب إليه مكرراً طلبه لسابع مرة.»(12)

ثم انتقل إلى ذكر ما حدث من مفاوضات بين أبيه، شوتارنا، وأبيا أخناتون، أمونحوتب، حول عروس ميتانية أخرى، وهى الأميرة كيلوحيبا ابنة شوتارنا وأخت توشراتا، وذكره أنه بعد الطلب من أبيه بإلحاح لسادس مرة وافق على منحه كيلوحيبا. ثم ذكر توشراتا أخناتون بالفضل الذى عامل به أباه أمنحتب، حين طلب منه يد ابنته الأميرة تادوحيبا، وأنه طوق عنقه بجميل: **«فعندما طلبها لأول مرة قلت لرسوله: بكل يقين سأعطيها له».**

فما سبب ذلك الغرام الواضح بالأميرات الميتانيات؟ السر هو أن العرائس الملكية كن بمثابة المعاهدات - روابط غير مستقرة بين مملكتين، إلا أنها جيدة بين الحاكمين. وحين يموت أحد طرفى المعاهدة، يسعى شريكه الذى ما زال حياً إلى عقد معاهدة جديدة مع خليفته للتأكيد على التحالف واستمراره. وكذلك أيضا، كانت العروس الملكية تمثل رابطاً شخصياً بين الملك الذى أنجبها وأرسلها والملك الذى تلقاها، فبعد موت ارتاتاما وتحتمس الرابع، كان لابد من إعطاء عروس جديدة للفرعون الجديد كأحد أهم عناصر تأكيد التحالف المصرى الميتانى، وكان ذلك لا يرتبط ولا يتوقف على إن كنت الزوجة الميتانية لتحتمس الرابع مازالت حية بعد موته أم لا، لذلك تزوج أمونحوتب بابنة شوتارنا الأميرة كيلوحيبا، إلا أنه بعد موت أبيها احتاج الفرعون إلى عروس ميتانية جديدة، فقد كانت الأميرة كيلوحيبا قد أصبحت بموت أبيها بمثابة معاهدة لا يعتد بها، لذلك طلب من الملك الجديد توشراتا يد ابنته تادوحيبا.

فى ذلك الوقت كان عمر أمونحتيب يقترب من نهايته، فما الذى حدث للأميرة تادوحيبا بعد موته؟ يبدو أن أخناتون نقلها إلى جناح الزوجات.

وبالفعل، افترض كثير من الباحثين أنها أصبحت الزوجة الثانية فى ترتيب الأهمية (بعد الزوجة الرئيسة نفرتيتى)، وأنها أصبحت تحمل لقب

واسم «المحبوبة جدا» كيا(13). ويترتب على ذلك الافتراض احتمال جدلى، فبما أنه من المعروف أن نفرتيتى أنجبت من زوجها أخناتون ست بنات ولم تنجب له ذكورًا، فإن ذلك يدفع بافتراض أن كيا هى من أنجبت توت عنخ آمون.

ويتساءل بروفيسور مورنين مشيرًا إلى التوتر الدائم بين بنات نفرتيتى والأميرة كيا: هل كانت جريمة كيا أن فازت فى التنافس وأنجبت ما عجزت الزوجة الرئيسة الأولى المفضلة عن إنجابه، أى وريثًا ذكرًا(14)؟ وإن كانت كيا هى بالفعل الأميرة الميتانية تادوحيبا، فإن ذلك كان يمثل سببًا إضافيًا للعداوة بين بنات نفرتيتى وبينها، أى أنها كانت بالنسبة لهن امرأة أجنبية غريبة وهبت أباهن وريثًا ذكرًا، وهو ما فشلت أمهن به، ولم تقدر على تحقيقه. ويترتب على صحة ذلك الافتراض أن توت عنخ آمون نصف حورى، وأن جده لأمه هو الملك الميتانى توشراتا – عدو الحثيين الرئيسى.

مراسلات الزواج المصرية - الحثينية

لا تتوفر معلومات عن طبيعة المفاوضات بين البلاطين المصرى والميتانى التى سبقت الموافقة النهائية على زواج أمونحتيب الثالث والأميرة تادوحيبا، إلا أنه توفرت لنا معلومات عن طبيعة المفاوضات. ومختلف النقاط الهامة التى ظهرت خلال المفاوضات، من نصوص الرسائل العديدة التى عثر عليها والخاصة بذلك الأمر، المتبادلة بين البلاطين المصرى والحثينى أثناء حكم رمسيس الثانى وحاتوسيلى الثالث.

كانت المفاوضات معقدة وصعبة أكثر مما يجب، بسبب تناولها أيضًا لمشكلة وجود أورحى تيشوب ملك الحثينيين السابق الذى أزاحه حاتوسيلى عن العرش بأرض مصر (انظر الفصل 13)، كانت المراسلات التى تلت عقد معاهدة السلام بين المملكتين تشى بالحرارة والود الشديد، وأعلن حاتوسيلى أنه لن يعطى ابنته إلا لرمسيس، لا لملك بابل ولا لملك

هانيجالبات (ما تبقى من المملكة الميتانية القديمة). ورد رمسيس على تلك الرسالة مخبراً أخاه الملك أنه تلقى رسائل من أولئك الملوك ذاتهم يعرضون فيها بناتهم عليه، إلا أنه طمأن حاتوسيلى أنه سيوليه هو ذلك الشرف.

وبينما تبادل الملكان عدداً من الرسائل تتعلق بمشروع الزواج، كان المفاوض الرئيسى لذلك المشروع من الجانب الحثينى بلا أدنى شك الملكة بودوحيبا قرينة حاتوسيلى، وبالفعل كانت مهمة سمسار الزيجات الملكية إحدى المهام الرئيسة للملكة بودوحيبا، والتى عن طريقها كانت تدير كثيراً من شئون المملكة، لقد كتب رمسيس رسائل خاصة بالجوانب الروتينية المتعلقة بالزواج لكل من حاتوسيلى وتقريباً ذات النص لبودوحيبا، كانت رسائله لحاتوسيلى تتعلق بالجوانب الدبلوماسية، وبعضها على سبيل المجاملة، أما رسائله لبودوحيبا فقد كانت تتعلق بالجوانب العملية التى يجب إنجازها:

والرسائل المتبادلة بين الفرعون وبودوحيبا يمكن وصفها بأنها أقل من ودية، كانت أهم أسباب عدم الرضى لدى رمسيس تقاعس حاتوسا عن إرسال عروسه الحثينية، وكتب عن ذلك بنفاذ صبر إلى بودوحيبا:

«أختى، لقد وعدت بإعطاء ابنتك لى، وهذا ما كتبت به إلى، إلا أنك احتجزتها عندك وغاضبة منى. فلماذا لا تعطها لى؟»

وكتبت بودوحيبا فى ردها على رسالته:

«أنا بالفعل احتجزت ابنتى، وأنت بالتأكيد ستؤيدنى فيما فعلت».

لقد ساقت إلى رمسيس عذراً لم يخف على رمسيس ما يتضمنه من جشع:

«لا أستطيع أن أرسل إليك ابنتى فى الوقت الحالى، لأن مخازن الحثينيين كما تعلم قد احترقت، وكل ما لم تطله النيران سلمه أورحى - يتشوب إلى بيت الرب الأعظم»(15).

ويبدو أن المبنى الذى احترق كان من أهم مخازن الثروات فى المملكة(16)، وكان يحتوى على الأشياء التى تصلح لإعداد وتجهيز عروس

للزواج. وأدى ذلك الحريق الهائل إلى أضرار اقتصادية كبيرة للمملكة الحثينية، بالرغم من أنه حدث قبل سنوات حين كان أورحى - يتشوب ابن أخى حاتوسيلى مازال على العرش قبل أن يغتصبه حاتوسيلى، ولم تترك بودوحيبا فرصة ذكر أورحى - تيشوب تمر مرور الكرام دون أن تلمح إلى إيواء فرعون مصر له:

«وحيث إن أورحى - تيشوب لديك، اسأله عن صحة ما أقول».

وكانت إشارتها إلى أورحى - يتشوب إشارة متعمدة، فبعد أن فقد عرشه، فر من المنفى الذى أرسل إليه ولجأ إلى مصر، ولم يشأ فرعون مصر أن يطرده، وحين تكرر طلب حاتوسيلى لفرعون مصر بتسليم أورحى - يتشوب أو طرده من مصر، أنكر الفرعون وجوده بمصر، وقال: «لقد فر من مصر كالطائر»، وادعى أن أورحى - تيشوب موجود فى ذلك الوقت فى بلاد الحثينيين ذاتها (وهناك المزيد عن تلك المشكلة فى الفصل13)، ولم يصدقه حاتوسيلى ولا بودوحيبا، ولم تخف بودوحيبا ذلك فى رسائلها، كما لم تقاوم إغراء معاندة زوج المستقبل لابنتها، كان نفاذ صبر الفرعون بتأخر العروس له علاقة ببائنتها، ويظن قارئ الرسائل من شغفه وقلة صبره وتلهفه على وضع يده عليها أن بلاده هو (أى الفرعون) قد حل بها الفقر والفاقة، لدرجة أن العريس يتطلع إلى وضع يده بسرعة على ثروة العروس، وعبرت بودوحيبا عن ذلك فى رسالة منها إلى رمسيس قائلة:

«هل أصبح أخى لا يملك شيئًا على الإطلاق؟ إذا كان ابن إله الشمس، ابن إله العواصف والبحر لا يملك شيئًا، هل لا تملك شيئًا، ولكن يا أخى، تريد أن تغتنى على حسابى هذا لا يليق بسمعتك ولا بمكانتك».(17)

وبعد أن وبخت رمسيس على مفاذ صبره من تأخر العروس، انتهزت الفرصة للتغنى بمحاسن العروس ومزاياها:

«بمن يمكننى أن أقارن ابنة السماء والأرض التى سأعطيها لأخى؟ هل يمكن أن أقارنها بابنة بابل أو زولابيا أو آشور؟».(18)

وبعبارة أخرى، إذا لم يكن باستطاعة رمسيس أن يكبح نفاذ صبره أكثر من ذلك، فإن للعروس من المحاسن ما يجعلها تستحق الانتظار. وبالفعل كانت العروس التى تليق برمسيس لابد أن تنتقى وتدرب على يدى بودوحيبا بعناية فائقة، ولم يكن للعروس أن تجد معلمة ومرشدة أفضل من أمها الملكة بودوحيبا، فعند وصول بودوحيبا لأول مرة إلى القصر الملكى فى حاتوسا وجدت غرف أطفال القصر، وأماكن لهو الأطفال مليئة بكثير من الأمراء والأميرات الصغيرات، وكان كثير منهم من زوجها وزيجاته الثانوية ومن خليلاته أيضًا(19). ولا يوجد شك فى أن أعدادهم لم تتوقف عن الزيادة، كان أبناء الملك من الذكور مطلوبين بشدة؛ لتولى المناصب العسكرية بالجيش والمناصب الإدارية فى المملكة، وللقيام بالمهام الدبلوماسية، وكانوا أحيانًا ما يستخدمون فى مصاهرات التحالف مع ممالك أجنبية، أما الأميرات، خاصة المصنفات فى مصاف عليا طبقًا لأوضاع أمهاتهن فى قصر الحكم، فقد كن منذ مولدهن مادة مخصصة لزيجات التحالف، وكلما زاد الوارد منهن للحياة، كلما وجدت أعدادًا منهن لا يؤهلهن مستواهن الجمالي للتنافس على الزواج من أحد كبار الملوك.

ويحتمل أنه لم يكن شرطًا لازمًا أن تكون الفتاة التى تختار كعروس لرمسيس الثانى ابنة للملكة والزوجة الأولى بودوحيبا. وكان ذلك ما يتوقعه رمسيس، إلا أن بودوحيبا أشارت بوضوح وبجلاء أن العروس ابنتها هى، إلا أن المصطلح يحمل من المرونة ما يجعله يمتد ليشمل كل بنات زوجها اللاتى كبرن تحت رعايتها وإشرافها، كان التركيز فى الاستقرار على عروس لفرعون مصر يتركز على انتقاء أفضل زهرة من بين ذلك المحصول الملكى، ولو تصادف أن كانت أفضل زهرة ابنة لامرأة حثينية أخرى من رفيقات فراش الملك، فإن ذلك لم يكن ليشكل صعوبة عظمى فى إعلان أنها أميرة من الدرجة الأولى، وطالما قبل رمسيس العروس على أنها ابنة بودوحيبا وحاتوسيلى، فإن هذا أهم ما يحقق المطلوب.

تطلبت المفاوضات المطولة حول شروط الزواج كثيرًا من الذهاب

والعودة والمجيء والرحيل لمبعوثين ورسل من الجانبين، وأضاف التمهل في تجهيز العروس وإكمال بائنتها وكل ما يليق بابنة ملك عظيم، إلى طول الوقت الذى استغرقه ذلك الزواج حتى إتمامه، ويحتمل أنه استغرق بضعة أعوام، من اللحظة التى طلب فيها رمسيس الزواج من ابنة حاتوسيلى والمفاوضات التى تلته إلى إعداد وتجهيز العروس حتى إرسالها، وكان انتقال بائنة العروس من المفترض أن يتم على مرحلتين، كانت بودوحيبا قد طلبت من رمسيس أن يرسل رسولاً سريعًا، أى راكب جواد، ومعه الوثائق اللازمة لإكمال الرسميات الخاصة بنقل الممتلكات الحية والعبيد. وكان طلبها طلبًا متعجلاً ألح على السرعة، فقد كانت هناك مجاعة فى بلادها فى ذلك الوقت وكان مغادرة الحيوانات الحية من البائنة يخفف الضغط على المصادر الغذائية الحثينية لإطعام تلك الحيوانات، ومن الواضح أن ذلك المكون من قائمة بائنة هدايا العروس لعريسها تم عن عمد تسبيقه على حفل العرس وعلى باقى منقولات البائنة.

واشتكت بودوحيبا أن رمسيس لم يستجب لطلبها ذاك - فقد ظل العبيد والحيوانات الحية فى البلاد الحثينية.

وأخيرًا، أصبح كل شىء معدًا لرحيل العروس، كانت بودوحيبا مازال يسيطر على أفكارها مصير عم زوجها زانانزا الذى لقى مصرعه وهو فى طريقه إلى مصر، للزواج بأرملة توت عنخ آمون فى ظروف غامضة، وبذلت بودوحيبا أقصى جهودها لتأمين كل الطرى،ق وقد كان على نفس المسار المشار إليه، وكتب حاتوسيلى إلى رمسيس يعلمه أن ابنته أصبحت جاهزة للرحيل:

«فليأت مفوضك ليسكب زيت التكريس على رأس ابنتى، ليصحبها إلى بيت الملك العظيم، ملك بلاد مصر، أخى».

وفى سعادة وحبور رد رمسيس على حاتوسيلى، معيدًا ما ذكره(20)، وإلى بودوحيبا بالنص ذاته:

«رائع، رائع ذلك الموقف الذى كتب لى أخى عنه لقد شاء إله الشمس

وإله العواصف، وآلهة أرض مصر، وآلهة أرض الحثيين أن تتحد بلدانا إلى الأبد».(21)

ومن خلال ترتيبات السفر، كما سجلت فى المراسلات، يمكننا تتبع مراحل انتقال موكب العروس حتى مصر، أخبرت بودوحيبا رمسيس أن الأميرة ستخرج من حاتوسا محمية بقوات عسكرية من الجيش يقودها أمير حثيني، ربما كان الأمير نيريكّايلى، الابن الأكبر لحاتوسيلى(22)، وأن الملكة بنفسها ستصحب العروس حتى حدود نفوذ مصر فى جنوب سوريا. كما كتب رمسيس إلى أحد حكام كنعان فى منطقة الحدود، وأمره أن يلبى كل طلبات واحتياجات موكب العروس وأن يقوم بتأمين حراستهم ومرافقتهم، بمجرد دخولهم أرض الفرعون فى جنوب سوريا، وأن يكون مسئولاً بصفة رسمية عن حماية الموكب، ثم يتبقى أمر الحيوانات الحية والأسرى العبيد القوقازيين، أخبر الفرعون حاتوسيلى بأنه أصدر الأوامر لاثنين من حكام الأقاليم فى أوبى وكنعان أن يتوليا مسئولية الأغنام والجاموس والعبيد بمجرد عبورها إلى الأرض المصرية(23)، كما بعث برسالة إلى بودوحيبا حول نفس الموضوع(24).

كان القوقازيون يشتهرون بأنهم خطرون وعدوانيون، حتى وهم أسرى، ولا يوجد شك أن بودوحيبا كانت سعيدة بانتهاز تلك الفرصة؛ للتخلص من أولئك الأسرى القوقازيين بإرسالهم إلى مصر كعبيد، وأعلن رمسيس أنه يرحب بإرسالهم إلى مصر، ولكنه نصح الملكة بأن تشدد الحراسة عليهم، حتى وهم مازالوا فى الحبس الحثينى، حتى لا يشكلون أى تهديد أو خطر على المرْتحلين فى حفلة العرس، وكانت بودوحيبا قلقة تخشى أن يحاولوا الفرار فى برية الصحراء ويرجعوا إلى بلدهم، إلا أن رمسيس محى تلك المخاوف قائلاً:

«لو كان أى أحد أحمق بما يكفى ويفر فى الصحراء، دعيه يفعل ذلك، لأنه بكل تأكيد سيلقى حتفه فيها».

فى الوقت نفسه، كان كل شيء معداً فى مصر لاستقبال موكب

العرس، كان رمسيس قد شيد للعروس قصرًا جميلاً، وأعلن أن هدية العروس ستفوق أى هدية لأى ملك عظيم، وأخيرًا، وبعد أن اجتاز الموكب آخر المراحل الخطيرة من رحلته عبر شبه جزيرة سيناء، وصل موكب العرس إلى غايته، إلى المدينة الجديدة الرائعة التى شيدها رمسيس وأسماها بى - راميس فى الدلتا، وجاءت اللحظة التى يشاهد فيها الفرعون عروسه الحثينية لأول مرة، وكانت كما توقع، وحظت باستحسانه، وسجلت بودوحيبا عن ذلك:

كانت جميلة فى نظر جلالته، وأحبها أكثر من حبه لأى أحد آخر وهكذا(25)، أخيرًا تم الزواج، فى العام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس (1245). كان سرور الفرعون بعروسه الحثينية يذكرها بحب أبيها لأمها من أول نظرة حين التقيا أول مرة من ثلاثين عامًا سابقة على وجه التقريب. أما بالنسبة لأبويها، فقد كان الأمر يتجاوز الحب والعواطف فلودام ذلك الحب من رمسيس لعروسه الحثينية، فإن ابنتهم تزيد فرصتها لأن تصبح ذات نفوذ فى البلاط المصرى، وهو ما يعود بفوائد جمة على الحثينيين، ومما لا شك فيه أن بودوحيبا كانت قد دربتها وأعدتها للعب ذلك الدور، ومن يستطيع أن يقوم بذلك خير من بودوحيبا؟

إلا أن ذلك التطلع لم يكن واقعيًا بأى حال، كانت مصر منذ بداية عصر المملكة الحديثة تتميز بظهور ملكات مصريات قويات، ضمن الأسماء التى ترد بسرعة على الذهن: الملكة تايى، زوجة أمونحتب الثالث، ونفرتيتى زوجة أخناتون(26)، وعنخسن آمون زوجة توت عنخ آمون، ونفرتارى زوجة رمسيس، ويبدو أن نفرتارى كانت قد ماتت فى العام الثلاثين من حكم رمسيس على الأقل(27). وحتى لو كانت زوجته الثانية ايزيت - نوفرت، والتى عاشت طويلاً قد احتلت مكانة نفرتارى بعد موتها وأصبحت السيدة الأولى، إلا أنها ماتت هى الأخرى قبل أن يبلغ الرابعة والثلاثين(28)، لهذا السبب، بدا توقيت الزواج بالأميرة الحثينية توقيتًا يحمل فرصة رائعة إذ كان الطريق ممهدًا أمام العروس لتصبح الزوجة

الأثيرة للفرعون، لقد كانت هناك سوابق للملوك الحثيين الذين كانوا يشترطون أن تصبح بناتهن الزوجة رقم واحد فى مصاهرات التحالف(29). إلا أن ذلك الأمر حتى تلك اللحظة كان يمكن اشتراطه على ملوك تابعين أو حكام محميات خاضعة لنفوذهم، إلا أنه لم تكن هناك سابقة لأميرة أجنبية أصبحت زوجة الفرعون الأولى، حتى لو كان ذلك شرطًا وضعه حاتوسيلى أو بالأحرى بودوحيبا، لقد كتبت بودوحيبا إلى رمسيس قائلة:

«أحب أن تجعلها فى مرتبة أعلى من كل بنات الملوك العظام، وألا يجد أى أحد أن هناك من يضارعها فى منزلتها».(30)

وربما كان العريس المخلوب اللب، إن كان قد كان كذلك فعلاً، كان سعيدًا جدًا ووافق على الشرط - أو على الأقل ليتم الزواج.

وأطلق على العروس اسمًا مصريًا هو ماعت - حور - نفرورى، أى «التى ترى حورس، عظمة رع المرئية»، وكانت بالفعل قد أصبحت زوجة الفرعون الرئيسة، ربما استجابة للشروط الأولى، وبالتأكيد اختصتها النصب التذكارية فى بلدها الجديد بحظ وافر من التكريم الذى تحظى به سيدة البلاد الأولى.

وحتى لو كان ذلك قد حدث، فإن المرء يسيطر عليه انطباعًا مؤلمًا أن وصمة كونها أجنبية كانت تعمل ضدها طول الوقت، وأن فترة سعدها لن تدوم.

فضلاً عن ذلك، حتى لو كان رمسيس قد أحب عروسه لذاتها، إلا أنه ظل يبرز تلك العروس وبائنتها التى جلبتها معها كنوع من الجزية وضع تحت قدميه، كترضية ولاء أرسلت إليه من بلاد الحثيين، وسجل رمسيس ذلك:

«ثم أرسل ملك الحثيين ابنته مع جزية هائلة سبقتها من ذهب وفضة وكثير من البرونز، والعبيد ومجموعات خيل بلا عدد، وماشية، وماعز، وكباش بعشرات الآلاف، بلا عدد، وهى جزية دفعت لرمسيس».(31)

والدعاية السياسية لا يمكن إغفالها، ونرى من خلالها سببًا واضحًا وضوحًا تامًا لماذا كان الفراعنة يرفضون رفضًا تامًا تزويج بناتهن لملوك أجانب؟ لأن ذلك، من وجهة النظر المصرية، يساوى ويوازى دفع جزية، أى أنه عمل من أعمال ولاء التبعية، يقوم به من هو أدنى، إلى من هو أعلى مرتبة وأرفع مقامًا.

لقد زعم رمسيس أن روابط المصاهرة قد قوت الاتحاد بين مصر والحثيين - مما زاد من غم وكدر ملوك البلاد الأخرى، صحيح أنه ثبت بعد ذلك أن الزواج الذى استهلك كل ذلك العناء لم يزد عن كونه نتاجًا ثانويًا للتحالف المصرى - الحثينى كما كان قصير العمر.

كان لحاتوسيلى أملاً معينًا إلا أنه لم يتحقق، ولذا كتب فى ضيق للفرعون:

«كنت سأعطى حاتوسا لابن بنتى لو كانت قد وضعت ذكرًا، إلا أنك لا تهب ذكورًا لابنتى، ألا يمكن لأخى أن ينجب ولدًا كما يقال؟»(32)

وكانت تلك الرؤية غير عادلة، فقد أعطى رمسيس، وعلى مدى زمنى طويل سيظل يعطى أدلة كافية بلا نهاية أنه قادر على إنجاب ذرية بلا عدد من الجنسين.

أما إن كان حاتوسيلى قد قصد فعلاً أن ابنًا ذكرًا لرمسيس من زوجته الأميرة الحثينية من الممكن أن يعتلى العرش الحثينى ذات يوم، فإن ذلك يظل غير مؤكد.

لقد ظل حاتوسيلى لفترة طويلة يهئ ابنه تودحاليا لأن يكون خليفته على العرش الحثينى، وكان تودحاليا هو الآخر فى ذلك الوقت قد أنجب ذكوراً من صلبه.

وعلى كل حال، اختفت الأميرة الجميلة ماعت - حور - نيفرورى من المشهد، وهناك جزء من نص منقوش يذكر أنها عاشت فى جناح حريم الملك بالقرب من الفيوم، مما يظهر أنها قد فقدت وضع السيدة الأولى للفرعون(33).

إلا أنه من الصعب أن نعتقد أن بودوحيبا قد قبلت بذلك، ونحن نعرف أن العلاقات ظلت ودية بين مصر والحثينيين فى الأعوام التى تلت الزواج، خاصة بعدما أرسلت أميرة حثينية ثانية إلى مصر كعروس أخرى لرمسيس، ربما بعد فترة قصيرة من موت حاتوسيلى، ومن الصعب أن نتخيل أن البلاط الحثينى، وعلى رأسه بودوحيبا، كان يوافق على زيجة أخرى إذا كان رمسيس لم يستطع التقيد والالتزام بشروط الزيجة الأولى، الأقرب للاحتمال أن الأميرة ماعت - حور - نيفرورى قد ماتت بعد زواجها من رمسيس بفترة قصيرة، ويحتمل جداً أن ذلك كان السبب فى سعى البلاطين الحثينى والمصرى، لتجديد العلاقات الشخصية بينهما، من خلال إعطاء عروس حثينية أخرى للفرعون.

7

استدعاء الأطباء



بحثًا عن معجزة

ربما كانت مصر آخر ملاذ يلجأ إليه حاتوسيلى، حين كتب إلى رمسيس عن مشكلة استعصى عليه حلها. كانت شقيقته ماسانوتزى عقيمًا، وكانت قد وصلت إلى عمر تجاوز العمر الذى يمكن لها فيه أن تحمل وتنجب، ولا يوجد شك أن حاتوسيلى ملك الحثيين كان قد استشار أطباءه واستعان بهم، إلا أن الأمر كان واضحًا دون الحاجة إلى مختصين بعلوم الحمل والولادة؛ لأن شقيقته كانت قد تجاوزت العمر الذى يمكن أن تحمل فيه، ولم يعد هناك أى احتمال لحدوث حمل، والمشكلة أن أخاها كان يرغب بشدة ويتوق أن تحمل أخته، وكانت مصارحته بأنه يطلب المستحيل من أشق المهام على أطبائه، ولا يمكن لأحد منهم أن يخاطر بوظيفته كطبيب بالقصر الملكى، وكان البديل المقبول أن يدعوه على ذلك الأمل، لذلك أبلغوه أنه من المفيد طلب مشورة أطباء آخرين يكون بقدرتهم تحقيق آماله تلك.

وكان تلك المشكلة هى السبب فى كتابة حاتوسيلى لواحد من أهم رسائله إلى رمسيس(1)، وربما كتب تلك الرسالة تحت إلحاح أطبائه، بالرغم من أنه كان بإمكانه المبادرة إلى ذلك من تلقاء نفسه، فمصر كانت تشتهر وتحظى بسمعة دولية بخبرة أطبائها، وأن أولئك الخبراء من الأطباء المصريين يمكن استدعاؤهم؛ ليقوموا بتحقيق المعجزة التى يطلبها حاتوسيلى، لذلك كتب تلك الرسالة إلى فرعون مصر، ولا يوجد شك فى أنه كتبها مرغمًا؛ لأنها تضمنت اعترافًا يخجله بأن شقيقته فشلت فى تحقيق أهم مسئولياتها كأميرة، وهى إنجاب وريث. كتب قائلاً:

«سأكون ممتنًا أشد الامتنان إذا أرسلت إلى من يجيد تحضير عقاقير

تجعل شقيقتى تنجب».

وأكمل رسالته معترفًا أن طلبه قد يعد غير طبيعى بشكل ما؛ لأن الأميرة تجاوزت مرحلة شبابها، إلا أن لديه ثقة كبيرة فيما يمكن أن تنجزه وتحققه علوم الطب المصرى.

فلماذا كانت تلك المشكلة تهم حاتوسيلى إلى هذه الدرجة؟ كانت شقيقته زوجة لأحد الحكام الخاضعين للنفوذ الحثينى فى غرب الأناضول، وكان اسمه ماستورى، ملك بلاد نهر سيمون، كانت تلك المملكة تدين بالولاء للحثينيين من زمن طويل، وكانت تلعب دورًا استراتيجيًا هامًا فى تلك المنطقة.

أما فى قديم الزمن فقد كان ولاؤها موضع شك، كان أبو ماستورى وسلفه فى حكم مملكة بلاد نهر سيمون الملك مانابا - تارحوندا قد خرج عن تحالفه مع الحثينيين فى بداية عهد الملك الحثينى مورسيلى الثانى، وتجنب التعرض لضربة قاسمة من القوة الكاملة للجيش الحثينى، بعد أن خرج مورسيلى الثانى بنفسه على رأس الجيش وأصبح على أبواب المدينة، ولم يبق إلا إشارة بدء الاجتياح حين تراجع مانابا - تارحوندا فى اللحظة الأخيرة وأعلن خضوعه، وعدل مورسيلى عما اعتزمه من انتقام، وتراجع عن إلحاق أى أذى به بعد أن خرجت إليه أمه من المدينة المحاصرة، وتضرعت إليه ألا يلحق بابنها أى أذى.

قرر مورسيلى أن يعفى عنه، وأن يعطيه فرصة ثانية وثبت مانابا - تارحوندا على عرشه كملك خاضع للحثينيين، ومن حينها ظل وفيًا ووليًا للعرش الحثينى. إلا أنه مع مرور الأعوام قلَّ دوره، وبدأ يتقاعس عن رعاية المصالح الحثينية بالهمة نفسها التى كان عليها فى منطقته. ومن وثيقة شهيرة يشار إليها فى العادة باسم رسالة منابا - تارحوندا نعلم أنه خلال حكم ميواتاللى خليفة مورسيلى حاول محاولة فاشلة إنقاذ مملكة ويلوسا المجاورة له والخاضعة بدورها للنفوذ الحثينى من غزو عصابة شهيرة يترأسها قاطع طريق شرير(2) اسمه بياماارادو، كان يثير الفوضى

والفزع فى كل الممالك الصغرى بغرب الأناضول الخاضعة لنفوذ الحثيين، وألحق بيامارادو هزيمة مشينة بمنابا - تارحوندا. فقام ميواتالى بإرسال قوة حثينية للقضاء على عصابات بيامارادو، وأرسل إلى منابا - تارحوندا - الذى كان لابد للقوات الحثينية من المرور ببلده، حتى تصل إلى ويلوسا - بأن يستعد لدعمهم والانضمام إليهم، إلا أن منابا - تارحوندا كانت همته قد فترت بعد الهزيمة التى مُنِى بها على أيدى عصابات بيامارادو، ولم تكن لديه الإرادة لخوض مواجهة حربية أخرى، ووجد أن ذلك الوقت هو أنسب فرصة لادعاء المرض، فكتب إلى سيده الأكبر ميواتالى مدعيًا المرض، وقال فى رسالته:

«لقد مرضت، أنا مريض جدًا، أنا طريح الفراش من شدة المرض»(3).

وقامت قوات ميواتالى بطرد عصابات بيامارادو من ويلوس دون معاونة منابا - تارحوندا. وأصبح الملك المسن منابا - تارحوندا - المتقاعس فاقد الهمة - عبئًا على المملكة الحثينية، ولا يمكن احتماله أكثر من ذلك، فخلعه ميواتالى عن عرشه ونصب ابنه ماستورى مكانه، وتبين أنه كان قرارًا صائبًا، لذلك كافأوه بتزويجه من ابنة الملك، ويعد ذلك نوعًا نادرًا من المكافأة والتقدير لملك تابع إذ أن ابنه الذى سيخلفه على العرش سيكون حفيدًا للملك الأعظم، وبذلك يظل عرش المملكة التابعة محصورا فى سلالة حثينية، وهى سلالة ميواتاللى، ولكن لما نشب الصراع بين ابن ميواتاللى، أو رحى - تيشوب وبين عمه حاتوسيللى، انحاز ماستورى إلى حاتوسيلى، ورفض أورحى - تيشوب، لكونه مجرد ابن لزوجة الملك من الدرجة الثانية.

لذلك، لما نجح حاتوسيلى فى انتزاع العرش، كان لديه على الأقل حليف واحد مخلص من بين كل الملوك الخاضعين للنفوذ الحثينى فى غرب الأناضول، كانت المشكلة، فى الوقت الذى كتب فيه حاتوسيلى إلى رمسيس طالبًا أطباء مصريين لشقيقته، أن زوجها كان قد بدأ يطعن فى السن ومازال هو وزوجته دون إنجاب وريث للعرش، وأدى ذلك إلى موقف

خطير يتوقع فيه حدوث صراع على عرش المملكة الخاضعة، خاصة مع وجود تيارات قوية بتلك المملكة مناهضة للنفوذ الحثينى، وجاهزة للوثوب على العرش فور موت ماستورى. كانت هناك مشاكل بغرب الأناضول من ملك احيّاوا، بالإضافة إلى مشاكل بيامارادو، ولم يكن ينقصهم أن يموت ملك خاضع لهم دون وريث، فتضاف إلى المشاكل السابقة مشكلة أخرى أخطر وأكثر استعصاءً على الحل، لذلك يمكننا أن نتفهم سعى حاتوسيلى بكل الوسائل فى أن يكون لماستورى ابن من زوجته الحثينية، وكذلك تغاضيه عن تعريض نفسه للهوان مع فرعون مصر بتوجيه نداء تضرع وإلحاح إليه ليحقق له أمنيته.

وانتهز رمسيس تلك الفرصة بأقصى ما أتيح له، رد عليه قائلاً:

«انظر، أنا أخوك، أعلم بمشكلة شقيقتك ماتاناتزى(4)**. والمشكلة أنها فى الخمسين، هذا إن لم تكن فى الستين من عمرها، وامرأة فى الخمسين تعد امرأة مسنة، إن لم نقل أنها فى الستين، ليس فى استطاعة أى أحد أن يعد أى عقاقير تمكنها من حمل أطفال حسنًا، يمكن لإله الشمس وإله العواصف أن يأمرا، والأوامر التى سيعطيانها ستنفذ على الدوام لصالح شقيقة أخى، وسوف أرسل أنا الملك، أخوك، أكبر كاهن تعاويذ مع طبيب خبير إذا وجدا وسيلة تعينها على الحمل»**(5).

كان ذلك الرد المتعجرف هو تمامًا ما توقعه حاتوسيلى من الفرعون. وكان رمسيس على يقين أن أخاه الملك يقلل من عمر شقيقته، ولم يظهر أى قدر من الكياسة فى إعلامه بذلك، وفى الحقيقة، وبافتراضه أن شقيقة الملك من الممكن أن تكون فى الستين من عمرها كان بالفعل قريبًا من الحقيقة، – بل ربما كان كرمًا منه أنه لم يذكر أكثر من ذلك، كان حاتوسيلى وأشقاؤه وشقيقاته أبناء مورسيلى من زوجته الأولى جسُّول (ى) ويًا، التى ماتت فى العام التاسع من حكم مورسيلى – حوالى 1312 والرسالة تنتمى إلى مجموعة المراسلات المتبادلة بين البلاطين الملكيين، الحثينى والمصرى بعد إبرام معاهدة السلام بين رمسيس وحاتوسيلى، أى

أن الرسالة كتبت فى عام 1258 أو 1257، لذلك يفترض أن عمر ياسنوتزى شقيقة حاتوسيلى كان عند توقيع المعاهدة يشارف الخامسة والخمسين، ومن الممكن أن تكون أكبر من ذلك بخمسة أعوام أو أكثر، كان حانوسيلى هو الأصغر بين أربعة إخوة، وكان عمره - على الأقل حين كتب تلك الرسالة إلى رمسيس - خمسة وخمسين عامًا. ويحتمل أن شقيقته تلك فى أفضل الأحوال هى الأكبر منه مباشرة، أى أكبر منه بعدة أعوام، كما يحتمل أن الخطاب قد كتب بعد عام 1257، لذلك إذا أخذنا بأشد وجهات النظر تحفظًا، تكون تلك الأميرة على مشارف السّتين حين كتب شقيقها تلك الرسالة إلى الفرعون، ومن الواضح أن رمسيس كانت لديه مصادر معلوماته عن أسرة حاتوسيلى، فكيف توصل إليها؟

من المحتمل أنه كان لديه على الأقل ببلاطه الملكى من هو على دراية جيدة بمثل تلك الأمور، فهل كان ذلك المصدر بنت أخيها أو رحى - يتشوب؟

من الصعب استنتاج ما حدث بعد ذلك، كانت مخاوف حاتوسيلى حول مستقبل المملكة التابعة له - والتى يحكمها زوج شقيقته الذى لم ينجب وريثًا - مخاوف حقيقية ولها ما يبررها، كان ماستورى مازال على عرش مملكته بغرب الأناضول حين مات حاتوسيلى وخلف على عرش حاتوسا ابنه تودحاليا(6). إلا أن ما حدث بعد ذلك هو ظهور اسم جديد على عرش المملكة التابعة وهو تارحانارادو، ويحتمل أنه أزاح ماستورى عن العرش أو اعتلاه بعد موته، إذ لم يكن له وريث من صلبه، وكان الملك الجديد منقطع القرابة تمامًا بسلفه وعائلته، وانتهز فرصة عدم وجود وريث شرعى للعرش ليبدأ حركة الاستيلاء على الحكم، وهو بالضبط ما تطلع حاتوسيللى إلى تجنبه بأى وسيلة. علاوة على ذلك حظى تارحانارادو بدعم ومساندة احيّاوا ملك المملكة المارقة على الحكم الحثينى والمجاورة له، ولا يدع ذلك مجالا للشك أن تلك المملكة الخاضعة أصبحت من التكتل المناهض للحكم الحثينى فى غرب الأناضول.

أما من وجهة النظر الحثينية، فإن ذلك الوضع أصبح من المتعذر السكوت عليه أو احتماله، فقام تودحاليا على رأس جيش كبير بحملة عسكرية على تلك الممالك المتمردة، واستعاد السيطرة عليها، وأسر الملوك المتمردين وعائلاتهم وكل من يمت لهم بصلة، وسيطر على ممالك نهر سيحون، كما غنم ٥٠٠ طاقم من الخيل، وأعيد عرش المملكة التابعة لعائلة مانابا - تارحوندا وما ستورى(7).

الاستفادة من خبراء الأطباء الأجانب

كان إيمان حاتوسيلى بقدرات الأطباء المصريين، وإن كان ساذجًا فى طلبه السابق ليس قاصرًا عليه وحده، وكان يشاركه الإيمان بقدرات الطب المصرى كثير من معاصريه من الملوك ومن خلفوهم على عروشهم.

وطبقًا لما سجله هوميروس، كانت مصر من أغنى البلاد بالنباتات الطبية، حتى إنه كان يعتبر أن كل مصرى يعد طبيبًا، ويذهل أى امرئ غير مصرى بغزارة معلوماته الطبية(8).

وبعد هوميروس بعدة مئات من السنين، ذكر المؤرخ اليونانى هيرودت أمثلة كثيرة على السمعة الطبية العالمية العظيمة التى كانت تشتهر بها مصر، ومنها علاج أمراض العيون، وسجل هيرودت: أن الملك الفارسى قورش أرسل رسالة من بلاد فارس إلى مصر أثناء حكم الملك أماسيس، أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (أحمس الثانى 570 - 526) ومع الرسالة تعليمات بإرسال أفضل طبيب عيون فى كل أنحاء مصر(9).

واستفاد حاتوسيلى هو الآخر من خبرة أطباء العيون المصريين، فقد كان حاتوسيلى فى طفولته طفلاً عليلاً، وبالرغم من ذلك تمكن من اجتياز كل علل الطفولة، ولم يمت على عكس ما كان متوقعًا له، وبدأ فى إحراز نجاح ملحوظ، إلا أن بعض العلل ظلت ملازمة له بعد ذلك، كان منها التهابات مزمنة بالقدمين، ومرض بعيونه، واشتد عليه مرض عينه أثناء إنجاز المراحل الأخيرة من مفاوضات معاهدة السلام التى كانت جارية

بينه وبين رمسيس الثانى، ولما علم الفرعون بذلك، أمر على وجه السرعة بإعداد عقاقير أمراض العيون وأرسلها إلى حاتوسيلى مع رسالة قال فيها:

«أمرت ضابط عجلة حربية سريعة بمصاحبة بريحناوا، وأمرتهم بالذهاب إلى بنتشينا، عاصمة بلاد العموريين مع رسولى بريحناوا. وأعطى بنتشينا كل الأدوية التى اصطحبها معه، ومن بنتشينا سافر ضابط آخر بها إلى أخى، بالأدوية التى أعدها الملك، أخوك، وأرسلها على وجه السرعة مع بريحناوا»(10).

ومن الواضح والثابت أن تلك العقاقير كانت شافية؛ لأن حاتوسيلى طلب بعدها طلبًا آخر مماثل:

«تلك العقاقير التى أرسلتها لعلاج عينى كانت فعالة، من فضلك أرسل لى مزيدًا منها».

ورد عليه رمسيس، بسعادة من له فضل(11):

«أمرت برياماحو أن يحضر إليك مزيدًا من تلك العقاقير الشافية لعيون أخى».

غير أن رمسيس لم يكن من ذلك الصنف من الناس الذى يفعلون أنصاف الأشياء، ففى رسالة أخرى منه لحاتوسيلى، عدد من ضمن قائمة هداياه التى أرسلها إلى حاتوسيلى **«خمس أوانٍ كيوكوبو بعقاقير ممتازة للعيون، وعشرون سلة بعقاقير ممتازة للعيون»** (12) وأعاد رمسيس ذكر تلك المعلومات إلى الملكة بودوحيبا زوجة حاتوسيلى فى رسالة منه إليها(13).

وكما علمنا من مراسلات حاتوسيلى لرمسيس عن مشكلة أخته العاقر، كان رمسيس يرسل أطباء مصريين، بناء على طلب أخيه الملك، لعلاج أعضاء آخرين من أسرة حاتوسيلى. وحدث ذلك أيضًا فى عهد ابن حاتوسيلى (الملك تودحاليا الرابع فقد كان ابن عمه كورونتا حاكم اقطاعية فى جنوب الأناضول اسمها تارحونتاسا قد أصيب بمرض فشل أطباء

وكهنة القصر الملكى فى علاجه. وتطور المرض، بغض النظر عن طبيعته، إلى درجة جعلته مشرفًا على الموت. كان كورونتا شقيقًا لأورحى - تيشوب المخلوع عن العرش، إلا أنه أظهر ولاءً شديدًا لأسرة حاتوسيلى، وحكم تارحونتاسا بكفاءة كحاكم خاضع لنفوذ حاتوسيلى، وكان موته يشكل ضربة خطيرة لمصالح الحثينيين بتلك المنطقة. وكتب تودحاليا إلى فرعون مصر واصفًا أعراض مرض ابن عمه وطلب معونة مصر الطبية. واستجاب رمسيس فى الحال، وفى رسالة منه خلت من البلاغة الرسمية، رد عليه قائلاً:

«أتعلم، لقد أرسلت الآن الكاتب والطبيب بارياماحو. أرسلته لإعداد العقاقير الشافية لكورونتا ملك منطقة تارحونتاسا، وسوف يعدّ كل العقاقير اللازمة كما طلبت فى رسالتك. وبمجرد أن يصل إليك ، ضع ملك أرض تارحونتاسا فى مسئوليته، حتى يعد العقاقير اللازمة له. وأصرف الطبيبين الموجودين معه بكورونتا، ودعهما يعودان إلى مصر. بمجرد أن يصل الكاتب والطبيب بارياماحو، يجب إنهاء عمل الطبيبين الآخرين فى اليوم نفسه. أترى، لقد وعيت كل ما ذكرته فى رسالتك. فى هذا الوقت الكاتب والطبيب بارياماحو فى الطريق إليك، وسوف يعطيه كل أصناع العقاقير كما طلبت»(14).

ومن الواضح أن الأطباء المصريين نجحوا فى اشفاء الملك كورونتا الموشك على الموت، وهو النجاح الذى ندم عليه تودحاليا بعد ذلك، إذ يبدو أن كورونتا بعد أن شفى تمرد على سيده الأعلى، بل إنه تمكن من احتلال العرش الحثينى ذاته لبعض الوقت قبل أن يختفى اسمه تمامًا ونهائيًا من التسجيلات القديمة.

فى مناسبات كثيرة كان المعالجون المحترفون يقومون بزيارة المراكز الطبية فى بلاد أخرى؛ لتعلم آخر المنجزات الطبية التى تتبع فيها، أو على وجه التحديد كيفية علاج مرض معين. وهو منقوش فى رسالة فى أرشيف مارى كتبها اشمى - داجان، الخاضع للنفوذ الآشورى فى الكالاتوم إلى

أخيه يسمح – عدو، ملك ماري. فبعد أن انبهر بالعلاج الذى تلقاه من طبيب أخيه، قرر أن يرسل أحد أطبائه إلى بلاط أخيه ليتعلم الوسائل الفعالة فى علاج الأمراض، قال فى الرسالة:

«أخبر يسمح – عدو: أخوك إشمى – داجان يرسل الرسالة التالية: العقاقير التى وضعها طبيبك على جسمى فى ضماده جيدة إلى أبعد مدى. بدأ الجرح فى الاندمال، وقليلاً قليلاً توشك العقاقير أن تشفيه تماما، والآن، أرسل إليك مع كتابى هذا الطبيب شمشى – عدو – توكولتى. دعه يلقى نظرة على تلك العقاقير ثم اتركه يعود فى الحال»(15).

كانت ممارسة طبية منتشرة إلى حد كبير بين ممارسى الطبابة خاصة من مصر وبابل أى يستأجروا أو يعاروا إلى بلاد أجنبية.

وكتب نيكمادو الثانى، ملك أوجاريت إلى أخناتون طالبًا طبيبًا مصريًا، ومن المدهش أن تلك المملكة الثرية والمتقدمة لم يكن لدى ملكها طبيا خاص به(16)، وكان من الواضح أن الملك نيكمادو كان يطلب تعيين طبيب مصرى مقيم فى قصره، ولكن، بوجه عام، كان الأطباء يرسلون فى مهام مؤقتة إلى البلاد الأجنبية، كان الغرض الرئيسى من إرسالهم علاج مرض محدد، كما فى حالة الطبيب الذى أرسله رمسيس لعلاج كوروننا، وقاموا أيضا بتقديم خدمات استشارية أثناء إقامتهم فى الخارج، مما كان يتيح للعاملين بمجال الطب فى البلاد الأجنبية الاستفادة بخبراتهم ونصائحهم.

وبالفعل، كانت تظهر قيمة خبراتهم وفوائدها المحققة، حتى إن مضيفيهم من الملوك كانوا يميلون إلى استغلال كرم إخوانهم الملوك الذين أرسلوا إليهم أولئك الخبراء ويحتجزون أولئك الخبراء الطبيين إلى آماد غير محددة.

الأطباء البابليون فى البلاط الحثينى

وصل إلى علمنا حدثان طبيبان وردا فى خطاب من حاتوسيلى إلى ملك بابل كاداشمان – إنليل، فقد أرسلت بابل من لدنها طبيبين على

سبيل الإعارة المؤقتة من بابل إلى حاتوسا، أحدهما فى عهد ميواتاللى بصحبة كاهن معالج، والثانى فى عهد حاتوسيلى ذاته، ولم يعد الطبيب ولا الكاهن المعالج إلى وطنهما أبداً.

واحتج كاداشمان - إنليل، وادعى أنهما محتجزان بلا مبرر فى بلاد الحثينيين ورد عليه حاتوسيلى فى كتاب منه منكرًا أى مسئولية من جانبه. وفيما يتعلق بأول اثنين، الطبيب والكاهن، راح يلوم ميواتاللى الحثينى باعتباره السبب فى احتجازهما، وقال فى رسالته: **«فى عهد أخى ميواتاللى أرسلتُ إليه كاهنًا معالجًا وطبيبًا واحتجزهما فى بلاد الحثينيين، وتجادلت معه قائلاً: لماذا تحتجزهم؟ حجز طبيب ليس صوابًا»**(17).

لذلك قد نتساءل، ما الذى حدث للمحتجزين؟ لقد أصر حاتوسيلى على أنه ليس لديه أى فكرة عن مكان الكاهن، كما لم يظهر أى اهتمام بذلك، وبرر ذلك قائلاً: «ربما يكون قد مات»، وكان ذلك أفضل ما استطاع تقديمه من تفسير لاختفاء الكاهن، إلا أنه كان يعرف معلومات محددة عن الطبيب، كان الطبيب حيًا وفى أحسن حال، وطمأن أخاه الملك قائلاً:

«لقد أصبح الطبيب مالكًا لبيت جميل هنا، واقترن بامرأة من أقربائى»
ثم أضاف فى مراوغة :

«لو قال: أحب أن أعود إلى بلادى، فسوف يعود إلى بلاده، فهل أكون بهذا احتجزت الطبيب رابا - شا - ماردوك؟»(18)

وما يتضمنه قوله واضح كل الوضوح، أى أن الطبيب البابلى لم يكن محتجزًا رغم إرادته فى بلاد الحثينيين، بل عرضت عليه مزايا هامة ليقيم هناك وفى بيت يشبه قصرًا وزوجة من العائلة الملكية الحاكمة، وبالطبع، لم يكن قرار العودة إلى بلاده فى حقيقة الأمر فى يده هو، ولا يوجد شك أن إبقاءه فى بلاد الحثينيين، بموافقته أو بدونها، كان خروجًا من جانب حاتوسيلى، وكذلك أخيه ميواتاللى على الشروط التى اشترطها ملك بابل، عندما وافق ملك بابل على إعارة طبيبه للبلاط الحثينى(19).

لذلك فإنه من المدهش أن يطلب حاتوسيلى من كاداشمان – إنليل إرسال طبيب آخر إلى حاتوسا، مع الاشتراط الواضح أنها إعارة مؤقتة، وصدق نية حاتوسيلى على إعادته، ولكن كل مثل تلك النوايا الطيبة كانت تقف عاجزة إذا صادفه حظ عاثر ومات الطبيب فى كنف مضيفه، وبعد اعتراضات بابل واحتجاجها على احتجاز الطبيب السابق وعدم عودته طبقا للاتفاق، فإن موت الطبيب الثانى أثناء وجوده ببلاد الحثيين لا بد أنه قد شكل حرجًا بالغًا لحاتوسيلى، فى الوقت الذى كان يود فيه مخلصًا إظهار صدق نيته لملك بابل كاداشمان – إنليل، وأنه لم تكن لديه أى نوايا للغدر أو العدوان باحتجاز الطبيب الثانى، وقال فى رسالة منه إلى كاداشمان – إنليل البابلى:

«حين استقبلوا الطبيب، قام بأعمال كثيرة جيدة(20)، وحين مرض الطبيب، تم عمل كل ما يمكن عمله، ولكن حين حانت ساعته، مات».

وقام حاتوسيلى بإعادة خادم الطبيب مع حامل الرسالة، ليثبت لملك بابل صدقه، وكدليل إضافى على التقدير الذى لقيه الطبيب من البلاط الحثينى قبل موته، قام حاتوسيلى بإرسال كل الهدايا والهبات والعطايا التى منحت للطبيب فى البلاط الحثينى قبل موته، مع خادمه العائد إلى بلاده، ومعه حامل رسالة الملك الحثيني، وتحسبًا لقيام الخادم، باختلاس بعض الهدايا والهبات لنفسه، قام حاتوسيلى بتسجيلها فى قائمة، وقال فى رسالته:

«فلينتبه أخى إلى العربة..، والخيل، والفضة النقية، والأثواب التى منحتها للطبيب، إنها مسجلة كتابة، وأرسلت اللوح إلى أخى حتى يمكن لأخى أن يسمع ما به».

وأطال حاتوسيلى فى بعض التفاصيل؛ ليبعد عن نفسه أى شبهة أو مسئولية عن موت الطبيب، غير أنه ظل لفترة طويلة لا يجرؤ بسبب ذلك الحظ العاثر على طلب مماثل من أخيه ملك بابل، إلا أنه طلب منه إرسال مثال، لينحت له تماثيل لأعضاء الأسرة الحاكمة(21)، وأكد له أن النحات

سيعود إلى بلاده بصفة عاجلة وبسرعة فور انتهاء مهمته، وعلى ضوء الأحداث السابقة يبدو أن ذلك الطلب قوبل بكثير من التشكك فى بابل، بالرغم من تذكير حاتوسيلى لهم أنه قد أعاد من قبل مثَّالاً بابليًا سليمًا معافى كان قد استعاره فى مناسبة سابقة من أبى كاداشمان - إنليل، ومن غير المعلوم إن كان كاداشمان إنليل قد ظل يثق فى الملك الحثينى ويرسل إلى خزائن الحفظ لديه مزيداً من المحترفين المهرة أم لا، ولكن، فى تلك المرة على الأقل، لا يدهشنا أن نعرف أن حاتوسيلى قد راح يتطلع إلى ممالك أخرى ليحصل منها على نحات مثال.

الجزء الثالث
أحداث تاريخية

8

الإمارات السورية

الصورة العامة(1)

بدأ البروفيسور جوتزيه عرضه لصراع السيطرة على سوريا في القرن 14 ق.م(2) قائلاً: تقع سوريا في تقاطع طرق الشرق الأدنى بين منطقة ما بين النهرين في الشرق، والأناضول في الشمال ومصر في الجنوب، وكانت منطقة ما بين النهرين والأناضول تعانيان من نقص الموارد والثروات الطبيعية، وكانوا يحصلون عليها عن طريق التجارة والمقايضة، وكانت سوريا بالنسبة لهما هي الطريق والبوابة لتلك التجارة الدولية، فقد كانت سوريا ذات موانىء بحرية ترد إليها منتجات التجارة الدولية ويتم تبادل المنتجات بها. ومن موانىء سوريا تنتقل البضائع عبر الطرق البرية، التي تربط القوى العظمى والممالك الكبرى التي كانت موجودة بذلك العصر، وبذلك أصبحت سوريا تشكل إغراءً قويًا لكل القوى العظمى، للهيمنة على سوريا ولو بالقوة العسكرية إذا تطلب الأمر(3).

وكانت الهيمنة على طرق التجارة من الدوافع الهامة، إلا أن النجاح العسكري في تلك المنطقة كان هامًا أيضًا لذاته، للهيبة التي يضفيها على من يحققه. كانت عقيدة ترسيخ الملك تتطلب من كبار الملوك أن يظهروا قوتهم في ميادين القتال، وكانت سوريا من أنسب الميادين لإظهار ذلك، كان الافتخار بلقب «داحر الآسيويين» بين اهتمامات كثير من فراعنة مصر. كما كانت قيادة جيش قيادة منتصرة مظفرة حتى نهر الفرات من أعظم الإنجازات التي افتخر بها الملك الحثيني حاتوسيلي الأول، وهو الإنجاز الذي وضعه في مصاف عظماء الملوك الذين يقارنون بالملك سارجون.

وكان من المحتم وما لا يمكن تجنبه لإظهار قدرة ملك واستحقاقه حتى يكون من كبار الملوك أن يتمكن من الهيمنة على منطقة سوريا، أو على الأقل على الجل الأعظم منها، كانت سوريا على الدوام مسرحًا للصراع بين المملكة الحثينية ومملكة حلب، فى سياق الحملات التى سيرها حاتوسيلى الأول عبر جبال توروس، كما سير كل من تحتمس الأول وتحتمس الثالث حملات عسكرية عبر منطقة سوريا، كانت تشق طريقها بالقوة حتى نهر الفرات، وتمكن مورسيلى الأول من تدمير مملكة حلب، ثم قاد قواته المنتصرة عبر منطقة سوريا إلى هدفه النهائى وهو غزو بابل والسيطرة عليها، وكان الميتانين أسرع من استغلوا انهيار الحثينيين بعد اغتيال مورسيلى، وانكماش مصر جنوبًا بعيدًا عن مصالحها الحيوية فى سوريا، واحتلوا إمارات وممالك شمال سوريا وضموها إلى صميم رقعتها فى إمبراطوريتهم التى كانت تتسع بسرعة، ولكن مثلما حدث للإمبراطورية الميتانية السابقة، سرعان ما أنهارت، مع تغير جديد فى خريطة كبار عظماء الملوك، فقد انتزع سبيللوليوما الأول الحثينى كل الإمارات والممالك السورية الصغرى من توشراتا الميتانى، وفى حملة عسكرية امتدت على مدى عام تقدم حتى قلب الإمبراطورية الميتانية المنهارة. بعد ذلك بسبعة عقود، كان صعود الأسرة التاسعة عشرة فى مصر، وتنامى قوتها إلى أقصى قواها سببًا فى صدام وصراع عسكريين بين الحثينيين ومصر على منطقة سوريا، واصطدمت القوتان مرتين فى منطقة قادش، فى المنطقة الساخنة غير مستقرة الحدود بين قوة الشمال وقوة الجنوب، وكانت قوة جديدة تتنامى وتلوح فى الأفق فى نفس المرحلة، فقد كان من المحتم على القوة الآشورية الصاعدة أن تمتد أيضًا إلى سوريا فى الغرب من الفرات، وربما عبر كل سوريا حتى ساحل البحر المتوسط.

فما هى التبعات التى وقعت على سكان سوريا من جراء ذلك الصراع الضارى على أرضها؟

كانت منطقة سوريا - فلسطين مكونة من خليط متداخل من الممالك

والإمارات الصغرى، وكانت كل منها تخضع للسلطة المباشرة للأسرة التى تحكم كلاً منها(4).

وعلى مدى العصر البرونزى المتأخر خضعت كل منها لسيطرة ونفوذ أحد الممالك الكبرى، سواء قل ذلك النفوذ أو زاد، وكان تذبذب وتغير نفوذ تلك القوى الكبرى ينعكس على تلك الممالك والإمارات الصغرى.

وبالطبع، لم يكن من الطبيعى تمامًا لأى من تلك الممالك الصغرى ولا من الواقعى أن تتطلع إلى الاستقلال، أى أن تكون حرة دون خضوع لواحدة من الممالك الكبرى لم يتخيل ولم يسع حاكم محلى ولا مواطن إلى ذلك لاستحالته، كانت التبعية لقوى عظمى حقيقة من حقائق الحياة، كان التحدى الذى يواجهونه هو تأمين حياتهم ووجودهم فى عالم معاد ومتغير على الدوام، بعض الممالك استطاعت أن تدير أمورها على هذا النحو بنجاح كبير، خاصة أولئك الذين كان لديهم قدرًا من الذكاء السياسى والدهاء والقسوة، الذين حرصوا على عدم إفلات أى فرصة سانحة لتدعيم قوتهم على حساب جيرانهم وأحيانًا أخرى على حساب سادتهم الكبار، وهناك المزيد عن ذلك سنذكره فى الفصل التالى.

ترددت أسماء الحكام المحليين كثيرًا وبرزت من خلال أرشيف مراسلات تل العمارنة، سواء كانوا مرسلين لرسائل أو مذكورين فى رسائل كتبت عنهم. أحيانا، كانت نسخ الرسائل موجهة إليهم أو الرسائل الأصلية التى لم ترسل بعد كتابتها لأسباب مختلفة. وتختلف الرسائل الواردة من الحكام والملوك التابعين اختلافًا ملحوظًا عن الرسائل التى يرسلها الفرعون إلى أنداده من كبار الملوك، فالأخيرة تحمل قدرًا كثيرًا من المصطلحات الدبلوماسية الرسمية، وبالرغم من احتوائها أيضًا على كثير من الشكوى إلا أن الغرض من ذلك كان تقوية الروابط القائمة بين ملكين وأسرتهما. كما رأينا، فإن أغلب محتويات الرسائل محصورة فى الجوانب المادية من تلك العلاقات – مثل تبادل الهدايا، ومصاهرات التحالف وما ماثل ذلك، ونادرًا ما كانت تتناول تصورات سياسية لأحداث

جارية أو تطورات عسكرية.

أما مراسلات الملوك والأمراء التابعين، فقد كانت مصدرًا غنيًا بالمعلومات عن الجوانب السياسية والعسكرية، على الأقل فى منطقة سوريا – فلسطين التى تشغلها تلك الممالك الصغرى التابعة، كانت الصياغات الرسمية فى تلك المراسلات فى حدها الأدنى، وكمثال على ذلك:

«أقول للملك، سيدى، وشمسى: رسالة من رب – حدا، خادمكم، ولتهب ربة جوبلا القوة للملك، سيدى أسجد تحت أقدام سيدى سبعة مرات وسبع مرات أسجد»(5).

وبعد مجاملات التعظيم والإجلال المختصرة، سرعان ما يدخل كاتب الرسالة إلى صلب الموضوع، وهناك نماذج متكررة من تلك الجوانب العملية: مثل طلب عاجل وملح للفرعون من أجل دعم عسكرى أو مساعدات أخرى لمواجهة أزمة عاجلة، أو شكوى من جار عدوانى متعد على مملكته، أو عملية فساد إدارى قام بها موظف مصرى كبير فى الخارج(6)، تقارير عن تواطؤ أحد الحكام الخاضعين وعدو خارجى يمثل تهديدًا للأمن المصرى وحدود نفوذ الدولة، تأكيدات بأن أوامر الفرعون قد تم تنفيذها أو ستنفذ بإخلاص، أو أعذار للفشل فى أداء مهام وأوامر، من خلال تلك الرسائل نقرأ التاريخ فى مراحل الصنع والتشكل، والتطلعات والطموحات والمخاوف لكثير من أولئك الذين صنعوا التاريخ. إن تلك التقارير الأولية التى كتبها من ساهموا فى صنع تاريخ تلك المرحلة تزودنا برؤى ورؤية لا تقدر بثمن، إلى عالم قطع الرقاب القاسى فى داخل، وبين، تلك الممالك التابعة وسياستها وسياسات خصومها، فى صراعهم الدموى من أجل البقاء – بالرغم من أن الحقائق التاريخية تعانى من تشويه لا يمكن تجنبه، بسبب الشحذ الشخصى للأسلحة المغرضة.

من القراءة الأولى، تبرز الرسائل المصرية إلى الممالك السورية – الفلسطينية التابعة أكثر الصور واقعية بلا تزويق عن الحكام التابعين خلال فترة تل العمارنة، بتعبيراتهم البدائية عن تحقير الذات، وشكاواهم

المستمرة من الظلم الذى يتعرضون له، ومطالب لا تنتهى من الفرعون، غير أن كثيرًا من تلك الهموم والمخاوف كان حقيقيًا وله ما يبرره. وكما لاحظنا، كان المناخ السياسى، فى أرض سوريا فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مناخًا لا يتسم بأدنى درجة من درجات الاستقرار. كان مصير الممالك الصغرى معلقًا بالدرجة الأولى على نتائج صراع القوة الدائر بين القوى الكبرى المهيمنة على المنطقة. ورغما عنهم كانوا جزءًا من الصراع ومن ضحاياه فى أغلب الأحوال، بدءًا من الصراع المصرى - الميتانى، والحثينى الميتانى، والحثينى المصرى. كان من المستحيل أن تظل مملكة صغرى فى منطقة سوريا على حالة من الحياد. وكان إعلان تحالف إحدى تلك الممالك مع مملكة كبرى بمثابة إعلان عداوتها، فى الوقت نفسه، لمملكة أخرى من الممالك الكبرى، كان الأمر يتطلب قدرًا كبيرًا من الحصافة والذكاء السياسى؛ لتحديد المسار الملائم، وماهية الانحياز السياسى الأكثر ملائمة، لاختياره لخدمة مصالح المملكة الصغرى وبقائها، أو بتحديد أدق مجرد استمرار ملك المملكة الصغيرة على قيد الحياة.

وبالطبع، لا يجد ملك محلى على مملكة صغيرة أى حيلة، حين يجتاح ملك كبير مملكته بجيوشه، ويفرض سلطته وسيطرته وهيمنته على كل الممالك الصغرى التى يمر بها. غير أن حظوظ الممالك الكبرى من القوة كان دائم التبدل والتغير، وكان أى ملك على مملكة صغيرة يتسم بالدهاء السياسى، وتقع مملكته فى منطقة تداخل وتقاطع نفوذ مملكتين عظيمتين يسعى إلى استغلال ذلك التضارب لصالحه بتحريك طرف كبير ضد الطرف الثانى، وكان يلجأ أحيانًا إلى التهديد، ولكن بخبث ودهاء، بأنه سيحول ولاءه وانتماءه عن الملك الذى لا يلبى له مطالبه، أو إذا رأى أن فرصة فى البقاء والاستمرار - أو زيادة قوته - تتحقق بالاستجابة إلى الملك الأكبر خصم الملك الذى يخضع له، كانت لعبة خطرة عند القيام بها، وكان النجاح فى أدائها يتطلب قدرًا كبيرًا من المهارة والحنكة، وكذلك قدرًا كبيرًا من قوة الأعصاب، فى تقييم نقاط القوة والضعف لتلك القوى

الكبرى فى كل لحظة.

كان الخطر الذى تشكله القوى الكبرى على الملوك التابعين لها لا يمكن إغفاله، كان كثير من الملوك التابعين يسعون إلى توسيع رقاع ممالكهم بغزو أجزاء من الممالك الصغرى المجاورة، وكان من أشهر من قاموا بذلك حكام عمورو، مثل: عبدى - عشيرتا، ومن بعده ابنه عزيرو. وكان عدوانهم المتكرر على الممالك المجاورة يبرز بوضوح من خلال رسائل تل العمارنة التى أرسلها من تعرضوا لذلك العدوان، وكان من أكثرهم تعرضًا للعدوان رب - حدا، حاكم جوبلا، التى أصبح اسمها بيبلوس فى العصر اليونانى وطرابلس فى العصور الحديثة. وقام بنفس الأفعال العدوانية فى وسط فلسطين الملك لابايا، حاكم مملكة شكيم، وأثار كثيرًا من الشكاوى لدى الفرعون من جيرانه الذين تعرضوا للعدوان.

ولكن، كما سنرى فيما بعد، رد كل من لابايا والحكام العموريون على شكاوى جيرانهم وضحاياهم إلى حاكمهم الأعلى فرعون مصر بتأكيدهم على ولائهم الشديد للتاج المصرى، وإعلانهم أن الأعمال التى ترتبت عليها كل تلك الشكاوى لم تكن إلا لصالح التاج المصرى، لا لمصلحتهم الشخصية.

ولم تكن مثل تلك الادعاءات يمكن أن تخفى عن الفرعون الدوافع الحقيقية الكامنة وراء تلك التعديات، إلا أنهم كانوا على يقين من أن خطر الرد المصرى عليهم بكامل قوة الجيش غير محتمل - هذا بافتراض أن ولاءهم الشديد للفرعون جلى وواضح، ومما لا شك فيه أن الفرعون حرص على أن يكون التدخل المصرى فى المسائل الشخصية والعسكرية الداخلية فى سوريا وفلسطين، فى حده الأدنى الضرورى، لاستمرار الهيمنة المصرية، خاصة فى وجود التهديد الحثينى المحوم على الدوام فى الشمال، الملاصق مباشرة لتلك المنطقة، وأدرك أمونحوتيب الثالث وأخناتون إدراكًا تامًا أنهما إذا عمدا إلى اتخاذ أى اجراءات عقابية ضد واحد من أولئك الملوك المحليين المشاغبين فإنهم يخاطرون بدفعه إلى

الارتماء فى أحضان المعسكر المعادى. وبالرغم من ذلك، كان يحدث أن أحد أولئك الملوك المشاغبين يأتى من الأفعال ما يتجاوز به حدود صبر الفرعون، خاصة أولئك الذين تبنوا سياسة حافة الهاوية ،فإنهم بالفعل يجدون أنه قد فات أوان النجاة من الهاوية.

كانت المصالح الشخصية والحفاظ على الذات هى المبادئ الحاكمة للعلاقة بين الفرعون وملوك سوريا - فلسطين الخاضعين لنفوذه، ولم يكن بالإمكان لوم الملك التابع على انتهاج تلك السياسة، وعلى الجانب المصرى، لم تكن المغامرات العسكرية الإمبريالية من تحتمس الثالث فصاعداً إلا استغلالاً للشعوب، الذين أخضعوهم لحكمهم. وقد يذكر أى امرئ أن الشىء ذاته يحدث مع كل إمبراطورية، فلا توجد أمة لها تطلعات إمبريالية خرجت فى غزوات عسكرية لبناء إمبراطورية تقوم على تحقيق مصالح الشعوب الخاضعة، إلا أن مثل تلك الأمم الإمبريالية كانت تسعى على الدوام لخلق ذلك الوهم لدى الشعوب الخاضعة لحكمهم، فى المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية، ومثل تلك الادعاءات أحياناً ما تجد صدى معيناً، وتحقق الفائدة منها، على الأقل لبعض الوقت. إذا تذكرنا (على سبيل المثال) الفوائد السياسية والمادية التى ترتبت على سياسة رَوْمَنَة (اشتقاقاً من روما) الشعوب العديدة التى أخضعتها روما الإمبريالية لحكمها. الإدعاءات ذاتها، روَّجها فى عصور حديثة بنَّاءو الامبراطوريات الأوروبية فى أوطان تبعد عنهم بعداً جغرافياً شاسعاً، بعد أن احتلوا تلك الأوطان، وإن كانوا قد أفادوهم بالفعل بعض الفائدة.

إلا أن مصر لم يكن لها تلك البصيرة، إذ قصرت فوائد مشاريعها الإمبريالية على نفسها فقط، دون أى فائدة للشعوب التى أخضعتها لحكمها(7).

فبعد غزو الهكسوس لمصر، استدعت الاعتبارات الاستراتيجية ضرورة الحفاظ على وجود متميز فى سوريا - فلسطين، وزودتها شبكة الممالك الخاضعة بالوسائل اللازمة لتحقيق ذلك التواجد، كانت الهيمنة على تلك

الممالك الصغرى تضمن للفرعون اعتباره من كبار الملوك فى عصره، وبتأمينه أقصى الحدود والمناطق الشمالية الشرقية لبلاده، درَّ على خزائن الفرعون عوائد سنوية، وأتاح الفرصة لمصر للحصول على موارد طبيعية مختلفة من البلاد الخاضعة. كانت السياسة المتبعة هى الحصول على أقصى فائدة من الممالك السورية بأقل تكلفة ممكنة، كما لاحظنا، كانت هناك مراكز إدارية وعسكرية مصرية فى كل الممالك، فى حين تترك للملك المحلى إدارة شئون المملكة الداخلية، وأن يدفع من مصادره تكلفة توفير وسائل حماية مملكته.

ولو حكمنا من سيل المطالب التى كانت تنهال من الملوك التابعين، ومن استمرار شكاواهم أن طلباتهم لا تلقى صدى ولا استجابة من الفرعون، نتبين أن الفرعون كان لا يرى ضرورة فى الاستجابة لكل تلك المطالب، إن لم تكن هناك أسباب ملحة ترغمه على الاستجابة لأى منها. على العكس، كان ينتظر أو يطلب من الملوك الخاضعين أن يأخذوا مبادرة حل مشاكلهم بأنفسهم - حين يواجهون مثلاً تهديداً أو عدواناً من ملك مجاور.

وكما لاحظنا، لم تظهر أبداً أى معاهدة بين أى فرعون وأى ملك خاضع للنفوذ المصرى، مثل تلك المعاهدات التى حددت العلاقة بين الحثيين والملوك الخاضعين لهم، المعاهدات التى لم تقتصر على واجبات الملوك الخاضعين تجاه الملك الحثينى، بل نصت أيضًا على واجبات الملك الحثينى تجاه الممالك الصغرى إذا تعرضت لهجوم من قوة مغايرة، حتى إن كانت هناك اتفاقات رسمية هيأت للملوك التابعين توقعات معينة من ملكهم الأعلى الفرعون(8)، فإننا يمكن أن نستنتج من نصوص المراسلات أن تلك التوقعات لم تتحقق فى الجل الأعظم منها. كانت سياسة عدم التدخل تلك التى اتبعها فراعنة مصر هى التى أساء (عبدى - عشيرتا) استغلالها، حين راح يهاجم الممالك المجاورة، ويستولى على أجزاء منها؛ لتحقيق مطامعه الإقليمية على حساب جيرانه من الملوك الخاضعين للحكم المصرى، كما لم يكن لها، أى تأثير رادع على المشاغبين وعلى الصراعات

التى كانت تنشب بين الممالك الصغرى. وربما كان الفرعون يرى أن تلك الصراعات ليست سيئة فى جانبها العملى، بل ربما كانت أفضل له، حتى تظل الممالك الصغرى منقسمة ومتشاحنة – ويتشكون من عدم تدخله أكثر من أن يصبحوا مدركين لفائدة ترك خلافاتهم جانبًا ويتحدون كلهم ضده(9).

فى كل الأحوال، قد نتساءل إن كان بعض الشاكين قد غالوا فى شكاواهم، وأساليبها البلاغية، خاصة فى ظل الإدعاء أن أخناتون أهمل شئون إمبراطوريته، بسبب انشغاله الشديد بإلهه الشخصى وتشييد مدينته الجديدة. ولا ننسى أنه بينما كان أخناتون هو متلقى أغلب رسائل الشكاوى، كان بعضها موجهًا إلى أبيه آمونحوتيب الثالث. وربما عانى آمونحوتيب فى أعوامه الأخيرة من مشاكل صحية جمة، إلا أننا لابد أن نتذكر أن سجل عهده الملكى يدل على أنه كان ملكًا قويًا قادرًا ذا مبادئ ويحظى باحترام كبير، وأن مصر وكل البلاد الخاضعة لها نعمت فى عصره باستقرار ورخاء شديدين، وباستثناء ذلك، هناك دليل واضح، كما سنرى، أنه كان يتخذ قرار المبادرة حين يجد أنه الأنسب فى الممالك السورية، بحسم وحزم، كما كانت هناك مناسبات يوبخ فيها الملك التابع الذى يبعث بشكوى لفشله فى التصرف طبقاً لأوامر الفرعون ونصيحته التى أرسل إليه بها، ولإحالته إلى الفرعون شئونا من صميم اختصاصاته ومسئولياته فى إدارة مملكته الصغرى.

من المهم جداً أن تظل كل تلك الاعتبارات السابقة فى أذهاننا، فى جولتنا فى خضم الأنواء والتقلبات السياسية والعسكرية فى ممالك سوريا – فلسطين، خلال العصر البرونزى المتأخر. ومن داخل ذلك العالم سنتابع على وجه الخصوص فى الفصل التالى، مصير مملكة تابعة أصبحت أقوى مملكة سورية خاضعة، وهى مملكة عمورو، وتفاعلها مع مركب الممالك الصغرى المجاورة، ومع القوى التى تكمن خلفها، ولكن قبل أن نخوض ذلك الغمار، من المفيد أن نعيد بناء المشهد، بأن نعرض أهم ممالك سوريا

– فلسطين فى ذلك العصر، وحكام تلك الممالك كما عرفوا من خلال رسائل تل العمارنة، ومن رسائل أخرى معاصرة أو قريبة من العصر. ولهذا الغرض، سنقسم تلك الممالك إلى أربعة أقسام: تلك التى تقع على الساحل الجنوبى، وتلك التى تقع على الساحل الشمالى، والممالك الداخلية فى فلسطين وجنوب سوريا، ثم الممالك الواقعة فى شمال سوريا.

الممالك الصغرى
الممالك الواقعة جنوب الساحل الشرقى

مملكة جوبلا

كانت جوبلا (بيبلوس الإغريقية) مملكة تقع على الساحل الشرقى للبحر المتوسط شمال بيروت، ومن عاصمته جوبلا، فرض ملكها رب – حدا هيمنته على عدد من المدن الساحلية الصغرى المجاورة لجوبلا، ومنها باترونا وشيجاتا وأميًا وبترا، وتشكل رسائله إلى أخناتون النسبة الأكبر من رسائل الملوك التابعين إلى ملكهم الأعلى، من بين مجموعة رسائل تل العمارنة، كانت أغلب رسائل رب – حدًا تدور حول عدوان ونهب وتخريب عبدى – عشيرتا وابنه عزيزو، حكام مملكة عمورو الواقعة شمال جوبلا، وفى الفصل التالى سنناقش ببعض التفصيل المعلومات التى زودتنا بها تلك الرسائل.

بيروت

كانت بيروت (بيروتا فى رسائل تل العمارنة) الجار الجنوبى لمملكة جوبلا على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وتحتوى رسائل تل العمارنة على بضعة رسائل من حاكمها أمُونيرا إلى أخناتون(11). وتحالف رب – حدا حاكم جوبلا مع أمونيرا، فى محاولة منه للتصدى للعدوان العمورى، وبعد أن فقد عرشه – فى انقلاب وقع ضده – لجأ إلى رب – حدا، وظل

منتظرًا بلا طائل وصول الدعم المصرى؛ لاستعادة عرشه.

صيدا وصور

وفى جنوب الساحل الشرقى للبحر المتوسط كانت تقع صيدا (صيدونا) وصور (سورُو). ولجأ أيضًا رب - حدا إلى المدينتين طالبًا دعمهما له ضد عدوان عبدى - عشيرتا العمورى، كان حاكم صور فى ذلك الوقت ملك يدعى ابى - ميلكو. وكان يزود الفرعون بانتظام بالمعلومات السياسية والعسكرية الهامة عن منطقته. والرسائل التى كتبها إلى أخناتون(12). تعد مصدرًا قيمًا للمعلومات عن الأنشطة السياسية والعسكرية التى كانت تقع فى تلك المنطقة، وعن الصراعات والنزاعات التى كانت تقع بين الملوك الخاضعين لحكم الفرعون فى الجنوب الشرقى لساحل المتوسط، وتمتلئ رسائله بالشكوى من حاكم صيدا زيمردًا، حيث اتهمه ابى - ميلكو بأنه يعتدى على مدينته، وأنه يتعاون مع أعداء الفرعون وخاصة عز يرو، كان زيمردًا قبل ذلك من الملوك المخلصين للتاج المصرى، واتهمه ابى - ميلكو بتزويد عزيرو بمعلومات استخبارتية هامة(13)، كما كان يتطلع إلى غزو صور، ويحتمل أنه كان يعمل كعميل لعزيرو(14)، كما وحَّد قواته البحرية والبرية مع قوات جزيرة اروادا (أرفاد التوراتية)؛ لتحقيق ذلك الهدف(15).

الممالك الواقعة شمال الساحل الشرقى

أوجاريت

كانت أوجاريت تشغل مساحة تصل إلى 2000 كيلو مترًا مربعًا، وكانت من أكبر الممالك الصغرى وأكثرها رخاءً وانتعاشًا من ممالك سوريا(16). كانت مدارج الجبال والسهول الخصبة وجوها المعتدل وأمطارها الغزيرة تضمن لسكانها محاصيل زراعية وفيرة، بما فيها

الكروم وإنتاج النبيذ والزيوت، والحبوب والكتان، بالإضافة إلى أنواع كثيرة من المنسوجات الكتانية والصوفية. كذلك عرفت بمراكزها التعدينية التى اشتهرت بمصنوعاتها البرونزية وصياغة الذهب، كانت عاصمتها الملكية تتوسط مدنًا عديدة وقرى كثيرة، كما كانت ملاصقة لميناء طبيعى ممتاز يمتد إلى مسافة 50 كيلو مترًا على الساحل، لذلك كانت أهم ميناء تجارى عالمى، ملىء على الدوام بمراكب وافدة من جميع أنحاء شرق البحر المتوسط، تفرغ بضائعها وتحمل بضائع أخرى، جُلبت عبر اليابسة من جميع أرجاء سوريا والأناضول ومنطقة ما بين النهرين، كما كانت أخشاب الأرز والبلوط والسرو التى تتوفر فى غابات مدارج الجبال بكثرة تفيض عن الاحتياج المحلى، ومطلوبة لباقى أسواق العالم القديم، كذلك كانت جبالها المعشبة مراعى نموذجية لحيوانات الرعى، فكثرت وانتعشت الحيوانات الرعوية بها، كذلك كان القمح والكرم والزيتون يزرع بكثافة فى وديانها الساحلية.

وكان ثراء أوجاريت، ومواردها الطبيعية الكثيرة وموقعها الاستراتيجى الهام سياسيًا وتجاريًا يجعل منها قبلة تطلعات كل القوى الكبرى فى عصرها، كانت أوجاريت قد قررت أن تظل مستقلة عن أى من تلك القوى قبل فترة تل العمارنة، بينما كانت تحتفظ بعلاقات ودية دافئة مع الميتانيين، ولكن بعد ذلك حين أصبحت المواجهة الشاملة بين الميتانيين والحثيين وشيكة، نجد ملك أوجاريت عميشتامرو الأول يعلن ولاءه لفرعون مصر، والرسالة التى أعلن فيها ذلك والمصنفة تحت رقم EA45 ، موجهة إما إلى أمونحوتيب الثالث أو إلى أخناتون فى الأعوام المبكرة من حكمه، وهى فى الحقيقة من أول الوثائق الواردة من أوجاريت إلى مصر، كما توجد بضع رسائل أخرى تحتوى على تأكيد ولاء عميشتامرو للفرعون(17). ومما لا شك فيه أن ملك أوجاريت رأى فى التحالف مع مصر – إن لم يكن فى حقيقة الأمر خضوعًا إراديًا كاملاً لها – أنه أنسب وأحكم قرار سياسى، إذا أراد تجنب التورط فى الصراع الحثينى –

الميتانى الوشيك. كانت محاولة البقاء على الحياد تحمل قدرًا عاليًا من المخاطرة، خاصة مع وجود تلك الجاذبية الشديدة والأهمية الاستراتيجية والغنى المادى الذى تمثله أوجاريت لأى غاز، وفى الوقت نفسه، كان إعلان تأييد الميتانيين أو الحثيين سيعرضه لا محالة للهجوم من الطرف الآخر. أما مصر، فقد كانت متحالفة مع الميتانيين، إلا أنه كان من المعروف لجميع الأطراف أن الملك الحثينى سبيلوليوما كان يتلهف إلى توثيق علاقات الود والصداقة مع مصر - وكان دافعه إلى ذلك رغبته فى إبقاء مصر خارج ذلك الصراع، ولم يكن يحتمل أن يثير سبيلوليوما غضب مصر بمهاجمة أحد حلفائها أو رعاياها.

فى إطار تلك الظروف، كان التحالف مع مصر يتيح لأوجاريت أفضل فرص تجنب توريطها فى أتون الحرب الحثينية الميتانية الشاملة، ومن المفهوم أن عميشتامرو رفض كل محاولات وعروض سبيلوليوما للانضمام إليه، إلا أنه بعد ذلك بفترة قصيرة، مات عميشتامرو، فجدد سبيلوليوما عرضه على ابنه وخليفته نيكمادُو الثانى، ونجح فى تلك المرة، وتحت حكم نيكمادو الثانى، أصبحت أوجاريت حليفة للحثينيين(18).

عمورو

كانت أرض عمورو تقع جنوب أوجاريت بين نهر العاصى وساحل البحر المتوسط، وإلى الجنوب منها كانت تقع مملكة جوبلا، وفى عصر مراسلات تل العمارنة كانت عمورو تحت حكم عبدى - عشيرتا، وسنخصص الفصل التالى لدور العموريين فى تاريخ فترة تل العمارنة، تحت حكم عبدى - عشيرتا أولاً، ثم تحت حكم ابنه عزيرو من بعده، وتزودنا الرسائل التى كتبها كل من عبدى عشيرتا وابنه عزيرو والرسائل المرسلة إليهما، وكذا الرسائل التى كتبت عنهما برؤية عميقة للأجواء السياسية، والتطلعات والطموحات، والخيانات، والمؤامرات، وتغيير الولاء، والانتماء الذى كان يغلب على السياسات المحلية، والمغامرات العسكرية

التى سادت مرحلة العصر البرونزى المتأخر فى منطقة سوريا - فلسطين.

الممالك الداخلية فى فلسطين وجنوب سوريا

شكيم

كانت شكيم مملكة منتعشة اقتصادياً وقوية فى وسط فلسطين، وكانت تقع فى منطقة غنية خصبة غرب وادى الأردن، على بعد 70 كيلو متراً شمال مدينة القدس(19)، وفى عهد العمارنة تحولت شكيم لتصبح مركز إمبراطورية صغرى. وحقق حاكمها لابايا ذلك الوضع لها عن طريق غزو أراضى الممالك المجاورة الواقعة شمال المملكة وغربها، كانت أنشطته العدوانية مماثلة لتلك التى يقوم بها عبدى - عشيرتا، ومثلما فعل عبدى - عشيرتا، أحاط لابايا هو الآخر ملكه الأعلى فرعون مصر علمًا بأقوال كثيرة عن ولائه الشديد وإخلاصه للفرعون حين لامه على أنشطته غير المقبولة(20). ومثله مثل عبدى - عشيرتا أيضًا، وصلت مغامراته العسكرية إلى توقف مفاجئ، حين نفذ صبر الفرعون والقى الجيش المصرى القبض عليه، وربما يكون قد أعدم.

أوبى / آبينا

كانت أوبى - أبينا (وهى المنطقة الواقعة جنوب سهول حمص حول دمشق بما فيها دمشق) هى آخر حدود جنوبية للحملة العسكرية الحثينية، التى استغرقت عامًا كاملاً بقيادة سبيلوليوما، وكانت تقع فى الجانب المصرى لمناطق النفوذ بسوريا، وأعيدت إلى النفوذ المصرى، بعد غزو سبيلوليوما لها فى فترة لاحقة، ثم أعاد الحثينيون احتلالها بعد الفوضى التى تلت معركة قادش، وأسند الملك الحثينى ميواتاللى حكمها إلى أخيه حاتوسيلى (الذى أصبح بعد ذلك الملك حاتوسيلى الثالث) لفترة من الزمن. وخلال مرحلة تل العمارنة كان حاكمها بيرياوازا متورطًا فى صراعات مع

جيرانه، خاصة مع جاره الشمالى أيتاكاما، حاكم قادش الذى كان مازال خاضعًا للنفوذ المصرى، وأرسل كل منهما شكاوى ضد الآخر إلى فرعون مصر، كان بيرياوزا متهمًا بالتعدى والعدوان الصارخ على أيتاكاما، وبغزوه لكل مملكته وإحراق مدنها(21) ، واتهمه اتياكاما أيضًا بالتعاون مع عصابات الحابيرو الخارجة على القانون(22) ، وما ترتب على ذلك من ضياع تلك المدن على فرعون مصر لصالح تلك العصابات، وادعى بيرياوازا أن الحابيرو كانوا حلفاء له، لخدمة مصالح الفرعون(23).

لم يكن جيران بيرياوازا فقط الذين أرسلوا شكاوى ضده للفرعون، بل كان موضع شكوى واحتجاج الملك البابلى بورنا بورياش، الذى أرسل للفرعون متهما بيرياوازا بنهب قافلة سالمو، أحد أهم مبعوثى بورنابورياش، بينما كانت القافلة فى طريقها من بابل إلى بلاط فرعون مصر(24). وبالرغم من تأكيد بيرياوازا المستمر على ولائه لفرعون مصر، بعبارات خضوع شديد فى رسائله للفرعون منها: «إن سيدى شمس السماء، ومثلما تصدر الكلمات من شمس السماء ينتظر خدمك الكلمات التى تخرج من فم سيدهم»(25)، ثم يدعى بعد ذلك أنه هو الضحية الذى وقع عليه عدوان أعداء الملك، ولا يوجد شك فى أنه كان آخر من يمكن الوثوق به من الملوك التابعين للنفوذ المصرى، وكان السبب الرئيسى فى الفوضى المزمنة بين كل الممالك الداخلية الخاضعة للنفوذ المصرى.

الممالك الداخلية فى شمال سوريا

قرقميش

كانت قرقميش الواقعة على الضفة الغربية لنهر الفرات آخر مدينة ميتانية حصينة غزاها سبيلوليوما الحثينى. وكان سقوطها بمثابة انتهاء أكبر عملية عسكرية حثينية، فى سياق تدمير الحثينيين للمملكة الميتانية تدميرًا كليًا شاملاً، ومن بعد ذلك تحولت قرقميش إلى مملكة محلية،

يحكمها أحد أبناء الملك الحثيني، الأمير شارى - كوشوه (بياسيلى سابقًا)، ابن سبيلوليوما، وكان أول ملك حثينى تابع يعين عليها.

حلب

تقلصت مملكة حلب كثيرًا عما كانت عليه، بعد ما كانت تسيطر على كل أنحاء شمال سوريا، بعد أن أصبحت إحدى الممالك الخاضعة أيضا للنفوذ الحثيني، بعد ما كانت مملكة ميتانية. وبالمثل فى حلب، تخلى الملك الحثينى عن سياسته المتبعة بتعيين حاكم محلى بأن عين ابنه تيليبينو ملكًا عليها، وبين قرقميش وحلب تحولت كل الأراضى السورية التى احتلها الحثينيون إلى ممارسة كل السلطات الحثينية سياسيًا، وإداريًا ودينيًا وقضاء، وكأنها تحت الحكم المباشر للملك الحثينى ذاته.

أشتاتا وإيمار

كانت مملكة أشتاتا تقع إلى الجنوب من قرقميش فى المنطقة التى يطلق عليها أحيانًا «الانحناءة الكبرى للفرات». كانت تخضع إلى حد كبير لسلطة قرقميش، عندما تأسست قرقميش كولاية تابعة، وفى عهد مورسيلى الثانى بن سبيلوليوما الحثينى، اكتمل بناء مدينة جديدة باسم إيمار فى منطقة أشتاتا، تحت إشراف الحثينيين قريبة من مدينة قديمة، كانت تحمل ذلك الاسم، كما يتضح من سجلات مارى(26)، وسوف نناقش فى الفصل العاشر بعض المراسلات المكتشفة حديثًا والتى تبادلها كاهن إيمار مع الملك الحثينى.

موكيش

كانت موكيش تقع شمال أوجاريت، وكانت أول ولاية سورية تقابل القوات العسكرية والتجار والمبعوثين القادمين من الأناضول إلى سوريا، وكانت رسميًا جزءًا من حلب، وخضعت لهيمنة الميتانيين بعد دمار المملكة

الحثينية فى عهد مورسيلى الأول، وكانت من ضمن البلاد التى أسند الملك الميتانى باراتارنا إدارتها إلى ملك تابع له يدعى إيدريمى، ثم غزاها سبيلوليوما فى حملته العسكرية التى استمرت عامًا على سوريا. وبعد ذلك مالت موكيش إلى التخلص من النفوذ الحثينى بالدخول فى تحالف مضاد للحثينيين، مكون من بضع ولايات فى شمال سوريا، كانت منها ولايتا نيا وأرض نوحاس، وتم سحق ذلك التمرد على أيدى قوة حثينية، وتم اقتطاع أجزاء كبيرة من موكيش ونيا، وضمت لحكم ملك أوجاريت نيكمادو الثانى، الذى كان قد تحالف مع الحثينيين بعد موت أبيه وارتقائه العرش من بعده، وكان قد رفض الانضمام لذلك التحالف المضاد للحثينيين.

نيــــا

كانت نيا واحدة من ولايات شمال سوريا التى سقطت فى يد الحثينيين، خلال حملة سبيلوليوما على سوريا التى استغرقت عامًا كاملاً، وكما لاحظنا أنه أثناء الفوضى التى أعقبت تلك الحملة اقتطع سبيلوليوما جزءًا كبيرًا من نيا، وضمه إلى أوجاريت، أما الملك الذى كان يحكم ما تبقى من نيا، والواقع على الضفة الشرقية لنهر العاصى، فقد كان يخضع للنفوذ المصرى خلال فترة تل العمارنة(27)، وكان هو الآخر من ضحايا جشع عزيرو العمورى، كما ورد فى رسائل أبناء مملكة تونيب إلى الفرعون(28).

أرض نوحاس

كانت بلاد نوحاس تقع إلى الجنوب من نيا، محصورة فى منطقة تقع بين نهر الفرات فى الشرق ونهر العاصى فى الغرب، وكان من الواضح أنها كانت مكونة بدورها من عدة ممالك صغرى لكل منها حاكم، يكونون معًا نوعًا من الكونفدرالية التى يجعلون فيها لواحد منهم الكلمة العليا.

كانت بلاد نوحاس متحالفة أو خاضعة للميتانيين، إلا أن سبيللوليوما نجح فى عقد اتفاق تحالف مع واحد من ملوك نوحاس، أثناء إعداده

لحملته العسكرية على سوريا التى استمرت عامًا، وهو الملك شاربشى، ورد الملك الميتانى عوشراتا على ذلك بغزو مملكة شاروبشى، فوجه شاروبشى نداء إلى سبيلوليوما طالبًا عونه، ولسوء حظ شاروبشى، قام بعض أعضاء أسرته باغتياله قبل أن تصل المساعدة المطلوبة، وأعادوا المملكة إلى تحالفها السابق مع الميتانيين وبحكم ملك جديد هو عدو - نيرارى، وظل سبيللوليوما منشغلاً بغزو أرض الميتانيين، ولم يكن لديه وقت للاهتمام بمشكلة نوحاس، حتى تمكن من اجتياح عاصمة الميتانيين واشوجانى والاستيلاء عليها، وعند عودته إلى غرب الفرات غزا بلاد نوحاس، وخلع ملكها ورحّل كل عائلتها الملكية إلى بلاد الحثيين، وسيطر سيطرة مباشرة على كل منطقة نوحاس(29).

قَطَنَا

كانت (قطنا) تقع شرق نهر العاصى، على مسافة ٤٠ كيلو مترًا إلى الشمال الشرقى من قادش، كانت فى السابق خاضعة للنفوذ الميتانى، وكانت هى الأخرى من الولايات السورية التى سقطت فى يد الملك الحثينى سبيللوليوما فى حملة العام الكامل على سوريا، وأثناء حقبة تل العمارنة كان يحكمها أحد أفراد عائلة اكيزى المالكة وكانت خاضعة فى ذلك الوقت للنفوذ المصرى، ويحتوى أرشيف تل العمارنة على بضع رسائل كتبها حاكم (قطنا) لفرعون مصر أخناتون(30)، وتلك الرسائل عبارة عن شكاوى للفرعون من العدوان الواقع عليهم والذى يقوم به عزيرو العمورى، وعلى الأخص عدوان (اتياكاما) حاكم قادش، وكان اتياكاما مدعوما من الحثينيين، وهاجم (قطنا) بهدف إجبارها على تغيير ولاءها لتنضم إلى المعسكر الحثينى.

تونيب

كانت مملكة تونيب خاضعة لنفوذ مملكة حلب السورية، ثم أصبحت

خاضعة للنفوذ المصرى بعد حملات تحتمس الثالث العسكرية، وكانت تقع على الضفة الغربية لنهر العاصى، ونتبين من تسجيلات تحتمس عن حملته السابعة عشرة، أن تونيب وقادش كانتا قد تمردتا على الحكم المصرى، وكان ذلك بدعم من الميتانيين، إلا أنهما بقيتا تحت الهيمنة المصرية، وبحلول حقبة تل العمارنة أصبحتا من أقوى المدن الحصينة فى أقصى شمال منطقة النفوذ المصرى فى سوريا، ولما خلا عرشها بعد موت ملكها اكى - يتشوب، كتب مواطنو (قطنا) إلى أخناتون رسالة يطلبون فيها من أخناتون أن يعيد إليهم ابن أكى - يتشوب، ليجلس على عرش أبيه، وكان قد حجز فى البلاط المصرى؛ «لإعادة تأهيله»(31)، كما عبروا فى الرسالة عن خوفهم من سقوط مدينتهم ضحية لأطماع عزيرو، مثلما حدث لمدينة سومور، وهناك ما سنذكره عن سومور فى الفصل التالى.

قادش

كانت مدينة قادش(32) (مدينة تل نبع - مند حاليًا) تقع على نهر العاصى فى المنطقة التى يمكن اعتبارها كجبهة فاصلة بين شمال سوريا وجنوبها، وبرز اسمها كثيرًا فى الصدامات العسكرية بين القوى الكبرى فى ذلك العصر، وظهرت فى البداية فى التسجيلات كحليفة للميتانيين، إلا أنها هزمت هى ومدينة مجدو فى أولى حملات تحتمس الثالث العسكرية على آسيا، وتأكد خضوعها للنفوذ المصرى بعد حملته العسكرية الثانية.

وترسخ وضعها كمملكة خاضعة للنفوذ المصرى بشكل نهائى بعد الاتفاق الذى عقد بين الميتانيين ومصر فى عهد تحتمس الرابع، ووفى سبيلوليوما بمعاهدة السلام التى عقدها مع مصر أثناء حملته ضد الميتانيين ولم يمسها، إلا أن الميول الموالية للميتانيين داخل المدينة كانت ما تزال على قوتها، وكان على رأس ذلك المعسكر الميَّال للميتانيين ملك المدينة شوتارنا، فشن هجومًا غير مبرر على قوات سبيللوليوما وهى تمر بالقرب من مدينته، ورد سبيللوليوما على ذلك العدوان بمهاجمة المدينة وغَزْوها،

وأزاح ملكها عن عرشه، ورحَّل أهلها إلى بلاد الحثينيين كأسرى، وكان ابن الملك شورتانا الأمير ايتاكاما من بين الأسرى الذين سيقوا إلى بلاد الحثينيين، إلا أن سبيللوليوما سمح له بعد ذلك بالعودة، وشغل مكان أبيه على عرش المدينة، فى البداية أبدى أيتاكاما كثيراً من مظاهر الولاء لفرعون مصر(33)، ألا أنه أصبح من الواضح جداً أثناء حقبة مراسلات تل العمارنة أنه أصبح هو ومملكته موالين للمعسكر الحثينى، وبقدر ما نعلم، لم تظهر مصر أى احتجاج ولا رد فعل لخسارتها لقادش، على الأقل فى عهد أخناتون، إلا أن التساؤل، من كبار الملوك كان يمكن له أن يدعى السيادة على قادش، ظل تساؤلاً بلا إجابة لفترة زمنية طويلة، وكما سنرى، كان توت عنخ آمون هو أول من وضع تلك المشكلة فى موضع الاختبار، وترتب على ذلك الاختبار تداعيات خطيرة، فى الوقت ذاته، استغل أيتاكاما الفرصة أقصى استغلال فى حماية سبيللوليوما، وتحالف مع حكامٍ محليين آخرين، وكان من أبرزهم عزيرو العمورى، وقام بتوسيع رقعة مملكته، على حساب الملوك المحليين المجاورين الموالين لفرعون مصر.

9

ملوك الحرب في عمورو

كان اسم عمورو - فى نصوص الألف الثالث وبداية الألف الثانى قبل الميلاد - يشير إلى منطقة واسعة تضم أغلب أرض سوريا الحالية، إلا أن الاسم أصبح يدل بعد ذلك على معنى أكثر تحديدًا، يغطى فى مفهومه العام المناطق الممتدة بين نهر العاصى ووسط الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وخلال حملات تحتمس الثالث العسكرية على سوريا تم إخضاع تلك المنطقة وضمها إلى منطقة نفوذ الإمبراطورية المصرية فى سوريا، إلا أن ذلك كان اسميًا فقط، كانت بلاد عمورو منطقة خطيرة تسكنها قبائل عدوانية شرسة، يخاطر بحياته من يمر بها من تجار، أو بعثات رسمية، أو مسافرين مرتحلين، فقد كانوا عرضة للهجوم فى أى لحظة وهم يقطعون تلك البلاد، وينهب كل ما معهم ويقتلون على أيدى مجموعات همجية من أناس شبه قبليين، كانت تغص بهم جبال المنطقة وغاباتها ويشكلون تهديدًا شديد الخطورة، ليس فقط على من يتحلون بالشجاعة أو يتصفون بالحمق بما يكفى للمرور بأرض عمورو بلا حماية كافية، بل أيضًا على المجتمعات المتحضرة المستقرة فى مدن تقع على مدى قريب من متناولهم، كانت قدرتهم على الانقضاض المفاجئ على ضحاياهم دون أى توقع، ثم اختفائهم المفاجئ دون أثر فى حنايا الغابات أو تجاويف الجبال، قبل التمكن من اتخاذ أى إجراء ضدهم يجعل من اسم حابيرو الذى اشتهروا به، أحد أكثر الأسماء بثًا للفزع والرعب فى كل أرجاء منطقة سوريا.

كانوا فى البداية مكونين من مجموعات كثيرة من عصابات منفردة، تضم الهاربين والمهمشين اجتماعيًا وسياسيًا، كانت أعداد الحابيرو تتزايد بانضمام كل المجرمين إليهم، والقراصنة الجائلين، والمغامرين الساعين إلى الإثارة وأعمال النهب التى توفرها لهم العصابات الجائلة فى

شمال كنعان الثرية، وأغرى ذلك كثيرًا من مجتمعات بأكملها للانضمام إليهم، كما انضم غيرهم بالقوة إلى تلك الأنشطة، فقد كان ذلك البديل الوحيد عن التعرض للذبح أو العيش تحت خوف دائم وفقر بسبب تعرض مدنهم وحقولهم للنهب والتدمير.

حتى إن زيميردا ملك صيدا كتب للفرعون قائلاً: **«لابد أن تعلم جلالتك أن العداوة ضدى وصلت إلى أقصى مدى، كل المدن التى وضعتها تحت حكمى انضمت للحابيرو»**(2).

وكانت الأحوال تصل إلى أسوأها حين تشن عصابات الحابيرو غاراتها منفردة فى مجموعات لا تنسق عملياتها، كانوا يشيعون الفوضى وعدم الاستقرار بين كل الممالك المحلية والإمارات الخاضعة لنفوذ الفرعون فى أنحاء سوريا، واتضح ذلك بجلاء من خلال المراسلات الواردة لفرعون مصر من ممالك سوريا. فكيف يكون الحال إذا تم تكمم تشرزم تلك العصابات وتم توحيدها تحت قيادة رجل واحد؟!

نشاط عبدى - عشيرتا

فى عهد أمونحوتيب الثالث ظهر ذلك الرجل الذى وحَّد الحابيرو، وهو رجل يدعى عبدى - عشيرتا(3)، برز من بين صفوف زعماء القبائل المحلية، ما ميزه عن أنداده أنه كان ذا بصيرة، ولديه تطلعات وطموحات، وواسع الرؤية وبعيد النظر، فى رؤيته لمنطقته موحدة تحت هيمنته، كانت لديه رؤية مدركة للإمكانيات غير المحدودة فى استغلال الشعوب، ومصادر الثروات داخل منطقته وخارجها إذا تمكن من توحيد عصابات الحابيرو.

لم تكن الرؤية وحدها كافية لتحقيق ذلك الهدف، فتضافرت معها مهاراته الشخصية وعزيمته وقوة إرادته لتحقيق ذلك.

فى سبيل ذلك لم يكن بحاجة فقط لدعم رفاقه من زعماء القبائل المحلية ورؤساء العصابات والقتلة، بل كان محتاجًا لاستمرارية خضوعهم وطاعاتهم له بلا مجادلة كقائد لهم، ويتطلب تحقيق ذلك قدرًا كبيرًا عنهم

من البطولة، كانت جماعات الحابيرو بطبيعتها فوضوية ولا ترضى بالخضوع لأى سلطة ولا بالانتظام الجماعى والتخلى عن استقلالهم الفردى أو انضوائهم فى عصابات صغرى الذى يمليه عليهم طاعتهم لعبدى عشيرتا، ولابد أن المكافآت التى قدمت لهم من نفوذ ومزايا مادية كانت ضخمة جدًا، حتى يتمكن من ترويضهم. ولا يوجد شك أن عصابات الحابيرو التى كانت بشمال أرض كنعان شكلت العنصر الأساسى من بين قوات عبدى - عشيرتا التى استخدمها لبناء قوته فى أرض عمورو والتى بدأ بها اعتداءاته على جيرانه من الممالك الصغرى.

إلا أن النجاح فى مثل ذلك المشروع كان يتطلب تغييرًا فى الاستراتيجية، فقبل ذلك كانت أهم سمة وأنجز سلاح فى يد الحابيرو هو عدم ظهورهم، أى الكر المفاجئ والفرار السريع والاختفاء كجماعات صغيرة العدد، وقدرتهم على الاختباء السريع دون ترك أثر يقود إليهم، وكان من الصعب على أى جيش نظامى التعامل مع مثل تلك العصابات، وبمجرد أن تنتظم تلك الجماعات الصغيرة فى وحدات عسكرية كبيرة وتشتبك فى معارك تقليدية يصبحون أكثر عرضة للهزيمة على أيدى جيوش نظامية.

ونمت قوات عبدى - عشيرتا، حتى أصبح بإمكانها شن هجمات ناجحة على مدن كبرى، حتى لو كانت بتلك المدن حاميات عسكرية، إلا أنهم لم يكونوا أندادًا يعتد بهم فى مواجهة حملة عسكرية مؤلفة من قوة عسكرية كبرى، مكونة من جنود مدربين تدريبًا عاليًا على فنون القتال، ومجهزين بأسلحة قتال مثل قوات الفرعون.

لم يكن لدى عبدى - عشيرتا أى نية لإثارة صراع مع مصر، غير أن استمراريته فى إحكام قبضته على قوات الحابيرو لم تكن لتستمر إلا بالتلويح الدائم لهم بمكافآت أكبر، ولم يكن لك ليتحقق ذلك إلا باستمرار وتكرار شن الهجوم على الممالك المجاورة الخاضعة لنفوذ ملك مصر، والنظرة السطحية تظهر أن التوجهين متعارضان، فقد كان تجنب الدخول

فى صراع مباشر مع مصر - وفى الوقت نفسه الهجوم على الممالك الصغرى الخاضعة لها - يتطلب توازنًا دقيقًا فى إدارة التوجهين باقتدار، كان التحدى الذى واجهه هو كيفية مزج تطلعاته الشخصية وطموحاته - وقواته المتعطشة للغزو والنهب والحصول على غنائم - تحت غطاء تمويهى يتظاهر فيه بأنه عين نفسه بطلاً باسم الفرعون فى تلك المنطقة، لرعاية مصالح الفرعون، كل مشروعاته التوسعية وهجماته بغرض السلب، كان يقوم بها بصفته وكيلاً للفرعون، وأى اعتراض على أفعاله لدى الفرعون كان يرد على الفور باتهامه بالخيانة وعدم الولاء للفرعون من كبار موظفى الملك فى الممالك الخاضعة، أو من الرعايا المحليين، كانت تلك على الأقل هى المفاهيم التى سعى على الدوام إلى التأكيد عليها فى كل رسائله إلى البلاط المصرى.

كانت سومور القريبة من حدود مصر الشمالية(4) بمثابة حالة اختبار، فبعد أن احتل عبدى - عشيرتا مدن ارداتا وإرقاطه جنوب عمورو، راح يتطلع إلى الحامية الاستراتيجية الواقعة فى الشمال، غير أن المفوض المصرى «بحانيت» نائب الفرعون كان يقيم بقصر بها وكان غائبًا فى ذلك الوقت.

ووفر غياب باحانيت مندوب الفرعون الفرصة الملائمة التى كان يتطلع إليها عبدى عشيرتا، فقد قاد قوات الحابيرو، وهاجم المدينة واحتلها بعد مقاومة يسيرة. وفى الحقيقة لم يكن للحظ أى دور فى اختياره للمدينة ولا فى استيلائه عليها، فربما كان قد انتظر حتى سافر باحانيت وهاجم المدينة فى غيابه، وبذلك تجنب وقوع مواجهة مباشرة مع الممثل الرئيسى للفرعون فى تلك المنطقة.

وحتى لو كانت تلك هى حساباته، كان من الصعب ألا يرد الفرعون على ذلك العدوان السافر.

وانتشرت أنباء احتلال سومور بسرعة، فما الذى يفعله الفرعون إزاء ذلك؟ وأين كانت القوة العسكرية التى يمكنها استرجاع المدينة؟ وفى

انزعاج شديد كتب جار عبدى عشيرتا الجنوبى ريب - حدا، ملك جوبلا رسالة عاجلة إلى كبير المسئولين المصريين حايا متسائلاً فى رسالته:

«لماذا تحجم عن إبلاغ الملك؟ إن أبلغته سيرسل فرق رماة السهام لاسترداد سومور»(5).

(وكان عبدى -- عشيرتا قد أقدم على فعل آخر جسور، لا يجرؤ أحد على الاتيان به، لذلك أبلغ ريب - حدا فى رسالة أخرى عن نوم عبدى - عشيرتا فى غرف نوم الملك بقصره المشيد بسومور، وكذلك فتحه للخزائن الملكية الموجودة به)(6) ولم يكن المندوب المصرى الملكى باحانيت أقل انزعاجًا عندما علم بما جرى وهو فى مصر، فكتب غاضبًا إلى عبدى - عشيرتا، وأدانه بأنه عدو لمصر(7). ورد عليه عبدى - عشيرتا بلا توان منكرًا كل اتهامات باحانيت.

ورد بأنه على العكس تمامًا مما ذكره باحانيت من اتهامات، وأنه أبعد ما يكون عن ذلك، وأنه لم يكن إلا مدافعًا عن مصالح مصر، وذكر أنه احتل سومور حين وجدها خالية ممن يمكنه الدفاع عنها، وأن القصر الملكى لم يكن به أحد ليحميه، بالرغم من وجود خطر يهدد المدينة بالدمار على أيدى قوات مدينة سحلال، وأنه بالرغم من ذلك لم يبادر باحتلال المدينة لحمايتها إلا استجابة لطلب من الموظفين المصريين الأربعة، الذين كانوا بالقصر مظهرين ولاءهم للفرعون حتى آخر لحظة.

وكتب عبدى - عشيرتا إلى الفرعون ذاته ليطمئنه على ولائه وخضوعه للملك، معلنًا أنه - بالنيابة عن سيده الأعلى - المدافع لا فقط عن سومور وأولاسا القريبة منها، بل عن كل أرض عمورو، وفى تلاعب ملحوظ بالحقائق، ادعى أنه أخذ ذلك على عاتقه بناء على طلب باحانيت المندوب الملكى الرسمى، أو على الأقل بموافقته ورضاه:

«أترى، لديك باحانيت، مفوض الملك، قد يسأله الملك، الشمس إن لم أكن أحمى سومور وأولاسا، وحين كان سيدى المفوض فى مهمة لدى الملك، الشمس، أصبحت أنا من يحرس المحاصيل من الحبوب فى سومور

وكل أرض الملك، شمسى، وسيدى»(8).

كان عبدى – عشيرتا بذلك ينصب نفسه كنوع من كلب حراسة إقليمى، كما لم تكن هجماته منصبَّة على عديمى الولاء للفرعون، كما كان يدعى. وكما فعل ابنه عزيرو من بعده فى مناسبات مختلفة، كان يتعلل على الدوام بعذر التدخل الأجنبى والتصدى له فى كل هجماته، وقال فى إحدى رسائله: **«كل الحكام الحوريين الخاضعين للملك يسعون إلى انتزاع أرضك منك»**، وأوضح أنه ليس على الملك أن يقلق ولا ينزعج، إذ أكد له: «أنا أحمى أرضك»، كان خوف مصر من عدوان خارجى على منطقة سوريا خوفًا حقيقيًا، وكان من الممكن استغلال وجود ذلك الخوف، وقد زود ذلك الخوف حكام عمورو بورقة مفيدة يلعبون بها من آن لآخر، وقد لعبوا بتلك الورقة بنجاح إلى أبعد مدى.

وسمح لعبدى – عشيرتا أن يستمر فى احتلاله لسومور، مما أتاح له قاعدة هامة لعملياته العسكرية المستقبلية، ويحتمل أنها أصبحت مقر قيادة أنشطته(9). ولما كانت تقع فى أقصى شمال الأراضى السورية الخاضعة للنفوذ المصرى، كان لموقعها كثير من المزايا لحاكمها الفعلى لا الاسمى. ولابد أن بعدها عن أرض مصر قد زاد من فرصته مع وجود سيد أعلى لا يرى ضرورة فى إرسال قواته فى حملات بعيدة فى أقصى أطراف البلاد الخاضعة لنفوذه. وحتى لو كان قد أرسل قوات لاسترداد المدينة كما طلب حاكم مدينة جوبلا منه أن يفعل ذلك، كان لدى عبدى – عشيرتا فرص كافية، لتلقى التحذيرات بقدوم تلك القوات، كان قرب سومور من الميتانيين، (وبعد ذلك) من الأراضى الخاضعة للحثيين يتحول بدوره ليصبح ميزة فى صالح عبدى – عشيرتا، فقد كانت الوعود بحراسة أراضى الحدود ضد أى تدخل أجنبى تتحول أحيانا لتصبح تهديداً بالتحالف مع الأعداء والانضمام إليهم، إذا لم يكن لدى الفرعون ما يكفى من الحكمة، وحاول الإضرار به وبوضعه كحامى لمصالح الملك فى الشمال.

لقد افترض بعض الباحثين أن عبدى – عشيرتا حاول بالفعل أن ينقل

ولاءه للميتانيين، وكان ذلك الافتراض مبنيًا على الحملة التى (طبقا لما ذكره رب - حدا) سيرها الملك الميتانى توشراتا لغزو سومور، ثم إكمال الغزو حتى جوبلا على ساحل البحر(10). وطبقًا لتفسير البروفسير ليبرانى لفقرة من الرسالة، رأى توشراتا أن ذلك الإقليم واسع جدًا وفقير جدًا، ولا يجذب اهتمامه، وأنه كان مقتنعًا بتركها خاضعة لمصر(11). ولسوء الحظ، فإن غموض مفردات الرسالة يجعل من المستحيل تحديد الدلالات التاريخية والسياسية لهذه الحملة الميتانية المدعاة، فهناك أسباب قوية للتشكك فى أن توشراتا ذاته قد فكر فى توسيع رقعة البلاد الخاضعة للميتانيين على حساب المناطق الخاضعة لمصر، أو أنه كان يحث على ذلك من عبدى - عشيرتا، فضلاً عن ذلك، كانت زيارة توشراتا لسومور - لو كان قد قام بالفعل بزيارتها - تبدو بوجه عام وسيلة سياسية لإظهار قوة ومتانة التحالف الميتانى - المصرى، والمفترض أن ذلك قد حدث لمواجهة المخاطر التى يشكلها الحثيون العدوانيون على كل من المملكتين المصرية والميتانية. ولا يمكن قبول أن توشراتا قد سعى لإثارة العداوة مع مصر بشن حملة عسكرية على الأراضى الخاضعة لنفوذها، فى الوقت الذى كان فيه مضغوطًا داخل بلاده من تحرش قوات سببلوليوما الحثينى، ولذلك يبدو أن تقدير سنجر هو الأصوب، حيث اعتبر أن تقرير ريب - حدا الذى ذكر فيه أن توشراتا قاد حملة عسكرية لغزو سومور وجوبلا ليس إلا اختلاقًا من حاكم جوبلا لكراهته الشديد لعبدى - عشيرتا(12).

فى جميع الأحوال كانت عمليات عبدى - عشيرتا العسكرية فى عمورو ناجحة جدًا، دون احتياج لأى مساعدة خارجية، وفى عدم وجود معارضة مصرية حقيقية، ولا معارضة قوية من المسئولين المصريين فى سوريا، تمكن زعيم سابق لقبيلة محلية من غزو أغلب المدن الهامة فى منطقة سوريا، وجعل من نفسه سيدًا عليها. كانت وسائله لتحقيق ذلك تتفاوت من إكراه إلى تخويف، وكذلك القوة العسكرية مفرطة القسوة، وتدفقت النداءات والشكاوى على بلاط الفرعون من كل أولئك الذين وقعوا تحت

تهديده فى بلاد العموريين وعلى رأسهم ريب - حدا حاكم جوبلا .

كانت عصابات الحابيرو تحت إمرة عبدى - عشيرتا قد أصبحت مطلقة السراح فى البلاد المجاورة، فاقتحموا واحتلوا القرى الجبلية الخاضعة لريب - حدا، وتركوا المنطقة الصغيرة الباقية التابعة لجوبلا على حافة الموت جوعًا، وأرسل ريب - حدا رسالة للفرعون قال فيها: **«فقدنا أولادنا وبناتنا، تم بيعهم فى إياريموتا لشراء أقوات لنا حتى لا نفنى جوعًا، ولعدم وجود من يزرع الأرض أصبحت أرضنا كامرأة بلا زوج»**(13). كان كل نجاح عسكرى لعبدى - عشيرتا، وكل تخريب لمنطقة تجتاحها عصاباته تدفع بأعداد كبيرة من البشر للالتحاق بقواته والانضمام إليه. أما من قاوموا فقد كانوا يبادون بلا رحمة، تحت زعم عبدى - عشيرتا بالمحافظة على السلام والوحدة، أما من التحقوا به فقد أصبحوا مثل الحابيرو.

باقى الخطابات التى أرسلها ريب - حدا تحمل الطابع ذاته، وكلها تتهم عبدى - عشيرتا بالعدوان بلا رحمة، والتوسع على حساب الممالك الصغرى المجاورة، وكلها تناشد الفرعون إرسال دعم عسكرى، وكلها تعلن للفرعون أن مملكة جوبلا على شفا الانهيار، وقدم حاكمها نفسه كخط الدفاع الأخير ضد ملك الحرب الذى يتطلع إلى الاستيلاء على ممتلكات الفرعون، وأن على الفرعون أن يحذر، وأن تحقيق طموحات عبدى - عشيرتا لا بد أن يكون على حساب الفرعون، وقال فى إحدى رسائله :

«عدا ذلك، من يكون عبدى - عشيرتا، الكلب، الذى يسعى إلى الاستيلاء على كل مدن الملك، الشمس، لنفسه؟ هل هو ملك ميتان؟ أم ملك قسيطى، حتى يسعى إلى الاستيلاء على أرض الملك (المصرى) لنفسه»(14)؟

إلا أن مصر صمتت عن الاستجابة لكل ذلك، على الأرجح نتيجة سياسة مقصودة، لا عن لامبالاة أو إهمال وتقاعس من جانب الفرعون،

كانت عمورى مساحة شاسعة ويصعب السيطرة عليها، من الجانب الطوبوغرافى ومن الجانب الديموغرافى، وكما لاحظنا، كان موقعها الجغرافى يجعل منها سهلة المنال على أى قوة تهيمن على شمال سوريا، ونجح عبدى - عشيرتا فى توحيد المنطقة تحت سيطرته وهيمنته، وحقق ذلك بمبادرته الشخصية دون السعى لنيل مباركة أحد أو تبنيه لأفكاره أو دعم من الفرعون، لقد قام ببساطة بإحراز القوة فى المنطقة، ثم قدم مشروعه إلى الفرعون كعمل منجز تم تحقيقه. إلا أنه حقق ذلك فى إطار من قبول الفرعون له بلا تحفظ بصفته سيده الأعلى، وهى أهم نقطة فى الأمر كله، وعلى أى حال حقق القوة التى أرادها .

ولم يكن لدى الفرعون أى شك أن تحقيق ذلك انطوى على قهر وإرهاب وتخويف وترويع، وأن ادعاءه أنه حرر سومور (مثلاً) من تهديدات جار عدوانى إدعاء تفوح منه روائح الشك، إلا أنه أثبت أنه رصيد مفيد للإدارة المصرية، كحاكم محلى قوى وقادر، أعلن دون تكليف من أحد أنه سيكرس نفسه لحماية المصالح المصرية فى المنطقة، لذلك لا يوجد تعجب أن نداءات ريب - حدا وتحذيراته لم تلق إلا آذانا صماء، على الأقل حتى تلك المرحلة من أنشطة عبدى - عشيرتا العدوانية.

وكان ذلك فى صالح عبدى - عشيرتا، الذى زادت جرأته بعد استيلائه السهل على سومور، وراح يتطلع إلى عمليات غزو أخرى، وربما جال فى ذهنه غزو ولاية أوجاريت الغنية الواقعة بالشمال على ساحل البحر، ولكن بالرغم مما تعد به من غنائم، كان غزوها يترتب عليه مخاطر لا حدود لها، مع عدم التيقن من نجاحه فى غزوها، فقد كانت أوجاريت فى ذلك الوقت متحالفة مع الحثيين مما يجلب عليه نقمة الحثيين بكامل ثقلها. كان من الأفضل له أن يحول دفة عدوانه إلى اتجاه آخر.

كان غزو المناطق الجنوبية يعد باحتمالات أكبر للنجاح مع تبعات أقل خطورة، وباستخدام قوات الحابيرو، انغمس عبدى - عشيرتا فى حملات من بث الرعب والخوف ضد عدد من المدن والمناطق الواقعة إلى جنوب عمورو.

وكان حكام تلك المدن هم هدفه وغايته، فبينما قامت قوات الحابيرو بقتل وذبح بعضهم(15)، سقط بقيتهم على أيدى مواطنيهم، بتحريض من عبدى - عشيرتا. وكان ذلك ما ذكره ريب - حدا للفرعون فى رسالة منه إليه: «بعد ما استولى على شيجاتا لنفسه، قال عبدى - عشيرتا لشعب عميًا، اقتلوا سيدكم حتى تصبحوا مثلنا ويسود السلام، ونفَّذوا ما قال، أصبحوا مثل الحابيرو»(16). ولا يمكن أن يراودنا أى شك أن المدن التى ثارت على حكامها وقتلتهم ثم انضمت إلى الحابيرو قد فعلوا ذلك فى أغلب الأحوال، خوفا من تبعات رفض اقتراحات عبدى - عشيرتا.

وأعلن ريب - حدا أن «**المتمردين سيتخلون عن عبدى - عشيرتا، لو أن الفرعون أرسل قواته لتأديب عبدى - عشيرتا، حتى فى عمورو ذاتها لم يعد الشعب يطيق عبد - عشيرتا... ويتطلعون ليلاً ونهارًا إلى وصول الرماة، ويقولون: فلننضم إلى الرماة، كل حكام المدن ينتظرون أن يتخذ هذا الإجراء ضد عبدى عشيرتا**»(17).

أما الموقف بالنسبة إلى ريب - حدا ذاته فقد أصبح ميئوسًا منه. فقد راحت المدن التى كانت خاضعة لحكمه تسقط واحدة بعد أخرى فى يد عبدى - عشيرتا، وسرعان ما لم يعد باقيًا تحت حكمه، إلا مدينة باترونا ومدينة جوبلا التى تعد عاصمة ملكه، وأخيراً، سقطت باترونا(18)، وبقيت جوبلا وحدها.

وأرسل وفداً من لدنه إلى مصر لتناشد الفرعون إرسال دعم عسكرى، إلا أن الوفد عاد خالى الوفاض دون دعم ودون وعد، ولم يتبق إلا أمل شاحب، وبعد وقت طويل، كتب الفرعون إلى حكام بيروت وصيدا وصور بتعليمات كان منها: «سيكتب إليكم ريب - حدا لطلب قوات دعم، ويجب عليكم جميعًا الذهاب لدعمه»(19)، وكانت تلك المدن تقع إلى الجنوب الأبعد بعيداً عن متناول عبدى - عشيرتا، ومن الممكن الاعتماد على دعمها، خاصة مع وجود أمر مباشر من الفرعون للقيام بذلك.

بدت صور على وجه الخصوص بصفتها أقصى مدينة إلى الجنوب من

بين الممالك الثلاث كمكان آمن من عدوان العموريين. ولما تحركت قوات عبدى - عشيرتا إلى جوار جوبلا، أرسل ريب - حدا شقيقته وأبناءها إلى صور كمأوى آمن لهم، بعد أن بث الفرعون لديه بعض الطمأنينة، وأخبره أنه أمر حكام المدن الثلاث بدعمه، إلا أن سرعة ومهارة عبدى - عشيرتا كانت أكثر مما قدروا، فقد سقطت المدن الثلاث فى أيدى مناصرى العموريين. وقام إيباح - حدا وزيمردا، حاكما بيروت وصيدا بالاستسلام، ويحتمل بعد نداءات متتالية للفرعون لمعاونتهم بلا استجابة منه(20)، فاستسلموا ونجوا بجلودهم(21). ثم وردت إلى ريب - حدا من صور - وكانت تربطه بها علاقات قوية - أنباءً مرعبة، فقد قتل حاكم صور على أيدى أبناء مدينته لرفضه الانضمام إلى عبدى - عشيرتا، كذلك قتلت شقيقة ريب - حدا وأبنائها، الذين أرسلهم إلى صور كملاذ آمن لهم(22)، فقد ذبحوا هم أيضا، ويحتمل بأوامر مباشرة من عبدى - عشيرتا.

فى ذلك الوقت بدأت جوبلا عاصمة ريب - حدا تعانى من الحصار الذى فرضه عبدى - عشيرتا عليها، فعلى مدى عامين كانت محاصيلها تغتصب، مما دفع المدينة إلى حافة المجاعة، كما زادت الهجمات التى تتعرض لها، ووصلت إلى ثلاث هجمات ضارية فى العام الأخير، واشتدت قسوة المجاعة، وكتب ريب - حدا إلى الفرعون، وقال له إن شعبه ومزارعيه بدأوا يبيعون أدواتهم المنزلية، بل حتى أطفالهم لإنقاذ أنفسهم من الموت جوعًا(23). وحان الوقت الذى يشن فيه عبدى - عشيرتا هجومه النهائى على عاصمة ريب - حدا، التى أصبحت على وشك الانهيار جوعًا.

وأرسل عبدى - عشيرتا رسالة إلى كل قواته، قال فيها: **«تجمعوا فى معبد نينورتا، ثم نهاجم جوبلا، لن ينقذها أحد منا»**(24) وكتب ريب - حدا إلى الفرعون: **«أنا خائف جدًا جدًا، لا يوجد من ينقذنى منهم، كما طائر محاصر، أصبحت أنا فى جوبلا، لماذا تهمل دولتك، كتبت رسالة مماثلة إلى كبار رجال القصر الملكى، إلا أنك لم تول كلامى أى انتباه».**

كان كبير رجال الفرعون (امان آبا) موجود فى ذلك الوقت بالقصر الملكى فى مصر، وكان خير من يعلم بحقيقة تطورات الموقف، لذلك أردف ريب - حدا فى رسالته قائلاً: **«إن لم تكن تصدقنى، سله، هو يعرف، وهو يدرك الموقف اليائس الذى وصلت إليه»**، وحتى داخل مدينته كان عرضة للخيانة وعدم الولاء، فقد تخلى عنه الرجال الذين عينهم الفرعون لمعاونته، وقال: **«كل الرجال الذين خصصتهم لى، فروا»**، وراح عبدى - عشيرتا يحرض شعب جوبلا على سيدهم: «اقتلوا سيدكم وانضموا إلى الحابيرو»، وقال ريب - حدا : **«بهذه الطريقة، يتحول شعبى إلى خونة»**(25)، ونجا من محاولة اغتيال تعرض لها: **«طعننى رجل بخنجر برونزى تسع طعنات، إلا أننى تمكنت من قتله»**(26). وكان عرضه لمحاولات أخرى لاغتياله. وبدا أن أيام ريب - حدا باتت معدودة.

لم يكن يرى أمامه إلا احتمالين: ذلك الحل الحاسم الذى أرسل فى طلبه من الفرعون: **«أرسل إلى بما يفيد أنك بعثت بحامية وفرسان، وإلا سأهجر المدينة وأصحب معى حلفائى المخلصين، أو أفعل كما فعل حاكما بيروت وصيدا وأتحالف مع عبدى - عشيرتا»**(27)، وكان من الواضح أن تلك كانت آخر محاولة لرجل ظل على ولائه لسيده الأعلى حتى آخر لحظة - فى الوقت الذى خضع فيه الآخرون للمعتدى - حتى تلاشت كل الآمال، لم يبق إلا اختيار أخير، فلو ظل الفرعن متقاعسًا عن إرسال قوات لإنقاذ ريب - حدا، فربما يمكنه على الأقل رشوة المعتدى لسحب قواته، فبعث إلى الفرعون فى رسالته بذلك الاختيار: **«لماذا لا تدفع له ألفًا من الفضة أو مائة من الذهب، حتى يرحل عنى؟»**(28).

ولما بدا الموقف أبعد عن أى علاج ووصل اليأس إلى مداه، قام الفرعون فجأة باتخاذ القرار الحاسم، فما الذى دفعه فجأة إلى ذلك؟ بكل تأكيد لم يكن تغير موقفه يرجع إلى تعاطفه مع المأزق الذى يعانى منه ريب - حدا، فقد ثبت أن كل تضرعاته السابقة طلبًا للمساعدة ذهبت أدراج الرياح.

الجانب الوحيد فى رسائل ريب – حدا الذى أصاب وترًا حساسًا هو التهديد الذى سيشكله عبدى – عشيرتا على الطرق الموصلة بين كل الولايات التابعة فى سوريا، بمجرد أن يحكم قبضته على كل ولايات الساحل من سومور فى الشمال حتى صور فى الجنوب، كان استيلاؤه على جوبلا سيغلق آخر فجوة باقية على الساحل. وقد فسر سنجر ذلك الأمر ذاكرًا: «لقد بلغ تعاظم شأن عبدى – عشيرتا، حتى وصل إلى مرحلة أصبح فيها كل ساحل فينيقيا تحت سيطرته المباشرة أو غير المباشرة، وتخطى بذلك كل قدر يمكن لحكمة مصر احتماله، دون أن تخاطر بنفوذها وهيمنتها على لاقطاع الشمالى من إمبراطوريتها الآسيوية»(29).

وفيما بعد، كان رب- حدا يشير فى رسائله إلى إخناتون إلى الإجراءات الحاسمة التى اتخذها أبوه أمونحوتيب الثالث ضد عبدى – عشيرتا:

«لقد بعثت رسولاً إلى أبيك. وحين جاء (أمان آبا) على رأس قوة صغيرة، كتبت إلى القصر بأن على الملك أن يرسل قوات أكبر. ألم يعتقل عبدى – عشيرتا وجرده من كل ما يملك، كما كنت أؤكد له من قبل؟»(30).

أدى اعتقال الحملة العسكرية المصرية لعبدى – عشيرتا إلى إنهاء كل الأعمال العسكرية العدوانية، ووصل بأنشطته إلى نهاية مفاجئة، وفى رسالة أخرى يحتمل أن كاتبها ريب – حدا إلى أخناتون، نجد إشارة تفيد موت عبدى – عشيرتا(31)، إلا أن التفسيرات الأخرى لتلك الحملة تذهب إلى أن المصير النهائى لعبدى – عشيرتا موضع كثير من التفسيرات والشكوك(32).

ويشير أحد الاحتمالات إلى أنه اغتيل على أيدى بعض المعارضين له، من أبناء موطنه أو من المنضمين له من الأجانب، ويشير احتمال غيره إلى أنه أعدم على أيدى القوات المصرية التى اعتقلته، إما مباشرة بعد اعتقاله، أو بعد الرجوع به إلى مصر، وكان موته سببًا فى إقامة احتفالات عظمى

فى جوبلا، واحتفالات أوسع انتشارًا فى المناطق التى أخضعها لنفوذه.

أبناء عبدى - عشيرتا

تبين أن المهلة التى أتيحت لريب - حدا وحكام الممالك الأخرى الصغيرة فى سوريا من تهديدات العموريين لم تكن إلا مهلة قصيرة العمر لم يهنأوا بها كثيرا، فبينما نجحت مصر فى إزاحة عبدى - عشيرتا والتخلص منه، إلا أنها لم يكن لديها نظام بديل لتحله محله، وكان ذلك يرجع إلى حد كبير لطبيعة الإقليم، كان الإقليم غابات شاسعة ومناطق جبلية ومساحات صغيرة من الأرض المنبسطة الصالحة للزراعة الرعوية، مما يهيئ تلك المناطق لأنماط الحياة الرعوية وشبه القبلية، وكانت الطبيعة القبلية غالبة على العموريين، وكان عبدى - عشيرتا بدوره زعيمًا محليًا قبلياً، نجح فى تجميع باقى القبائل تحت قيادته، مضافًا إليهم عصابات المنطقة وقاطعو طرقها. لم يشر إلى نفسه أبدًا، كما لم يوجه الخطاب إليه أبدا بصفته ملكًا. كانت «مملكته» تفتقد أية مقومات مملكة تابعة أو خاضعة، وكانت سلطته التى توصل إليها سلطة غير قانونية، ولم يكن ذلك يماثل بأى حال من الأحوال سلطة بلاط رسمى دائم مستقر ومعترف به، وكان من الواضح أيضًا أنه لم يكن له أبدًا عاصمة ثابتة مستديمة، بل كان يستخدم مدنًا مختلفة كمقار للقيادة حسب مكان تواجده، كانت سومور واحدة من تلك المدن، ويحتمل أنها كانت أهم مقر لديه.

كان الحثيثيون وملوك الشرق الأدنى الآخرين يدركون أنه من العسير فرض هيمنة وسيطرة دائمة على مثل تلك المناطق، التى ليس لها جيش نظامى يمكن إلحاق الهزيمة به فى ميدان المعارك النظامية، ولا نظام سياسى وإدارى ثابت ومستديم، من ذلك النوع الموجود فى الممالك الصغيرة الأخرى الخاضعة لنفوذ القوى الكبرى، وربما يفسر ذلك تأخر الفرعون لوقت طويل قبل اتخاذ قرار التصدى لعبدى - عشيرتا، بعد الاعتداءات الصارخة التى شنها على الممالك التابعة للهيمنة المصرية.

والأقرب إلى الاحتمال أن الخلاص منه تم بعمليات سرية من المصريين أو عملائهم، أكثر من كونه عن طريق جيش عسكرى نظامى.

إلا أن الخلاص منه لم يحل مشكلة العموريين، فسرعان ما شغل أبناءه الفراغ الذى خلفه موت أبيهم، وفيما بينهم معًا، استمروا فى ممارسة هيمنتهم على كل منطقة العموريين، كانت تلك المنطقة قد أصبح فيها سلالة قبلية حاكمة من أبناء عبدى - عشيرتا، ولم يكن ذلك ليبعث أى نوع من الراحة فى نفوس الممالك المجاورة، كما أدى إلى موقف أصعب على الفرعون فى كيفية معالجة ذلك، وأكد له ذلك بداية تدفق جديد، للشكاوى من ريب - حدا حاكم جوبلا، كل الممالك التى تم تحريرها من سطوة قوات عبدى - عشيرتا أصبحت فى خطر من جديد، ولكن هذه المرة على أيدى أبناء عبدى - عشيرتا.

كانت سلسلة رسائل الشكاوى الجديدة موجهة إلى أخناتون الذى اعتلى عرش مصر، خلفًا لأبيه آمونحتيب الثالث، وذكر له ريب - حدا فى رسالة:

«إن عداوة أبناء عبدى - عشيرتا لى عداوة شديدة، لقد احتلوا كل بلاد عمورو وأصبحت المنطقة كلها تحت سيطرتهم»(34).

وراحت المدن التى تحررت من قبضة عبدى - عشيرتا تسقط واحدة بعد أخرى من جديد فى أيدى أبنائه، فسقطت مدن أولاسا، وأرداتا، وواهليا، وآمبى، وشيجاتا، وأرقاد(35)، واستخدم الأبناء تكتيكات أبيهم ذاتها، لتحقيق ذلك، وهى تحريض الزعماء المحليين على الانضمام إليهم، فإن رفضوا، يحرضون رعيتهم على اغتيالهم والاستيلاء على الحصون المحلية وفتح أبوابها لقوات العموريين.

وصمدت مدينة سومور ومدينة إرقاطة الواقعة جنوبها، كانت سومور قد وضعت من جديد تحت إمرة مندوب الفرعون بعد موت عبدى - عشيرتا، وخصصت قوات لحمايتها، ولكن مع السقوط المتتالى للمدن المجاورة فى أيدى أبناء عبدى - عشيرتا أو انضمام بعضها طواعية

إليهم، أصبحت سومور معرضة لخطر شديد مرة أخرى. وكتب الفرعون بتعليماته إلى ريب – حدا يأمره بمعاونة مدينة سومور على التصدى للعموريين، وأن يظل هناك حتى وصول التعزيزات العسكرية المصرية(36).

ويبدو أن ريب – حدا كان بالفعل قد توجه إلى سومور، ولكن يحتمل أن ذلك قد حدث قبل أن تصل المدينة إلى ذلك الوضع اليائس، ولذلك رد متضرعًا للفرعون أنه ليس بإمكانه تنفيذ أمر الفرعون، وقدم أسبابًا عديدة لعدم قدرته تنفيذ ذلك، كان أهم الأسباب وأولها: أن عاصمته ذاتها أصبحت معرضة لعدوان عمورى فى أى لحظة، وقال: «العداوة لى أصبحت شديدة جداً، ولم يعد باستطاعتى الذهاب»(37)، وفشل فى الحصول على دعم حاكمى صيدا (الملك زيمردا) وبيروت (الملك يابحا – حدا) لزيارته السريعة لسومور، ولم يكن ذلك غريبًا، فقد كانوا قد رفضوا قبل ذلك نداءً مباشرًا من المفوض المصرى فى سومور. كان أيضًا منزعجًا من فكرة أنه حتى لو تمكن من دخول مدينة سومور فإنه سيظل حبيسًا بها، ولن يستطيع مغادرتها بسبب محاصرة قوات الأعداء لها، وسيتيح ذلك إن حدث الفرصة لرعيته هو للتخلى عنه والتحالف مع الحابيرو(38).

كان نقص الطعام يضاعف من سوء الموقف داخل مدينته جوبلا، كانت عصابات الحابيرو قد استعادت نشاطها فى شن الغارات على الحقول المحيطة بجوبلا، كما فشلت محاولات جلب الطعام للمدينة عن طريق البحر بسبب إغلاق جزيرة ارفادا الطريق البحرى أمام المراكب البحرية(39)، (وللسبب ذاته عجز ريب – حدا عن إرسال مراكبه البحرية إلى سومور أو العودة منها). كانت جزيرة ارفادا تقع على مسافة تقترب من ثلاثة كيلو مترات من الساحل إلى الشمال من سومور، وكانت قد تحالفت مع الأعداء، وزاد من حدة أزمة الغذاء فى جوبلا التضخم المفاجئ فى إعداد المقيمين بها، بعد لجوء كل المصريين الفارين من أولاسا قبل سقوطها مباشرة إلى مدينة جوبلا بصفتها ملاذًا آمنًا، وذكر ريب – حدا ذلك السبب أيضًا فى رسالته إلى أخناتون:

«المصريون الذين فروا من أولاسا أتوا إلى عندى، ولكن لا يوجد حبوب تكفى لغذائهم»(40).

ويحتمل جداً أن جوبلا اعتبرت أيضا ملاذًا آمنًا للفارين من المدن الأخرى ،كان لعنصر توقع المجاعة أثره كحافز قوى لسكان جوبلا والفارين من المدن الأخرى ودفعهم للانضمام للحابيرو.

راح وضع سومور يزداد سوءًا بعد أن أصبحت محاصرة برًا وبحرًا، وتناسى ريب – حدا مشاكله الخاصة به، وراح يحث الفرعون على إرسال قوات تفك الحصار عن سومور بأسرع وقت، وقال: **«سومور مثل طائر فى شرك. أنها تتعرض للهجوم نهارًا وليلاً من أبناء عبدى – عشيرتا من البر، ومن أبناء ارقادا من البحر»**(41)، كما أخبره أن المندوب المصرى طلب من حاكمى بيروت وصيدا دعم سومور، إلا أنهما لم يستجيبا: «وبالرغم من أن النهاية بدأت تلوح أمام الأنظار، قامت أغلب حامية سومور بالفرار منها خوفًا من المصير المنتظر، ولم يبق إلا قوة ضئيلة العدد من المخلصين، ولم يكن فى مقدورهم عمل أى شيء. ومرة أخرى يناشد ريب – حدا الفرعون: **«هل يهتم الملك، سيدى، بكلمات خادمه المخلص، أرسل قوات إضافية على جناح السرعة إلى سومور، لحمايتها حتى وصول رماة الملك»**(43). كانت حياة المندوب الفرعونى ذاته المقيم فى سومور فى خطر داهم، لذلك أضاف ريب – حدا فى رسالته: **«إن لم تفعل شيئًا لمواجهة ذلك الموقف، سيستولون على سومور، ويقتلون المندوب وقوة التعزيز المصرية الموجودة بالمدينة»**(44).

ويبدو أن تلك المناشدة أيضًا لم تلق اهتمامًا، كانت كل المناطق المحيطة بسومور قد سقطت، ولم يبق إلا المدينة ذاتها، فقال عن ذلك: **«احتلت كل ولاية سومور حتى أبواب المدينة»**(45)، كما حملت رسالته أنباء سيئة أخرى، كان المندوب الفرعونى الذى صمد طويلاً على أمل أن يرسل الحكام المحليين من بيروت وصيدا دعمهما، أو أن تصل قوة مصرية عاجلة لفك الحصار، أولاً، قد لقى حتفه، ومن المرجح جداً أنه اغتيل على

أيدى أحد مواطنيه المصريين، وأزاح موته آخرالعوائق أمام استسلام المدينة، فسرعان ما خضعت أو ما تبقى منها فى قبضة المحاصرين لها.

أنشطة عزيرو

برز من بين أبناء عبدى عشيرتا أثناء حصار مدينة سومور حتى الاستيلاء عليها ابنه عزيرو، كان هو مخطط حملة سومور الناجحة، لذلك برز بصفته العدو الرئيسى فى رسائل ريب - حدا. كان قد اكتسب مكانة أعلى من بين إخوته، دون أن يكون رئيساً عليهم أو أن يترتب على ذلك خضوعهم له. ومن ذلك الوقت ارتبط مصير بلاد عمورو بمصير عزيرو، كانت سياساته ومشروعاته وطموحاته العسكرية لا تختلف عن تلك التى كانت لأبيه، أى حملات عسكرية على جيرانه لزيادة سيطرته وتوسيع رقعة نفوذه، فى الوقت الذى يظهر نفسه للفرعون فى صورة المخلص للملك ومندوبه وحامى المصالح المصرية فى منطقته، ولكنه كان أكثر من أبيه حرصاً على الحصول على اعتراف رسمى به كملك محلى مثل باقى ملوك الولايات المحلية. ولم يكن يرى أى تناقض فى انتهاج سياسة الاتجاهين المتعارضين. فقد رأى أن بإمكانه الحصول على اعتراف الفرعون به إذا طلب ذلك وهو فى مركز قوة، كان من الممكن أن يرفض الفرعون التعامل فى أى مصالح مع ممثل أسرة لها مثل ذلك السجل الحافل بالخيانة والاعتداء على رعايا مصر ، إلا إذا تمكن من إغرائه أن ذلك سيكون فى صالحه وصالح مصر إلى أبعد مدى.

ويحتمل أن عروض ودعوات عزيرو للفرعون وكبار موظفيه، للتواجد فى سوريا أو زيارتها، كانت تعرض فى الوقت الذى كان يعد فيه مخططاته لحملته العسكرية على سومور، على أمل أن تنجز الوسائل الدبلوماسية ما تعجز الوسائل العسكرية العنيفة عن إنجازه فى السيطرة على سومور بلا حرب. كان تعامله الأول مع سلطات المدينة قد اندرج فى إطار دبلوماسى، كما ذكر للفرعون فى رسالة بعث بها إليه وقال فيها:

«من مبدأ الأمر، يا سيدى، سعيت إلى تكريس نفسى لخدمة الملك، سيدى، إلا أن كبار مسئولى سومور لم يستجيبوا لى. إلا أننى أبرأ من اقتراف أى ذنب ضد الملك، سيدى، ويعلم الملك، سيدى، من هم المعتدون الحقيقيون. وسوف ألتزم بكل صدق مع كل ما يطلبه سيدى الملك منى»(46).

وكبرهان ودليل على صدق مزاعمه وعميق إخلاصه، جعل اثنين من أبنائه يذهبون إلى بلاط الفرعون بصحبة حامل الرسالة(47). ويحتمل أنه لم يلجأ إلى القوة إلا بعد فشل مبادرته الدبلوماسية، بالرغم من أنه لم يتوان عن التأكيد للفرعون أن هجومه على سومور يجب ألا ينظر إليه على أنه عمل من أعمال العدوان ضد سيده الأعلى(48).

ومن جهة أخرى، لم يندهش عزيرو من العداوة التى قوبل بها من كبار المسئولين المصريين المقيمين فى بلاد سوريا، فمن خلال رسائل عديدة نتبين إحباطه وخيبة أمله فيهم فى سوريا فى نيل اعترافهم به، قال فى واحدة من تلك الرسائل:

«أريد أن أوظف لخدمة الملك، الإله، الشمس، سيدى، إلا أن إيانحامو لم يسمح لى بذلك»(49).

ومن تلك الرسالة، وغيرها يتضح أنه بذل مساعى كثيرة فى مناسبات عديدة لتأسيس مصداقية لدى الملك، باتباع التدرج المنطقى بنيل ثقة كبار مسئوليه فى سوريا أولاً، وهكذا، كتب فى البداية إلى المسئول المصرى توتو بأكثر العبارات تملقًا ومداهنة: **«أنت أبى وسيدى، وأنا ابنك، وبلاد عمورو هى بلادك، وبيتى هو بيتك، اكتب إلىّ بما ترغب وتشتهى، وسأنفذ رغباتك بكل إخلاص»**(50).

وعلى الأقل، كانت استجابة توتو فى البداية مماثلة لاستجابة إيانحامو(51). لم تكن الوسيلة الدبلوماسية سهلة ولا ممهدة بأى حال.

غير أنه فى محاولاته كسب اعترافًا رسميًا مصريًا به، وجد أن الظروف الدولية السائدة تهيئ له أوراقًا رابحة للمساومة بها، لم يكن

هناك شك فى أن الميتانيين قد انهاروا انهياراً كليًا، لا قائمة لهم بعده كقوة كبرى وإمبراطورية مستقلة، وأنها مسألة وقت ليس إلا، ليصبح سبيللوليوما ملك الحثيين، القوة المهيمنة على شمال سوريا بلا منازع، وبمجرد أن ينتهى من ذلك، لن يوجد من يستطيع إيقاف تقدمه إلى الجنوب باتجاه مناطق النفوذ المصرى بسوريا، إذا عن له ذلك، إلا إذا كان هناك ملك تابع مخلص للتاج المصرى، ولتنبيه الفرعون إلى التهديد الحثينى القادم، لم يترك عزيرو مجالاً للشك فى دوافعه الشخصية: **«إذا قام الملك الحثينى بأى عمل عدوانى ضدى، هل يتفضل الملك، سيدى، بإرسال... قوات وعجلات حربية لمساندتى، وسأقوم بالدفاع عن أرض الملك، سيدى»**(52).

لم يكن عزيرو يسعى فقط للحصول على اعتراف رسمى مصرى به كملك تابع، بل قام بالفعل بممارسة كل ما يطلب من ملك تابع بالفعل: «كل ما يقوم به الملوك والحكام الخاضعين للملك، سأقوم أنا أيضا بأدائه للملك، سيدى، وإلهى وشمسى للأبد»(53)». لذلك لم يتوان عن طلب إرسال دعم مصرى عسكرى، وفى الحقيقة، كانت الاستجابة بإرسال دعم عسكرى مصرى له يحقق دعمًا قويًا لتطلعاته، فأولاً: كان الدعم العسكرى المصرى له يعد دليلاً عمليًا ملموسًا على تبنى الفرعون لوضعه، ثانيًا: ستؤدى القوات العسكرية المصرية إلى تقليل اعتماد عزيرو على عصابات الحابيرو غير المنظمة وغير المنضبطة، والتى لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تقدم عليه، والتى تشكل الكتلة الرئيسية فى قواته.

كان أبوه عبدى - عشيرتا قد سعى إلى بناء قوة عسكرية داخل الأراضى السورية الخاضعة لنفوذ الفرعون بتوحيد الجماعات شبه القبلية تحت قيادته واستخدامهم فى غزو أراضى الممالك الصغرى المجاورة. وزاد عليه عزيرو بسعيه إلى إضفاء شرعية على تلك القوة، والفوز بمباركة الملك الأعظم لنظام حكمه، فى الوقت الذى يطلق فيها العنان لغريزة النهب والغنم والغزو التى غرست فيه وراثة عن أسلافه، كان التحدى الذى

يواجهه هو الحصول على الشرعية، فى الوقت الذى يظل فيه ممارسًا لغريزة النهب والغنم.

ولا بد أن الفرعون كان يعى كل الوعى أبعاد اللعبة التى يلعبها عزيرو، وأنه فى الوقت الذى يظهر فيه الاخلاص كان يقوم بأعمال العدوان على الممالك الخاضعة للنفوذ المصرى بكل صفاقة، وأكدت التقارير التى لم تنقطع من كبار المسئولين المصريين فى سوريا، إذا نحينا جانبًا تيار الشكاوى الذى لم يتوقف من ريب - حدا ونظرائه من الملوك التابعين أن مشكلة العموريين كما كان يتصورها تمامًا. ولكن، إذا كان إضفاء الفرعون على عزيرو صفة ملك تابع التى يطلبها بإلحاح، من الممكن أن تضمن أنه سيعمل بعدها على الحفاظ فقط على مصالح سيده الأعلى والتفانى فى خدمته، فإنه يصبح بلا أى شك أكفأ عميل للمصالح المصرية فى المنطقة أكثر من كثير غيره من الملوك التابعين. فضلاً عن ذلك، لم يكن هناك أى اختيار آخر قائم بشكل عملى.

كان عزيرو شخصية بارزة من بين زعماء القبائل فى تلك المنطقة، وموضع تبجيل كل سكانها من عامة الناس، وأثبت جدارة واستحقاقًا فى ميادين القتال، وكان سياسيًا أريبًا، ولو وثق به الفرعون فمن الممكن أن يصبح الدرع الواقى ضد تهديدات الحثيين لمناطق النفوذ المصرى فى سوريا، ولكن، إلى أى مدى كان يمكن الوثوق به؟

كانت التقارير التى ترد إلى الفرعون من مندوبيه فى سوريا تتحدث عنه بطريقة سلبية، وفى أفضل الأحوال كانت متضاربة.

ومن الواضح أن الفرعون كان مجبرًا على اتخاذ قرار لحسم الأمر، ولم يكن أمامه إلا عقد مقابلة شخصية، والمحتمل جدًا أنها كانت المناسبة التى قام فيها عزيرو بزيارته الشهيرة إلى مصر - وكانت بكل تأكيد بناء على رغبة الفرعون(54)، وقياسًا على الوقت الذى يستغرقه الطريق فى الذهاب والعودة، بالإضافة إلى الوقت الذى مكثه عزيرو بمصر نستنتج أنه قضى عددًا من الشهور بعيدًا عن بلاده، ويحتمل عامًا أو أزيد، خلال تلك

الفترة، قام شقيقه بعلويا وابنه بيتى - إليو بإدارة شئون الحكم فى مملكة الأمر الواقع التى خلقوها. أما الفرعون، فطالما كان عزيرو متواجداً فى البلاط الملكى فى مصر، لم يشعر بأى تعجل للتوصل إلى اتفاق مع الجانح الذى عين نفسه ملكًا تابعًا بقوة فرض الأمر الواقع.

لم تمض الإقامة المطولة التى قضاها عزيرو بمصر بلا فائدة لعزيرو، لأنه لم يدع أى فرصة تمر دون أن يحصل فيها على معلومات مفيدة، خاصة المعلومات التى لم يكن من المتيسر أن يحصل عليها من المصادر الرسمية. كانت الإصلاحات الدينية الجذرية التى قادها أخناتون قد ذاع صيتها فى أنحاء الشرق الأدنى القديم، وكان بإمكان المرء أن يعرف الكثير بوجوده فى موقع الحدث، خاصة ما قد يترتب على تلك الإصلاحات الدينية على السياسة المصرية الخارجية، وكذلك مدى الرغبة والجاهزية المصرية فى إرسال حملات عسكرية جديدة على سوريا، ورحب عزيرو بفرصة زيارته لمصر لكى يحصل على الاعتراف الرسمى الذى تاق إليه - ومن الفرعون نفسه - بوضعه كحاكم شرعى معترف به على مناطق خاضعة لنفوذ مصر. إلا أنه احتفظ سراً باختيارات مفتوحة، مستفيداً بالوقت الذى قضاه فى مصر مختبراً نوع الاستجابة الذى يمكن أن يلقاه ويجعله يلغى اختياره المصرى. وبالفعل، إذا كان يمكن أن نصدق ما ورد فى رسالة إلى الفرعون من ايليرابح شقيق ريب - حدا وخليفته على مدينة جوبلا، كان عزيرو بالفعل يتآمر سراً أثناء إقامته بمصر مع ايتاكاما حاكم قادش، التى كانت قد أصبحت منطقة نفوذ حثينية من وقت قريب(55).

أما من وجهة النظر المصرية، كانت زيارة عزيرو لبلاط الفرعون بمثابة فرصة ملائمة لتقييم مدى ملائمة عزيرو لأن يصبح ملكًا تابعًا، خاصة على ضوء سجل سلوكه السابق وخلفيته العائلية.

وفى عالم لا يعرف معنى لحصانة دبلوماسية، كان بإمكان الفرعون أن ينهى المشاكل التى يثيرها عزيرو بحجزه فى مصر إلى المدى الذى يريده، وكما لاحظنا، فإن تلك العقوبة كانت تطبق على المبعوثين الأجانب، ليظهر

بها الملك عدم رضائه عن ملوكهم الذين أرسلوهم. كما لم تكن هناك أى غضاضة فى أن يحبس لديه أى ملك من الملوك الخاضعين للهيمنة المصرية، وبالفعل، كان أخناتون يميل إلى تلك الفكرة، ولذلك ظهرت شائعات مفادها أن الفرعون لن يسمح لعزيرو بمغادرة مصر. إلا أنه كان من الصعب تبين كيف يمكن أن يكون لنفى عزيرو الإجبارى بمصر أى تداعيات نحو الأفضل فى أرض عمورو، حيث لا يبدو أى اختيار آخر ملائم لتزعمه للمنطقة.

أما فى بلاد عمورو، فقد زاد انزعاج عائلة عزيرو؛ بسبب غيابه الطويل بمصر، وكتب ابنه - ويحتمل أنه كان دوبى - تيشوب - رسالة إلى أحد كبار المسئولين المصريين ويدعى توتو، مخبرًا إياه عن الشائعات التى تذكر أن عزيرو لن يسمح له أبدًا بالعودة إلى بلاده، بالإضافة إلى شائعة أنه باع أباه إلى مصر مقابل ذهب(56)، وخلقت الشائعات قلاقل واضطرابات خطيرة فى منطقة عمورو، كان من الممكن أن تغرى أعداء مصر بغزوها وخاصة ملوك نوحاس، وطلب دوبى - تيشوب فى نهاية رسالته أن يسمح لأبيه بالعودة فورًا إلى موطنه.

ومع الرسالة السابقة، كانت هناك رسالة أخرى مرسلة إلى عزيرو ذاته(57)، من أقاربه المباشرين بعلويا وبيتى - إليو، وتحتوى على أخبار مقلقة، تفيد أن القوات الحثينية تحت قيادة قائد الجيش لوباكو قد احتلوا مدنًا فى أرض أمكا(58)، كما ورد تقرير آخر يفيد أن القائد الحثينى زيتانا قد وصل إلى منطقة نوحاس على رأس قوة قوامها 90000 من المشاة، وكان الخبر الأخير بحاجة إلى مزيد من التيقن، كما أفادت الرسالة بأن بيتى إليو كان سيتوجه إلى القائد الحثينى للتأكد من صحة تلك المعلومات، ولو صحت تلك المعلومة فلا يوجد شك أن الإعداد كان يتم لاجتياح وغزو كل مناطق النفوذ المصرى الواقعة غرب نهر العاصى.

كان المقصود بتلك الرسالة فرعون مصر بنفس القدر مع عزيرو(59)، وكان التقرير المرفق شديد المبالغة، فرقم 90000 جندى - وهو ضعف عدد

الجنود الحثينيين الذين واجهو الجيش المصرى فى موقعة قادش - لا يمكن قبوله ولا تخيله، إلا أن أشقاء عزيرو أقروا أن ما سمعوا به مازال بحاجة إلى تأكيد وتيقن. وربما كانت هناك تحركات عسكرية حثينية بالفعل فى منطقة نوحاس، وقد كانت خاضعة للنفوذ الحثينى فى ذلك الوقت، كما يفترض أنه كانت هناك بعض العمليات العسكرية الحثينية فى منطقة أمكا، التى لم تكن خاضعة للنفوذ الحثينى(60)، إلا أن التقرير غير المؤكد بتلك الإشاعة عن توقع غزو حثينى واسع النطاق، كان يهدف إلى تحقيق هدف آخر. وبالفعل، من المحتمل جداً أن يكون عزيرو، قبل مغادرته بلاده إلى مصر، قد رتب مع إخوته اللجوء إلى تلك الحيلة فى حالة غيابه فى مصر لزمن يبدو بلا مبرر واضح.

ومهما كانت حقيقة الأمر، كانت رسالة إخوا عزيرو دافعًا قويًا لسرعة اتخاذ قرار من الفرعون، ليضفى على عزيرو الصفة الرسمية التى ينشدها(61)، وأن يأذن له بالعودة إلى بلاده، ويحتمل أن تلك كانت المناسبة التى فرض فيها أخناتون عدداً من الشروط على العمورى، والتى راح يذكره بها بعد ذلك، كان أحد الشروط يجبر عزيرو للخضوع إلى تفتيش منتظم من السفير المصرى المتجول حانى، والذى سيرسل بدوره تقاريره إلى الفرعون ليخبره إن كان عزيرو ملتزمًا أم غير ملتزم بشروط الاتفاق فى خدمة مصر بإخلاص وتفانٍ، كان من الواضع أن حانى أصبحت تربطه علاقة ودية طيبة بعزيرو فى الفترة التى قضاها بمصر. فكما أعلن عزيرو بنفسه بعد ذلك، عامله رجل الدولة المتميز حانى بكرم ضيافة فائق، ورعاه **«رعاية الأم والأب»**(62). وعلى ذلك فإذا أرسل حانى تقريراً ينتقد فيه عزيرو، لن يكون بمقدور عزيرو التعلل بأن كاتب التقرير من أعدائه، وهو الإدعاء الذى دأب عزيرو على اتهام المسئولين المصريين به، وسواء كان لدى عزيرو نية حقيقية فى الحفاظ على ولائه لمصر والفرعون - وما علمه عن خبايا النظام المصرى أثناء وجوده بمصر كان له دوراً فى اتخاذ قرار فى هذا الشأن - فإنه لم يدع مجالاً للشك بعد

عودته إلى بلاده أن سياساته وأفعاله ستحددها فقط طموحاته ومصالحه، لا الاتفاقات التى عقدها مع سيده فى مصر، لقد أصبحت المسألة أوضح بالنسبة إليه وهى أن الملك الحثينى لديه عروض أفضل، إذا تحالف معه على مستوى أمانه الشخصى ومستوى تحقيق طموحاته أكثر من انضوائه تحت هيمنة الفرعون المصرى، وظل لفترة يظهر ولاءه للفرعون، إلا أنه فى ذات الوقت بدأ فى بناء تحالفات مع ممالك صغرى خاضعة للنفوذ الحثينى، وعلى وجه الخصوص مع اتياكاما ملك قادش ونيكمادو ملك أوجاريت، بالإضافة إلى بدء الحوار مع الملك الحثينى ذاته، كان قد أصبح من الواضح أيضا أنه لن يفى بالشروط التى فرضها عليه سيده، وراح قلق الفرعون يتزايد، وكتب إليه طالبًا منه تفسير فشله فى تحقيق وعوده له.

ولدينا رسالتان يدلان على انزعاج الفرعون(63)، كان عزيرو قد وعد بإعادة بناء مدينة سومور، والتى كانت على حالة سيئة بعد حصاره لها، واقتحامها فى بداية تزعمه للحابيرو بعد موت أبيه، وبافتراض أن سومور كانت أقوى مدينة حصينة خاضعة لمصر فى الشمال، فقد كان من المحتم إعادة بناؤها وتقوية أسوارها وحصونها، فلماذا لم يفِ عزيرو بوعوده التى قطعها على نفسه للفرعون؟ كان لدى عزيرو عذر جاهز، فقد وضع الذنب فى أعناق المسئولين المصريين، وأكد للفرعون أنه سيعيد بناءها فى أسرع فرصة:

«تحدث الملك، سيدى، عن إعادة بناء سومور، كان ملك نوحاس يشن حربًا ضدى، واستولى على مدنى بناء على تحريض من حاتيب (مسئول مصرى) لذلك لم أعد بناء سومور، والآن، وبكل سرعة ممكنة سوف أعيد بناءها»(64).

ولا يوجد أى دليل على أن عزيرو وفَّى بذلك الالتزام أبداً.

كما قام بتجاهل السفير المصرى حانى، عندما زار عمورو بعد ذلك، كانت الزيارات الدورية التفتيشية التى يقوم بها السفير المصرى حانى،

لتفقد أوضاع وأحوال مملكة عزيرو تتضمن لقاء مباشراً بين حانى وعزيرو، لتقييم مدى التزامه بأداء مهامه، إلا أن حانى لم يجد عزيرو فى استقباله عندما وصل إلى عمورو، وبدلاً من ذلك ترك أفراداً آخرين من الأسرة يجتمعون بحانى، وكان ذلك بكل تأكيد خرقًا مباشراً لبنود الاتفاق الذى التزم به أمام أخناتون، فبالإضافة إلى أن ذلك كان إهانة للسفير والمفوض الملكى حانى، كان إهانة أيضًا للملك الذى يمثله ذلك السفير. واتهم أخناتون عزيرو **«بالتهرب»** من مقابلة السفير. إلا أن عزيرو كان لديه العذر الذى أعده، ورد قائلاً:

«سيدى، كنت مقيمًا فى تونيب (فى الوقت الذى وصل فيه حانى إلى بلادى) ولم أكن أعلم بوصوله، وفى اللحظة التى علمت فيها، جئت لألحق به، ولكنى عدت بعد رحيله»(65).

كان عذراً واضح الاختلاق، وكان الفرعون على يقين من ذلك، ولم يرض عن ادعاءات عزيرو بتأكيده أن حانى لقى من عائلته عناية فائقة أثناء غيابه فى تونيب، وأنهم أمدوا حانى بالخيول والبغال اللازمة لعودته إلى مصر. وتشير كل الاحتمالات إلى أن عزيرو تجنب عامداً الالتقاء بالسفير المصرى، فقد أقدم بعد عودته إلى عمورو على كثير من الأفعال التى يصعب تبريرها.

كان احتلاله لتونيب فى حد ذاته يحتاج إلى تفسير. فكما علمنا (من الفصل 8)، ظلت تونيب دون قيادة بعد موت ملكها أكى - تيشوب، وظلت نداءات أهالى تونيب ورسائلهم المتواصلة لفرعون مصر، ليسمح بعودة ابن اكى - تيشوب من مصر ليحل محل أبيه على عرشه، بلا أدنى استجابة من البلاط المصرى، وذكرت إحدى الرسائل الواردة من تونيب إلى العاصمة المصرية:

«داومنا على الكتابة إلى الملك، سيدنا، ملك مصر، على مدى عشرين عامًا، ولم يرد علينا سيدنا بكلمة واحدة حتى الآن»(66).

كان ابن اكى - تيشوب محتجزاً فى مصر، منذ أن كان أبوه على

عرش تونيب. كانت تونيب تقع على الحافة الشمالية الشرقية لإقليم عمورو، على الضفة الغربية لنهر العاصى. وأغرى عزيرو خلو عرشها ولا مبالاة الفرعون الواضحة بمصير تونيب إغراءً لم يستطع دفعه ولا مقاومته، وكان ذلك بالضبط ما يخشاه أهل تونيب، فبعد اقتطاع ما تبقى من إقليم نيا (بمجرد أن ضم سبيللوليوما الحثينى أغلب مساحة نيا إلى أوجاريت)، قام عزيرو بالفعل باحتلال المدينة، وبالتالى راح يستخدمها كأحد مقاره.

وأتاحت له تونيب قاعدة قريبة من الأقاليم الخاضعة للملك الحثينى، بل قريبة من الملك الحثينى ذاته الذى كان فى ذلك الوقت فى إقليم نوحاس، الواقعة شمال تونيب على مسيرة يومين(67)، وأقر عزيرو للفرعون بلا مواربة بالاتصالات التى يجريها بالملك الحثينى سبيللوليوما، كانت العلاقات المصرية الحثينية فى حالة استقرار، وأعلن الملك الحثينى عن عدم وجود أى نوايا لديه بالاعتداء على الأقاليم الخاضعة لمصر بجنوب سوريا. وحتى على ضوء ذلك، فمن المدهش أن أخناتون قد قبل قيام ملك تابع له بإجراء اتصالات مباشرة مع مملكة أجنبية، بالرغم من أى ادعاءات من عزيرو أنه كان يسعى من خلال المحادثات الودية مع ملك أجنبى لحماية إقليم – وبالتالى حماية مصالح – سيده الأعلى من أى تدخل أجنبى، أو أنه كان يقوم بدور الوسيط بين الفرعون وأخيه الملك الحثينى، فقد كانت تلك المهام من اختصاص المبعوثين الملكيين.

لقد افترضنا أن عزيرو احتفظ باختيارات مفتوحة منذ أن أمسك بزمام إقليم عمورو، ليختار الجهة التى يكرس لها ولاؤه. وفى الواقع لم يكن أمامه إلا اختياران لا ثالث لهما: إما أن يخضع لفرعون مصر أو للملك الحثينى، لم يكن هناك أى احتمال أن يكون زعيم مملكة مستقلة عن القوتين الكبيرتين، بالرغم من اتهام (ريب – حدا) له أنه يسعى لتحقيق ذلك.

وربما كان يشعر أثناء وجوده بمصر يومًا بعد يوم بميل أشد إلى الانضواء تحت جناح الحثينيين. إلا أنه لم يكن أمامه حتى تحين تلك

اللحظة التى ينتقل فيها من الانضواء تحت جناح ملك كبير إلى ملك كبير آخر، إلا أن يظل على ولائه المعلن لمصر.

وباستثناء بضعة اعتبارات أخرى، لم يكن بإمكانه التيقن تمامًا إن كان الملك الحثينى الكبير سيقبل به إذا تمرد على الحكم المصرى، لو كانت لديه رغبة حقيقية فى الحفاظ على العلاقات الطيبة التى تربطه بمصر فى ذلك الوقت، كما لم يكن على يقين أيضًا إن قبله سبيللوليوما هل سيحتفظ له بوضعه كملك تابع أم لا.. على الأقل كان قد ضمن ذلك من الفرعون .

كان بحاجة إلى إجراء مباحثات دقيقة ومفاوضات مفصلة مع الحثينيين، ومن الأفضل أن تكون من القاعدة التى استولى عليها بالقرب من حدودهم، وكان لاستيلائه على تونيب ميزة تحقق له ذلك - تحت تمويهه المعلن أن اتصالاته بالملك الحثينى إنما هى لصالح سيده الأعلى ملك مصر. وفى الوقت الذى استغرقته تلك المفاوضات كان عزيرو يحسن ويقوى موقفه على الأرض، بتوسيع دائرة نفوذه فى المنطقة بالتنسيق مع ايتاكاما ملك قادش على حساب ولاية نايا، ومدنها نايا وقطنا وتونيب، وكذلك مدن ولاية أمكا، وكما يذكر الباحث سنجر، كان يرسل فى الوقت ذاته برسائل استرضاء إلى البلاط المصرى.

كان عدوه اللدود وضحيته فى الوقت ذاته ريب - حدا ملك جوبلا الذى يصل بنا إلى الأزمة النهائية وفصل الختام فى علاقة عزيرو بمصر، إذ تذكر رسالة من ريب - حدا إلى أخناتون:

«احتل عزيرو كل مدنى. لم يعد تحت سيطرتى إلا جوبلا لا تنس خادمك المخلص. إذا قدم بقواته إلى جوبلا سيستولون عليها، وبالفعل حرض عزيزو كل المدن حتى يستولى عليها فأين أنا من كل ذلك»(68)؟

كان (ريب - حدا) قد توسل كثيرًا عبر كثير من الرسائل إلى أخناتون، ليدعمه ضد عدوان خصمه وجاره القاسى، وكتب فى واحدة من تلك المناسبات إلى الفرعون قائلا: «إذا كان الملك، مولاى، يود المحافظة على جوبلا، فليرسل مولاى 300 جندى، و30 عجلة حربية، و100 رجل من

كاشى (النوبة / كوش) لحماية جوبلا، مدينة مولاى»(69).

من كثرة وغزارة اعتراضات ريب - حدا وتوسلاته، بدأ أخناتون مثله مثل أبيه آمونحتيب الثالث يشعر بالانزعاج، وكتب أخناتون رسالة إلى أحد كبار موظفيه خارج مصر: «لماذا يداوم (ريب - حد) على إرسال ألواح الرسائل بهذا القدر إلى القصر؟» كان أخناتون يوجه ذلك التساؤل فى الوقت الذى كانت فيه رسائل جديدة ترد إلى القصر من ملكه السورى العاجز عن التصرف(70). وأرسل إليه رسالة مباشرة قال فيها: **«أنت تكتب إلى أكثر من كل باقى حكام الأقاليم مجتمعين»**(71).

وما يمكن ذكره فى صالح (ريب - حدا) بالرغم من تهديداته بالتخلى عن المدينة أو الانضمام إلى عبدى - عشيرتا، أو عزيرو، كما فعل كثير من جيرانه ملوك الولايات، إلا أنه ظل على ولائه للتاج المصرى حتى آخر لحظة فى حياته، وكان ذلك فى حد ذاته إظهارًا مشهودًا لشجاعة نادرة أمام عقبات لا يمكن تخطيها. وليس من العدل أن يتهم بأنه كان ضعيفًا أو متخاذلاً فى مواجهة تلك العقبات، فقد كانت عائلته ذاتها تحرضه وتدفعه أن يساير عزيرو ويهادنه، وذكر ذلك فى إحدى رسائله للفرعون:

«شعب جوبلا، وأهل بيتى، وزوجتى، يكررون على الدوام: «انضم إلى ابن عبدى عشيرتا ودعنا نعش فى سلام»، إلا أننى رفضت، ولم أعرهم انتباهًا»(72).

وأخيرًا، حين بدا أن وضعه ميؤسا منه تمامًا، بذل آخر محاولة لكسب تأييد ودعم محلى فى غياب أى استجابة محسوسة من الفرعون، ذهب إلى بيروت وعقد اجتماعًا مع حاكمها عمونيرا(73)، كان عمونيرا متعاطفًا معه، إلا أنه لم يرد أو لم يكن بقدرته أن يمده بأى معاونة ذات قيمة، وربما كانت تلك القشة الأخيرة التى كانت تخشاها أسرة ريب - حدا. وبعد إن لم يعد أمام ريب - حدا أى أمل أو احتمال لوصول مساعدة خارجية، تمرد عليه أخوه الأصغر إيلى رابح، لم يكن لدى إيلى رابح نية الاستشهاد مع أخيه، فأمسك بمقاليد الحكم فى جوبلا ونحى أخاه، وسلَّم أبناء أخيه

إلى المتمردين العموريين. وقد وصلت تلك التفاصيل إلينا من خلال رسالة بعث بها عمونيرا حاكم بيروت إلى أخناتون بعد عودة ريب - حدا مرة ثانية إلى بيروت كلاجئ(74).

ومرة أخرى يكتب (ريب - حدا) إلى مصر، بطلب أخير للفرعون، ليدعمه ويعاونه على استرداد عرشه، والقبض على الخونة، والحيلولة دون وقوع المدينة فى أيدى أبناء عبدى - عشيرتا، متعللًا بأن كبر سنه واعتلال صحته هما ما يمنعانه من القدوم بنفسه إلى مصر، وأنه عهد بالرسالة إلى أحد أبنائه الذى تمكن من الفرار من براثن عزيرو وكلف بمهمة شرح الوضع الذى أصبح عليه والده لفرعون مصر، وقال فى تلك الرسالة:

«لا أستطيع القدوم بنفسى إلى مصر، أصبحت مسنًا وأنهكت العلل بدنى»(75).

إلا أن تلك البعثة والرسالة لم يسفرا عن شىء، ومع تحريم عودته إلى مدينته، وعدم وجود مدينة أخرى يذهب إليها، فقد كانت المدن إما واقعة فى أيدى العموريين أو فى أيدى من يدعمون العموريين، كما أن وجوده فى أى مدينة لم تقع بعد فى أيدى العموريين سيجعل منها هدفًا لانتقام العموريين، اتخذ ريب - حدا آخر خطوة مذلة، فقد وجد مسكنًا متواضعًا فى إحدى مدن ولاية صيدا، وأضحى وكأنه يضع نفسه تحت رحمة ألد أعدائه، وعرض على عزيرو رشوة ضخمة لاسترداد مدينته، ليصبح تابعاً لأكبر معذبيه فى حياته بأجمعها(76).

أما رد عزيرو على ذلك العرض فنعلم به من رسالة بعث بها أخناتون إلى عزيرو(77)، وقد تضاربت التفسيرات حولها، فوجهة النظر التقليدية السائدة تذهب إلى أن عزيرو لم يظهر أى قدر من الشفقة ولا الرحمة تجاه الرجل الذى رفضه على الدوام (ورفض أباه من قبله). وأنه سلمه إلى الحكام المحليين فى صيدا، واعتمدوا فى ذلك على الجملة التى وردت فى رسالة أخناتون **(أنت سلمته إلى (بعض) المحافظين - وهو تفسير موران)**، والمفترض أنه لقى حتفه على أيديهم.

إلا أن هناك تفسيراً حديثًا لإسرائيل فسر المفردات على أن عزيرو استجاب إيجابيًا لذلك العرض، بأن عينه محافظًا كتفسير لمفردات (أنت عينته (سلمته) محافظًا)(78). وعلى أساس ذلك التفسير، يعلق سنجر أن أخناتون، الذى لم يكن لديه أى نية لمعاقبة عزيرو على معاملته القاسية لريب – حدا، إلا أنه كلفه بتعيينه محافظًا، وهو حق مقصور على الفرعون وحده الأمر به(79).

وبذلك نجد أن لدينا تفسيرين لنهاية ريب – حدا ، نهاية قاسية وبلا طقوس رسمية للملك جوبلا السابق، على أيدى حكام محليين فى ولاية صيدا، والنهاية الأخرى ترى أنه خضع فى نهاية حياته لعدو عمره اللدود فى وظيفة شرفية مريحة حتى آخر أيامه، وليس هذا إلا أحد الأمثلة على المصاعب المتضمنة فى ترجمة فقرات كثيرة وردت فى رسائل تل العمارنة، فالقراءات المختلفة وكذلك التفسيرات المختلفة لفقرة بعينها، من الممكن أن ينتج عنه فى أحيان كثيرة ترجمات متضادة المعنى تمامًا.

ولسوء حظ ريب – حدا، لم يكن من المتوقع أن تنتهى قصته تلك النهاية المؤسفة، كان يمكن أن نفضل له بعد تلك الحياة من المقاومة العنيدة للعدوان العمورى أن يموت ميتة الشهداء على أيدى أعدائه، معلنًا حتى آخر لحظة من حياته ولاءه لسيده الأعلى، إلا أن هناك احتمالاً أنه خضع خضوعًا مشينًا فى النهاية تحت رحمة عدوه اللدود، الذى من عليه بعد خضوعه.

ومهما كانت الطريقة التى عامل بها عزيرو ريب – حدا بعد انهياره، بدأ أخناتون بعدها إجراءات صارمة متشددة، فأعلن أن العموريين قد تجاوزوا كل الحدود المسموح لهم بالتحرك فى إطارها، ولم يكن ذلك إلا تجاوزًا واحدًا ضمن قائمة مطولة من التجاوزات سجلها الفرعون فى رسالة غاضبة إلى عزيرو، وبالرغم من ادعاء عزيرو المستمر بالولاء، إلا أنه لم يعد يحظى بأى قدر من ثقة الفرعون، وأعلن الفرعون فى رسالته: **«كل ما كتبت به إلى ليس إلا أكاذيب»**(80). وأكثر ما أثار غيظ الفرعون تعاون

وتعامل عزيرو مع أتياكاما حاكم قادش، الذى لم يكف عن توسيع حدود ولايته بالعدوان على الولايات الخاضعة لمصر، لذلك أفصح الفرعون عن غضبه فى تلك الرسالة: **«أنت فى حالة وئام مع حاكم قادش. أنتما تأكلان معًا وتشربان الخمر معًا، لماذا تسلك ذلك السلوك؟ ولماذا تصادق حاكم بيننا وبينه حروب»**(81)؟ وربما كان ذلك السلوك الاحتفالى الذى أشار إليه الفرعون، لم يكن إلا احتفاء بمعاهدة أبرمها عزيرو مع أتياكاما(82)، الذى كان عدوًا لمصر.

ثم وجه الفرعون أقوى تهديد إلى عزيرو: **«إذا كنت تقترف الشرور لأية أسباب مهما كانت، وإذا كنت تحيك مؤامرات شريرة وخيانات، فسوف تموت أنت وكل عائلتك بفأس الملك»**(83).

وطلب منه الفرعون إما أن يأتى بنفسه إلى مصر، أو يرسل ابنه الذى يمثله ولا يوجد شك فى أن الغرض من تلك الزيارة كان مواجهة التهم التى تراكمت ضده، وهى التهم التى اتهمه بها الملوك المحليين فى سوريا الذين عانوا أشد المعاناة من العدوان العمورى المتكرر والتهم التى يتهمه بها كبار رجال الفرعون وموظفوه، لو كان عزيرو قد استجاب لأمر سيده الأعلى(84). لكان قد تعرض إلى عقوبة قد تكون فى أفضل الأحوال احتجازه فى مصر لفترة غير محددة، أو حجز ابنه ضمانًا لحسن سلوك أبيه، كان أخناتون قد أوضح بجلاء أن ذلك إنذارًا نهائيًا، وكان تلقيه ذلك الإنذار بتحد أو استخفاف يترتب عليه رد فورى وعاجل من الفرعون، وتذكر عزيرو مصير أبيه، كان يعلم علم اليقين أن الفرعون قد عقد العزم النهائى، وأنه فى نهاية الأمر فى متناول يد مصر أكثر حتى مما كان أبوه، وفكر فى اكتساب بعض الوقت وطلب مهلة من الفرعون عامًا، حتى يرد على الاتهامات الموجهة إليه، وقبل الفرعون، ومضى العام، ولم يكن الفرعون ليوافق على أية تمديدات جديدة للمهلة، وبعث إليه قائلاً: **«لا تفكر: هل يعطينى مهلة عامًا آخر، لو كان من المستحيل عليك أن تأتى أمام الملك، سيدك، لابد أن ترسل ابنك إلى ملكك، سيدك، عوضًا عنك»**(85).

ويبدو شبه مؤكد، أن عزيرو لم يذهب إلى مصر استجابة لأمر الفرعون ولم يرسل ابنه عوضًا عنه، وحان الوقت الذى يحسم فيه موقفه، وكان من زمن طويل يعد لتلك اللحظة، ومنذ زيارته السابقة لمصر التى ظل من حينها يظهر ولاءه للفرعون، لم يضع لحظة فى تقوية موقفه فى سوريا، بمد نفوذه وبعقد تحالفات مع ملوك محليين مثل نيكمادو ملك أوجاريت وآتياكاما ملك قادش الخاضعين للنفوذ الحثينى، ومع إحساسه بالأمان فى ظل تلك التحالفات، جاء إنذار الفرعون، وبعد أن كان قد أجرى اتصالات بالملك الحثينى (والمفترض أنه حصل على تأكيدات بدعمه)، أعلن عزيرو نقل ولاءه إلى الحثينيين، وقام بإبرام معاهدة خضوع وتبعية مع الملك الحثينى(86)، وبذلك ظل حتى موته تابعًا قويًا للملك الحثينى الكبير.

ولا بد أن أخناتون قد انزعج انزعاجًا شديدًا من ذلك التحول، خاصة أن عزيرو نقل معه إلى المعسكر الحثينى كل أرض بلاد عمورو، وهو مكسب إقليمى ضخم لسبيللوليوما، على حساب أخيه الملك المصرى، وأصبحت مناطق النفوذ المصرية الأخرى فى المنطقة فى خطر داهم.

وأدى ذلك الموقف إلى جر مصر والمملكة الحثينية إلى حافة الحرب الشاملة، وهناك أدلة تظهر أن أخناتون بدأ فى الإعداد لحملة عسكرية شاملة موسعة، لاستعادة الأقاليم السورية التى فقدها(87). إلا أن ذلك الإعداد توقف فجأة بموت أخناتون عام 1663، وأدى ضعف مصر والاضطرابات والقلاقل التى حلت بها فيما تلى ذلك وهى الفترة التى شهدت انهيار الأسرة الثامنة عشرة، التى كانت من أعظم الأسر، أكدت أنه لن يمكن الإعداد للحرب الموسعة فى سوريا، على الأقل فى تلك المرحلة. إلا أن فقدان كل من قادش وعمورو لصالح الحثينيين ظل يعتمل فى صدور أسيادهم الأوائل، وظلت الولايتان موضع نزاع بين القوتين العظميين على مدى عقود طويلة تالية، كما كانتا الدافع وراء ذلك الصدام المشهود بين قوات الحثينيين والقوات المصرية فى معركة قادش، التى وقعت بعد موت أخناتون بستين عامًا.

10

مراسلات الجبهة الحثية



سجلات المحفوظات الإقليمية

من أهم ماكشفت عنه أعمال الحفر فى منطقة الحثينيين فى الأعوام الماضية، مواقع سجلات المحفوظات فى مراكز إقليمية عديدة بتلك المنطقة، وداخل حدود المملكة القديمة ذاتها، اكتشفت سجلات المحفوظات الحثينية المكتوبة بالمسمارية فى أورتاكوى (سابينيوا قديماً)، وكوزاكلى (ساريسا قديماً)، وماسات (تابيكا قديماً). وتنوعت محتويات تلك السجلات تنوعاً واسعاً، من صكوك ملكية أراضى، إلى فواتير بضائع وأفراد إلى تنويعات من نصوص دينية وعقائدية.

كما كانت مواضع إغلاق الرسائل ما تزال بادية بوضوح على كثير منها. أما أكبر مجموعة من النصوص، فهى عبارة عن رسائل كتبها الملك إلى موظفيه المحليين وحكام الولايات، أو من الموظفين المحليين وحكام الولايات إلى الملك، أو من مسئولى الحاميات إلى المسئولين المحليين، أو من مسئولين محليين إلى زملاء لهم فى مناطق أخرى. على مجالات عديدة احتوت الرسائل، وكأنها سجل يومى للشئون الإدارية فى المراكز الحضرية للمملكة، ووفرت رؤية واضحة للأحوال التى كانت سائدة، والمشاكل والمخاطر التى تواجه كلاً من المسئولين المدنيين والعسكريين المعينين على المناطق الخاضعة، كما أتاحت لنا تأمل جوانب هامة فى العلاقات الشخصية، التى كانت تبدو فى بعضها ودية وحميمة، وفى بعضها الآخر متوترة.

وتعد سابينيوا أهم موقع بين المواقع الثلاث السابق ذكرها، وتقع على مسافة 55 كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من مدينة سورام، وكانت مدينة كبيرة وجميلة فى فترة ازدهارها وتشغل مساحة تسعة كيلو مترات مربعة،

وأثناء إجراء أعمال الحفر التى بدأت عام 1990، تم الكشف عن مبنيين أثريين، تم التعرف على أحدهما كقصر قديم (المبنى أ (A))، وعثر به على 3000 لوح من الطين، موزعة بين ثلاث قاعات للحفظ. ومازالت نصوصها قيد البحث والنشر، إلا أن التقرير الأول عن محتوياتها، وتكرار ذكر اسم سابينيوا فى سجلات العاصمة، يظهر أن المدينة لم تكن مجرد مركز دينى وحضرى للحثيين، بل كانت أيضًا أحد مقار إقامة الملك الحثينى الأكبر(1)، على الأقل خلال الفترة السابقة على كارثة الغزو الداخلى، كما كانت قاعدة عسكرية هامة، حيث كانت تتجمع بها القوات من المناطق المجاورة للدفاع عن المناطق الشمالية للمملكة(2).

وشهد عام 1993 بداية التنقيب فى مواقع كوزاكلى 1، الذى يقع على بعد 200 كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى من حاتوسا عاصمة المملكة، وفى العام التالى بدأت الألواح الطينية التى كانت بذلك الموقع تظهر إلى الوجود، مما أكد أن ذلك الموقع هو موقع مدينة ساريسا القديمة، والتى كان اسمها يذكر مراراً فى النصوص الحثية كمركز دينى. كانت ساريسا مدينة منيعة متوسطة المساحة تقدر بحوالى 18 هكتارا. والنصوص التى عثر عليها بسجلاتها الصغيرة كانت نصوصاً دينية وطقسية، كما أزيل الركام عن خمسة وستين خاتماً، لختم الرسائل من ذلك الموقع(3).

وسوف يثرى فض أسرار تلك النصوص التى ذكرناها من معرفتنا عن تفاصيل الحياة والشئون الإدارية فى الدولة الحثينية، إلا أن تركيزنا الرئيسى فى هذ الفصل سيكون على سجل الألواح المكتشفة فى ماسات، وهو موقع مدينة تابيكا القديمة(4)، التى تقع على بعد 50 كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من موقع مدينة حاتوسا القديمة.

مراسلات تابيكًا (5)

كانت مدينة تابيكا القديمة مركزاً إدارياً وعسكرياً على منطقة الحدود

الشمالية الشرقية، خلال القرن الخامس عشر وبدايات القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كانت المنشآت تشغل مساحة تربو على عشرة هكتارات، وتم اكتشاف موقعها فى بداية السبعينيات من القرن العشرين. كانت مدينة صغيرة وأقل أهمية من مدينة سابينيوا القديمة التى تقع على مسيرة يومين منها إلى الغرب. إلا أن سجل مراسلاتها كان أول سجل يتم التوصل إليه بعد سجلات العاصمة حاتوسا، وأمدنا بفيض من المعلومات عن مرحلة لم يكن متوفراً عنها أية وثائق تاريخية، وعثر على سجل محفوظاتها الذى احتوى ضمن محتوياته على ست وتسعين رسالة (من بين إجمالى 116 نصًا)، وقد تم اكتشافها فى مبنى يعد بوجة عام قصراً فى المستوى الطبقى الثالث من بين مستويات الحفر الخمس، ويمكن تحديد زمنه بدقة فى عهد تودحاليا الثالث، أبو سبيللوليوما، الذى حكم فى العقود الأولى من القرن الرابع عشر قبل الميلاد(6).

وكانت تلك الفترة من الفترات الحرجة فى التاريخ الحثى، ففى أثناء حكم تودحاليا وصلت المملكة الحثية إلى شفا الدمار والهلاك، كانت قوات الأعداء قد اخترقت حدود المملكة من كل الاتجاهات، وشنت سلاسل من الهجمات على قلب المملكة وهو ما يسمى الآن بالغزو المركزى الداخلى، وكما عرفنا (من الفصل الأول)، تم اجتياح كل أنحاء البلاد، واضطر البلاط الملكى إلى الفرار من العاصمة ولجأ إلى منطقة ساموحا فى طرف البلاد الشمالى الشرقى. وتشير رسائل تابيكا إلى وقت يقدر بحوالى بضعة أعوام قبل تلك الكارثة. ولا بد أن الكارثة قد حلت بالمنطقة قبل آخر الرسائل المكتشفة بذلك السجل، وكانت بانتظار إرسالها إلى حاتوسا العاصمة، فهل تحتوى الرسائل ذاتها على أى دليل يشير إلى الكارثة المتوقعة والمحتملة فى ذلك الوقت؟ سنعود إلى ذلك التساؤل فى موضع آخر.

لنولى اهتمامنا أولاً إلى كاتبى تلك الرسائل ومتلقيها. الجل الأعظم من تلك الرسائل مرسل من الملك الأكبر ذاته إلى المسئولين المحليين فى

تابيكا، داوم الملك على المحافظة على الاتصال المباشر بأولئك المسئولين، مهتمًا بنفسه بشئون تلك المنطقة ومرسلاً أوامره وتعليماته المنتظمة وكيفية تنفيذ تلك الأوامر. كانت أوامره تنقل فى رسائل مكتوبة صادرة من القصر (وأحياناً كرد على رسائل واردة من المسئولين بتلك المنطقة)، وكذلك الأوامر المباشرة وجهًا لوجه، حين كان المسئولون يفدون إلى حاتوسا لهذا الغرض. ويبدو أن أولئك الذين كانت تصدر لهم أوامر تفصيلية لم يكن متاحاً لهم ممارسة أى قدر من الاجتهاد الشخصى، ويعكس ذلك بالطبع عدم استقرار السلطة الحثية فى منطقة تابيكا التى تقع على حافة منطقة كاسكا، وكانت معرضة على وجه الخصوص لهجمات قوات كاسكا المعادية، كان الملك مهتماً بالتأكد أن كل الإجراءات الممكنة قد تم اتخاذها لضمان سلامة المنطقة، وتدخل بنفسه مباشرة فى شئون تلك المنطقة أكثر من غيرها من المناطق التى لم تكن تتعرض لمثل ذلك التهديد.

وغطت مراسلات الملك موضوعات كثيرة مختلفة، فقد اشتملت على طلبات منه بكتابة تقارير دقيقة عن تحركات العدو (وأرسل أعداداً من الحثيين إلى المنطقة للاستكشاف والتجسس)، كما كان فيها رداً على طلبات بإرسال قوات إضافية، لتقوية الدفاعات الموجودة، واحتوت أيضاً على تعليمات خاصة بإعادة توطين السكان فى المناطق المهددة من قبل العدو، كما اشتملت على الوسائل الواجب اتباعها مع الفارين من الجيش وأسرى الأعداء الذين يستسلمون والذين يؤسرون أثناء المعارك.

كانت تلك الاتصالات تتم بصورة مباشرة وتدخل مباشرة إلى صميم المواضيع المعنية وتنتمى إلى شكل يختلف عن المراسلات الدبلوماسية التى كان الإخوة الملوك يتبادلونها، أو تلك التى ترسل من ملك كبير إلى ملوك صغار تابعين وخاضعين لهيمنته. فحين كتب كاسو من تابيكا إلى سيده الأكبر طالباً تعزيزات عسكرية، لم يتضمن الرد عليه أى رسميات ولا صياغات بلاغية لا ضرورة لها: «**هكذا يقول جلالته لكاسو: فيما يختص**

بما كتبته إلى عن العجلات الحربية فلتعلم: أننى بعثت بالعجلات الحربية. انتظر وصولها»(7)، أما المراسلات بين المسئولين فكانت أقل تركيزاً واختصاراً، فقد كان من المتعارف عليه أن يخاطب أى مسئول مسئولاً آخر بالبدء بكلمة: «أخى»، أو الأكثر ملاءمة: «ابنى»، ثم يضيف تمنياته له بموفور الصحة والسعادة، وكانت تلك البداية بالفعل طريقة موحدة على كافة المستويات الاجتماعية فى مخاطبة الأنداد(8)، وقد لاحظنا ذلك فى الرسائل المطولة التى كان كبار الملوك يرسلونها إلى أندادهم من كبار الملوك.

كان كاسو أكثر من ذكر اسمه فى رسائل تابيكا، وكان هو متلقى كثيرًا من الرسائل من كلٍ من الملك الأكبر ومن كثيرٍ من المسئولين فى العاصمة حاتوسا. بالرغم من أنه لم تكن عادة متبعة فى المراسلات أن يوجه الكلام لمتلقى الرسالة بذكر ألقابه المهنية الرسمية، ويمكن إدراك أن كاسو كان رتبة عسكرية عظمى وله صلاحيات واسعة فى تلك المنطقة(9)، وكان عبء الدفاع عنها يقع على عاتقه بصفة أولية(10)، ويبرر ذلك كثرة اتصاله بسيده الأعلى فى حاتوسا حول شئون الأمن والدفاع وتحركات الأعداء. لم يكن كاسو ولا زملاؤه يحتفظون بنسخ من الرسائل التى يبعثون بها إلى حاتوسا، إلا أنه يمكننا أن نخمن ما كانوا يكتبونه من خلال الردود التى تلقوها على رسائلهم.

فنجد أن جلالته بعد أن يطلع على تقرير عن تحركات قوات الأعداء، يرسل إلى كاسو تعليمات بألا يسمح للأعداء بتجاوزوا الحدود، وأن يعمل على أن يبقوا داخل مناطقهم(11)، وفى رسالة أخرى يشير الملك الأعظم إلى رسالة تلقاها من كاسو يعلمه فيها باستسلام عدد كبير من قوات الكاسكا، وقال فى رده: **«وعما كتبته إلىَّ: جاءت أعداء كبيرة من الكاسكا طلباً للسلام. أبعث بهم أمام الملك أولئك الكاسكا الذين جاءوا طالبين السلام»**(12)، أما معاملة أسرى الأعداد فهى مشروحة فى عديد من الرسائل، على الأقل من بداية عهد سبيللوليوما الأول، وكان أولئك الأسرى

ينقلون إلى الداخل، ويسخرون فى الأعمال الشاقة التى لا تقوم بها العمالة الوطنية. كان نقلهم إلى داخل البلاد يتطلب قوات حراسة كافية؛ لمنعهم من الفرار والعودة إلى بلادهم، إلا أنهم كانوا يحتفظون ببعض الأسرى بالقرب من جبهة المواجهة، وكان ذلك يتطلب قدراً أكبر من حراستهم، لضمان خضوعهم وطاعتهم.

ويبرز ذلك الاحتمال من خلال نصوص عديدة فى سجلات تابيكا تشير إلى أسرى مكفوفين، أو الذين سملت أعينهم حتى لا يتمكنوا من الفرار، واحد من تلك النصوص (وهو ليس من الرسائل) عبارة عن قائمة بأسماء الأسرى الذين يمكن افتدائهم بالمال، ليعودوا إلى أهلهم. كان الأسرى يقسمون إلى قسمين: قسم العميان وقسم المبصرين(13) ولا يوجد ما يثبت بيقين كيف فقد العميان أبصارهم، ويحتمل أن عيونهم قد سملت عمداً، بعد وقوعهم فى الأسر، حتى لا يتمكنوا من الفرار أو كعبرة لمن يفكرون فى محاولة الفرار، والبديل المحتمل أنهم فقدوا بصرهم نتيجة إصابات أعمال القتال، أى إصابة حرب، إلا أن البروفيسور هوفز يعلق على ذلك بأن نسبة عدد الأفراد المسجلين من فاقدى البصر تبدو نسبة عالية، مما لا يمكن معه عزوها إلى إصابات حروب، ويحتمل كما يفترض هوفز، أن سمل العيون كان من العقوبات التى تقتصر على قادة التمرد والبارزين من بينهم(14).

وهناك رسالة من مسئول يدعى كيكارسا تحتوى على مزيد من المعلومات عن الأسرى فاقدى البصر، ففى محاولة للتوصل إلى شخص معين بين فاقدى البصر، كتب كيكارسا إلى زميل له يدعى تاحازيللى، وهو مسئول آخر، ربما كان مقيماً فى تابيكا، وردَّ تاحازيللى عليه بالنص التالى:

«بخصوص موضوع فاقدى البصر الذى أرسلت به إلىَّ: لقد ساقوا كل فاقدى البصر إلى سابينيو، ولم يتركوا هنا إلا عشرة منهم (للعمل) فى الطواحين، واستفسرت عن أسمائهم، ولا يوجد بينهم الاسم الذى تسأل

عنه، يجب أن تكتب إلى ساريا فى سابينيوا كل فاقدى البصر (الآخرين) هناك»(15).

وكما توضح تلك الرسالة بجلاء تام، كان للأسرى فاقدى الأبصار أيضاً ما يمكن أن يسخروا فيه من أعمال، وفى الحالة السابقة تم تسخير الأسرى. فاقدى البصر للعمل فى طواحين الغلال، ونعلم من نص رسالة أخرى أن بعضهم حاول الفرار من العمل فى طواحين الغلال فى سابينيوا(16). كما تثبت صعوبة توصل تاحازيللى إلى فرد بعينه (والمحتمل أنه كان يبحث عنه ليفتدى بمال) صحة الافتراض أن أعداد الأسرى الذين سملت عيونهم عمداً، افتراض جوهرى، وأن ما حلَّ بهم قد حلَّ بهم على أيدى آسريهم.

وعلى ضوء وجود رسالة من بين رسائل سجل المحفوظات من الملك الحثينى يهدد فيها بسمل أبصار اثنين من كبار المسئولين إذا فشلوا فى تنفيذ أوامره بدقة، ندرك أن الآسرين الحثينيين لم يكن لديهم أى رادع تجاه سمل عيون من يقع من المتمردين فى الأسر، إما كنوع من العقوبة، أو كعبرة وتحذير للباقين، أو للسببين معاً.

ولاحظنا ماسبق تلك الرسالة من الملك إلى كاسو التى تدور حول استسلام أعداء من الكاسكا للسلطات الحثينية فى إحدى المناطق المحلية، والرسالة طويلة نسبياً، سجل فيها الملك أوامره بخصوص موضوعات عديدة رداً على رسالة تلقاها من كاسو. وبعد أن تملى الكاتب ما يصل إلى واحد وأربعين سطراً من الملك، أقفل النص بخطين متوازيين أسفل آخر سطر، وهما علامة اكتمال النص الرسمى، إلا أنه كتب أسفل الخطين إحدى عشر سطراً جديداً، ليس لها علاقة بالنص الملكى أعلى الخطين، بل كانت عبارة عن رسالة أخرى، عن لسان كاتب آخر، وموجهة إلى شخص مختلف:

«قل لأخى الحبيب حميويلى هكذا ذكر أخوك حاتوسيلى: أتمنى أن يكون كل شىء على أفضل حال، وأن تشملك الآلهة بعنايتها وتحفظك

سالماً. وعما كتبته إلىّ بخصوص زوج ابنتك، لن أنسى أمره، وسأتحدث عنه فى القصر، وسأعرض موضوعه على جلالته»(17).

وهكذا، نعرف شخصيتين برزا كثيراً من بين ثنايا مراسلات تابيكا. كان حميويلى من أبرز الشخصيات فى تلك المراسلات بعد كاسو، كان يتقلد منصب الحاكم المحلى، مع صلاحيات عسكرية وقضائية وإدارية واسعة(18).

وكان حاتوسيلى (ولا يجب الخلط بينه وبين الملوك الحيثيين الذين حملوا هذا الاسم) صديقاً حميماً لحميويلى الذى يتمتع بصلات ونفوذ فى البلاط الملكى.

وأخذ على عاتقه استخدام نفوذه فى البلاط الملكى فى أمر يخص زوج ابنة حميويلى. ويبدو أن حميويلى طلب من صديقه السعى لترقية زوج ابنته رداً لخدماته الجليلة التى يقدمها إليه، حتى يسعى الأخير للحصول على ترقية لزوج الابنة من القصر الملكى.

كان من الشائع أن يقوم الموظفون القائمون على خدمة الملك بإلحاق رسائلهم إلى زملائهم وأصدقائهم بعد رسالة الملك، وبوجه عام، كان يلحق بالرسالة الأساسية رسالة واحدة فى الغالب وأحيانا رسالتين، ويحتوى سجل محفوظات تابيكا على بعض الأمثلة لتلك العادة التى تعد وسيلة تواصل غير رسمية بين كبار المسئولين (كما فى المثال السابق). وأيضاً بين صغار الكتبة، كانت وسيلة فعالة فى نقل المعلومات والمطالب الشخصية، وأحياناً فى أمور تافهة وشخصية بين الموظفين والمسئولين المعينين فى مختلف أرجاء الدوائر الإدارية فى أنحاء المملكة، وكانت الرسائل الملحقة المتعلقة بأمور شخصية مبتذلة، تضفى أحياناً شكلاً من التفاهة على الرسالة الأساسية التى تتناول أموراً فى غاية الجدية والخطورة. إلا أن شيوع تلك الممارسة كان يشى بأنها تتم بعلم الملك، أو على الأقل يتغاضى عنها، مثلما يسمح فى عصرنا لموظفى السفارات بإرسال بريدهم الشخصى عبر الحقائب الدبلوماسية.

كان على كثير من الكتبة والموظفين الطامحين إلى الترقى فى مجال خدمة الملك الأعظم العمل بعض الوقت فى المراكز الإقليمية مثل تابيكا حتى ينالوا ترقية وظيفية، بل إن صغار أعضاء العائلة المالكة كانوا يرسلون أيضًا لقضاء بعض الوقت فى الأقاليم، لتوسيع مجالات خبراتهم وتنمية قدراتهم كوسيلة من وسائل إعدادهم لشغل المناصب الهامة فى المملكة، وبينما كانوا يقضون المدة المقررة لهم فى الأقاليم، كانوا يوضعون تحت إشراف ومراقبة موظفين مسئولين عن أمنهم وسلامتهم، وهناك رسالتان صادرتان من تابيكا من أولئك المسئولين إلى الملك يطمئنونه فيها بأن كل شىء على ما يرام فيما يخص ابنه (فى إحدى الرسائل) وبناته (فى رسالة أخرى)، وألا يشغل باله بهذا الأمر(19).

وفيما كان على موظفى حاتوسا العمل بعض الوقت فى الأقاليم، كان العكس يطبق على الموظفين الإقليميين، فنعرف مثلاً أن كاتباً يدعى تارحونميا توجد ممتلكاته فى تابيكا، بينما كان يعمل فى العاصمة(20)، ويدل ذلك على أنه ينتمى فى الأصل إلى تابيكا، بينما نقل للعمل مؤقتاً فى حاتوسا، وتوجد بضع رسائل أخرى من كتبة فى حاتوسا يطلبون فيها من زملائهم فى تابيكا رعاية ممتلكاتهم هناك.

وحيث إن الموظفين الذين يرسلون للعمل بعض الوقت فى الأقاليم لم يكونوا ليصحبوا عائلاتهم معهم، كان كثيرون منهم قلقين على شئون أسرهم وأحوالها، وتوجد عدة رسائل ملحقة من موظفى حاتوسا يطمئنون فيها زملاءهم فى تابيكا على أسرهم، فمثلاً، بعد كتابة نص رسالة من الملك تحمل تعليماته وأوامره إلى كاسو عن الإجراءات التى يقوم بها بخصوص تحركات الأعداء(21)، أضاف الكاتب شورحيللى رسالة شخصية من عنده إلى زميله وصديقه عوزو الكاتب بإدارة ولاية تابيكا، كان شورحيللى يعلم أن تلك الرسالة ستمر أولاً على زميله عوزو الكاتب بإدارة تابيكا، لذلك كتب إليه فى رسالة ملحقة برسالة الملك إلى كاسو:

«**إلى عوزو أخى الحبيب من أخيك شورحيللى.**

أتمنى أن تكون كل أمورك على ما يرام، لتحفظك الآلهة وإله الحكمة، كل شيء بخير فى بيتك، وكل أمور زوجتك على ما يرام، لا يوجد ما يستحق أن تشغل ذهنك به، أخى الحبيب، الرجاء الرد بإرسال تحياتك إلىّ» (22).

وهناك رسائل أخرى مرسلة إلى عوزو من كاتب فى حاتوسا يدعى ميرسير، إحدى تلك الرسائل ملحقة برسالة من الملك إلى الحاكم حميويلى، وبعض جر خطين تحت نص رسالة الملك، أضاف ميرسير ملحوظة إلى عوزو يبلغه فيها أن حميويلى كان قد وعده بثور، ويطلب من عوزو أن يعاونه على إرسال الثور إلى حاتوسا(23)، وفى رسالة أخرى طلب ميرسير من عوزو إرسال طهاة «لو كان لديه طهاة مهرة فى تابيكا، كما طلب إرسال بعض الأسلحة(24)، وفى وقت آخر كان فيه حميويلى فى العاصمة حاتوسا، بعث بطلب مماثل إلى حميويلى، وهو أحد زملائه فى تابيكا، بعد أن وبخه لعدم كتابته إليه(25)، وكذلك توجد رسالة من مسئول يدعى إليتوكولتى يشكو فيها إلى كاتب تابيكا المدعو عدد بيلى تقاعسه عن الرد على رسائله، قال فيها:

«إلى أخى الحبيب أرسلت إليك تحياتى مراراً، ولم ترد أبداً على تحياتى بمثلها»(26).

وكان التوبيخ القاسى يظهر أحياناً فى مراسلات المسئولين بين حاتوسا وتابيكا، فنجد أن قائدًا عسكريًا متمركزًا فى تابيكا يكتب رسالة شكوى إلى بالآنا وزارتومانى، وهما من كبار المسئولين فى حاتوسا، يلقى عليهما بمسئولية المعاملة غير العادلة التى تعرض لها وعانى من جرائها، ومن أخطاء وجرائم، كان بريئاً منها أو كان يدعى ذلك(27)، وهدد برفع المشكلة كلها إلى حضرة الملك، وأعلن أن ذلك سيؤدى إلى إجراء تحقيق شامل فى تابيكا، ويفضى إلى القبض على الجناة الحقيقيين، ثم يرسلون إلى حاتوسا ويحاكمون فى محكمة الملك، كانت الجرائم، كما يبدو من الرسالة «جرائم خطيرة، بغض النظر عن معرفتها على وجه الدقة، فقد

شملت قائد عسكريًا كبيراً ربما كان كاسو ذاته(28)، ولسوء الحظ لم يصل إلينا مزيد من التفاصيل، ولكن بدت المشكلة على درجة من الخطورة تصل إلى حد إجراء تحقيق ملكى فى تابيكا، ينتهى بمحاكمة المتهمين فى محكمة الملك.

كذلك كانت درجة التوتر تزداد أحياناً فى المراسلات بين المسئولين الرئيسيين عن تابيكا كاسو وحميويلى، ولا يدهشنا ذلك، إذ يحتمل أنه كانت توجد تداخلات كثيرة بين اختصاصاتهما ومسئولياتهما، ومنها تسلسل المسئولية فى تلقى الرسائل والرد عليها وعلى الأوامر الواردة من حاتوسا، ولذلك وبخ كاسو حميويلى ومساعديه لإهمالهم وتقاعسهم عن إرسال رسل الملك إليه، وقال فى رسالة التوبيخ: **«هل من المعروف أنهم خدم عندك؟ ألا ينتمى أولئك الرسل إلى سيدنا، كما تنتمى كل البلاد إليه؟»**(29)

كما ظهر أن كاسو كان يتبادل رسائل لاذعة مع كاهن كيزوادنا فى جنوب شرق الأناضول(30)، واسمه كانتوزيللى (وعرف من مصادر أخرى على أنه الكاهن الأكبر ليتشوب وحيبات)، وكانت منزلته فى كيزوادنا تضارع منزلة الملك المحلى(31)، كان الكاهن قد بعث قبل ذلك برسالة إلى كاسو يطلب فيها إعادة عشرين فرداً من التابعين له، دخلوا لسبب مجهول فى المنطقة الخاضعة لمسئولية كاسو، وكتب إليه كاسو رافضًا تسليم أولئك الأفراد، وقال له: **«أحل الأمر إلى القصر»**، ورد الكاهن فى غضب قائلاً: **«إنه بالفعل سيحيل الأمر إلى القصر، وحذر كاسو من أنه سيقوم هو الآخر بحجز أى أفراد من منطقة كاسو إذا دخلوا منطقة نفوذه».**

كانت المشاحنات والنزاعات من ذلك النوع بين الولايات الخاضعة للنفوذ الحيثى كثيرة الحدوث، وكانت الجهات المختصة فى البلاط الملكى متخمة بالمشاكل والمشاحنات، وتعارض المسئوليات الذى يرد إليها للفصل فيه. وفى مراسلات تابيكا وحدها، ظهرت تهديدات فى عدد من المشاكل برفع المشكلة برمتها إلى الملك مباشرة، للفصل فيها وكان للشاكين الحق

فى اللجوء إلى القصر، للفصل فى المشاكل والقضايا، إذ كان القانون الحيثى يوفر للجميع ذلك الحق.

ويؤكد ذلك رسالة أخرى أرسلها المسئول الكبير حاتوسيلى من العاصمة حاتوسا إلى الحاكم المحلى حميويلى(32). فى تلك الرسالة تأنيب رسمى لحميويلى لفشله فى حماية ممتلكات الكاتب تارحونميا الكائنة فى تابيكا، وكما عرفنا مما سبق أن تارحونميا ينتمى إلى تابيكا، إلا أنه كان يعمل فى العاصمة. وأثناء غيابه أدعت السلطات المحلية فى تابيكا أنه متأخر عن دفع الضرائب ومقابل خدمات الولاية (سابان ولوتزى) عن ممتلكاته هناك، بالرغم من أنه معفى من دفع تلك الضرائب، وحين اعترض، قامت السلطات المحلية بالحجز على مقتنياته المنزلية، إما لبيعها أو كرهن حتى يدفع ما عليه، وبصفة حميويلى حاكم المنطقة، فقد كانت له كل الصلاحيات لمعالجة تلك المشكلة.

ومن المعروف من خلال عدد من فقرات القانون الحيثى أن بعض موظفى الإدارة كانوا معفين من أداء تلك الضريبة(33)، وكان منهم تارحونميا صاحب المشكلة، وأضاف تارحونميا رسالة ملحقة منه إلى الرسالة التى كتبها المسئول حاتوسيلى إلى حميويلى، بصفتها رسالة من ابن إلى أبيه، للحفاظ على حقوقه وحماية ممتلكاته، قال له فى رسالته الملحقة:

«سيدى، اشمل منزلى برعايتك، وتيقن من أنهم لم يلحقوا به أى ضرر، عدا ذلك فلتفصل متكرما فى النزاع القانونى الذى أواجهه، فلتعد الحق إلى نصابه، ولتضع حارساً أمام بيتى، لا تسمح لموظفى ضرائب الأرض وموظفى المدينة بإلحاق أى ضرر ببيتى، عدا ذلك (فلتعلم) أن ضرائب الأرض والعقارات لم تطبق أبداً علىَّ، والآن، طبق موظفو المدينة تلك الضرائب علىَّ. سيدى، سل موظفى الأراضى إن كانوا قد تقاضوا منى أية ضرائب عن أرض أو عقارات فيما سبق»(34).

ولم تكن تلك أول رسالة يبعث بها الكاتب إلى حميويلى بخصوص تلك

المشكلة(35)، إلا أن رسائله السابقة لم تلق إلا آذاناً صماء، ومع ذلك أصر وداوم على الكتابة، خاصة بعد أن وجد دعماً قوياً من حاتوسيلي الذى ازداد غيظه، كان ذلك المسئول الكبير والبارز فى إدارة شئون الدولة قد كتب عدة مرات إلى حميويلى بخصوص مشكلة الكاتب، وربما كان قد امتنع عن كتابة تقرير ضده إلى الملك بسبب علاقة الود التى تربطهما، إلا أن صبره على صديقه أخذ فى النفاذ، لذلك أرسل رسالة غضب أخيرة إلى حميويلى، وهو ما كان متوقعاً منه:

«فى نطاق منطقتك الإدارية لا يوجد إلا بيت واحد لكاتب يضغط عليه موظفوك كثيراً، هل تحصل ضرائب أرض وعقارات من الكتبة الرسميين؟ لماذا يقوم هو بدفعها فى منطقتك؟ الآن انتبه جيداً، لن يضطهدوه بعد ذلك. إذا لم تحل هذه المشكلة، سأثيرها فى القصر الملكى»(36).

كانت الرسالة واضحة بلا لبث، فترحونميا لا بد أ ن يعفى من الضرائب وأن يبقى بمنأى عن أى ضرر. وإذا ظل حميويلى على تجاهله ولم يحل المشكلة، سيحال الأمر كله إلى الملك.

فهل كان من المعقول أن يشغل الملك نفسه بمشكلة ضرائب أحد الكتبة، مع كل المسئوليات والمشاكل الكبرى التى تشغل باله؟ لو حكمنا بتدخل الملك المباشر فى موقف مماثل تماماً، فإن الإجابة تكون: بلى، الموقف المماثل كان فى مدينة إيمار التى أعيد بناؤها فى عهدى سبيلوليوما الأول ومورسيلى الثانى، وكانت تابعة إدارياً لحاكم مدينة قرقميش، وكانت مسئولية الإدارة مقسمة بالتشارك بين الحاكم ومجلس من الشيوخ، وفى عهد مورسيلى أو من تلاه، كان يوجد كاهن بمدينة إيمار يدعى ذو بعل تلقى فجأة إنذاراً بأن بيت آبائه وأجداده وكذلك حقل الكروم سوف تنزع ملكيتها وتخصص لشخص آخر(37)، وأنه سوف يخضع للضريبة ورسوم خدمات الولاية التى كان معفياً منها.

ولجأ ذو بعل مباشرة إلى الملك الأكبر(38)، وادعى أنه ضحية لظلم وقع عليه من مسئول حيثى يدعى الزياموا(39).

واستجاب الملك لدعواه وبعث برسالة مباشرة إلى الزياموا:

هكذا (يتحدث) شمسى، يقول لأزياموا: انظر، ذا بعل هذا كاهن، من أشتاتا، وضع أمامى: «بيت أبى آن دامالى، وحقل الكروم أخذهم الزياموا وأعطاهم إلى باليوا، وفيما يخص ضريبة الأراضى لم أكن أدفعها أبداً، والآن يفرضون علىّ ضريبة الأراضى وضريبة الخدمات، ومطلوب منى دفعها.

وحكم جلالته بما يلى :

البيت وحقل الكروم لا يؤخذان منه، ضريبة الأراضى لم يكن يدفعها قبل ذلك، لماذا تفرض عليه الآن ضريبة أراضى وضريبة خدمات (سابان ولوتزى)؟ ما كان يدفعه قبل ذلك سيستمر فى دفعه، ولا يطغى عليه أحد(40).

ومن رسالة ثانية عثر عليها بمدينة إيمار وأصبحت الآن فى متحف أرض الكتاب المقدس بالقدس، نعلم أن قضية (ذو بعل) أحيلت أيضاً إلى حاكم قرقميش، وكتب حاكم قرقميش هو الآخر إلى ألزياموا. وكانت رسالته فى الحقيقة مماثلة لرسالة الملك الأكبر، ويحتمل أن نسخة من رسالة الملك الأكبر كانت أمامه وهو يملى نص رسالته(41).

بل إنه زاد عن الملك الأكبر باعفاء ذو بعل حتى مما اعتاد أن يدفعه قبل ذلك، ويعلق البروفيسور سنجر على تلك الحقيقة: وهى أن رجل دين محلى من ولاية نائية كان بإمكانه ليس فقط اللجوء إلى الملك الأكبر والملك المحلى، بل إن الملك الأكبر ونائبه المحلى تناولا المشكلة بنفسهما وأعادا الحق لصاحبه(42).

ونعود إلى تابيكا، ونتعرض إلى مذكرة بسيطة تحتوى على شكوى من حاسميلى، وهو كاتب من حاتوسا أرسل بها إلى الكاتب عوزو فى تابيكا. الجزء الرسمى من الوثيقة رسالة إلى حاكم المدينة حميويلى من الملك، يعده فيها بإرسال خيول وعربات، ويحثه على اليقظة ورصد تحركات الأعداء فى منطقته(43). وبعد انتهاء نص رسالة الملك كتب حاسميلى

رسالة من لدنه إلى عوزو الذى ستمر كل الرسالة عليه، وقد دخل مباشرة إلى صميم الموضوع: **«أنت مستمر فى الكتابة إلىَّ عن ذلك الموضوع الخاص بخادمتى، لا أحب أن أسمع أى شىء بعد الآن عن هذا الموضوع»**، ويبدو أن حاسميلى كان قد بعث بإحدى خادماته للعمل فى خدمة عوزو فى تابيكا، إلا أن كرمه انقلب وبالاً عليه حين راح عوزو يكتب إليه مراراً وتكراراً متهمًا الفتاة بالسرقة، ومهدداً بأنه سيقوم بعقابها بنفسه، ولم يكن حاسميلى سعيداً بذلك التطور، لم يكن يرضى بأن تعود إليه الفتاة مصابة بعد أن أعارها لزميله الكاتب كعلاقة ود وصداقة، لذلك حذر عوزو من إلحاق أى أذى بالفتاة بأى وسيلة، وقال له: «احرص على أن تسلمها إلى الرسول فى أفضل حال، وسوف يحضرها إلىَّ، ومهما كان الذى سرقته الفتاة فسوف أرده ثلاثة أضعافه». والمثال السابق حالة لافتة لنصين فى رسالة واحدة بينهما هذا القدر من التناقض على لوح طينى واحد: نص منهما تحذير عاجل من الملك الأكبر، بخصوص سلامة الأمن الإقليمى، وفى نهايته شكوى للكاتب بشأن خادمة بأصابع متسخة.

كانت الأمور والمشاكل البسيطة الشخصية المضافة إلى المراسلات الرسمية، وكذلك الاهتمامات بالأمور الخاصة تخلق انطباعاً بالاعتياد، وأن الأمور العملية المعتادة فى تابيكا تمضى كالمعتاد، إلا أن ذلك الانطباع يحتوى على قدر من التضليل، فالمراسلات المتبادلة كرسائل إضافية تحت النصوص الأساسية تخدم فى التحول باختصار من الأمور الخطيرة التى تظهر من خلال النصوص الرسمية الأساسية، والتى تعكس المخاطر والتهديدات التى يواجهها السكان فى تلك المناطق دائمة التعرض للخطر، وأهمها التهديد المستمر من الكاسكان، وراح ذلك الخطر يتزايد كما راح الخطر القادم من جميع المناطق الحدودية الأخرى يتزايد أيضاً.

ومن آن لآخر كانت الرسائل تسجل نجاحًا للحيثيين فى مواجهة الأعداء. إلا أن تلك التقارير لم تفلح فى إخفاء ضعف وهشاشة السلطة الحثية فى تلك المنطقة، وتذكر رسالة: **«اخترق العدو موضعين من الحدود**

بأعداد كبيرة»(44). وتسجل رسالة أخرى غارة من قطعان مواشى الكاسكان عبرت الحدود، كما نجح الكاسكان فى الهيمنة على الطرق المؤدية إلى تابيكا منتهزين فرصة وجود كاسو واثنين من زملائه فى حاتوسا(45). كانت الغارات التى تشن على المحاصيل الزراعية من المشاكل المتكررة، ففى رسالة من مدينة كاسبورا أبلغ بسينى الملك أن: «الأعداء أتوا بأعداد كبيرة أثناء الليل، 600 فى موضع، وفى موضع آخر 400، وقاموا بحصد الحبوب والاستيلاء عليها»(46).

فأمر الملك كلاً من تاتّا وهولّى من مسئولى تابيكا بالمضى فوراً إلى كاسبورا، والعمل على حصد الحبوب ونقلها إلى مخازن الحبوب مع الحرص ألا تقع فى يد الأعداء، كان من الممكن أن يترتب على غارات الأعداء على الأراضى المنتجة للحبوب نتائج فى غاية الخطورة، فقد كانت البلاد تعتمد على تلك الحبوب فى غذائها، كان النقص الحاد فى الماشية أو الحبوب، سواء بسبب عوامل طبيعية أو نتيجة لغارات الأعداء، من الممكن أن تترتب عليه مجاعات شديدة القسوة، كان من المحتم تأمين المنتجات الزراعية من الحبوب من هجمات الأعداء مهما تكلف الأمر، كما كان تفشى الحمى والطاعون من المخاطر الأخرى التى يتعرض لها السكان المحليون فى تابيكا(47).

وفى رسائل عديدة أصدر الملك أوامر قاطعة إلى قادة المنطقة العسكريين بالحضور مع قواتهم للمثول أمامه، وأحيانًا ما كان يهددهم بأوخم العواقب إذا لم يمتثلوا لأوامره بدقة: «**أقول لكاسو وزيلابيا: بمجرد أن تصل هذه الرسالة إليكما، احضرا خلال ثلاثة أيام للمثول أمام جلالته بالقوات المتمركزة عندكما وكذلك العجلات الحربية التى بحوزتكما**»(48). وفى رسالة أخرى: «**أقول لكاسو وزيلابيا: بمجرد أن تصل هذه الرسالة إليكما احضرا بأقصى سرعة ممكنة لدى جلالته، وإن لم تفعلا (رجالى) يأتون إليكما ويسلمون عيونكم فى مكانكم**»(49)، وفى أخرى: «**أنت يابيبابّا، أحضر قوات «أوكو أوس» بأسرع ما يمكنك، وأحضرهم هنا مع**

الجيش، إن لم تفعل سآتى بك وتقتل»(50)، لم يكن جلالته يتوانى عن التأكيد على ضرورة إطاعة أوامره بلا أى تردد أو تأخر. وكان كل ذلك يظهر الأزمة التى كانت تواجه المملكة.

كان من الممكن أن تترتب أوخم العواقب على أدنى تأخر فى الاستجابة لأوامر الملك، لذلك كان يشمل أوامره بالتهديدات لضمان الطاعة الفورية والكاملة. فى رسالة أخرى، أمر الملك كاسو وبيبابًا بتحريك 1700 من قوات المشاة من مدينة إيشوبيتا بكل سرعة ونقلهم فى ظرف يومين إلى مدينة سابينيوا، حيث سيكون الملك بنفسه هناك(51)، كانت سابينيوا أكبر مدينة فى المنطقة، وتعد مركزًا لتجمع القوات الحثينية من الأقاليم الصغرى المجاورة، ويوضعون هناك تحت القيادة المباشرة للملك، ولا يوجد شك أن مسئولى المدن الأخرى تلقوا رسائل مماثلة لتلك التى تلقاها كاسو وبيبابًا. وربما تمثل تلك الرسائل العاجلة من الملك إلى القادة العسكريين الخندق الأخير أو الملاذ الأخير الحدود الشمالية ضد أعداء المملكة. ولكن مهما كانت النجاحات المرحلية أحرزها فى تلك المنطقة، إلا أن مصير المملكة كان قد أصبح منتهيًا، فسرعان ما كانت قوات الأعداء تخترقها من كل الأنحاء، وورد فى أحد نصوص تابيكا:

«أتى الأعداء من الكاسكا، وغزوا كل أرض الحيثيين حتى ننياسا، ومن المناطق الدنيا أتت قوات ارزاوا المعادية، واجتاحت هى الأخرى بلاد الحيثيين، وأصبحت تيوانيا وأودا حدودهم، ومن الحدود الأبعد، أتى أراونان المعادين واحتلوا حتى جاسيًا. ومن الحدود القصوى، جاء أزيان الأعداء واجتاحوا كل البلاد العليا حتى ساموحا. وجاء الإسيوان واجتاحوا منطقة تيجاراما، ومن بعيد، جاء الأرماتانان الأعداء، واجتاحوا أيضًا أراضى الحيثيين حتى وصلوا إلى مدينة كيزوادانا وجعلوها حدودهم. وحاتوسا المدينة العاصمة، أحرقت بأجمعها»(52).

ألقت رسائل تابيكا بظلال قاتمة وكأنها تتنبأ بما هو آت، وزودتنا بأدلة موثقة معاصرة للأحداث فى آخر أعوام تلك المرحلة، بل ربما آخر أشهر

تلك المرحلة عن الحياة فى المستوطنات الحيثية فى شمال البلاد بالقرب من الحدود الشمالية، وربما تعد أيضا صورة مصغرة لأحداث عالم ذلك الزمن السابق مباشرة لانهيار الامبراطورية الحثينية الأولى، تحت وطأة هجوم الأعداء على البلاد من كل الاتجاهات، وكما لاحظنا، فإن الملك الحثينى الذى يبرز اسمه عبر تلك الأحداث وهو تودحاليا الثالث، كان قد أجبر على هجر عاصمته وأقام بلاطا فى المنفى. وظل البلاط هناك حتى تمكن من تجميع قواه هو وابنه سبيلوليوما، وتمكن الحثينيون من الانتصار والعودة إلى وطنهم مظفرين، ومع صعود سبيلوليوما إلى عرش الحثينيين، شهدت البلاد طفرة صعدت بها إلى آفاق تاريخية جديدة، فتحت قيادة سبيلوليوما، بدأت البلاد بداية قوية جديدة مكنتها أن تظل على مدى قرن بعد ذلك، أقوى مملكة فى عالم الشرق الأدنى القديم.

رسائل من القائد العسكرى الميدانى فى سوريا

من أهم الملامح المميزة للرسائل التى عثر عليها فى مواقع ماسات، وأورتاكوى وكوزاكل ١ سمة الفورية والآنية، ففى وقت كتابة الرسائل، كانت الأحداث التى تسجلها الرسائل مازالت فى زمن تشكلها، وكل موقع حفظ يزودنا بمعلومات يومية عن الحياة والأحوال التى عايشها كاتبوا الرسائل فى المراكز الإدارية الإقليمية فى المملكة الحثينية. ولا تقل قيمة عن ذلك، الرسائل التى أرسلها القادة العسكريون من جبهات القتال البعيدة عن الوطن،. ولسوء الحظ، فإن كم الرسائل العسكرية الذى بقى حتى عصرنا قليل للغاية.

ونعلم من خلال قائمة تعليمات أصدرها الملك الحثينى الأكبر مجموعة الواجبات والمسئوليات الملقاة على عاتق القادة الميدانيين(53). كذلك تمدنا الرسائل التى كتبها أولئك القادة بصور انطباعية عن الحياة اليومية، والأمور الشخصية، والتحديات والمخاطر التى كانت تواجههم هم ورجالهم فى المناطق البعيدة عن مملكتهم.

وعلى ضوء قلة تلك الرسائل العسكرية التى أتيحت، كان لاكتشاف رسالة فى دار سجلات حفظ الرسائل فى أوجاريت عام 1956، كتبها قائد عسكرى ميدانى، ما جذب اهتمام الباحثين(54). كانت أجزاء الرسالة المحطمة بين مجموع رسائل عددها 335، تدور حول مختلف الموضوعات، وكشف عنها مطمورة داخل بقايا منزل خاص قديم كان ملكًا لأهم شخصية فى أوجاريت، ولم يكن يبعد كثيرًا عن قصر المدينة(55). وكان القائد العسكرى الذى كتب (أو أملى) الرسالة يدعى سومى [--](56)، ولسوء الحظ لم يعرف اسم الملك الحثينى الذى كانت الرسالة موجهة إليه، أو على الأقل لم يكن مسجلاً فى الأجزاء التى عثر عليها من الرسالة. وفى الوقت الذى كتبت فيه تلك الرسالة، كان سومى [--] والقوات التى تحت قيادته قد قضوا خمسة أشهر فى ميادين العمليات بصفتها قوات أمامية، كانت مهمتهم الدفاع عن الجبهة الاستراتيجية الهامة فى المنطقة الواقعة جنوب عمورو، بين جبل لبنان والبحر المتوسط، لحمايتها من القوات المصرية.

كان التوتر فى المنطقة على أشده، فقد كانت مصر قد اتخذت قرارًا باستعادة المناطق العمورية (السورية) التى فقدتها لصالح الحثينيين، عندما نقل قائدها المحلى عزيرو ولاءه من مصر إلى الحثينيين فى عهد سبيلوليوما. ولأنه كان مسئولاً عن خط المواجهة الأول، كان رجاله قد خاضوا مواجهات عديدة ضد العدو، إلا أن الخسائر التى منيت بها قواته والشتاء القاسى تجمعا معًا ضده ووضعاه فى مأزق، كان سومى [--) قد كتب قبل ذلك بضع مرات إلى الملك طالبًا إرسال تعزيزات عسكرية وإمدادات، لكن كان من الواضح أنه لم تكن هناك أية استجابة، وكتب من جديد، وهى تلك الرسالة التى نعرضها، وشدد على طلبه بإلحاح، قال: **«سيدى، ماهى المخارج المتاحة أمامى؟ لخمسة أشهر والبرد يجمدنا، عجلاتى الحربية تحطمت، خيولى نفقت، وقواتى فقدت»**(57).

كان العدو يشن هجمات ليلية لا تنقطع، تمكن خلالها من اختراق الدفاعات الحثينية، ولم يتم صدهم إلا بعد معركة شرسة داخل الحصن ذاته:

«هوجمنا مرة بعد مرة فى منتصف الليل، واشتبكنا فى معركة شديدة معهم، قام رجالى بصدهم، وغنمنا معداتهم وأسلحتهم، كانت المعركة داخل الحصن ذاته».

وتم أسر أحد جنود الأعداء، وتحت وطأة تعذيبه واستجوابه أفضى بمعلومات مقلقة: الفرعون ذاته كان يتأهب للمجيء بنفسه للمنطقة، ويدل ذلك دلالة قاطعة أن حملة عسكرية مصرية كبرى تعد الآن، تحت قيادة الفرعون ذاته. فإن صدق ذلك، فإن أى مقاومة يقودها سومى [--] وقواته تصبح بلا قيمة، لذا كتب فى رسالته: **«لا قدر الله أن يأتى ملك مصر سريعًا، لأننا لن نتمكن من التصدى له بالقوة، لا قدر الله أن يأتى ملك مصر إلى هنا».** كان سومى [--] يتمنى أن تكون تلك المعلومات غير حقيقية، أو أن يبدل الفرعون رأيه ويرسل قوات استكشافية فقط يمكنه التصدى لها، بافتراض أن فرق العجلات الحربية وفرق المشاة التى طلبها تصل إليه بسرعة، وأضاف: **«هل يرسل الملك القوات والعجلات الحربية، حتى يتسنى لنا أن نقاتلهم ونهزمهم بالقوة، ضربة قوية ونفنيهم» وإلا «إذا لم نحاربهم، ليكن معلومًا لسيدى سيعودون كل عام لمحاربتنا، وسوف يداوم (الفرعون) على إرسال (قوات) ضدنا».**

من كان متلقى تلك الرسالة؟ بينما يصدق احتمال أنه كان حاكم محلى سورى، تابع للملك الحثينى، إلا أن الأقرب للاحتمال أنه كان ملك الحثينيين الأكبر، والسؤال الذى يطرح نفسه هو، أى ملك منهم؟

على وجه التقريب تشير كل رسائل الأرشيف إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولا يدع ذلك مجالاً لشك أن ذلك الأرشيف كان معاصراً لواحد أو أكثر من أسرة الرعامسة فى مصر، وتاريخيًا، يتناسب ما ورد فى تلك الرسالة مع التوتر الذى وقع بين الحثينيين ومصر، بسبب المناطق الفاصلة المتنازع عليها، وهو التوتر الذى تحول إلى صراع عسكرى فى البداية بين سيتى الأول وميواتاللى(58)، ثم بين ميواتاللى وابن سيتى الأول، الملك رمسيس الثانى فى قادش عام 1247 قبل الميلاد، ولكن على

خلفية لغوية ذهب البعض إلى أن تلك الرسالة لا تمت إلى تلك المرحلة، وأنها تتلائم وتتوافق مع عصر العمارنة، وأن أحد نصوص المجموعة على الأقل تعود مفرداته إلى الفترة ذاته،ا أى إلى مرحلة العمارنة(59)، لو صدق ذلك، فإن الرسالة تكون موجهة إلى سبيلوليوما(60).

وبذلك تكون الأحداث التى تشير إليها الرسالة قد وقعت مباشرة بعد نقل عزيرو لولائه من التاج المصرى إلى التاج الحثينى، وبالتالى انتقال كل منطقة عمورو من منطقة نفوذ مصرى إلى منطقة نفوذ حثينى. وبناء على ذلك نستنتج أن أخناتون كان قد قام برد فعل فورى فى محاولة لاستعادة على الأقل بعض أجزاء المناطق المفقودة - بالأمر بشن غارات متتابعة من قواته المتمركزة هناك على القوات الحثينية المتمركزة حديثًا بالمنطقة كأعمال عسكرية تمهيدية قبل وصول الحملة العظمى، التى كان قد انتوى أن يرأسها بنفسه، وكان ذلك يعنى نشوب حرب شاملة بين مصر والحثينيين، ولكن، إن كانت مثل تلك الحملة الكبرى قد أعد لها فعلاً، فإن كل مخططاتها قد أجهضت بموت الفرعون.

فى إطار ذلك السيناريو يبدو أن ذلك الخطاب لا يثير أى اهتمام لدى سبيلوليوما- أو على الأقل التأخر فى الاستجابة - فى ضرورة تلبية طلبات القائد الميدانى الذى عهد إليه بحماية الجبهة الجديدة للولايات، التى نقلت ولاءها إليهم فى سوريا، والتى كان من المرجح أن تكون مهددة أو أن يخسروها.

أما تقاعس الذى كان الخطاب موجهًا إليه فى الاستجابة العاجلة والحاسمة فلا يتفق مع ما هو معروف عن سبيلوليوا، فكل المصادر الأخرى تشير إلى أنه كان على درجة كبيرة من الالتزام وأحادى التركيز على مهمة الاستحواذ على منطقة سوريا وفرض هيمنته عليها، أما الانطباع الذى يفرضه نص الرسالة فيختلف تماما. ربما بالغ سومى [-] فى إلحاحه بسبب المخاطر التى تواجهه، مقابل تباطؤ سيده الأعلى فى الاستجابة، كما كان يفعل كثير من الملوك الخاضعين لحكم الفرعون

المصرى فى رسائلهم إليه، ومن جهة ثانية، كانت كل مصادر القوة العسكرية الحيثية توظف بشكل كامل، وربما كانت تأتى مناسبات وأوقات يجد فيها الملك الأكبر نفسه غير قادر على تلبية سريعة لطلبات من القادة الميدانيين بإرسال تعزيزات سريعة، مهما كانت خطورة الموقف الذى يواجهونه، إن كانت كل القوات مرتبطة بحملات عسكرية فى أماكن أخرى من المملكة.

وظلت النتائج التى ترتبت على رسالة سومى [--]، وكذلك الأحداث التى تلتها غير معروفة حتى الآن، إلا أن عدم اليقين لم يقتصر على ذلك، وبينما كانت هناك كثير من القرائن التى تدفع إلى نسب تلك الرسالة إلى مرحلة العمارنة، وانطباقها إلى حد بعيد، وتوافقها مع الأحداث التى ترتبت على تغيير عزيرو لولائه ونقله من فرعون مصر إلى الملك الحثينى، والتعرف على الملك الذى كانت الرسالة موجهة إليه على أنه سبيلوليوما، حين كان من يشغل عرش مصر حورمحب(٦١)، ولو أخذنا فى اعتبارنا التوتر الذى ساد العلاقة المصرية - الحثينية فى تلك المرحلة (كما يستدل عليها على سبيل المثال من حكايات مورسيلى) فإن الاحتمال المقبول أن حورمحب قام بالفعل بحملة عسكرية على سوريا، وهو افتراض له رصيده من الوجهة التاريخية. والاحتمال الآخر أن الرسالة كانت موجهة إلى ملك سورى محلى تابع للهيمنة الحثينية، والأقرب إلى الاحتمال أنه كان ابن سبيلوليوما(٦٢).

والأحداث التى تشير إليها رسالة سومى [--]، من الممكن أن تكون قد وقعت بعد تنصيب الملوك التابعين للحثينيين على قرقميش وحلب، ولو صدق ذلك، فإن المسئوليات الملقاة على عاتق الملوك الخاضعين فى سوريا كنواب للملك الحثينيى تجعل من المنطقى أن يوجه قائد ميدانى رسالته التى يطلب فيها تعزيزات عسكرية وإمدادات إلى واحد من الملوك التابعين بالدرجة الأولى(٦٣).

11

طلب عجيب

كان ذلك فى عام 1327. والمشهد الذى نعود إليه كان خارج الأسوار الحصينة لمدينة قرقميش على الضفة الغربية لنهر الفرات، كانت الإمبراطورية الميتانية العظمى قد انهارت وتداعت تحت وطأة الهجمات الضارية المتتالية التى شنها سبيللوليوما عليها. إلّا أن قرقميش التى كانت قوية التحصينات ظلت منيعة على الحثينيين، وجاء سبيللوليوما بنفسه ليرأس الجيش فى هجومه النهائى على المدينة، وفى غمرة انشغاله بالإعداد للهجوم، أبلغ أن هناك رسولاً قد أتى على وجه السرعة من مصر برسالة عاجلة من زوجة الفرعون، وبرغم انهماكه فى التخطيط لتدمير قرقميش، إلا أن فضوله غلبه لمعرفة ما تريده زوجة ملك مصر. وسرعان ما أمر أحد الكتبة بترجمة الرسالة التى كانت مكتوبة بالأكادية، كانت الرسالة تبدأ بحقيقة بسيطة وهى: «**مات زوجى**».. ثم تبعت تلك الحقيقة بطلب عجيب، أصاب الملك بالذهول، وتعجب قائلاً: «لم أصادف مثل هذا الشىء فى حياتى»، وسرعان ما تحولت دهشته إلى شكوك، وطلب أحد أبرز مستشاريه وصرح له بما يدور فى نفسه: «ربما كان ذلك خدعة»، هل يمكن الوثوق بزوجة الملك المصرى؟ هل هى مكيدة؟ وقررا إجراء مزيد من التحرى حول صدق الرسالة، وأوكل سبيللوليوما تلك المهمة إلى حاتو – زيتى، أحد كبار رجال البلاط، وقال له: «توجه إلى مصر، وعد إلىَّ بالحقيقة».

أمدتنا قصة رسالة الأرملة الملكية وسلسلة الأحداث التى ترتبت عليها بواحدة من أشهر الحوادث فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، وأكثرها إثارة للجدل. وتطرح الرسالة تساؤلات كثيرة، لم يتفق الباحثون على إجاباتها حتى الآن. فمن كانت كاتبة الرسالة؟ ومن كان زوجها الذى مات؟ ومتى

مات؟ وما المدة التى انقضت ما بين موته ودفنه؟ ومن كان مسئولاً عن النهاية المأساوية التى انتهت إليها الواقعة؟ وما هى الآثار بعيدة المدى التى ترتبت عليها؟ كل مكونات القصة سنعرضها وهى من أكثر القصص البحثية إثارة للجدل، إلا أن الصفحة الأخيرة منها اختفت وضاعت.

ومصدرنا الرئيسى للمعلومات عن تلك الرسالة وما تلاها من حوادث غامضة ليس أرشيف تل العمارنة، بل ولا حتى من أى مصدر مصرى، مصدر القصة موجود فى فقرة من بين الفقرات التى سجلت قصة حياة سبيلوليوما، والتى كتبها ابنه الملك مورطيلى(1)، وعبارات الرسالة الهامة مذكورة على أجزاء من لوح طينى ما زال بحالة جيدة عن حياة سبيلوليوما، وهى تحتوى على المناشدة بالطلب الذى أثار ذهول ودهشة متلقى الرسالة، يذكر نص الرسالة:

«مات زوجى، ليس لى ابن، وعلمت أن لديك كثيرًا من الأبناء الذكور، لو أعطيتنى أحد أبنائك سأجعله زوجًا لى، لن أخذ أبدًا واحدًا من خدمى وأجعله زوجى(2).» ويمكن أن نشعر بقوة الاعتداد بالذات والتصميم البادى فى كلمات الرسالة، إلا أن الملكة كانت على حافة اليأس، مات زوجها دون أن ينجب وريثًا، وبموته أصبح الخط الوراثى منقطعاً، ولم يكن للزوجة الثكلى أسرة يمكنها أن تعتمد عليها، فماذا يكون مصيرها فى مثل ذلك الموقف؟ لقد خانتها مشاعرها فى آخر كلمات الرسالة: «**أنا خائفة**».

هوية الملكة المصرية

من كانت تلك الملكة التى أصبحت أرملة فرعون مصرى مات لتوه؟ تذكر قصة حياة سبيلوليوما أن اسمها كان «داهامانزو» ولسوء الحظ، لا يعاون ذلك الاسم كثيراً فى معرفة هويتها، لأن ذلك الاسم لم يكن إلا الوسيلة الحثينية فى كتابة اللقب المصرى الذى يعنى «زوجة الملك»، كل ما يمكننا التيقن منه هو أن الرسالة كتبت فى الأعوام الأخيرة للأسرة الثامنة عشرة المصرية الشهيرة. ويمكننا أن نضيق الفجوة لنحدد بيقين أنها

كـتـبت فى أحـد عـهـود آخـر ثلاثة ملوك من الأسـرة ١٨ المصـرية، وهم أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون، واحد من أولئك الثلاثة أدى موته إلى كتابة تلك الرسالة، ولكل واحد منهم مؤيدوه بين الباحثين المعاصرين كزوج للأرملة التى كتبت تلك الرسالة.

إلا أن هناك مفاتيحًا تؤدى إلى الاستدلال الأكثر دقة، أولها: أن قصة حياة سبيلوليوما ذكرت اسم الفرعون الميت، وأسمته باللغة المسمارية الحثينية نيفوروريا أو نهبوروريا، وهى الوسيلة التى كان الحثينيون يسـجلون بهـا الاسم الأول للملك، وهو أحـد الأسـمـاء الملكيـة المصـرية الرسـمية، ولنقـارنه بالأسـماء الأولى للملوك الثلاثة وكـانت على التتـابع: أخناتون - نفرخبرورى، سمنخ كارع - أنخ خبرورى، توت عنخ آمون - نب خبرورى، ومن الواضح أن المدون فى النص الحثينى وهو نب بحروريا يماثل تماما الاسم الأول لتوت عنخ آموت.

ثانيًا: النقطة الهامة جدًا فى رسالة الأرملة أن زوجها مات دون أن يترك وريثًا. كـانت الأسـرة الثـامنة عشـرة تتـأرجح على شـفـا الزوال والانقراض، فى الوقت الذى مـات فيـه أخناتون، إلا أنه كـان مـازال لديه سمنخ كارع؛ كولى للعهد ليخلفه على عرش مصر، وكذلك خليفة آخر محتمل وهو توت عنخ آمون (والذى يحتمل أنه ابنه، ولكن من امرأة غير نفرتيتى)، وبموت توت عنخ آموم أصبح الخط الوراثى العائلى منقطعًا.

بددت أرملة الفرعون أى شك برفضها إحياء خط وراثى جديد بزواجها واحدًا من العامة، لقد كانت بحاجة إلى أمير تجرى فى عروقه دماء ملكية، حتى تعيد الهيبة والسلطة لعرش مصر، حتى لو كان أميرًا من دماء أجنبية، فلو تعرفنا على الفرعون الميت بأنه كان توت عنخ آمون، فإن داهامانزو المذكورة فى السيرة الذاتية الحثينية لابد أن تكون زوجة توت عنخ آمون الملكة أنخسن آموت والتى كان اسمها أنخسن آتون فى عهد أخناتون فى مرحلة تل العمارنة، كانت الثالثة فى الترتيب العمرى بين بنات أخناتون ونفرتيتى، وربما الأخت غير الشقيقة لزوجها توت عنخ آمون،

وكانت تكبره بعامين أو ثلاثة، وأصبحت أرملة فى بدايات العشرينيات من عمرها، وهى المرأة، كما أعتقد، صاحبة الرسالة الى أذهلت ملك الحرب الحثينى الشديد.

وهناك أدلة أخرى كثيرة تدعم هذا التخمين(3)، غير أن عدداً من الباحثين مازال لا يقبل أن توت عنخ آمون وأنخسن آمون هما الشخصيتان المصريتان المعنيتان فى تلك القصة الشهيرة(4)، وعلى القراء الذين يرغبون فى الحصول على تفاصيل أكثر بشأن هوية الملك الميت وزوجه الرجوع إلى الفرضيات الأخرى المحتملة، فنفرتيتى، زوجة أخناتون الرئيسية، وميريت آتون إحدى بناته تعدان من الاحتمالات الأخرى المطروحة فى حالة ما كان الملك الميت هو أخناتون أو سمنخ كارع.

إلا أننى أظل مقتنعًا أن الأرملة التى أرسلت عرضًا بالزواج إلى الملك الحثينى لم تكن إلا أرملة توت عنخ آمون، انخسن با آتون / أنخسن آمون(5). ومن الأفضل أن نقر بذلك بوضوح، لأنه الافتراض الجوهرى فى بحثنا حول التداعيات العجيبة للأحداث التى نجمت عن تلك الرسالة.

تاريخ موت الملك

إن تحديد تاريخ موت الملك على غاية قصوى من الأهمية لحسم الجدل المثار حول تلك الرسالة. وكما لاحظنا، تلقى سبيللوليوما نبأ موت الملك المصرى حين كان ضاربًا حصاره حول مدينة قرقميش، وكان موسم الأعمال العسكرية قد انقضت منه شهور طويلة، ونعلم من سيرته الذاتية أن الأمر استغرق منه ثمانية أيام، حتى تمكن من غزو قرقميش، ثم قضى بعض الوقت فى المدينة لتنظيم توزيع الغنائم ولتنظيم عملية نقل أسرى الحرب إلى عاصمته حاتوسا. ثم نصب ابنه شارى - كوشوه ملكًا نائبًا عنه على عرش قرقميش، بعد ذلك عاد إلى حاتوسا على وجه التقريب فى نهاية أكتوبر أو بداية نوفمبر، قبل هطول الثلج.

ولنجعل ذلك الوقت نقطة بداية ننطلق منها إلى ما هو سابق عليها،

استغرقت رحلة عودة الجيش الحثينى بالعربات المحملة بغنائم المعارك خمسة أو ستة أسابيع على الأقل، وهذا يجعلنا نقدر أنهم غادروا قرقميش فى نهاية شهر سبتمبر.

وإذا قدرنا ثلاثة أسابيع لترتيبات ما بعد الانتصار على قرقميش، فإن ذلك يصل بنا إلى بدايات سبتمبر. ولابد أن حصار قرقميش حدث فى ذلك الوقت، وهو الوقت ذاته الذى تلقى فيه سبيللوليوما الرسالة القادمة من مصر.

وجلب تلك الرسالة ،التى تضم نبأ موت الفرعون، رسول أتى من مصر حتى قرقميش، والرسول الذى يسافر بأقصى سرعة من ممفيس التى أصبحت من جديد العاصمة الملكية المصرية، يمكن أن يقطع تلك الرحلة فى حوالى أسبوعين. ولابد أن الفرعون قد مات قبل ذلك بفترة قصيرة، وأحد الأسباب الرئيسية لذلك الاستنتاج أنه قبل حصار قرقميش بفترة قصيرة، كان الجيش المصرى قد شن هجومًا على مدينة قادش، والتى أصبحت فى ذلك الوقت من المدن الخاضعة للنفوذ الحثينى، ولم يكن من الممكن أن يقدم الجيش المصرى على مثل ذلك الهجوم إذا كان ملكه قد مات، خاصة إذا كان فى مثل حالته بلا وريث يرتقى العرش من بعده، فى مثل أزمة كتلك الأزمة لا يبدو من المعقول أن يقدم الجيش المصرى على مهاجمة قوة عظمى مثل الحثينيين، خاصة بعد خروجهم مظفرين من معاركهم ضد الميتانيين وتواجدهم على أطراف سوريا.

لو أخذنا كل تلك الحقائق بعين الاعتبار، يمكننا أن نقول بقدر كبير من الثقة أن الفرعون المعنى فى الرسالة قد مات فى شهر يوليو أو أغسطس من عام 1327.

إلا أن ذلك التاريخ يمثل مشكلة كبرى بالنسبة لأغلب علماء المصريات، لو كان الملك المعنى هو توت عنخ آمون، والسبب فى ذلك يعود إلى دليل نباتى عثر عليه بمقبرته، فكما سجل مكتشف المقبرة هاوارد كارتر الحالة التى وجد عليها المقبرة، قال:

«من أكاليل الزهور والفاكهة التى عثر عليها بالمقبرة، من الممكن أن نستدل على الفصل من العام الذى سجى فيه جثمان توت عنخ آمون فى تلك المقبرة، فالزهور الموجودة فى إبان إيناعها فى شهرى مارس وأبريل، وكذلك فاكهة عنب الثعلب وغيرها تنضج فى البرك الراكدة فى مصر الدنيا فى الفترة من يوليو حتى نوفمبر، إلا أنه من المحتمل أنها كانت مزروعة فى خزانات مائية فى طيبة، مما يجعلها تزهر مبكرة عن موعدها، لذلك يمكننا أن نقرر ونحن مطمئنون أن الموسم من العام الذى دفن فيه توت عنخ آمون كان يقع ما بين منتصف مارس حتى نهاية ابريل(6).

وبالاستناد إلى تلك المعلومات، توصل علماء المصريات إلى أن توت عنخ آمون مات فى شهر ديسمبر أو يناير، ولا يوجد دليل مسجل يثبت ذلك فى أى مصدر مصرى، أى أن الأمر كله استدلال، اعتمد على ما هو معروف من طقوس دفن الموتى الثابتة فى مصر، فطبقاً لتلك الطقوس، لا يتم الدفن إلا بعد سبعين يوماً من الوفاة، لا يوم واحد أقل ولا يوم واحد أزيد، وأثناء تلك المدة، تعد كل التجهيزات اللازمة ليوم الدفن(7)، ومن هنا جاء افتراض أن الوفاة حدثت عند نهاية ديسمبر أو بداية يناير.

ويبدو أن ذلك الافتراض يرتكز على أسباب موضوعية مقبولة، فخلال كل تاريخ مصر الفرعونية، لم يُخل المصريون أبداً بتلك الطقوس إلا مرة واحدة ترجع إلى الأسرة الرابعة(8). وهكذا، إذا تعرفنا على فرعون الرسالة على أنه توت عنخ آمون، وأن موته حدث فى يوليو أو أغسطس السابقين على الدفن فى مارس أو أبريل، فإن ذلك يجعل الفترة الفاصلة بين الموت والدفن تصل إلى سبعة أشهر على الأقل، ومثل ذلك الخروج على التقاليد المصرية الصارمة لا يمكن قبوله، إلا إذا كان الدافع إليه ظروفاً استثنائية جداً.

الظروف الاستثنائية

لقد مرت مصر بظروف استثنائية اضطرت معها إلى اتخاذ تدابير

استثنائية بعد موت توت عنخ آمون، ومهما كان السبب الذى أدى إلى موته(9) المفاجئ وغير المتوقع وهو فى آخر العقد الثانى من عمره ترتب على موته وقوع مصر فى أزمة، لم يكن توت عنخ آمون قد أنجب وريثًا للعرش، كما لم يكن هناك فرد من السلالة الحاكمة ليليه على عرش مصر ولا حتى طفل صغير كما حدث معه هو حين ورث عرش مصر وهو طفل صغير، وبدون وجود عائلة ملكية قوية، وفى الوقت الذى كانت فيه مصر مازالت تحاول التعافى من آثار مرحلة تل العمارنة، كان يمكن أن تنهار مصر وتنقسم من جديد على نفسها، وتصبح مرة أخرى فريسة للأجانب، كما حدث فى ذلك العهد المظلم قبل ظهور الأسرة الثامنة عشر، كان التوتر بين مصر والحثيين على أشده، ويتزايد مع الوقت، فهل تخضع مصر من جديد لغزاة من الشمال؟.

تلك المصاعب هى ما شغل الملكة الشابة، ودفعتها تلك الاعتبارات إلى اختيار أحد الحلول المتطرفة - حتى ولو كان على حساب التقاليد المصرية العريقة - كملاذ أخير لاستعادة ثبات العرش واستقرار المملكة، فى محاولة منها لتحقيق تحالف دائم مع القوة العظمى الشمالية التى كانت تشكل أكبر خطرًا على مملكتها.

لو كان سبيللوليوما قد استجاب بالموافقة وبالسرعة اللازمة وحقق ما طلبته ملكة مصر الشابة، لكان الوقت المتاح كافيًا، أى خلال السبعين يومًا قبل الدفن، للأمير الحثينى ليصل إلى مصر، مختصراً المفاوضات التمهيدية والرسميات التى غالبًا ما تصاحب الزيجات الدولية الملكية، ثم يصعد إلى العرش ثم يقوم بأداء طقوس الدفن النهائية للملك الميت، كان من أركان شرعية الدفن أن يقوم بها الملك الجديد بذاته، وفى الظروف العادية كان الملك الجديد لا يكتسب شرعية هو الآخر، إلا إذا أدى بنفسه طقوس دفن الملك السابق، وكان لذلك أهمية أشد فى الحالة التى نتحدث عنها؛ إذ كان الذى سيعتلى العرش أمير أجنبى، ولابد أن الملكة كانت تنتظر استجابة أفضل مما لقت دون أدنى تأخير، كان عنصر الوقت هامًا

ولا يترك لها مساحة زمنية كافية، وكان الموقف يتطلب التصرف بأقصى سرعة.

أما سبيللوليوما فقد كان فى حيرة ودهشة، كان العرض المقدم له عرضًا مغريًا لا يجود به الزمن، كانت أمامه فرصة نادرة لفرض هيمنته ونفوذه على سائر أرجاء الشرق الأدنى، إذا اعتلى ابنه عرش مصر، دون إراقة قطرة دم حثينية واحدة، كانت الزيجات بين بيوت كبار الملوك شائعة ومعروفة، إلا أن الفرق هنا أن أرملة توت عنخ آمون لم تكن لتعرض فقط زواج تحالف، بل كانت تعرض على ابن سبيللوليوما عرش مصر، وبذلك يصبح سبيللوليوما وابنه ملوكًا على أكبر إمبراطوريتين فى الشرق الأدنى القديم بأجمعه، فلماذا إذن كان سبيللوليوما متشككًا إلى هذا الحد من جدية العرض؟

لابد أن نعود إلى الخلف قليلاً للإجابة على ذلك السؤال، ففى عهد أخناتون قامت علاقات ودية بين مصر والحثينيين، وبالرغم من ذلك ظل التهديد الحثينى على مصالح مصر فى سوريا قائمًا، بل إن الحثينيين اكتسبوا ولايات عديدة فى سوريا كانت خاضعة للنفوذ المصرى، بعد نقل الحكام المحليين للولايات السورية ولاءهم من مصر إلى سبيللوليوما، وكانت مملكة قادش الصغيرة واحدة من تلك الممالك، إلا أن قادش كانت ذات موقع استراتيجى هام. وعلمنا أن أخناتون كان قد شرع فى الإعداد لحملة كبرى على سوريا؛ لاسترداد الولايات التى فقدها، إلا أن التجهيز لتلك الحملة توقف فجأة بموت أخناتون، واستمر «السلام» المتوتر مع الحثينيين طوال الأعوام التى حكمها توت عنخ آمون، وحين كان سبيللوليوما منهمكًا فى آخر عملياته العسكرية ضد الامبراطورية الميتانية المنهارة، وردت إليه أخبار مزعجة، وهى أن قوة عسكرية مصرية شنت هجومًا على مدينة قادش، ورأى سبيللوليوما فى تلك الغارة عملاً واضحًا من أعمال العدوان، واستجاب إلى ذلك استجابة فورية، أرسل قوة عسكرية من قواته إلى قادش، هاجمت القوات المصرية وطاردتها وقامت

بهجوم مضاد على مناطق النفوذ المصرى فى جنوب سوريا، وأصبحت المملكتان فى حالة حرب.

ومن شبه المؤكد أن توت عنخ آمون كان من أمر بشن ذلك الهجوم المصرى، بناء على مشورة مستشاريه، إلا أنها كانت حملة دونكيشوتية إلى حد بعيد، وربما كان وضع الفرعون الصغير داخل مملكته كان قد أصبح فى خطر متزايد، وأن أحوج ما يحتاجه لمواجهة حرج موقفه الداخلى تحقيق انتصارًا عسكريًا خارجيًا، ليثبت أنه هو الآخر «قاهر الآسيويين» مثل أسلافه الذين سبقوه، وكان إدماء أنف سبيللوليوما العظيم بالانتصار عليه سيصبح عيدًا وحدثًا يسجل على جدران المعابد المصرية، إلا أن الهجوم المصرى على قادش انتهى بكارثة، كان الهجوم بمثابة مقامرة يائسة إلا أنها فشلت، وبعدها بفترة قصيرة مات الملك. ومن غير المعروف إن كان للحدثين علاقة ببعضهما أم لا.

على أى حال، كانت مصر بتلك الحملة قد أعلنت الحرب على الحثيين، وبعدها بزمن قصير يجد سبيللوليوما زوجة الملك الذى أعلن الحرب عليهم تطلب الوحدة معه عن طريق الزواج بأمير من أبنائه يرتقى عرش مصر، لذلك كانت شكوك سبيللوليوما منطقية.

فمن وجهة نظره كان الهجوم المصرى على قادش عملاً من أعمال الخيانة السافرة، فهل يمكنه الآن أن يخاطر بوضع ابنه فى أيدى مقترفى تلك الخيانة؟ فضلاً عن ذلك، وحتى لو آمن بصدق طلب الملكة الشابة الأرملة، فهل يمكنه الإيمان بأنها تملك من السلطة ما يجعلها قادرة على الوفاء بوعدها، أى أن يرتقى ابنه إلى عرش مصر؟

كان سبيللوليوما يدرك أنه لابد أن تكون هناك معارضة شديدة فى مصر لذلك القرار المتطرف من الملكة الشابة، وكما كانت الحقيقة المجردة أن عرض الملكة كان آخر محاولة يائسة؛ لدعم أسرتها الملكية المنقرضة إلا أنها لم تكن على يقين من قدرتها على فرض إرادتها على رعيتها، لذلك لم يجد سبيللوليوما أمامه إلا أن يتقصى حقائق وجوانب وأبعاد ما يحدث

عن طريق إيفاد شخصيات كبيرة من بلاطه، ولذلك أرسل حاتوسا - زيتى إلى بلاد النيل.

زيارة مصر ونتائجها

كانت أنخسن آمون تنتظر رد الملك الحيثيني بفارغ الصبر، وأخيراً وردت أنباء بأن وفداً رفيع المستوى قد جاء من لدن الملك الأكبر، ولكن لم يكن الوفد يضم الأمير الذى تنتظره، لم يكن على رأسه إلا مبعوثًا ملكيًا جاء لتحرى الأمر، وبلا شك كان رد فعل الأرملة الشابة يمور بالغضب والغيظ، فلن يؤدى وصول ذلك الوفد إلى إتمام طقوس دفن زوجها، ما لم يكن معهم الأمير الحثينى الذى يتزوجها ويعتلى العرش، ليقوم بطقوس دفن الملك بانتهاء السبعين يومًا التى تلى الوفاة، بل حتى بالرغم من ذلك، لم تكن قد توصلت إلى اتفاق نهائى مع الملك الحثينى، فمع أن الملك الحثينى كان مهتمًا بعرضها، إلا أنه ما زال بحاجة للاطمئنان من صدق وعودها وقدرتها على تنفيذها، وأن ابنه لن يكون عرضة لأى خطر فى حال مجيئه إلى مصر حسب رغبتها. وطبقًا للأعراف الدبلوماسية المتبعة، سجل الملك الحثينى كل ذلك فى رسالة سلمها لها حاتوسا - زيتى مع رسالة شفاهية أبلغها لها بالنيابة عن ملكه سبيللوليوما.

ووجدت أنخسن آمون نفسها فى ورطة، كان أمام حاتوسا - زيتى وقت طويل يتم فيه تقصيه للأحوال والظروف، ولم يكن بإمكانه العودة إلى حاتوسا قبل الربيع التالى - أى بعد بضعة شهور. وهكذا، حتى لو وافق سبيللوليوما فى النهاية على مطلبها فإنه ما زال أمامها أشهر أخرى عديدة قبل أن يصل الأمير الذى يختاره سبيللوليوما من بين أبنائه كعريس لها إلى مصر، فهل بإمكانها الانتظار كل هذا الزمن، دون أن تتوصل إلى حل للمأزق الذى وجدت نفسها فيه بموت زوجها دون وجود وريث للعرش؟ كلما طال الانتظار، كلما زادت فرصة معارضيها فى إفساد خططها، وكلما زاد أيضًا تعرضها هى للمخاطر، كانت تلك هى الجوانب

التي ظلت تؤرقها أثناء وجود المبعوث الحثيني في مصر.

إلا أن عزيمتها لم تلن أبدًا فيما يخص أمرًا واحدا سجلته في رسالتها: «لن آخذ أبدًا واحداً من خدمي وأجعل منه زوجًا لي»، فلكي تتجنب الزواج من واحد من العامة غير منحدر من سلالة ودماء ملكية أصرت على المرور بتلك المخاطرة حتى النهاية، أصبح الأمر حرجًا بالنسبة لها، وكان على سبيللوليوما أن يستجيب لطلبها في النهاية ويرسل أميراً حثينيًا إلى مصر.

في الربيع التالي، عاد حاتوسا - زيتي إلى بلاده، وكان بصحبته الدبلوماسي المصري رفيع المستوى السفير حاني، والذي قام بمهام كثيرة كما يظهر من خلال رسائل تل العمارنة، وعقد لقاءً مع الملك الحثيني في القاعة الكبرى من القصر الملكي في حاتوسا، وسلمه حاني رسالة أخرى من الملكة، وفيما كانت الرسالة تترجم عن الأكادية، تسلم سبيللوليوما تقريرًا من مبعوثه عن نتائج بعثته إلى مصر، لذلك كان متأهبًا للغضب الطاغي على نص رسالة الملكة إليه:

«لماذا قلت هم يخدعونني بتلك الطريقة؟ هل لي ابن، هل كان يمكن أن أكتب عن خزيي وخزي بلدي إلى ملك أجنبي؟ أنت لم تصدقني بل وذكرت ذلك لي. الذي كان زوجي مات، ليس لي ابن، ولن آخذ أبدًا واحدًا من خدمي وأجعل منه زوجًا لي، أنا لم أكتب بذلك إلى أي بلد آخر، إليك وحدك كتبت، يقولون أن لديك كثيرًا من الأبناء، هب لي واحداً منهم، سيكون زوجًا لي، وسوف يكون ملكًا على مصر»(10).

والمقتطف السابق من رسالة انخسن آمون الثانية إلى سبيلوليوما التي ورد نصها في السيرة الذاتية لسبيللوليوما، كما سجلها ابنه مورسيلي، وقد عثر بالفعل على أجزاء من رسالتها أظهرت أن مورسيلي قد نقل ما جاء بها بأمانة، وفي نص الرسالة الأصلي التي عثر على أجزاء منها أشارت أنخسن آمون إلى موت زوجها وأكدت على عدم وجود أبناء له يرثوا عرش مصر.

كذلك لامت سبيللوليوما على شكه فى رسالتها الأولى، وإرساله مبعوثه حاتوسا - زيتى إلى مصر للتيقن من صدق ما ذكرته وتقييم الأمر(١١). (من الواضح أن مورسيلى قد أمر بإخراج رسالتها من دار المحفوظات، ليكون نصها أمامهم وهو يملى ذلك الجزء من سيرة أبيه على الكتبة).

ولم يكن سبيللوليوما فى حال تسمح له بقبول التأنيب. كان الهجوم المصرى السابق على قادش مازال عالقاً بذهنه، وقد ذكر ذلك فى رده، ألم يكن لديه أسباب قوية للشك فى نوايا المصريين؟ ألم تقم القوات العسكرية فى وقت قريب سابق بشن هجوم غادر بلا سبب على واحدة من مدنه؟ فلماذا يجب عليه الوثوق فى النوايا المصرية هكذا فجأة؟ قال فى رده على رسالتها:

«لقد كنت أنا نفسى أكن لكم الود والصداقة، ولكن أنتم اقترفتم شراً فى حقى، جئتم وهاجمتم قادش، ولما علمت بذلك، أرسلت قواتى وعجلاتى ونبلائى، وهاجموا مناطقكم، منطقة أمكا، ولما هاجموا أمكا، خفتم، وبعد ذلك طلبتم أحد أبنائى، كما لو كان واجبًا على، من الممكن أن يصبح أسيرًا، أنتم لن تجعلوه ملكًا»(12).

ولم تبدُ أى بوادر للتوصل إلى حل ناجح يرضى الطرفين، فتدخل المبعوث المصرى رفيع المستوى حانى بمهاراته الدبلوماسية الرفيعة:

«سيدى الملك، هذا خزى لبلادنا، ولو كان لدينا أى ابن للملك المتوفى هل كنا نحضر إلى بلد أجنبية ونطلب سيدًا علينا؟ لقد مات نبحورريا الذى كان سيدنا. وليس له ابن، وزوجته بمفردها وحيدة، ونطلب أحد أبنائك ليكون ملكًا على مصر ونطلبه ليكون زوجًا لملكتنا، فضلاً عن ذلك، لم نذهب إلى أى بلد أخرى، لم نأت إلا إليك، والآن يا سيدى، هبنا أحد أبنائك»(13).

وكان يدعم ذلك الشرح الودى تقرير مطمئن من المبعوث الحثينى، مما حسم الأمر بالنسبة إلى سبيللوليوما. وقلل مورسيلى فى سيرة أبيه الذاتية من وزن وقيمة الإنجاز الدبلوماسى المصرى ونسب الفضل إلى أبيه

بأجمعه، وقال: **«لأن أبى كان طيب القلب، استجاب لكلمة المرأة وأخذ على عاتقه إرسال أحد أبنائه إليها».**

إلا أن صفات الفروسية وطيبة القلب التى أدعاها مورسيلى عن أبيه كانت من أبعد الصفات عن شخصيته، كما أن رأى ابنه عنه يبعد بنا عن صفات الإباء والشجاعة والإصرار الذى يميز الأرملة الملكية المصرية، كانت أسباب سبيللوليوما فى استجابته لما طلبته المرأة مصلحة شخصية بحتة، كما كانت تلك هى دوافعه على الدوام، كان هدف ذلك الملك المحارب القاسى الطموح بعد أن خرج مظفراً من معاركه ضد الميتانيين، هو مد هيمنته وسيطرته على مصر وعلى ما تبقى من الإمبراطورية الميتانية المنهارة، لم يكن إلا هذا الدافع القوى الذى حدا به إلى الموافقة على إرسال أحد أبنائه إلى مصر.

لغز زانَّانزا

من من أولاده؟ كان لدى سبيللوليوما خمسة أبناء، إلا أن أكبر ثلاثة كانوا قد تولوا مهام كبرى، كان أرنو واندا قد أعلن وليًا للعهد، أما تليبينو وشارى – كوشوه فقد عينا ملوكًا على حلب وقرقميش على التوالى، أما مورسيلى، الابن الخامس فقد كان مازال طفلاً ولم يبق إلا زانانزا، الابن الرابع، وكان زانانزا هو من هيئ على عجل للتوجه إلى مصر.

وانتظر سبيللوليوما وصول التقارير عن تقدم ابنه فى مهمته، وجاءته الأخبار عن طريق مبعوث ملكى، كانت أسوأ ما يمكن أن يتلقاه من أنباء، مات زانانزا، أسوأ ما فى الأمر أن الفقرة التى تسجل موته فى السيرة الذاتية تالفة وغير واضحة، كل ما توصلنا إليه أن الأمير قتل وهو فى طريقه إلى مصر. إلا أن النص محطم، فيما يلى ذلك، مخفيًا هوية من قاموا بقتله. ولم يجد سبيللوليوما المفجوع إلا اتهام المصريين بالمسئولية المباشرة عن مصرع ابنه: **«أيتها الآلهة، لم اقترف إثمًا، إلا أن المصريين فعلوا ذلك ضدى».**(14)

ولم يكن هناك مفر من الانتقام. وأضفى التهديد، بنشوب حرب شاملة، أبعاداً جديدة إلى أزمة وراثة العرش في مصر، كان تعيين خليفة لعرش مصر لا يمكن أن يتأخر أكثر من ذلك، وتمت إجراءات وطقوس الدفن بعجلة، حتى إن طلاء حوائط المقبرة لم يكن قد جف بعد، أحد تلك الرسومات الجدارية يظهر الرجل الذى خلف توت عنخ آمون على العرش يرتدى ملابس كهنوتية، وهو يقوم بإجراء طقس فتح الفم المقدس للمتوفى، وهو الطقس الذى يعيد الميت إلى الحياة فى العالم الآخر، كما يضفى الشرعية على من يؤديه للميت بصفته الخليفة الشرعى على العرش، وكان اسم من أدى ذلك الطقس (آى) لم يكن (آى) ذاته من السلالة الملكية، ولكن المحتمل أنه يمت بالمصاهرة إلى الأسرة الملكية، ويفترض كثير من الباحثين أنه أبو نفرتيتى زوجة أخناتون، وفى كل الأحوال، كان (آى) من الشخصيات البارزة المرموقة فى البلاط المصرى على مدى زمن طويل، كان من أخلص وأقرب المستشارين إلى أخناتون، واستمر فى أداء دوره المتميز كمستشار أول للملك طول عهد توت عنخ آمون، كان فى ذلك الوقت قد أصبح طاعناً فى السن، فى السبعينيات من عمره، وأصبح ملكاً بالمصادفة، حين لم يكن هناك غيره مناسباً للجلوس على عرش مصر.

ولابد أن تحوم الشكوك حول (آى) بصفته من دبر اغتيال الأمير الحثينى، قد يدفع ذلك بأى امرئ إلى تكوين صورة ميلودرامية عن ذلك المستشار الملكى القوى، ذلك الذى يظهر فى خلفيات الرسوم الجدارية فى منزلة سامية حميمة مظهراً ولاءً نادراً للملك، بينما يكتم بين جوانحه تطلعاته لارتقاء العرش. وفى إطار ذلك المفهوم لشخصيته يصبح موت توت عنخ آمون بمثابة تمهيد للطريق لتحقيق طموحاته وتطلعاته، ولا يلبث أن يجد خططه على وشك الانهيار برفض أرملة الملك الميت له وبطلبها الزواج من أمير حثينى.

هل يعطى إصرارها، وتأكيدها المتكرر على رفضها الزواج بواحد من العامة انطباعاً أن (آى) عرض عليها الزواج؟ وبالرغم من جاذبية ذلك

التصور، إلا أنه لا يوجد على الإطلاق ما يدل على أن (آى) قد لعب أى دور فى صنع تلك الأحداث أو توجيهها إلى الوجهة التى اتخذتها، أو على وجه التخصيص أن يكون له أى علاقة بمصرع الأمير الحثينى وهو فى طريقه إلى مصر. ومثل كل قصص التحريات الشيقة، فإن الشخصية التى ينصبّ عليها الاتهام بوضوح يتضح فى النهاية أنها ليست الجانى.

إن التوصل إلى ترجيحات لا يعدو كونه مسألة لجوء إلى المنطق والمعقول. فلنفترض للحظة أنه كان لدى (آى) تطلعات إلى عرش مصر بعد موت توت عنخ آمون. فى هذه الحالة كان سيظهر نيته تلك أثناء وجود المبعوث الحثينى حاتوسا - زيتى فى مصر، كان من دواعى قلق سبيللوليوما الرئيسة التأكد من أن ابنه إذا ذهب إلى مصر لن يكون فى خطر من خصوم مطالبين بالعرش.

وكان أفضل وقت لتخريب مشروع الزواج المزمع من أمير حثينى أثناء وجود المبعوث الحثينى فى مصر، وهو يقوم بتحرياته حول وجود قوى مناوئة أو خصوم يطالبون بعرش مصر، كان ذلك أنسب وقت لآى، لإظهار ذلك، حتى يضمن أن التقرير الذى سيصل لسبيللوليوما سينهى أى احتمال لنجاح زواج التحالف.

لم يكن لدى (آى) الكثير الذى يمكن كسبه - بينما كان هناك الكثير الذى يمكن أن يخسره - فى تأخير أى مطالبة له بعرش الملكة قبل أن يقبل سبيللوليوما بزواج التحالف، الأقرب للاحتمال أن (آى) لم يكن لديه أبداً أى تطلعات لأن يصبح فرعونا، وأن تصعيده إلى سدة الحكم لم يكن إلا ترتيباً متعجلاً من قبل قرارات الساعة الحادية عشرة، أى قرارات اللحظة الأخيرة التى تم اتخاذها بعد وصول أنباء مصرع الأمير الحثينى زانانزا، وهو فى طريقه إلى مصر.

ولا يوجد شك فى أن (آى) بعد أن أصبح فرعوناً سعى بكل عزيمة إلى إقرار السلام مع سبيللوليوما، ونفى بكل عزم وصدق أى علاقة له بمصرع ابنه، وكتب مرة، ويحتمل مرات إلى سبيللوليوما لاثنائه عن اللجوء للحرب،

ونعلم ذلك من نص رسالة مهشمة أرسلها سبيللوليوما إلى (آى) ردًا على إحدى رسائله، وكالعادة المتبعة كان رد سبيللوليوما يتضمن فقرات من رسالة (آى)، واتضح من تلك الفقرات أن (آى) قال فى رسالته: «اتهاماتك لا مسوغ لها.. أنت تسعى إلى حرب ضدنا.. أنا أطلب السلام والإخوة. فيما يخص موت ابنك - أنا برىء منه تمامًا»(15) إلا أن ذلك لم يرض سبيلوليوما. فبناء على أوامره، عبر الجيش الحثينى إلى مناطق النفوذ المصرى فى شمال سوريا وشن هجمات شديدة على المدن الواقعة بالمنطقة، وأسروا بضعة آلاف عادوا بهم إلى العاصمة الحثينية، وكان لذلك عاقبة وخيمة تعد من سخريات الأقدار، فالأسرى جلبوا معهم وباء الطاعون، الذى ظل يحصد أرواح الحثينيين على مدى عشرين عامًا، وقضى على أعداد هائلة منهم.

وحتى اليوم مازال موت الأمير الحثينى لغزًا غامضًا، هل كان ضحية لقوى مصرية قررت الحيلولة دون اعتلاء أمير أجنبى لعرش بلادهم؟ هل كانت هناك توجهات لفئة من بين بنى جنسه كانت على استعداد لفعل أى شىء لضمان عدم إتمام التحالف مع مصر؟ أم أنه وقع فى كمين أعده رجال قبائل معادية لهم فى جنوب سوريا؟ هل كان ضحية لمؤامرة لم تكتشف أبعادها ولا خباياها حتى الآن؟ ظلت هذه الافتراضات مع افتراضات أخرى غيرها تطرح من آن لآخر، ولن نجد لدينا إلا الاستمرار فى التخمين حتى تظهر أدلة وبراهين جديدة.

إن الأحداث عاثرة الحظ، التى أدت إلى موت الأمير الحثينى، تضعنا فى الموقف الجدلى التاريخى الذى يدور حول «ماذا لو». أى ما الذى كان يصبح عليه التاريخ لو كان زانانزا قد وصل آمنا إلى مصر، وتزوج من انخسن آمون واعتلى عرش مصر؟ هل كان يمكن أن ينجم عن ذلك الزواج اتحاد بين أكبر مملكتين فى تاريخ الشرق الأدنى؟ هل كان لذلك «لو» كان قد حدث أن يغير مسار التاريخ؟ يحتمل لا، فمهما كانت أسباب موت الأمير الحثينى، كانت هناك بلا أدنى شك قوى مصرية شديدة تعارض

ذلك، كما يجب ألا ننسى أن سعى الأرملة الشابة للحصول على أمير ملكى حثينى لم يكن إلا آخر حل يائس من آخر فرد حى فى سلالة ملكية بادت جميعها، كان طلب زواج التحالف ذاك مقضيًا عليه بالفشل المؤكد من بدايته.

ماذا كان مصير أنخسن آمون؟ هل وجدت نفسها فى النهاية مجبرة على الزواج من أحد العامة - ويحتمل أنه جدها (لو كان آى بالفعل أبا نفرتيتى) حتى يصعد إلى العرش؟ بعد فشل زواج التحالف مع الحثينيين، لا نعرف أى شىء عن أنخسن آمون بعد ذلك، ولا توجد إلا شذرة بسيطة من المعلومات. ففى عام 1931 عرض، على عالم المصريات الإنجليزى بيرسى نيوبيرى، خاتم قديم من أحد تجار العاديات المصريين، وَجَدَ على فصه الزجاجى خرطوشين ملكيين إلى جانب بعضهما، يحتوى أحدهما على الاسم الأول لآى، ويحتوى الآخر على اسم أنخسن آمون، ويبدو أنهما توصلا إلى أحد الحلول التوافقية، ويحتمل أنه كان عن طريق الزواج، ففى النهاية وجدت أنخسن آمون نفسها مجبرة على قبول المصير الذى ظلت ترفضه قائلة: (**لن أتزوج أبدًا من أحد خدمى**)، قبل أن تختفى نهائيًا من كل السجلات.



12

رسالة إلى ملك ميسينيا



الاتصالات الميسنية بالشرق الأدنى

كان الشرق الأدنى بمثابة سوق رائجة ومنفذ حيوى لأنواع كثيرة من منتجات الجزر المتناثرة فى بحر إيجه، وحملت المراكب البحرية - التى تجوب أرجاء شرق البحر المتوسط - منتجات جزيرة كريت المنوانية وجزر إيجه إلى كل الموانئ الكبرى ومناطق التجارة على طول سواحل البحر المتوسط، وبذلك شقت المنتجات القادمة من جزر إيجه طريقها، عبر مسالك قوافل التجارة والطرق البحرية إلى قصور وبيوت الصفوة فى منطقة ما بين النهرين، والأناضول، ومصر .

وفى عالم يدرك مزايا وفوائد التجارة العالمية والتبادل الثقافى، من الصعب أن نتخيل عائلة ملكية، أو أى عائلة ثرية لم يكن لديها منتجات متميزة من صنع جزر بحر إيجه، أو لم تتذوق النبيذ الفاخر المنتج فى منطقة رائعة وغنية تدعى كريت، وبالفعل، تظهر جداريات المقابر المصرية فى المملكة الحديثة الهدايا والهبات التى يحملها زوار بحر إيجه إلى بلاد الفرعون المصرى، وهم بالتأكيد من الوفود التجارية، ولكن عدا ذلك الجانب الذى مثله التبادل التجارى، كانت الروابط بين ممالك الشرق الأدنى وحضارات جزر بحر إيجه وبلاد اليونان علاقات طفيفة غير ملموسة. فمن وجهة نظر استراتيجية أو سياسية، كانت البلاد الواقعة فى ما وراء البحر لا تحظى باهتمام كبار ملوك الشرق الأدنى، باستثناء حالات قليلة نادرة أشير فيها أحيانًا فى المراسلات إلى تلك الأماكن، أما عسكريًا، لم يكن لدى أى من كبار ملوك الشرق الأدنى من المصادر والقوى ما يمكنه من فرض هيمنته على تلك الجزر أو بلاد ما وراء البحر - كما لم يكن لديهم أى دوافع تجبرهم على السعى لتحقيق ذلك. أما استراتيجيًا، فقد كانت

التحالفات الدبلوماسية مع تلك المناطق لا تحقق أى فائدة أو منفعة.

ماعدا استثناء واحداً

أدى انتشار الجزر الصغيرة فى بحر إيجه إلى سهولة وصول أهل جزيرة كريت واليونان إلى الساحل الغربى لمنطقة الأناضول بحثًا عن أسواق جديدة، وإلى أماكن جديدة للاستقرار بها، وعند بدايات القرن السادس عشر قبل الميلاد أسس المهاجرون من جزيرة كريت مستوطنة ميلتوس، والتى أطلق عليها فى التسجيلات الحثينية(1) ميلاواتا أو ميلاواندا، ومن أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد وما تلى ذلك، زادت الاهتمامات الميسينية بمنطقة غرب الأناضول، مع زيادة حجم التجارة الميسينية، وزيادة عدد وحجم مستوطناتهم فى شبه جزيرة هاليكارناسوس، وإياسوس، وميلتوس، وايفسوس، وكلازومينيا، وسيمرنا ومنطقة لاريسا(2).

والدليل على ذلك يلاحظ بوضوح فى منطقة ميلتوس (وسنستخدم من الآن الاسم الحثينى وهو ميلاواتا)، حيث تبدو بوضوح آثار المستوطنات المسينية من حوالى 1400 ق.م(3)، وكان من المحتم أن تتصادم المصالح الميسينية بالمصالح الحثينية، ففى عام 1400 امتد النفوذ الحثينى إلى مناطق أوسع من غرب الأناضول، وعلى مدى القرن الرابع عشر ق.م (إن لم يكن قبل ذلك) ادعى الحثينيون أن ميلاواتا من ممتلكاتهم، وقد علمنا ذلك من المعلومات الواردة فى النصوص الحثينية، فما هى المعلومات التى وصلتنا من التسجيلات الحثينية المدونة عن التدخل الميسينى فى شئون غرب الأناضول؟

تساؤل أخيًاوا

فى عام 1920، أعلن الباحث السويسرى إميل فوريه إلى الباحثين المهتمين بالتاريخ الحثينى أنه عثر على نصوص ميسينية إغريقية بين

النصوص الحثينية، ودعم إعلانه بلفت الأنظار إلى وجود إشارات فى تلك النصوص إلى منطقة تدعى أحياوا وإلى ملك أحياوا، وكان ذلك الاسم قد ظهر قبل ذلك فى شكل أكثر اختصاراً هو أحِّيًا، وكان فوريه من توصل إلى الاسم المقابل باليونانية القديمة وهو اكيا، المذكور فى ملحمة هوميروس والذى اعتاد اليونانيون الإشارة إليه عمومًا باسم أكايوى. وأدى تعرفه على تلك المقابلات للاسم إلى كثير من الجدل، ولم يقبل المشككون بصحة ذلك الاستدلال، وخاصة الباحث الألمانى فرديناند سومر، ورفض قبول ذلك وعزاه إلى مجرد مصادفة زمنية، وأن كل الأمر لم يعد ضجة عابرة فى عالم الاتيمولوجى، وعاد الباحثون فى الأعوام الأخيرة ليزداد قبولهم لفرضية (فورية) وأصبحت كل إضافة جديدة - مهما قلت - تدعم تلك النظرية(4).

ومن وجهة نظر المؤرخين، من الصعب أن نقلل من أهمية ذلك التعرف، فذلك التعرف يقدم خدمة جليلة للسجلات الآثارية، وهو يزودنا بالمعلومات الوحيدة المسجلة عن العالم الميسينى، أو على الأقل عن جانب من العالم القديم.

فضلاً عن ذلك، يقدم ذلك التعرف برهانًا ودليلاً واضحين أن الاهتمام الميسينى بغرب الأناضول امتد إلى ما هو أبعد من الصلات التجارية، وكان هناك ملوك ميسينيون، مساهمين سياسيًا وعسكريًا فيما يحدث فى غرب الأناضول، وهذا ثابت على الأقل بدءًا من 1320(5)، وهى الأعوام الأولى من حكم مورسيلى الثانى للحثينيين، حين فكر الملوك المتمردون بغرب الأناضول فى التحالف مع ملك أحياوا(6). غير أننا سنركز هنا على مرحلة تاريخية لاحقة، وهى منتصف القرن الثالث عشر ق.م، حين اعتلى العرش الحثينى حاتوسيلى الثالث، فقد كتب حاتوسيلى الثالث أثناء حكمه رسالة لسبب ما إلى ملك أحياوا، والرسالة الأصلية تمتد على ثلاثة ألواح طينية، لم يتبق منها لسوء الحظ إلا اللوح الأخير، وقد عرفت تلك الرسالة واشتهرت باسم تاواجالاوا(7) وهو اسم مضلل كما سنتبين فيما يلى، إلا

أن شيوع استعماله يجبرنا على استعماله نحن أيضًا، ولابد أن اسمى كاتب الرسالة ومتلقيها مدونان فى اللوح الأول المفقود، وبينما يمكننا أن نتوصل بسهولة إلى أن كاتب الرسالة هو حاتوسيلى الثالث(8)، إلا أن اسم ملك أحياوا الذى أرسلت إليه يظل مجهولاً، غير أن زمن كتابتها - وإشارة إلى ناقلها فى الجزء الموجود - يثير جدلاً كثيرًا حول اسم متلقيها.

ولنعد بناء المشهد، ولكى نشرع فى ذلك، لا بد أن نبدأ بمحاولة تعريف مدى وحدود مصطلح (أحياوا) كمصطلح يشير إلى العالم الميسينى الإغريقى.

وفى المعنى العام، نجد أن الحضارة الميسينية قد امتدت من القرن السابع عشر حتى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وهو الزمن الذى يعرف آثاريا بالمرحلة الهيلينية المتأخرة، وهى بذلك تتزامن بشكل عام مع المملكة الحثينية التى اتخذت من حاتوسا عاصمة لها، والملوك القسيطيين فى بابل والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فى مصر. ويستخدم مصطلح «ميسينى» اليوم للدلالة على كل العصر الهيلينى المتأخر، وهو يعكس أيضاً بروز الحضارة الميسينية بين كل المكونات الهيلينية لتلك المرحلة فى المكون الآثارى المعمارى، كما فى المكون الثقافى الإغريقى، والتفكير السائد عن العالم الميسينى، الذى يضم أرض اليونان والجزر الإغريقية، يظهر أنه بينما كانت هناك درجة عالية من التمازج الثقافى، إلا أنه كان عالمًا ممزقًا سياسيًا، مكونًا من عديد من الممالك المستقلة، تخضع كل منها لحاكمها فقط، إلا أن نظام الحكم الملكى كان نظامًا أسريًا راسخًا، وتوفرت لها مقومات الممالك من مساحة وشعب وثروة وقوة، كانت مسينا، وتايرنس، وأرجوس وبايلوس من أهم المراكز الحضرية فى العالم الميسينى، وبالرغم من أنها كانت ممالك مستقلة سياسيًا وإداريًا عن بعضها البعض، إلا أنه من المحتمل أن تلك الممالك كانت تتكتل فى تحالفات مؤقتة لأسباب حربية أو لأهداف عظمى مشتركة، وقد صور هوميروس ذلك فى الإلياذة.

كيف تتفق الإشارات الحثينية إلى (أحياوا) مع ما سبق ذكره؟ إن عدد المرات التى أشارت فيها النصوص الحثينية إلى (أحياوا) ليست إلا مرات قليلة (حوالى عشرين مرة أو نحو ذلك)، وأغلبها عثر عليها فى فقرات فى ألواح مهشمة، ولكن بقدر ما يمكننا أن نحكم على ما ورد فى تلك الفقرات، يبدو أن الاسم كان يذكر فى بعض تلك النصوص كإشارة إلى جنس بشرى للإشارة إلى العالم الإغريقى المعاصر لهم بوجه عام، بالضبط كما كان الحثينيون يستخدمون مصطلح حورى كإشارة عامة لكل من يتحدثون اللغة الحورية، بما فيها المملكة الميتانية، من جهة أخرى، ربما كان الاسم يستخدم للدلالة على مملكة إغريقية معينة، خاصة حين يشار به إلى ملك معين من ملوك (أحياوا)، فى تلك الحالة، كان الملك المعنى بشكل شبه مؤكد هو ملك دولة كبرى من الدول الإغريقية، وربما ميسينا ذاتها، ولكن، حتى الممالك الميسينية الكبرى كانت ممالك متواضعة إذا قورنت بالممالك الكبرى فى الشرق الأدنى المعاصرة لها. إلا أنه من المحتمل أن موقف الحثينيين من ملوك أحياوا كان مساويًا لموقفهم من إخوتهم ملوك الشرق الأدنى.

أنشطة بيامارادو

ونعود إلى الرسالة التى نتحدث عنها - والتى قد يكون من الأنسب تسميتها «رسالة بيامارادو»، والأحوال التى يعكسها نص الرسالة، كما يلى: على مدى أعوام طويلة كان هناك أحد المتمردين المرتدين على السلطة الحثينية يدعى بيامارادو، وكان يشن غارات شرسة على المدن والقرى الحثينية فى غرب الأناضول، ويثير الاضطرابات المستمرة والعصيان المسلح ضد الملك الحثينى، وبالرغم من الحملات العسكرية الحثينية التى شنت ضده وأوقفت نشاطه إلى حين، إلا أنه استعاد نشاطه بحجم أكبر واستمر فى التحرش بالمناطق الحثينية وسكانها المقيمين بها. وما زاد من خطورة الموقف أنه كان يقوم بذلك النشاط بدعم أو على الأقل بتشجيع من

ملك أحياوا. ووصلت معلومات إلى حاتوسيلى أن أخا ملك أحياوا ويدعى تاواجالاوا قد وصل إلى ميلاواتا، وأشيع أنه جاء ليصطحب معه فى عودته إلى أرض اليونان آلاف الرعايا الحثيين: بعضهم بإرادته الحرة، وبعضهم بالقوة الجبرية، وشبه مؤكد أن ملك أحياوا كان بحاجة إلى عمالة كثيفة لمشاريعه المعمارية العظمى وعلى رأسها تقوية وتدعيم كل القلاع والحصون، وكان ذلك التوقيت بالفعل وقتًا اشتهر بإقامة المشروعات المعمارية العديدة فى أرض اليونان، ويبدو أن بيامارادو كان يقوم بدور مورد العمال للملك الميسينى.

وبوجه عام كان ملوك الحثيين يفضلون إسناد قيادة الحملات العسكرية فى غرب الأناضول لنوابهم على تلك المناطق. إلا أن هذه الحالة أو الأزمة التى نجمت عن نوايا بيامارادو اعتبرت على درجة من الخطورة، تستلزم قيادة الملك بنفسه للقوات للتصدى لبيامارادو الذى كان بمثابة شوكة فى خاصرة الحثيين، كان وقت الحسم قد حان ولكن حتى حين كان حاتوسيلى فى طريقه إلى مكان عدوه، ترك الباب مواربًا لإتاحة الفرصة للتوصل إلى حل سلمى. كان على استعداد أن يغفر له ما تقدم إذا أظهر بيامارادو أية نية للعودة إلى تبعيته للملك الحثينى. كان حاتوسيلى قد خطط لذلك إذ كتب فى رسالته إلى ملك أحياوا: **«الآن، حين وصلت إلى سلابا**(9)**، بيامارادو أرسل من لدنه رجلا لمقابلتى** وقال: **«أعود إلى التبعية، أرسل إلى توبكانتى (ولى العهد) ويقودنى إليك»**(10) وبدا أن هناك فى الأفق حلاً دبلوماسيًا، وأرسل حاتوسيلى إليه مسئولاً يدعى تارتينيو، ليصحب بيامارادو إلى الملك(11)، ولما وصل إليه تجاهله. ثم راح بيامارادو يزيد من اشتراطاته، مصرًا على تعيينه فورًا: **«هب لى مُلكًا الآن، وهنا، وإلا لن آتى للقائك»**.

فوجه له حاتوسيلى إنذارًا بأن يسحب كل قواته من آيالاندا المحصنة، وربما تكون هى المدينة التى تحول اسمها إلى اليندا بعد ذلك، والتى تقع على حوالى 60 كيلو مترًا شرق ميلتوس – ميلاواتا، وقال فى رسالته: **«لو**

كنت تود العودة إلى طاعتى، حين أصل إلى ايالاندا، لا أجد واحدًا من رجالك بها، ويجب ألا تدع أيًا منهم يعود إليها، ولا تطأ قدمك أى مكان خاضع لسلطتى».

وتجاهل بيامارادو الإنذار، وحين اقترب حاتوسيلى من المدينة الحصينة قوبل بهجوم شديد الوطأة، إلا أن المدينة سقطت فى النهاية فى أيدى الحثيين، ولكن بعد معارك ضارية، مما حال دون تحقيق الملك الحثينى لهدفه وهو استعادة رعيته الذين ساقهم بيامارادو عنوة. وتمكن بيامارادو من النجاة ولجأ إلى ميلاواتا التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت لسيطرة ملك أحياوا(12)، وكتب حاتوسيلى مرة أخرى إلى بيامارادو طالبًا منه تسليم نفسه. إلا أن بيامارادو الذى كانت تملأه الثقة بحماية ملك أحياوا له رفض تسليم نفسه. وكتب حاتوسيلى أيضًا إلى ملك أحياوا رسالة مليئة بالشكوى التى وقفت على أعتاب اتهامه بدعم وتأييد بيامارادو فى هجومه على البلاد الحثينية، وذكر فى رسالته: **«هل يعلم أخى حقيقة هجوم بيامارادو المتكرر على بلادى، أم لا يعلم هذه الحقيقة؟»**، وواضح أن السؤال قد صيغ فى بلاغة لا تنتظر إجابة، إلا أن رد ملك أحياوا جاء جافًا ومختصرًا إلى حد الوقاحة، كما خلا من مجاملات دبلوماسية، قال: **«حين وصل رسولك إلى بلاطى لم يحمل معه أية تحية، كما لم يحضر هدية»**، ولم يقع مثل ذلك فى عالم دبلوماسية الشرق الأدنى القديم، إلا أن إجابة تساؤله هو ما كان يهمه، إذ كتب ملك أحياوا على أثر ذلك إلى حاكم مدينة ميلادواتا الخاضع له (والذى كان أبا زوجة بيامارادو) طالبًا منه تسليم بيامارادو إلى الملك الحثينى، وقال له: **«ضع بيامارادو تحت تصرف الملك الحثينى».**

وكان ذلك بمثابة الإذن الذى كان يحتاجه الملك الحثينى لمهاجمة ميلاواتا، كانت مهاجمة حاتوسيلى للمدينة دون ذلك الإذن يعد بمثابة إعلان الحرب على أحياوا ذاتها، ولم يكن لدى حاتوسيلى أية نوايا لإثارة العداوة بينه وبين ملك أحياوا، أما برضى ملك أحياوا فقد أصبح لديه

الفرصة لدخول المدينة بقواته وأسر بيامارادو، كان أسر ذلك المتمرد يعد عظة وعبرة لكل من تسول له نفسه تحدى حاتوسيلى، وكان إنذاراً أيضًا لسكان ميلاواتا بأن من يهاجم البلاد الحثينية لن يكون بمنأى عن متناول العدالة الحثينية، وكتب حاتوسيلى: **«سأكلم بيامارادو، وسوف تسمع رعية أخى الملك ما أقوله إليه»**، ولكن لسوء حظ حاتوسيلى، لم تمض الأمور كما خطط لها، فقد تمخضت مسيرته إلى ميلاواتا عن مزيد من الخزى، فحين وصلها لم يكن بيامارادو بها، فقد فر منها بحراً، ولا يوجد شك أن ذلك التدبير كان على يدى رعية ملك أحياوا، فقد ظهر بعد ذلك فى بلاد اليونان، حيث أصبح بمنأى عن يدى حاتوسيلى. فى الوقت الذى ظل فيه طليقًا وبإمكانه العودة إلى غرب الأناضول، ليعاود هجومه على البلاد الحثينية حين تواتيه الفرصة. كان الخزى الأكبر لحاتوسيلى فشله فى الحؤول دون ترحيل الآلاف من رعيته إلى أحياوا الذى دبره بيامارادو. ومنيت حملة حاتوسيلى بأجمعها بفشل ذريع. لم يلق حاتوسيلى قبل ذلك أية هزائم، أو على الأقل لم يلق هزائم كبرى فى ميادين القتال، إلا أن فشل تلك الحملة أظهر مدى هشاشة السلطة الحثينية فى منطقة غرب الأناضول. ولم يعد بيامارادو وحده من يثير قلقه، فقد كان عليه الآن أن يواجه ما يستجد من ملك أحياوا الذى توقع منه أن تزداد جرأته وصلافته بعد تلك التطورات، وفشله فى ردع المتمردين عليه، وتوقعه أن ينازعه ملك أحياوا على النفوذ فى غرب الأناضول، وكان من الواضح أنه هو ومن يدعمهم قد ربحوا الجولة الأولى فى تلك المواجهات.

مبادرات حاتوسيلى السلمية

حين تفشل القوة، قد تنجح الدبلوماسية. لجأ حاتوسيلى بعد ذلك إلى لعب دور المفاوض الساعى إلى التصالح، وفى نهاية رسالته اتضح هدفه النهائى. والرسالة فى مبدأها رسالة شكوى يقوم فيها حاتوسيلى بدور المضار. لقد ألم الباحث دنيس بيج بروح الرسالة وقال: إن الملك الحثينى

«يتذمر شاكيًا بالمسمارية عبر البحر الداكن»(13) إلا أن الانطباع الكلى عن الرسالة يظهر أنها رسالة مهادنة. كان الملك الحثينى يتلهف إلى التوصل إلى حل دبلوماسى سلمى يفتح به الطريق المسدود بينه وبين أحياوا، وطالب بتعاون نظيره فى استعادة الاستقرار إلى المنطقة، وفوق كل ذلك، تكبيل حركة بيامارادو.

وكانت هناك أيضا مشكلة الرعايا الحثينيين الذين رحلوا عنوة إلى احياوا، بالرغم من أن ترحيلهم كان قد أصبح أمرًا واقعيًا منتهيًا، إلا أن حاتوسيلى كان يريد استرجاعهم، أو على الأقل الجل الأعظم منهم، لذلك اقترح حلاً وسطًا يرى أن من انتقل من رعاياه بإرادته إلى أحياوا فيمكنه أن يظل هناك، أما الذين أخذوا عنوة رغم إرادتهم فيجب أن يعادوا إلى وطنهم.

إلا أن القضية الأكبر كانت تدور حول بيامارادو، فقد سرت شائعات أنه كان ينوى العودة إلى غرب الأناضول، وسوف يترتب على عودته استعادته لأنشطته المعادية للحثينيين، وطالب حاتوسيلى ملك أحياوا بإعلان موقفه من ذلك:

«طبقًا للشائعات، فإن بيامارادو إذا عاد سيترك لديكم زوجته وأطفاله وآل بيته، بلادكم بذلك تقدم له الحماية، ولكنه يغير باستمرار على بلادى، وكلما تصديت له لمنعه، يعود إلى بلادكم، فهل تحبذ يا أخى هذا السلوك؟»

وقدم حاتوسيلى إلى أخيه الملك ثلاثة حلول بديلة:

«والآن يا أخى، اكتب بما يلى على الأقل [إلى بيامارادو]: انهض، توجه إلى بلاد الحثينيين، سيدك سيتوصل معك إلى حل، أو تعال إلى بلاد أحياوا، وفى أى مكان منها تختاره سأدعك تستقر، (ويجب أن تظل به). أو قم وخذ أسراك وزوجاتك وأطفالك وارحل إلى مكان آخر، فطالما أنت على عداء مع الملك الحثينى، مارس عداوتك من بلد أخرى. من بلدى لن أدعك تمارس عدوانك ضده».

ويظهر هذا العرض تراجعًا كبيرًا فى السياسة الحثينية عما عرف

عنها فيما يخص الرعايا المتمردين والفارين من عقاب الملك باللجوء إلى بلد أخرى. كانت السياسة المعتادة هى المطالبة بطرد المتمرد أو التهديد بشن الحرب على كل من يرفض تسليم المتمردين. أما فى هذه الحالة، لم يكن بإمكان حاتوسيلى توجيه إنذار إلى أخيه ملك أحياوا، لذلك قدم الحلول الثلاث التى رآها ملائمة:

* إقناع بيامارادو بالخضوع مرة أخرى للسيادة الحثينية.
* تخصيص مأوى آمن له فى أحياوا مع التأكيد عليه بالبقاء فى مقر إقامته وألا يتورط من جديد فى أنشطة معادية للحثيين.
* إجباره على الرحيل إلى بلد أخرى، مصطحبًا أسرته وكل ما يخصه.

كانت هناك قبل ذلك خلافات كبرى بين حاتوسيلى وأحياوا وصلت بهما فى مرحلة ما إلى شفا إعلان الحرب، إلا أن تلك المرحلة أصبحت ماضيًا. ولو كانت سلوكيات حاتوسيلى فى ذلك الماضى عدوانية ومهينة، فإنه بررها بعدم نضج مرحلة الشباب. صحيح أنه كانت هناك مراسلات حادة لاذعة بينهما، إلا أنه بررها بسوء تفسير وفهم المبعوثين، وأن من تسببوا فى ذلك سيقدمون للمحاكمة، وإن تبين أنهم مذنبون، سيعدمون بسبب جريمتهم. كل تلك التبريرات قدمها حاتوسيلى بروح النوايا الحسنة والتعاون المشترك، على الأقل من جانبه هو.

ومضى حاتوسيلى إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد خاطب متلقى رسالته ليس فقط بصفة الأخ والنظير، بل أيضًا بصفة «ملك عظيم»،وبذلك أدخله فى زمرة عظماء الملوك الذين حكموا الشرق الأدنى القديم، أى أدخله إلى زمرة النخبة ونادى العظماء.. لا بد أنها كانت إشارة دبلوماسية غير مسبوقة اتصفت بالكرم والإسراف فى الوصف، وبغض النظر عن وضع ملك أحياوا فى عالم الدول الإغريقية الميسينية - فربما كان ملكًا هامًا من ملوكها، بل ربما أهم ملوك تلك المنطقة - إلا أنه لم يكن يجرؤ على نسب نفسه إلى عظماء ملوك الشرق الأدنى - حتى لو كانوا يعون وجوده - فى

إطار أنشطتهم الدبلوماسية والعسكرية والتحالفات المتبادلة.

وبإدراك الغيرة الشديدة التي كان يظهرها عظماء الملوك على تلك الصفة، وسرعتهم في نبذ أولئك الذين يسعون لنيلها دون أن تتوفر لهم أسباب العظمة، ولو كانوا قد أدركوا أن حاتوسيلى خاطب بتلك الصفة بلد غربية نائية لكانوا قد استهزأوا وسخروا من ذلك ولم يصدقوه.

الأقرب إلى الاحتمال أن حاتوسيلى برسالته تلك إلى ملك أحياوا، كان يسعى عن طريق إظهار الود الشديد إلى تأمين مناطق بلاده الغربية، بعد أن فشل في تحقيق ذلك بالقوة العسكرية، وكان التحالف مع مستقل يتطلب وجود مساواة دبلوماسية كاملة بين الطرفين. وقد أظهر حاتوسيلى ذلك للملك في الصفات التي خاطبه بها، في سياق توقه الشديد إلى الحصول على تعاونه معه، لقد ظهرت صفات المساواة والراوبط الشخصية المتينة بين المفردات الدبلوماسية التي ميزت المعاهدة التي أبرمها حاتوسيلى مع الملك رمسيس الثاني. ومن بين التداعيات الكثيرة التي ترتبت على تلك المعاهدة استتباب الأمن والاستقرار في منطقة سوريا وهي منطقة الحدود المشتركة بينهما، وأمل حاتوسيلى أن يحقق استقراراً مماثلاً في غرب الأناضول. ويجب أن ينظر إلى رسالة حاتوسيلى لنظيره ملك أحياوا من تلك الزاوية كخطوة أولى على طريق تحقيق تحالف ودي كامل، مع ضمان قيام تعاون مشترك، لإرساء استقرار دائم في المنطقة التي تشكل حدوداً فاصلة بينهما.

هوية متلقى رسائل حاتوسيلى

سنعرض بعد ذلك ما ترتب على الرسالة السابقة، ولكن قبل ذلك علينا أن نبحث عن هوية متلقى رسائل الملك الحثيني في مملكة أحياوا، وسنبدأ بحثنا بعرض جانبين سلبيين لا يعينانا كثيراً ولا يعول عليهما، أولهما: المحدودية الشديدة للمعلومات الواردة بالمصادر الوحيدة المتاحة لنا، من العالم الميسيني في تلك الفترة – وهي الألواح المكتوبة بالخط اللاتيني B –

فهى لا تذكر أى أسماء لملوك ذلك العصر، والمصدر الوحيد المتاح لنا عن أسماء الملوك هو هوميروس، ويجب ألا نغفل أبداً أن هوميروس كان يكتب شعراً لا تاريخاً، ثانيهما: فى حين تعزى كتابة تلك الرسائل بكل يقين إلى حاتوسيلى، إلا أنه لا يمكننا تحديد الوقت الذى كتبت فيه بدقة أثناء عهده، وبافتراض أنه اعتلى العرش الحثينى حوالى عام 1267 ومات حوالى 1237، يمكن القول إن تلك الرسائل قد كتبت فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد على وجه التقريب.

تلك التواريخ المحتملة لكتابة الرسائل يضعها فى الفترة التى دمرت فيها مدينة طروادة، والتى ينسب إليها اسم طروادة بريام، أو طروادة حرب طروادة المعروفة - بالطبع - بافتراض أن الملحمة مستمدة من حقائق ووقائع تاريخية(14)، وتدل قطع السيراميك المستخرجة من ذلك الموقع أنها تعرضت للدمار خلال السبعين عامًا الأولى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد(15)، والاحتمال الأقوى فى منتصف القرن الثالث عشر. فهل يمكننا التوصل إلى أى نوع من الروابط بين وقائع ملحمة هوميروس وما ورد فى رسائل الملك الحثينى حاتوسيلى، وهى الرسائل التى توصلنا إلى أنها كتبت إلى حاكم هام من حكام العالم الميسينى؟ هناك احتمال ضئيل فى إمكان التوصل إلى ذلك، ذلك الاحتمال الضئيل يتمثل فى عبارة عارضة، ذكر فيها حاتوسيلى أنه هو ونظيره ملك أحياوا كانا على شفا حرب شاملة، بسبب الصراع على مكان يدعى ويلوسا، وقال فى تلك الفقرة : **(والآن بعد أن توصلنا إلى اتفاق حول مسألة ويلوسا والتى كدنا نشتبك فى حرب بسببها - ...»)** كان يعلم مخاطر تجدد الحرب التى يعمل بيامارادو على إثارتها، وحتى يتجنب ذلك، حث حاتوسيلى أخاه الملك أن يقول لبيامارادو: **«لقد اتفقت مع ملك الحثينيين على مشكلة ويلوسا التى أثارت عداوة بيننا وأصبحنا أصدقاء»... الحرب لن تكون قراراً صائبًا لكلينا».**

ويحتمل أن ويلوسا هى الرابط بين التسجيلات التاريخية والمعلومات الهومرية، فاسمها وموقعها يوحيان بذلك، وترتب على اكتشاف نص مزدوج اللغة فى ثمانينيات القرن العشرين(16)، وأمكن التعرف على المنطقة / المدينة التى تحمل هذا الاسم فى النصوص الحثينية، وتبين أنها تقع بشكل مؤكد فى شمال غرب الأناضول، فى منطقة يطلق عليها تروادا فى الأزمنة القديمة(17)، والاسم ذاته قد يكون المقابل الحثينى لإليون الإغريقية، وهو الاسم الذى كان يستعمل بالتبادل فى الفكر الكلاسيكى مع طروادة(18)، أى أن ويلوسا هى أصل طروادة الهوّمرية.

ويبرز اسم ويلوسا فى مناسبات عديدة فى النصوص الحثينية كاسم ولاية أو منطقة تابعة للنفوذ الحثينى. ويبدا أنها تعرضت لاضطرابات كثيرة فى منتصف القرن الثالث عشر، تعرضت لغزو بيامارادو لها، وكانت سببًا رئيسيًا للحرب بين الحثينيين وملوك أحياوا، وفى عهد ابن حاتوسيلى الملك تود حاليا أزيح ملك ويلوسا عن عرشه، ربما على أيدى أعداء من الغزاة واضطروه إلى الفرار من بلاده. ويبدو من خلال السياق الذى ذكرت فيه منطقة ويلوسا فى الرسالة المعروفة باسم تاواجالاوا تورط احيوى / ميسينى على الأقل فى جوانب من المشكلة، بالرغم من أن العدوان قد وقع بشكل ظاهر من قبل حليف أو عميل لملكة أحياوا مثل بيامارادو، الذى كان يقوم بذلك بالنيابة عن ملك أحياوا أو على الأقل بدعمه، ويفسر ذلك لماذا دفع حاتوسيلى ملك أحياوا أن يخبر بيامارادو أنهما توصلا إلى اتفاق يحلان به مشكلة ويلوسا، ومن الثابت أن الإغريق الميسينيين كان لهم علاقات تجارية قوية بطروادة، بسبب موقعها الفريد استراتيجيًا المشرف على المياه، التى يطلق عليها قدامى اليونانيين المعبر الهيلينى، ومن المفهوم أن ملك أحياوا - ميسينيا سعى إلى توسيع ومد مناطق هيمنته إلى منطقة شمال غرب الأناضول التى تضم مدينة طروادة، وتقدم تلك الحقيقة سببًا تاريخيًا معقولاً للصراعات التى نشبت غرب الأناضول بين الإغريق الدخلاء، أو من قام بذلك بالنيابة عنهم، والممالك المحلية

الخاضعة للنفوذ الحثيني.

وتتفق تلك الرؤية مع الأحداث التى تبرزها رسالة تاواجالاوا، وعبر الأجيال التالية حفظت الذاكرة الجمعية للشعوب تلك الصور من الصراع، ويبدو أن الأجيال المتتالية من الشعراء أضفت عليها لمسات عاطفية، وتجمعت فى شكل ملحمى انتهى بارتباطه باسم هوميروس ككاتب لتلك الملحمة، النص الملحمى يجعل من اجاممنون ملكًا ميسينيًا وقائدًا للجيوش الإغريقية المهاجمة لطروادة.

فهل شخصية اجاممنون مجرد شخصية ابتدعها خيال الشعراء الخصب؟ ولو كان فى الحقيقة تطور عن شخصية تاريخية حقيقية، لملك ميسينى ينتمى إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فإن متلقى رسائل حاتوسيلى يعد النموذج الأولى الأصلى الذى تطورت عنه شخصية أجاممنون الهومرية.

الاتصالات بين الحثينيين والعالم الميسينى

هناك سؤال آخر لابد أن نضعه فى اعتبارنا، وهو ما هى آليات التواصل الكتابى التى كانت تكتب بها الرسائل بين الحثينيين وملوك أحياوا؟

لقد وجدت الرسالة التى قدمناها فى موقع حفظ الرسائل مكتوبة باللغة الحثينية، وهذا ما يمكن أن نتوقعه، لو كانت تلك الرسالة نسخة محفوظة للعودة إليها إذا استلزم الأمر بعد إرسال النسخة الأصلية، كانت النسخ الحثينية تنقل عن النسخ الأصلية التى كانت تكتب عادة باللغة الأكادية إذا كانت مرسلة لملوك الشرق الأدنى، ولكن ما هى اللغة التى استخدمت للكتابة إلى الملوك الميسينيين الإغريق؟ لقد دخلت الكتابة إلى العالم الميسينى على الأقل فى القرن الرابع عشر ق.م، ولكن بقدر ما هو معروف كانت الحروف المستخدمة فى الكتابة والتى يطلق عليها النمط الخطى B، والمستخدم من قِبل الكتبة الميسينيين مقصور على كتابة أسماء البضائع

أو أعمال جرد البضائع، ولا يوجد أى دليل أنها كانت تستخدم فيما هو أكثر من ذلك، ومن الصعب أن نتخيل أن استخدام اللغة الأكادية كلغة أجنبية قد وصل إلى بلاد بعيدة جدًا عن الشرق الأدنى ولا تربطها به إلا علاقات وروابط واهية.

الأقرب للاحتمال أن أصل رسالة تاواجالاوا وكذلك النسخة التى حفظت عنها للاحتفاظ بها فى حاتوسا قد كتبا بالحثينية، فمن كان إذن يقرأ الرسالة على متلقيها؟ لا يحتمل أبدًا أنه كان هناك كتبة ميسينيون يجيدون اللغة السمارية المعقدة، ويجيدون فى الوقت ذاته لغة أخرى أو أكثر التى تكتب بها نصوص المراسلات، وتدل على ذلك قلة - إن لم تكن ندرة - المراسلات بين البلاطين الميسينى والحثينى، والغياب المطلق لأى مراسلات بين الميسينيين وأية دولة من دول الشرق الأدنى. لا يوجد شك أن ملوك ميسينيا كانوا يحتفظون فى خدمتهم بأشخاص يمكنهم قراءة الرسائل التى ترد من الخارج، وكذلك كتابة الردود على تلك الرسائل كما تملى عليهم وترجمتها إلى اللغة المطلوبة، ومن رسالة تاواجالاوا نعلم أن ملك أحياوا قد أرسل تعليمات مدونة إلى ملكه التابع له والمتحدث باللبوية، الملك آتبا الذى يحكم ميلاواتا وأمره بتسليم بيامارادو إلى الحثينيين، وكما عرفنا مما سبق، حث الملك الحثينى أخاه الملك الميسينى على أن يكتب إلى بيامارادو باختيارات ثلاث، يختار واحدًا منها. والأقرب إلى الاحتمال أن أية مراسلات صادرة عن ملك ميسينى كانت تكتب إما بالحثينية أو باللبوية، وهى لغة وثيقة الصلة بالحثينية، وكانت اللغة الأوسع انتشارًا فى غرب الأناضول، وكانت الصلات الوثيقة التى تربط ملوك أحياوا بشعوب غرب الأناضول قد استلزمت وجود بعض أبناء تلك اللغة لدى ملوك أحياوا، ليعملوا كمترجمين ومفسرين، بما فيهم بعضهم الذين تم تدريبهم ككتبة، ولا يوجد شك أنه كان هناك ميسينيون إغريق الذين اتقنوا اللغة اللبوية، ويحتمل أيضا الحثينية، إلا أن عبء صياغة الرسائل كان يقع على عاتق كتبة مستقدمين من الأناضول، الذين يتقنون اللبوية

والحثينية تحدثًا وكتابة، ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن كل مراسلات الملوك الحثينيين إلى الملوك الخاضعين لهم بغرب الأناضول كانت تكتب بالحثينية، كما كانت هي اللغة التي كتبوا بها إلى ملوك أحياوا.

ولا يوجد لدينا أي دليل إن كان حاتوسيلي قد تلقى أي رد على رسالته التي صيغت بعناية فائقة إلى ملك أحياوا، وبالرغم من أننا لم نسمع بعد ذلك عن بيامارادو، إلا أن المحتمل جدًا أنه داوم على شن الغارات على المناطق الخاضعة للملك الحثيني، كلما كان قادرًا على ذلك.

وورث ابن حاتوسيلي وخليفته تودحاليا الرابع عن أبيه كثيرًا من المشاكل المزمنة التي لم تحل في غرب الأناضول.

نهاية التدخل الأحيوي / الميسيني في غرب الأناضول

ظلت منطقة ومدينة ويلوسا تبرز في مراسلات تودحاليا الرابع، ابن حاتوسيلي، وكانت هذه المرة في رسالة مرسلة من تودحاليا إلى أحد الملوك الخاضعين له بغرب الأناضول، ولاحتواء الرسالة على تحديد لحدود ميلاواتا وأرضها أطلق عليها اسم رسالة ميلاواتا، ولسوء الحظ عثر على تلك الرسالة في حالة سيئة جدًا، وبذلك قلت المعلومات التي يمكن استخراجها منها، إلا أن اكتشاف جزء آخر من الرسالة في بداية ثمانينيات القرن العشرين مكننا من إعادة تركيب بعض أجزائها(19)، والمعلومات الدقيقة ما تزال غير واضحة، ولكن يتضح منها أن الحثينيين كانوا في تلك الفترة قد استعادوا سيطرتهم على ميلاواتا، بدعم من الذي كانت الرسالة موجهة إليه، وأن كل منطقتها قد وضعت تحت سيطرة ملكها المحلي بتكليف من تودحاليا.

واسم ملك ميلاواتا مفقود، إلا أننا يمكننا أن نخمن هويته. اقترح الباحثون احتمالات شتى، أما أحدث الاحتمالات وأكثرها قبولاً أن ذلك الملك يدعى تاركاسناوا، الذي يبرز في نقش منحوت يصحبه نص بالهيروغليفية في ممر جبلي اسمه كارابيل على مبعدة 28 كيلو مترًا من

مدينة أزمير(20)، كان تاركاسناوا حاكمًا على مملكة ميرا التى كانت فى ذلك الوقت أكبر وأقوى الممالك الخاضعة للحكم الحثينى بغرب الأناضول، ويبدو من رسالة ميلاواتا أن تودحاليا كان قد عين متلقى الرسالة كملك بصلاحيات كبرى على كل غرب الأناضول، وكان تاركاسناوا أفضل من يسند إليه مثل ذلك المنصب وبمثل تلك الصلاحيات، ومن الأجزاء المجمعة للرسالة نعلم أن والمو ملك ويلوسا كان قد نحى عن عرشه وهرب من مملكته، إلا أنه كان فى ذلك الوقت فى حماية متلقى رسالة ميلاواتا، التى طلب تودحاليا فيها إرسال والمو إلى العاصمة حاتوسا، كخطوة تمهيدية لإرجاعه لاستعادة عرشه المفقود، كانت الرسالة قد أرسلت بصحبة المبعوث كيوالانازاتي، الذى اصطحب معه وثائق تثبت أحقية والمو بعرش ويلوسا.

لو كان تاركانساوا هو فعلاً متلقى رسالة ميلاواتا، فإن السلطات الواسعة التى أسندت إليه، بالإضافة إلى سلطاته كملك على ميرا كانت تخول له الاستحواذ على سلطات عظمى فى غرب الأناضول، تمتد على مساحة من ميلاواتا حتى مملكة ويلوسا فى أقصى الحدود الشمالية الغربية.

وهى سلطات غير مسبوقة لأى ملك خاضع، وكانت تماثل سلطة نائب الملك، ويبدو أن تودحاليا كان قد غيَّر السياسات السابقة تغييرًا جذريا فيما يخص غرب الأناضول، وكان إسناده سلطات أوسع وأشمل إلى حاكم محلى، بغرض إحراز استقرار دائم فى المنطقة، مع الاحتفاظ بها تحت الهيمنة الحثينية، بأقل تدخل من جانبه.

وتحتوى رسالة تودحاليا على آخر إشارة إلى ملك أحياوا أو مملكة أحياوا، ففى الوقت الذى كتبت فيه تلك الرسالة، كانت ميلاواتا تذكر على أنها خاضعة لأحياوا، أما فى رسالة ميلاواتا ذاتها فإن الحال لم يعد كذلك، فالرسالة تتكلم عن قلاقل واضطرابات فى المنطقة، وتأسيس سلطة جديدة بها مدعومة من قبل الحثينيين، ويبدو أن الاضطرابات كانت قد

بدأت بعد محاولة حاتوسيلى التوصل إلى حلول ودية مع ملك أحياوا حول السيادة على غرب الأناضول، وأدى ذلك إلى إصرار ابنه وخليفته تودحاليا إلى بذل جهود ناجحة، لتخليص المنطقة بحسم وللأبد من التدخل الإغريقى، ويبدو أن الجانب الأكبر من النجاح فى تحقيق ذلك يعود إلى ذلك الرجل الذى كوفئ بمنحه سيادة أكبر على تلك المنطقة، وافترضنا أنه ملك مملكة ميراتاركاسناوا، الرجل الذى مازالت صورته محفورة على الممر الجبلى فى منطقة كارابيل.

وهناك هامش مثير لابد من إضافته، ففى نسخة مسودة معاهدة تودحاليا التى عقدها مع شوشجاميوا، أحد الملوك الخاضعين فى منطقة سوريا، هناك قائمة بأسماء الملوك الذين اعتبرهم تودحاليا على درجة مساوية لعظمته، وهم ملك مصر، وبابل، وآشور(21).

وكان اسم ملك أحياوا مذكورًا فى المسودة، إلاَّ أنه مشطوب عليه، فكيف نفسر ذلك؟ حقيقة أن اسمه قد كتب فى القائمة يدل على أنه حتى كتابتها كان ملك أحياوا، يعتبر أحد عظماء الملوك فى عالم العصر البرونزى المتأخر، على الأقل من قبل الحثيين، وكانت تلك الصفة قد أصبغت عليه، ربما من قبيل العمل الدبلوماسى، ولتأثيره البالغ على أمن منطقة غرب الأناضول، انطلاقًا من قاعدته القوية فى مدينة ميلاواتا، ولكن بمجرد أن فقد تلك القاعدة لم يعد قوة يمكن الاعتداد بها، ولذلك تم شطب اسمه، وبذلك أعلن عن خروجه الصامت من كل سجلات منطقة الشرق الأدنى فى العصر البرونزى المتأخر.

13

أورحى - تيشوب المراوغ



مات الملك الحثينى ميواتاللى الثانى، ولم يكن له وريث ذكر من زوجته الرسمية، وبسبب ذلك انتقل حق وراثة العرش إلى ابنه من زوجة ثانوية اسمها بابُورزى بالحثينية، وبالرغم من أن الوريث لم يكن إلا ابنًا من زوجة ثانوية، إلا أنه كان ملائمًا تمامًا لتبوأ العرش، طبقًا للقواعد التى تحكم ارتقاء العرش الحثينى، وقد صادفنا شخصيته فى أجزاء سابقة من هذا الكتاب وكان اسمه أورحى – تيشوب، وبعد تبوئه سدة الملك، أسمى نفسه اسمًا ملكيًا هو مورسيلى، وهو من أعظم الأسماء فى السلالة الحاكمة، وكان آخر من تسمَّى به جده لأبيه الملك مورسيلى الثانى، كان ميواتاللى قد أعلن بوضوح قبل موته أن ابنه أورحى – تيشوب هو من يخلفه على عرش البلاد، فى البداية، حظى الملك الشاب بمساندة عمه حاتوسيلى، وكان فى ذلك الوقت أقوى شخصية فى الإمبراطورية الحثينية، وكان حاتوسيلى يعلم فى قرارة نفسه أنه صاحب الفضل فى اعتلاء ابن أخيه العرش(1).

الخلع والنفى

فى البداية عمل ابن الأخ والعم فى تناسق وتناغم، إلا أن قلق أورحى – تيشوب بدأ يتزايد من السلطات والصلاحيات الواسعة التى كان أبوه قد أسندها إلى عمه، ربما رأى فى ذلك تهديدًا خطيرًا لسلطته كملك. وليس من المستبعد أيضًا أن يكون حاتوسيلى قد سعى لاستغلال صغر سن ابن أخيه وعدم خبرته لزيادة سيطرته ونفوذه على المملكة.

وراح التوتر يزداد ويتصاعد بينهما، وعمد أورحى – تيشوب إلى إضعاف نفوذ عمه بإقصائه عن بعض المناصب، وظل حاتوسيلى وفيًا لابن

أخيه، أو تظاهر بذلك، احترامًا لأخيه الميت والتزامًا منه بالسلوك القويم. كان على أى حال مازال مسيطرًا على النصف الشمالى للمملكة، والذى كان يحكمه حكمًا فعليًا كملك عليه من مدينة هاكبيس، كما كانت مدينة نيريك، وهى من أقدس المدن الدينية لدى الحثيين أيضًا تحت سيطرته.

وظل الحال على ذلك إلى أن حاول أورحى - تيشوب أن ينزع منه المدينتين، فانفجر الصراع بينهما بشكل علنى، أعلن حاتوسيلى الحرب على ابن أخيه، وقال إن الآلهة بيدها تحديد نتائج الصراع، وفى صراع دموى لم يدم طويلاً ظلت فيه رعية أورحى - تيشوب داخل البلاد وفى المناطق الخاضعة وفيَّة للملك الشرعى، إلا أنه فقد تأييد الجل الأكبر من النبلاء، وأدى ذلك بالإضافة إلى فشله فى كسب تأييد بعض المناطق الحيوية إلى خسارته لعرشه ووجد نفسه محاصرًا فى آخر بقعة له «كخنزير فى الزريبة»، فى مدينة ساموحا المقدسة، عند المجرى الأعلى لنهر مارسانتيا.

ومن هناك نقل مكبلاً بالأصفاد إلى العاصمة حاتوسيا. تبوأ حاتوسيلى العرش الحثينى، وبذلك انتقل الخط الوراثى إلى أسرته، فى حين يحرم أبناء أورحى - تيشوب من حقهم الشرعى فى وراثة العرش.

لم يكن لدى المطالبين والساعين إلى العرش أى غضاضة فى إقصاء شاغل العرش ولو باغتياله، إلا أنهم كانوا فى موقف أكثر حساسية تجاه أورحى - تيشوب بصفته الملك الشرعى من جهة، ولكونه ابن أخى الملك الجديد من جهة ثانية، وكان البديل العملى الوحيد نفيه وتقييد حرية انتقاله فى مكان بعيد عن العاصمة وعن مؤيديه؛ لتثبيط عزيمته عن محاولة استرداد عرشه. واختار حاتوسيلى أن ينفيه إلى منطقة نوحاس فى سوريا، وعينَّه حاكمًا على بضع مدن فى تلك المنطقة، ورجح أنه بإسناد تلك الوظائف الإدارية إليه، سيجعل تحركاته واضحة، ويشتت تركيزه عن محاولة التفكير فى استعادة عرشه. كان لتعيينه حاكمًا على بضعة، مدن فى نوحاس بسوريا فائدة أخرى إذ أن ذلك يجعله خاضعًا لملكين آخرين

بسوريا، خاضعين للنفوذ الحثيني، وأوصاهما الملك بألا يغفلا عنه لحظة واحدة، وبمراقبة أي أنشطة يقوم بها.

ومهما كانت وجهة نظر حاتوسيلي في اختيار تلك المنطقة لينفي ابن أخيه إليها، تبين أن ذلك الاختيار كان اختياراً كارثيًا. لم يكن لدى أورحي - تيشوب أقل نية للاستسلام لمصيره، وكان يتحين أقل فرصة ينال فيها دعمًا لقضيته في استعادة حقه الشرعي في العرش، وأجرى مفاوضات سرية مع مفوضين بابليين عن ملكهم كاداشمان - تورجو، وأعدوا الترتيبات لزيارة يقوم بها أورحي - تيشوب إلى بابل(2)، وكتب إلى شالما نصر الأول الذي أصبح ملكًا على آشور بعد استيلاء حاتوسيلي على العرش الحثيني بفترة قصيرة(3)، ولم تتوفر لدينا أية معلومات عن الموضوعات التي فاوض حولها البابليين، ولا محتوى رسالته إلى شالمانصر، ولكنه بشكل يقيني كان يبحث عن دعم من كلا الملكين، كجزء من سعيه إلى نيل معونة خارجية في مساعيه لاستعادة عرشه(4). ويدل دخول البابليين في تلك المفاوضات على أن ملك بابل لم يكن قد قرر حتى تلك اللحظة إن كان يعترف بحاتوسيلي ملكًا على الحثينيين أم لا، وكان أورحي - تيشوب يرى أنه بإمكانه الاعتماد مبدئيًا على دعم الآشوريين وتأييدهم، خاصة بعد رسالة شالما نصر الآشوري، الموبخة لحاتوسيلي، والتي قال له فيها إنه ليس حتى تلك اللحظة من عظماء الملوك، وإنه مجرد بديل لملك عظيم.

ولحسن حظ حاتوسيلي، نمى إلى علمه أن ابن أخيه يجري محادثات سرية مع البابليين، ويحتمل أيضًا نبأ مراسلاته مع الملك الآشوري. وسرعان ما اتخذ قراراً بنفيه إلى منطقة «على ساحل البحر» أو «وراء البحر»، وكلا الترجمتين يصلحان للنص الحثيني «تا - بو - سا»، فلو كانت الأولى هي الأصح، فلابد أنه نقله إلى منطقة على ساحل الأناضول خاضعة للحكم الحثيني، ولو كانت الثانية هي الأصح، فلا بد أنها كانت آلاسيا بقبرص، بالرغم من أنه من المؤكد أن الحثينيين لم يكن لهم أي

نفوذ على جزيرة قبرص فى ذلك الوقت.

الفرار إلى مصر

ومهما كان الموضع الجديد الذى نفى إليه أورحى - تيشوب، لم يبق به طويلاً، فقد تمكن من الفرار فى أول فرصة سنحت له، وظهر فى مصر. أصبح الآن بعيدًا عن متناول عمه، أو هذا ما أعتقده، وكتب حاتوسيلى إلى رمسيس يطلب منه إبعاده عن مصر وطرده منها، ولم يستجب رمسيس، فكتب حاتوسيلى إلى كاداشمان - تورجو ملك بابل يشتكى إليه عدم تعاون رمسيس، وأظهر كاداشمان - تورجو تعاطفًا مع حاتوسيلى، كان فى ذلك الوقت قد قرر أن يعترف بمغتصب العرش الحثينى، ووعده على الأقل بقطع علاقته الدبلوماسية مع الفرعون علامة على تضامنه، وهى معلومات مؤكدة توصلنا إليها من نص الرسالة الشهيرة، التى أرسلها حاتوسيلى بعد ذلك بأعوام طويلة إلى ابن كاداشمان - تورجو وخليفته كاداشمان - إنليل، حيث قال له فى تلك الرسالة:

«عدوى الذى فر إلى بلدة أخرى لجأ إلى ملك مصر. ولما كتبت إلى ملك مصر: «ابعث بعدوى إلىّ»، لم يفعل ذلك، لذلك أصبحت أنا وملك مصر على عداء لبعضنا، وكتبت إلى أبيك: «ملك مصر يعاون عدوى». لذلك منع أبوك مبعوثيه من التوجه إلى مصر»(5).

وبالرغم من أن اسم «العدو» الذى لجأ إلى مصر غير مذكور فى تلك الرسالة، إلا أنه لا يوجد شك أنه كان أورحى - تيشوب.

إلى أى مدى ذهب حاتوسيلى فى محاولاته استعادة ابن أخيه الهارب؟ إن كلمات رسالته التى قال فيها: **«أصبحت أنا وملك مصر على عداء لبعضنا»**، أدت ببابل إلى إدراك أن الموقف بين الحثيين ومصر وصل إلى مرحلة حرجة تصل إلى حالة الحرب، وكتب كاداشمان - تورجو فى حينها إلى حاتوسيلى قائلاً له: **«إذا توجهت جيوشك إلى مصر سوف أتوجه معك. إذا هاجمت مصر، سأبعث إليك بكل ما هو متاح عندى من مشاة**

وراكبي عجلات»(6)، لقد تكرر ذلك المشهد أكثر من مرة في ماضي تلك المنطقة في حالة رفض أي ملك أجنبي إعادة فارين من الحثيين، إذ كان يؤدي دومًا إلى إعلان الحرب، إلا أنه يبدو أن كاداشمان - تورجو في تلك المرة كان يبالغ في رد فعله، فقد كان حاتوسيلي ملتزمًا تمام الالتزام بما كتبه(7)، فبعد موقعة قادش، كانت احتمالات نشوب حرب عظمى بين الحثيين ومصر احتمالات منعدمة (بالرغم من أن رمسيس بنفسه كان قد اتهم حاتوسيلي بالقيام ببعض التحرشات العسكرية: ارجع إلى الفصل الرابع)، إلا أن حاتوسيلي وجد من الملائم له أن يذكّر كاداشمان - إنليل بدعم أبيه، وأن ذلك الدعم لابد أن يستمر من الابن الذي جلس على عرش بابل بعد وفاة أبيه.

على كل الأحوال لا يوجد أي شك في أن أورحي - تيشوب كان قد فر إلى مصر وأنه قضى زمنًا بها. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضع هو: متى وقع هذا الفرار - قبل أو بعد المعاهدة الشهيرة التي عقدها عمه مع رمسيس؟ اختلف الباحثون في تحديد ذلك، فلا يوجد دليل قطعي على تحديد وقوع الفرار إلى مصر قبل المعاهدة أم بعدها. إلا أن الأقرب إلى الاحتمال أن أورحي - تيشوب لجأ إلى مصر في فترة توتر العلاقات بين الحثيين ومصر التي سبقت التوصل إلى معاهدة السلام، أي قبل عام 1259، خاصة أن المعاهدة كانت تحتوي على بنود تنص على تسليم وإعادة الفارين من كل طرف إلى الطرف الآخر، لو كانت واقعة الفرار إلى مصر قد حدثت بعد توقيع المعاهدة، لكان أورحي - تيشوب لم يجازف بالفرار إلى مصر، مع علمه بأن هناك بنودًا تنص على إعادة اللاجئين السياسيين إلى الطرف الذي فرَّ منه، أما وصول أورحي - تيشوب قبل توقيع المعاهدة، فإنه كان يتيح لرمسيس فرصة التعلل بأن بنودها لا تنطبق على ما هو سابق عليها، وبافتراض أن الفرعون كانت لديه إرادة حقيقية في المحافظة على سلام حقيقي ودائم مع الملك الحثيني، فمن الصعب جدًا الاعتقاد أنه كان يقبل بلجوء أورحي - تيشوب إلى

مصر بعد توقيع المعاهدة.

وبعيدًا عن الزمن الذى وصل فيه أورحى - تيشوب إلى مصر، كان مجرد وجوده بها يسبب انزعاجًا شديدًا لعمه. لم يكن حاتوسيلى يشعر بأى أمان على عرشه فى الوقت الذى يظل فيه من أزيح عن العرش حرًا طليقًا بعيدًا عن يده، ويثير ذلك بدوره سؤالاً عن المدة التى بقى فيها أورحى - تيشوب بمصر فى ضيافة فرعون مصر، الشىء المؤكد أنه بعد أن قضى زمنًا بمصر توجه بعد ذلك إلى مكان غير معروف، ولا يوجد شك أن الفرعون احتفظ به الزمن الكافى ليستخلص منه كل المعلومات التى أراد استخلاصها منه عن بلاده التى نفى منها، وعن الرجل الذى اغتصب عرشه وعن العائلة الملكية الحثينية، لم يكن من الممكن أن تتاح فرصة الحصول على مصدر استخباراتى أفضل من أورحى - تيشوب عن كل الشئون الحثينية، زود أورحى - تيشوب فرعون مصر بمعلومات غزيرة عن مملكة أخيه الملك الحثينى، معلومات تم تخزينها للرجوع إليها عند الضرورة، ومن المحتمل جدًا أن أورحى - تيشوب هو الذى أعلم الفرعون بسن عمته - أخت حاتوسيلى - ماسانوتزى، كما أبلغ مضيفه المصرى بمعلومات مفصلة عن زوجة حاتوسيلى القوية بودوحيبا وقوة نفوذها فى مملكة أخيه، ومن أهمية تلك المعلومات كان الفرعون يتراسل مع الملك وزوجته، لا مع الملك الحثينى وحده.

رحيل أورحى - تيشوب عن مصر

جاء وقت انعدمت فيه أية فائدة من وجود أورحى - تيشوب بمصر، ووجد رمسيس أن مشاكل بقائه بمصر أكثر من الفوائد، كذلك، بدأ أورحى - تيشوب يوقن أن احتمالات دعم الفرعون له لاستعادة عرشه أصبحت معدومة لذلك قرر أن يغادر مصر فى أقرب فرصة، بمعرفة ورضاء مضيفه أو بدونهما. فإلى أين توجه؟ هناك لغز يحيط بالأماكن التى توجه إليها بعد مغادرته أرض مصر، وتظهر الخطابات المتبادلة بين

البلاطين الملكيين حول أورحي – تيشوب مجرى الأحداث في ذلك الوقت، كان حاتوسيلي يطالب قبل ذلك بطرد أورحي – تيشوب من مصر، وكان رمسيس يرفض، بعد ذلك، بدا من الواضح أن أورحي – تيشوب لم يعد بمصر، وأصبح حاتوسيلي يطالب الفرعون بالبحث عنه وإرجاعه:

«يتوجب على الملك العظيم، ملك مصر، تكليف مشاتة وراكبي عجلاته ببذل كل جهد، وألا تضن بذهبك وفضتك ولا خيلك ولا نحاسك ولا أرديتك حتى تعيد أورحي – تيشوب إلى مصر، لن تسمح له أن يصير قويًا ليشن الحرب على بلاد الحثيين»(8).

كان يحث ملك مصر ألا يضن بجهد أو مال في العثور على أورحي – تيشوب والتحفظ عليه، ورشوة مؤيديه إن لزم الأمر(9)، كان حاتوسيلي يوجه نداءً رسميًا للفرعون طالبًا منه تعاونه، وعلى ضوء التزاماته ببنود المعاهدة، كان من المنتظر من رمسيس أن يتخذ موقفًا مضادًا لأورحي – تيشوب، إذا أظهر تهديدًا عسكريًا على مملكة شريك المعاهدة، خاصة إذا أظهر أورحي – تيشوب ذلك التهديد من مناطق خاضعة للنفوذ المصري. لم يعد حاتوسيلي مصرًا على إعادته إليه، فقد أثبت أنه كان أشد خطرًا أثناء تواجده في البلاد الحثينية أكثر مما كان عليه بعد هربه منها. ولم يكن وادي النيل يعد مكانًا غير ملائم لبقائه هناك، وبعد أن اعترف رمسيس بشرعية حاتوسيلي كملك عظيم وارتباطهما بمعاهدة سلام، أدرك العم أن هناك أماكن أخرى قد تكون أسوأ وأخطر من مصر في حال وجود أورحي – تيشوب بها.

كان أهم هدف لديه أن يلقي القبض على ابن أخيه قبل أي شيء آخر، ولم يكن ذلك هدفًا سهل التحقيق، وكتبت بودوحيبا إلى رمسيس تذكره بما طلبه زوجها وتحرضه هي الأخرى ألا يدخر جهدًا ولا مالاً في القبض على الهارب، وكان طلبها ذاك ينطلق من فرضية أن أورحي – تيشوب كان مازال في أرض مصرية أو في مناطق خاضعة للنفوذ المصري، وربما في جنوب سوريا. وإن كانت هي وزوجها يؤمنان بذلك فعلاً، فإن رد رمسيس

عليهما كان له وقع الصاعقة. قال لهما فى رده أنه كان يتمنى أن يكون بقدرته تحقيق مطلبهما، إلا أن كل جهوده - لسوء الحظ - لم تسفر عن شىء، والسبب أن أورحى - تيشوب لم يعد موجودًا بأرض مصر ولا بالبلاد الخاضعة لنفوذه، وأنه عاد إلى بلاد حاتوسيلى، والأدهى من ذلك، كما قال لهما رمسيس، أنه كان قد قبض عليه على يد ابن الملك حاتوسيلى، إلا أنه تمكن من الفرار بعد أن رشا الحراس.

كان هذا ما ادعاه رمسيس فى رسائل مزدوجة كتبها لحاتوسيلى وبودوحيبا(10)، ولسوء الحظ أصبح النصان فى حالة سيئة عند نقاط هامة من حكاية الفرعون، إلا أنه يمكن إعادة تركيب تلك الأحداث المفقودة أو التالفة من النص فى الشكل التالى: يبدو أن حاتوسيلى كان قد أمر ابنه الأمير نيريكايلى بالتعاون مع الفرعون فى اقتفاء أثر أورحى - تيشوب، وكان نيريكايلى متزوجًا من ابنة ملك عمورو، وكان ممثلاً لأبيه فى سوريا. وضلل أورحى - تيشوب الباحثين عنه، وتوجه إلى مناطق خاضعة للحثيين، وهناك سقط فى أيدى ابن عمه نيريكايلى، ولكن لحسن حظ الأسير، مات نيريكايلى حتى قبل أن يتمكن من إبلاغ والده بإلقائه القبض على أورحى - تيشوب، وتمكن أورحى - تيشوب من رشوة الحراس فأطلقوا سراحه، ومرة أخرى أصبح الهارب مطلق السراح(11).

واحتج رمسيس قائلاً: «إنه سبق له إبلاغ البلاط الحثينى بكل تلك التطورات، وأنه لم يدخر جهدًا ولا مالاً فى سعيه للقبض على أورحى - تيشوب، استجابة لمطلب أخيه الملك الحثينى، ولكن الهارب خرج من البلاد التى يسيطر عليها الفرعون، ولذلك لم يتمكن رمسيس من إعادته إلى مصر»(12)، وأنه سبق أن شرح ذلك مرات كثيرة لأخيه الملك، وأن مصر مازالت مكانًا متاحًا لنفى أورحى - تيشوب، إلا أن ذلك يتوقف على قدرة حاتوسيلى فى العثور على الهارب، وترتيب أمر نقله إلى مصر.

وذهب رمسيس إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد راح يقترح على حاتوسيلى الأماكن المتوقع أن يعثر على أورحى - تيشوب بها والخاضعة

للنفوذ الحثيني، ربما كان في شمال سوريا، في حلب أوقادش، وربما كان في جنوب الأناضول، في منطقة كيزوادنا.

ورفض حاتوسيلي كل تلك الافتراضات ورد في تأكيد غاضب **«من غير المعقول أن يذهب إلى قادش، ولا أن يذهب إلى حلب، ولا إلى كيزوادنا»**، وأكمل حاتوسيلي معلنًا أن الهارب لو كان قد تواجد في أي من تلك المناطق لكان رعية الملك المخلصون قد سلموه إليه، وكانت إجابة الفرعون **«لا تثق برعيتك»**(13).

وبعد أن قام بكل ما في وسعه (أو أن هذا ما أظهره)، أحس رمسيس بالأسى لعدم تصديق أخيه الملك له، وتقمص دور الجريح البريء.

وكتب مرة أخرى إلى حاتوسيلي في احتجاج؛ لأنه لا يعرف المكان الذي فر إليه أورحي - تيشوب: **«انظر، أنا لا أفهم ما تكتبه حول هذا الموضوع الخاص بأورحي - تيشوب، وذلك الكلام الكثير الذي تكتبه لا يستحق مجرد الاستماع إليه، أنت تداوم على القول: «احضره إلى مصر»، ولكني لا أعرف فعلاً أين هو، لقد طار كما يطير العصفور»**(14).

لم يكن ما أثار غضب حاتوسيلي يرجع إلى عدم معرفة رمسيس بمكان أورحي - تيشوب، بقدر ما أثار غيظه أن رمسيس أخبره بوجود أورحي - تيشوب داخل بلاده هو وأنه لا يعرف بذلك، أي أن من يبحث عنه أصبح في عقر داره وهو لا يدري، وأن ذلك يعني أن رعاياه كانوا يعاونون خصمه ويتسترون عليه، ويرفضون تسليمه للملك.

وكونه يعرف ذلك من ملك أجنبي، حتى لو كان أخًا ملكيًا يكن له الحب والود، فقد كان ذلك مدعاة لضيقه وحرجه، وكان رمسيس أيضًا يدرك ذلك، وكان تظاهره بالبراءة يخفي دهاءً ومكرًا.

لغز أماكن اختفاء أورحي تيشوب

مازال التاريخ المؤكد لبعض جوانب تلك الأحداث ينقصه الدليل الموثق، فلا نعرف بدقة متى فر أورحي تيشوب إلى مصر ولا متى رحل عنها.

ادعت بودوحيبا زوجة حاتوسيلى فى مسودة رسالتها الشهيرة إلى رمسيس أنه كان مازال ضيفًا على فرعون مصر، خلال كل الفترة التى جرت فيها مفاوضات زواج الفرعون بإحدى بنات حاتوسيلى وبودوحيبا، وحيث إن ذلك الزواج تم حين كان رمسيس فى الرابعة والثلاثين من عمره (حوالى 1246)، فإن أورحى – تيشوب – طبقًا لهذا التاريخ – كان فى مصر بعد إزاحته عن عرشه بعشرين عامًا، أو نحو ذلك هذا إذا صدق اتهام بودوحيبا، ولكن كما لاحظنا فى الفصل السادس، يمكننا اعتبار أن ما كتبته لم يكن إلا من قبيل رد الفعل على ادعاء رمسيس المستمر أن أورحى – تيشوب لم يعد له وجود بمصر، وكانت أيضًا غاضبة من شكاوى الأخ الملكى (رمسيس) من طول زمن إعداد العروس للسفر إلى مصر.

لقد بررت تأخر العروس، وقالت للعريس المتعجل أن يتأكد من صدق الأسباب التى تذكرها من أورحى – تيشوب، الذى مازال يعيش عنده، وبالتأكيد كانت تسخر، ولو أخذنا بعين الاعتبار السياق الذى ذكرت فيه تلك العبارة، لابد أن نكون على أشد الحذر من استخدامها كمعلومة تاريخية مؤكدة. وبالفعل، هناك من الأسباب ما يجعلنا نؤكد أن رمسيس كان يذكر الحقيقة، وهى أن أورحى – تيشوب لم يعد موجودًا بمصر(15).

فأين كان إذن؟ قليل من البحث والتحرى قد يفضى بنا إلى إجابة ذلك السؤال. فقد كشف فى منطقة قونيا بجنوب تركيا عن مجموعة من النقوش النصية الهيروغليفية، فى مقبرة على قمة جبل كاراداج، وفى موقع اسمه كيزيلداج عثر على بقايا مدينة قديمة(16)، والنصوص الهيروغليفية التى كتبت فى الفترة التالية مباشرة لانهيار الإمبراطورية الحثية، كتبها رجل يدعى حرتابو، والذى يصحب اسمه فى النقش علاقة «ملك عظيم»، ذكر لنا حرتابو فى ذلك النص اسم أبيه وكان مورسيلى الذى أردف اسمه هو الآخر بعلامة ملك عظيم، وظهر الأب والابن مرة أخرى فى نصوص أخرى اكتشفت على تل اسمه بورونكايا (ويقع على بعد 18 كيلو مترًا إلى

الشمال الشرقى من مدينة أكسراى الحالية)، وظهرا فى هذه النصوص أيضًا بصفة ملوك عظماء(17)، واسم مورسيلى معروف لنا بالطبع، فهل للظهور، فى تلك النقوش أى دلالة لانتماء عائلى بين حرابو والعائلة المالكة فى حاتوسا؟ من الممكن جدًا بالطبع، لقد افترض أن حرابو وأباه كانا ينحدران من نسل كورونتا، وكان كورونتا شقيقًا لأورحى - تيشوب، والحاكم السابق لتارحونتاسا، وهى مملكة تأسست فى جنوب الأناضول على أيدى الملك ميواتاللى فى بدايات القرن الثالث عشر(18)، وبذلك يكون أبا حرثابو قد ورث عن العائلة المالكة السابقة أحد أهم أسمائها.

ملك فى المنفى؟

وهناك احتمال آخر، فكما لاحظنا. فقد نسبت نصوص حرتابو الهيروغليفية إلى زمن تالٍ لسقوط الإمبراطورية الحثينية فى القرن الثانى عشر، ومبدئيًا على ضوء أنه لا يمكن لحاكم محلى فى الأناضول أن يصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، فى الوقت الذى كانت فيه العاصمة الحثينية محتلة، يرد الباحث سنجر - بعكس ذلك - بأن تلك النصوص تنتمى بشكل أدق بأدلة زمنية ولغوية إلى زمن سابق على سقوط العاصمة حاتوسا فى أيدى الغزاة(19).

وعلى ضوء ذلك، لو صح افتراض سنجر، فإن حرتابو وأباه ينتميان إلى العصر البرونزى المتأخر. ويعنى ذلك أن ملكين متتاليين كانا يتمتعان بصفة ملك عظيم كانا موجودين بجنوب الأناضول، فى الوقت نفسه الذى كان يوجد فيه ملك آخر عظيم فى العاصمة حاتوسا على العرش الحثينى.

فهل يعقل ذلك تاريخيًا؟

نعلم من خلال أختام الرسائل أن أورحى - تيشوب أطلق على نفسه اسم مورسيلى، بمجرد أن اعتلى العرش الحثينى قبل أن يطيح به عمه حاتوسيلى، وعلى وجه الدقة فإن اسمه أصبح مورسيلى الثالث، غير أن حاتوسيلى لم يسم ابن أخيه أبدًا باسم التتويج على العرش، ومن الواضح

أن ذلك يعود إلى رفضه الاعتراف بالصفة الشرعية لابن أخيه بعد أن اغتصب عرشه، كان مغتصب العرش يطلق عليه اسمه الأول، أورحى - تيشوب، وكان آخرون يشيرون إليه باسمه الأول، ومنهم رمسيس بعد أن أطيح به عن العرش الحثينى، غير أن أورحى - تيشوب لم يتخل أبدًا عن طموحه لاستعادة عرشه، وكان لديه من الأبناء ما يجعله مصرًا على استمرار خط وراثة العرش فى نسله(20). والنتيجة لما أسلفنا فى شرحه قد تبدو واضحة الآن، وهى أن أبا حرتابو، مورسيلى المذكور فى النقش الهيروغليفى، لم يكن إلا الملك الذى أطيح به عن عرشه، أى أورحى - تيشوب(21)، هى حقيقة لا تقبل الشك أنه لا يوجد ملك محلى فى جميع أرجاء الإمبراطورية الحثينية كان يجرؤ على وصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، فى الوقت الذى يشغل فيه العرش الحثينى ملك عظيم آخر(22)، إلا أن ذلك لا ينطبق على من كان يؤمن أنه صاحب الحق الشرعى فى العرش، والذى ظل مصرًا على استعادته، وفى الافتراضات التى افترضها رمسيس على حاتوسيلى بالأماكن التى يحتمل تواجد أورحى - تيشوب بها بعد فراره من مصر، كان رمسيس أقرب كثيرًا إلى الحقيقة، فقد كان أورحى - تيشوب قد توجه فعلاً إلى داخل البلاد الحثينية.

وبمجرد أن أصبح داخل البلاد، بدأ فى جمع شمل مؤيديه من شمال سوريا وجنوب الأناضول، وأدت جهوده إلى تكوين مملكة بالمنفى امتدت على مساحة معقولة من جنوب الأناضول، كانت مملكة تارحونتاسا جزءًا منها، وهى المملكة التى كان يحكمها كورونتا شقيق أورحى - تيشوب، وبمجرد أن استقر فى تلك المملكة الوليدة، بدأ يستخدم اسمه الملكى مورسيلى الثالث، ووصف نفسه بصفة «ملك عظيم»، كتأكيد لحقه وكتحد لمغتصب عرشه فى حاتوسا، ذلك العرش الذى لم يغفل لحظة عن أحقيته به، ومشى حرتابو على خطى أبيه من بعده.

واجه آخر ملوك الحثينيين تمردًا كبيرًا من جنوب الأناضول، ووجد نفسه مضطرًا لتسيير حملات عسكرية إلى تلك المنطقة التى ظهرت

كمنطقة قلاقل واضطرابات فى آخر أعوام المملكة الحثينية، ومن الممكن أن يكون أورحى – تيشوب وابنه حرتابو قد أشعلا نيران التمرد فى جنوب الأناضول ضد الإمبراطورية المتداعية، لاستعادة حقهم فى العرش، الذى لم يتمكنا من استعادته أبدًا. بل إن المملكة التى أسسها أورحى – تيشوب فى جنوب الأناضول والتى ورثها عنه ابنه حرتابو كتب عليها هى الأخرى أن تختفى وتنهار بسرعة، فقد ابتلعتها هى الأخرى الأحداث العظمى التى أودت بالإمبراطورية الحثينية الكبرى ذاتها.

14

آخر الأيام

أدت موجات الجفاف الطويلة، والمجاعات، والزلازل، وانهيار الانساق الحاكمة، وانتشار وتفشى جماعات الغزو والنهب الجوالة، وانتفاض السكان المحليين فى أماكن كثيرة وتمردهم على الإمبراطوريات العظمى، إلى انتشار الفوضى، من بلاد اليونان القديمة حتى منطقة ما بين النهرين، ومن شمال الأناضول حتى سواحل مصر الشمالية والتى أدت إلى اضمحلال وانهيار مراكز عديدة من مراكز القوة، وانهيار مدن عظمى وممالك كبرى فى العقود الأخيرة من العصر البرونزى المتأخر.

لذلك لا يثير دهشتنا أن تكون مصادر المعلومات عن تلك العقود شحيحة ونادرة، بسبب الاضطرابات التى سادتها وندرة ما دون خلالها. فقد كانت البنى الإدارية تنهار يومًا بعد آخر، كما كانت منظومة الممالك التابعة والخاضعة لنفوذ قوة كبرى ينفرط عقدها والإمبراطوريات تتداعى.

لذلك لا يوجد إلا القليل من التسجيلات عن أحداث تلك الأيام الأخيرة. إلا أن تلك الأيام الأخيرة تركت لنا أيضًا تسجيلات عن الانتصارات العسكرية لكبار الملوك، انتصارات على سواحل قبرص، وانتصارات على السواحل الجنوبية لمنطقة الأناضول حتى غربها الأقصى: وهى انتصارات أعلن عنها بفخر الحكام الحثيثيون فى نهايات العصر البرونزى المتأخر(1). أحرز أولئك الحكام انتصارات بحرية وبرية على الأقوام الذين أطلق عليهم اسم شعوب البحر، وهم جحافل بشرية تدفقوا على أطراف الشرق الأدنى، حتى وصلوا إلى سواحل مصر الشمالية: وكان الانتصار المصرى عليهم من بين الأعمال التى توجت إنجازات آخر عظماء الفراعنة المصريين، الملك رمسيس الثالث(2).

ولا يمكننا بالطبع التوصل إلى مدى الصدق التاريخى لتلك الإعلانات

الملكية عن انتصاراتها العظمى، ولا كم المبالغة الدعائية، وتشويه الحقائق الذى لجأ إليه كبار الملوك، الذين أصبحت سيطرتهم على الأوضاع فى الداخل وسمعتهم فى الخارج فى مهب الرياح، وينطبق ذلك على وجه التحديد على الملك سبيللوليوما الثانى، آخر سلالة أسرته الحاكمة ممن شغلوا العرش فى حاتوسا، ولحسن الحظ توصل البحث إلى العثور على بضع رسائل تنتمى إلى تلك العقود الأخيرة من العصر البرونزى المتأخر، تصحح بعض مبالغات الدعايات الملكية والبيانات الرسمية البلاغية المسجلة على صخور وألواح سجلات المحفوظات الملكية. وتقدم تلك الرسائل التى عثر عليها أيضا بعض الملامح المثيرة عن الحياة والأحوال التى سادت تلك المرحلة، كما تكشف لنا عن بعض المواقف الشخصية، والمخاوف والآمال التى كانت تعتمل فى نفوس من كتبوها فى ظروف تزايدت فيها الاضطرابات، وغاب عنها الاستقرار والأمن.

رسائل أوجاريت

تبين أن موقع أوجاريت على وجه الخصوص من أغنى المواقع التى احتوت على كثير من نصوص مراسلات آخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الثانى عشر، وسوف نركز البحث على تلك المنطقة المحدودة، والتى تلقى الضوء رغم محدوديتها على كثير من مراسلات العصر البرونزى المتأخر.

فمنذ أن تحولت أوجاريت لتنضم إلى منظومة الدول الصغرى الخاضعة لنفوذ الحثيين فى عهد سبيللوليوما الأول، أصبحت جوهرة التاج الحثينى ودرته الثمينة، وكانت من أكثر الولايات انتعاشًا لموقعها الاستراتيجى الهام على شمال الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وظلت على ولائها للإمبراطورية الحثينية على مدى قرن كامل.

ولما بدأت قبضة الإمبراطورية على ولاياتها التابعة لها فى الضعف، كانت أوجاريت واحدة من تلك الممالك التى بدأ التزامها يقل تجاه سيدها

الأعلى الجالس على عرش حاتوسا، وأول دليل على ذلك ظهر فى عهد ثالث وآخر ملوك أوجاريت، وهو الملك ايبيرانو (1230 – 1210) الذى اعتلى عرش بلاده على وجه التقريب فى عهد الملك الحثينى الثالث والأخير تودحاليا الرابع، فبعد الانتهاء من طقوس تتويجه ملكًا على أوجاريت، لم يقم ايبيرانو بمراعاة الإجراءات الواجب اتباعها تجاه سيده الأعلى الحثينى، واستدعى ذلك أن يرسل إليه «الأمير» الحثينى بيحاوالوى(3) رسالة تأنيب وتوبيخ: **«منذ أن توليت السلطة فى أوجاريت، لماذا لم تمثل حتى الآن بين يدى جلالة الملك؟ ولماذا تتقاعس عن إرسال مبعوثيك بانتظام؟ ذلك يثير غضب الملك الشديد، أرسل مبعوثيك إلى جلالته بأقصى سرعة، واحرص على إرسال الهدايا إلى الملك ومعها الهدايا التى ترسلها إلى»**(4).

لقد كانت هناك أمور على المحك أكثر من كونه إهمالاً من ملك أوجاريت، تقاعس فيه عن اتباع الإجراءات المرعية فى علاقته بسيده الأعلى، وعلى ضوء أن معاهدات التبعية كانت معاهدات شخصية بين السيد الأعلى والحاكم المحلى، كان من الضرورى الاتفاق مجددًا على تلك الالتزامات بين الطرفين كلما تبوأ العرش حاكم جديد – سواء كان سيدًا أعلى أو حاكمًا محليًا – وأدى ذلك التقاعس بطبيعة الحال إلى إثارة مخاوف الإدارة الحثينية عن مستقبل ولاء أوجاريت.

وهناك أسباب معقولة تظهر أن تقاعس ايبيرانو لم يكن مجرد تقاعس دبلوماسى، كما تظهر ذلك رسائل سجل محفوظات أوجاريت تعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ظهرت أثناء أعمال الحفر فى أوجاريت عام 1973، وعثر على 120 لوحًا وبعض حطام الألواح، اثنى عشر منها مكتوبة باللغة الأوجاريتية، والباقى باللغة الآكادية، وأمكن ترجمة الاثنى عشر رسالة ونشرها بعد العثور عليها، أما باقى الرسائل فلم تترجم وتنشر إلا عام 1991(5)، وأظهرت أعمال الحفر التى بدأت من جديد عام 1980

ألواحًا أخرى وصلت إلى 300 لوح وكسور ألواح(6)، كان صاحب دار حفظ تلك المراسلات يدعى أورتينو، وهو من أحد كبار رجال بلاط أوجاريت فى ذلك العصر(7).

بالإضافة إلى الوثائق الإدارية والدينية، احتوت الرسائل التى عثر عليها عام 1973 على رسائل واردة إلى ملك أوجاريت من نائب الملك الحثينى على قرقميش، وكان حاكم قرقميش هو المسئول المباشر عن شئون تبعية أوجاريت للحكم الحثينى(8)، ولو حكمنا من نصوص الرسائل التى عثر عليها عام 1973، يتضح أن العلاقة بين نائب الملك الحثينى على قرقميش وحاكم أوجاريت لم تكن على ما يرام، وتعكس الرسائل صورة حاكم محلى فى أوجاريت لا يقوم بما يجب عليه من التزامات، أو على أفضل الأحوال يقوم بها بلا حماس ولا اقتناع.

كان أحد أسباب ازدياد التوتر نوعية الهدايا التى يرسلها الحاكم المحلى فى أوجاريت إلى حاتوسا، وقد رأينا من خلال بعض مراسلات تل العمارنة أن نوعية الهدايا كان من أهم الوسائل التى تظهر تقدير المرسل إلى المرسل إليه بين كبار الملوك، كذلك أيضًا تظهر قدر ولاء الملك التابع لسيده الأعلى، وكان ذلك أحد أسباب تأنيب وتوبيخ نائب الملك الحثينى على قرقميش لملك أوجاريت الجديد، بسبب تفاهة الهدايا التى أرسلها إلى كبار رجال بلاط الملك الحثينى فى حاتوسا:

«رسولك الذى أرسلته إلى الملكة، وهداياك التى أرسلتها إلى كبار رجال البلاط كلها دون المستوى اللائق... ألم أكتب إليك بالمطلوب وقلت: «أرسل إلى كبير الكتبة هدية فاخرة؟ فلماذا لم تظهر له الاحترام الذى يستحقه بإرسال هدية فاخرة؟ لماذا أقدمت على ذلك السلوك؟»(9)

وأنهى نائب الملك رسالته بتذكير ملك أوجاريت المتقاعس بالعقوبات التى أوقعت برسله فى مناسبة سابقة، حين أرسلهم إلى الملك بهدايا أقل قيمة مما هو متوقع، وكان التحذير مباشرًا وواضحًا: **«لا تحاول أن تفكر فى الإقدام على ذلك مرة أخرى».**

وكان هناك سبب أكبر لعدم الرضى، وهو تقاعس الملك الخاضع عن أداء التزاماته العسكرية، لم تكن أوجاريت أبدًا من الممالك القوية عسكريًا، بالرغم من ثرائها المادى، وكانت تبحث عن أسباب تتعلل بها فى مناسبات سابقة لتجنب إمداد جيش الملك الأكبر بقوات عسكرية، لذلك قام أبو ايبيرانو، الملك عميشتامرو الثانى (1260 - 1230) بدفع 50 جعلاً من الذهب إلى الملك الحثينى تودحاليا الرابع؛ لإعفائه من إمداد جيشه بأفراد مقاتلين وعجلات حربية مساهمة فى الحملة العسكرية الحثينية ضد آشور(10).

وفى عهد ايبيرانو، تلقى أمرًا بإرسال قوات معاونة، وأدى تقاعس الملك الجديد عن إرسالها(11) إلى تفتيش عاجل على كل قواته العسكرية الدفاعية، قام به قادة عسكريون من قرقميش، وظهر ذلك من نص رسالة بعث بها إليه نائب الملك الأعظم على قرقميش(12).

وبعد ذلك بفترة، تلقى إيبيرانو طلبًا جديدًا لإرسال قوات من لدنه، فاستجاب، ولكن استجابته كانت فى شكل رمزى هزيل، وكتب إليه نائب الملك وهو غاضب، واتهمه بتقديم معلومات زائفة وإرسال قوات من الدرجة الثانية وخيول هزيلة للعجلات الحربية:

«ادعيت فى رسالتك أن قواتك العسكرية موجودة فى موكيش، والحقيقة أنها ليست هناك، بل فى مدينة ابسونا(13). أما بالنسبة للعجلات الحربية التى أرسلتها فجنودها من الدرجة الثانية وخيولها هزيلة»(14).

ومضى نائب الملك فى رسالته متهمًا إياه بالإبقاء على أفضل القوات العسكرية لديه، وربما كانت اتهاماته مبررة، ولم تكن أوجاريت المملكة السورية الوحيدة التى تبقى أفضل قواتها العسكرية داخل المملكة، حفاظًا على أمنها المباشر، رغم طلبات الملك الأعظم بإرسال أفضل القوات، وربما يعكس تصرف ملك أوجاريت فى الحفاظ على أفضل القوات العسكرية افتقاد الثقة منه ومن حكام الممالك السورية الأخرى فى الملك الأعظم أو

فى نائبه فى المحافظة على تلك القوات والحرص عليها فى المعارك ضد الأعداء القادمين من الأرض والبحر، وحول ذلك الأمر تلقى ملك أوجاريت رسالة من الملك الآشورى تيكولتى - نينورتا الأول، يبلغه فيها بانتصارهم الساحق على الجيش الحثينى فى شمال منطقة ما بين النهرين(15)، ويبدو أن الغرض من تلك الرسالة كان دفع أوجاريت على الانسلاخ عن الحثينيين، بعد أن أصبحت مملكة ضعيفة منهكة وتنضم إلى آشور، القوة الجديدة المتنامية فى المنطقة(16).

إلا أنه كان هناك وجه آخر للرسائل التى عثر عليها فى أوجاريت، فعدد من تلك الرسائل لا يتعلق بالجوانب العسكرية ولا السياسية، ويظهر نشاطًا سلميًا من التبادل التجارى المنتظم بين الممالك السورية المحلية، وهى أنشطة كانت تمتد أحيانًا حتى منطقة الأناضول، وهكذا، نجد فى رسالة واردة إلى عمورابى، آخر ملك عرف لأوجاريت، يشير فيها مرسلها حاكم مملكة تارحونتاسا بجنوب الأناضول إلى بضائع أرسلها إلى أوجاريت، وطلب منه إرسال بضائع أخرى مقابلها(17). وفى رسالة أخرى نجد ملك عمورو يشتكى إلى نظيره ملك أوجاريت من تأخر تسليم شحنة من الحجر الصابونى بعد الاتفاق على ذلك:

«لماذا تؤخرون الحجر الصابونى ولا تمكنون عدو - ماشير من استلامه؟ هل يتم نقله على عاتق رجالكم؟ لن يقوم رجالى ولا مراكبى البحرية بنقله، والآن يا سيدى اترك عدو ماشير يمضى: دعه يستلم الحجر الصابونى، حتى يمكن ترميم بيوت أخيك الملك. والبيوت حتى الآن بدون الحجر الصابونى»(18).

وتشهد الرسائل المتبادلة بين ملوك أوجاريت وصيدا وملك بيروت وكبار مسئولى أوجاريت على العلاقات الوثيقة التى ربطت بين الممالك الواقعة على الساحل الفينيقى، فى العقود الأخيرة للعصر البرونزى(19).

كذلك ظهر أن أوجاريت كانت تربطها روابط تجارية قوية بمملكة إيمار الواقعة على نهر الفرات. فالتبادل التجارى النشط بين الولايتين الملكتين

أدى إلى وجود مكتب للتمثيل التجارى لأوجاريت فى مملكة إيمار فى بدايات القرن الثانى عشر، كان داجان - بيلو يقوم فيه بوظيفة الممثل التجارى لأوجاريت، والمدير لأنشطتها التجارية. وقد كتب من إيمار إلى شيبتى بعل، وكيل أعمال وزوج ابنة ملك أوجاريت عمورابى، مطمئنًا إياه أن كل شيء يمضى على ما يرام، ويسأله عن الأحوال فى الوطن، كما أرفق مع رسالته بعض النباتات إلى شيبتى بعل، وفى المقابل طلب من شيبتى بعل إن كان هناك مبعوث سيأتى من قبله سيكون ممتنًا إذا أرسل له معه بعض الزيت ورداء كتانيًا واسع من أجود الأنواع لاستعمال داجان - بيلو الشخصى(20). كما كتب داجان - بيلو أيضًا إلى أورتينو، وهو رجل بلاط أوجاريت المرموق، الذى كان بيته سجل الرسائل المحفوظة، وطلب منه فى تلك الرسالة إيفاد ابنه عزيلتو إلى إيمار ومعه مواد أخرى من مواد الكتابة من حجر الألنيوم، والصوف الأزرق ورداء من الكتان المنسوج(21).

ويعلق الباحث بوردرويل قائلاً: «**إن الرسائل تظهر بوضوح درجة «العالمية» التى ميزت عالم أوجاريت وجيرانها فى تلك العقود الأخيرة للعصر البرونزى. كانت هناك شبكة من العلاقات والأنشطة التجارية تربط بين جميع أرجاء مناطق سوريا - فلسطين، مع وجود طرق تجارية تمر بأسواق كثير من المدن والمراكز الحضرية الكبرى**»(22).

وفى الوقت الذى يعد فيه التعميم من المخاطر البحثية، إلا أن مستوى الأنشطة التجارية بدا على درجة عالية كما كان عليه فى عقود سابقة، إن لم يكن أعلى، فضلاً عن ذلك، لا نقرأ فى تلك الرسائل عن أية مخاطر تواجه انتقال التجار سواء كانت مخاطر بشرية أو طبيعية، ويثير ذلك الدهشة مقارنة بما يظهر فى رسائل تل العمارنة السابقة على ذلك العصر، والتى تظهر أن تلك المخاطر كانت كثيرة ومتوطنة بتلك المنطقة. على أى حال، لا بد أننا كنا نتوقع زيادة فى النشاط الإجرامى ضد الأنشطة التجارية فى تلك الفترة المتأخرة للعصر البرونزى، والمرافقة

لضعف سيطرة القوى العظمى المتداعية على المنطقة الخاضعة لنفوذهم.

ما يستحق الملاحظة والذكر أيضًا غياب كلي في سجل محفوظات أورتينو لأية إشارة تدل على كوارث قادمة، ويعلق الباحث أرنود على ذلك قائلاً: **«إنه لا يوجد بالرسائل ما يحذرنا بأننا نقرأ رسائل عالم يقترب من فنائه»**(23). لا يطغى على النصوص إلا العمل والسعي للربح كالعادة، بالطريقة ذاتها التي تظهر من خلال الرسائل الميسينية المكتوبة بالحروف الخطية B في بايلوس، والتي تعطي انطباعًا بـ «أنه العمل كالمعتاد»، حتى آخر لحظة في حياة تلك القصور. بالكاد كانت تظهر في أحيان قليلة في نصوص الرسائل إشارة عابرة للتهديدات الخطيرة القادمة مع الأيام، ففي رسالة من الملك الحثيني لأحد ملوك أوجاريت، ويحتمل أنه كان عمورابي، يعرب فيها عن قلقه من جماعات أطلق عليها اسم «شعب شيكيلا الذي يعيش على مراكب بحرية».

ومواطن أوجاريتي اسمه عبداندوشو، وقع في أيدي أولئك الشيكيلا، وأطلق سراحه بعد ذلك أو تمكن من الفرار، وطلب الملك الحثيني في رسالته أن يرسل عبداندوشو على الفور إلى العاصمة الحثينية؛ لاستجوابه حول ما عرفه وما رآه عن أولئك الناس، مع وعد بإعادته سالمًا إلى أوجاريت(24).

وبالتأكيد يمكن التعرف على أن الشيكيلا هم الشيكيل، وهم الجحافل البشرية الذين أشار إليهم رمسيس الثالث باسم شعوب البحر، ولو صح ذلك، فإن تلك الرسالة تمدنا بأول إشارة إلى إحدى قوى الأعداء الذين هاجموا ودمروا مدن مملكة أوجاريت، وكانوا سببًا في انهيار تلك المملكة للأبد(25)، وكان قلق حاتوسا من ظهور قوارب شعوب الشيكيلا على سواحل شرق البحر المتوسط له ما يبرره، إلا أنه لم يكن لدى الملك الأعظم ولا نوابه على الولايات ما يفعلونه لمواجهة التهديدات والمخاطر التي يمثلها اقتراب شعوب البحر على الممالك الخاضعة لنفوذهم، كان عمورابي يتلقى تقارير منذرة من مراقبي السواحل، تفيد أن مراكب كثيرة تظهر في

الأفق، وبلا شك بنوايا عدائية، فقام بإرسال رسالة عاجلة إلى نائب الملك الأعظم على قرقميش مناشداً مساعدته لصد غزو بحرى هائل، ولم يكن لدى نائب الملك على قرقميش ما يقدمه إليه، إلا أنه نصحه قائلاً:

«فيما يخص ما كتبته إلىّ: «سفن الأعداء ظهرت فى البحر»، حسنًا، يجب أن تظل صامدًا، أين تعسكر قواتك وعجلاتك الحربية؟ أليست متمركزة بالقرب منك؟ كلا؟ أم خلف العدو الضاغط عليك؟ أحط مدنك بالاستحكامات، اجعل قواتك وعجلاتك متمركزة بالمدن، وانتظر وصول العدو بعزيمة وتصميم»(26).

وترك عمورابى وحده بعد أن أيقن أن عليه أنّ يعتمد على قواته وحدها لحماية مملكته، وقد كان يعى تلك الحقيقة من البداية، ويمكننا هنا فهم لماذا قررت أوجاريت الحفاظ على صفوة وخيرة قواتها العسكرية قبل ذلك بالرغم من تأنيب وتوبيخ نائب الملك الأعظم لملك أوجاريت حين تقاعس عن الوفاء بالتزاماته العسكرية تجاه سيده الأعظم. إلا أن ذلك لم يفده بشكل واضح، فلو صدقنا ادعاء عمورابى فى رسالة منه إلى ملك آلاسيا فى قبرص. فإن الدفاع عن خليج أوجاريت قد أخل به وجود جزء كبير من قواتها فى مكان آخر من المملكة الحثينية، مما تركها بلا دفاع قوى لصد الأعداء وسرعان ما استغل الأعداء ذلك الموقف، وهكذا حين كتب ملك آلاسيا إلى عمورابى يرجوه مساندته حربيًا ضد شعوب البحر التى كانت تهاجم مملكته، لم يكن ملك أوجاريت فى وضع يسمح له باستجابة أفضل، ورد قائلاً:

«أبى، أترى، جاءت سفن الأعداء (هنا) إلى مدنى (؟) وأحرقتها، وارتكبوا أفعالاً مشينة ضد بلادى، ألا يعلم أبى أن كل قواتى وعجلاتى (؟) فى بلاد الحثينيين، وكل سفنى فى منطقة لوكا؟... هكذت، تركت البلاد لنفسها، هل لأبى أن يعلم أن : السبع مراكب البحرية التى أتى عليها العدو سببت دمارًا كثيرًا»(27).

عثر على تلك الرسالة فى بيت رابانو، أصبح الموقف فى ذاك الوقت

واضحًا، على كل مملكة أن تتولى شئون الدفاع عن نفسها من الممالك الصغرى الخاضعة لنفوذ الممالك العظمى.

ومرت الممالك بأزمة نقص خطير فى المواد الغذائية، إما بسبب حلول الجفاف، أو بسبب نقص القوى البشرية التى تزرع الأرض، أو تدمير العدو للمحاصيل والأراضى المزروعة، وهكذانجد أن رسالة أخرى من سجلات رابانو تذكر:

«أبواب البيت مغلقة؛ لأن هناك مجاعة فى بيتك، سنجوع حتى الموت، لو لم تسرع بالمجيء سنجوع حتى الموت، لن ترى أبدًا بعد ذلك روحًا حية فى بلادك»(28).

وضاعف من سوء الموقف طلبات الحثيين، فقد كانت بلاد الحثيين ذاتها فى ذلك الوقت تعانى من مجاعة شديدة، ولم تجد أمامها إلا طلب شحنات من الحبوب من الولايات السورية الخاضعة لها، والأقرب إلى الاحتمال تعويضًا عن عدم وصول شحنات الحبوب المعتادة من مصر، بسبب نشاط الأعداء البحرى فى شرق البحر المتوسط، وحملت رسالة من الملك الحثينى إلى ملك أوجاريت ملحوظة استعجال خاصة، وربما كان ملك أوجاريت الموجهة إليه تلك الرسالة نيكمادو الثالث أو عمورابى (فالاسم مفقود من الرسالة)، يطلب فيها إرسال سفينة بطاقمها البحرى لنقل 2000 وزنة من الحبوب (حوالى 450 طنًا) من موكيش إلى أورا:

«وهكذا (المدينة) أورا (تصرفت(؟)) بهذه الطريقة.. وادخروا الطعام لجلالته، وأخبرهم جلالته عن 2000 وزنة من الحبوب قادمة من موكيش، يجب أن تهيئ لهم سفينة بطاقمها، وأن ينقلوا تلك الحبوب إلى بلادهم. سينقلونها فى نقلة أو نقلتين يجب ألا تحجز تلك السفينة»(29).

وأكدت الرسالة على ملك أوجاريت العمل بسرعة دون تأخير.

وتصل بنا آخر رسائل أوجاريت إلى نهاية بحثنا بين ثنايا مراسلات العصر البرونزى المتأخر، والصورة التى تقدمها تلك الرسائل تقدم لنا صورة مصغرة عن الأحوال التى سادت بوجه عام فى مناطق عديدة من الشرق الأدنى، وعوالم بحر إيجه فى نهايات القرن الثالث عشر إلى بدايات القرن الثانى عشر. وهى العوالم التى عانت من تداعى الأمن وزيادة الاضطرابات، أصبحت القصور العظمى والقصور المحلية والمراكز الإدارية، وممالك بأجمعها كبيرها وصغيرها، والمجتمعات المدنية والزراعية عرضة بشكل متزايد لهجوم جحافل قوات معادية، بعضها قادم براً، وغيرها قادم من البحر.

وذهبت مناشدات طلب العون والمساعدة للتصدى لأولئك الأعداء سواء كانت تلك المناشدات موجهة للملك الأعظم، أو إلى الولايات والممالك الصغرى المجاورة، ذهبت جميعًا أدراج الرياح، إما بتجاهلها أو برفضها، فلم يكن لديهم خيار آخر، إذ كانوا هم أنفسهم يتعرضون فى الوقت ذاته لهجوم ذلك العدو وكانوا أيضًا من ضحاياه، وانقطعت طرق نقل الإمدادات، وتزايدت حدة نقص الطعام، وهام كل سكان تلك الممالك على وجوههم.

ومثل كل مراكز الحضارة التى تنتمى إلى العصر البرونزى المتأخر، لم تصمد أوجاريت أمام قوى الفوضى والدمار، التى لمحنا إشارات عابرة منذرة بحلولها فى آخر رسائل الأرشيف، ونهبت عاصمتها وهجرت وكانت تقع فى الموقع الذى توجد فيه مدينة راس شمرا الحالية، وكان ذلك «الخراب النهائى لأوجاريت، وتلاشى واختفاء تركيبها الاجتماعى والسياسى ولم تعد توجد ولاية / مملكة فى موضعها على الساحل السورى»(30).

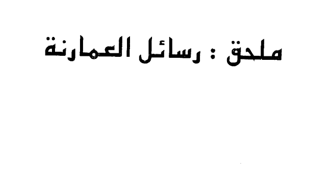
وخضعت مملكة الأناضول المركزية للقوى ذاتها التى أدت إلى انهيارها. وهجرت العاصمة الحثينية ودمرت، وانهارت كل أرجاء

الإمبراطورية التى كانت تبسط نفوذها عليها، وفقدت مصر هى الأخرى إمبراطوريتها الآسيوية، وبالرغم من صمود مصر أمام الكوارث التى أدت إلى انهيار ودمار الممالك المعاصرة، فإن المملكة الفرعونية لم تستعد أبدًا بعد ذلك وضعها كقوة دولية عظمى، أما فى سوريا فقد ظلت بقايا الإمبراطورية الحثينية متواجدة بشكل آخر على مدى 500 عام، فيما أطلق عليه الممالك الحثينية الحديثة.

وصمد عدد آخر من ولايات الساحل الفينيقى ضد الدمار الشامل الذى لحق بالإمبراطوريات فى نهاية العصر البرونزى المتأخر، وكان من تلك الولايات التى نجت الولايات الفينيقية فى طرابلس وصور وصيدا، وبدأت فى الانتعاش من جديد فى بدايات العصر الحديدى المبكر، إلا أن الوجه السكانى السياسى (الچيوبولتيكى) لكل منطقة غرب الفرات قد تغير فى عديد من النواحى تغيرًا جذريًا، فى القرون التى تلت انهيار ممالك العصر البرونزى المتأخر.

أما شرق الفرات، فقد كانت هناك مملكتان تنتميان إلى العصر البرونزى، ولم يكن تاريخهما قد شق مجراه بعد، ونجيتا من الكوارث إلى حد كبير، هى الكوارث التى ابتلعت جيرانهما فى غرب الفرات، فآشور سوف تنهض مرة أخرى من كبوتها لتصبح قوة عظمى فى منطقة الشرق الأدنى. وسوف تنهض بابل أيضًا من جديد، وسوف تصل إلى أعلى مراتب وذرى العظمة والقوة فى الشرق الأدنى، بمجرد أن تصل الهيمنة الآشورية الذكية والقاسية على المنطقة إلى منتهاها، وتنهار فجأة وتسقط بلا عودة.

إلا أن تلك القصة تنتمى إلى عصر آخر.



ملحق : رسائل العمارنة



أتاحت لنا فترة العمارنة معرفة القوى العظمى فى أرجاء الشرق الأدنى بأجمعه لأول مرة، من البحر المتوسط حتى الخليج الفارسى، فى تفاعلاتها فيما بينها، وفى علاقات أسرها الحاكمة وعلاقاتها الاستراتيجية والتجارية، وكانت آليات الإدارة السياسية فى تلك العلاقات المتشابكة تتمحور حول دبلوماسية تل العمارنة، وهو نظام دبلوماسى له قواعده، وأعرافه، وخطواته وإجراءاته، وقواعد تحكم التمثيل الدبلوماسى والتواصل والمفاوضات بين كبار الملوك(1).

يقع الموقع المعروف حاليًا باسم العمارنة على الضفة الشرقية لنهر النيل، على مبعدة حوالى 300 كيلو مترًا إلى الجنوب من مدينة القاهرة، وفى ذلك الموقع عثرت فلاحة على كمية من الألواح الطينية المنقوشة فى عام 1887 بينما كانت تحفر بين انقاض تلك المنطقة التى تبين بعد ذلك أنها بقايا مدينة إختياتون التى بناها أخناتون، وأدى الحفر خلسة الذى قام به السكان المحليون إلى ظهور ألواح جديدة، مع ظهور مكتشفات عديدة بالمنطقة مع بدايات أعمال الكشف المنظم التى جرت فى ذلك الموقع، والرقم الكلى للألواح التى عثر عليها بذلك الموقع مجهول بسبب بيع أعداد منها سرًا إلى هواة جمع التحف بعد العثور عليها مباشرة، والمعروف حاليًا 382 لوحًا، تمثل 75٪ (أو أكثر) من عدد الألواح الكلية، وتسمى البقعة التى عثر بها على أكبر عدد من الألواح حاليًا باسم المبنى 19، أما الاسم الأصلى فقد كان أكثر إيحاء وهو: «دار رسائل الفرعون -- حياة، انتعاش، صحة»، كانت تلك البقعة هى موقع دار حفظ مراسلات الملك الأجنبية.

ومن بين تلك الألواح يوجد 350 منها تحتوى على رسائل، إما واردة

إلى الفرعون أو نسخًا من رسائل أملاها بالتعاون مع كبار مستشاريه(2)، كما تضم بضع قوائم عن هدايا مرسلة إلى آخرين(3)، والرسائل مقسمة إلى قسمين رئيسين:

* الرسائل التى تبادلها الفرعون مع حكام أجانب، ملوك الحثيين، وبابل، والميتانيين، والآشوريين، وارزاوا، وآلاسيا بقبرص.

* الرسائل الواردة من (وأحيانًا أقل إلى) الحكام الخاضعين للنفوذ المصرى فى سوريا - فلسطين، وهى الكم الأكبر من بين الرسائل.

ويصل عدد أولئك الحكام الذين تظهر أسماؤهم فى الرسائل إلى أربعين. أما الاثنان وثلاثون رسالة الباقية فتتكون من مقاطع لفظية معجمية، وقوائم نحوية لغوية ونصوص دينية، وتظهر خواصها الأدبية واللغوية أنه كانت توجد مدرسة متخصصة لتعليم اللغة المسمارية للكتبة المصريين (إيدوبا) فى العاصمة الملكية(4).

وباستثناء لوحين من المراسلات، مكتوبان بالحثينية (EA 31-2)، يوجد واحد بالآشورية (EA 15)، وواحد باللغة الحورية (EA 24)، فإن باقى رسائل العمارنة مكتوبة بالأكادية (أو أحد أشكالها)،، بصفتها اللغة الأجنبية الدولية السائدة فى العصر البرونزى المتأخر. ولسوء الحظ، كانت الرسائل مكتوبة بأحد الأشكال الصعبة للغة الأكادية، وعلق ريڤرانى على ذلك: بأن لغة الرسائل مليئة بالصور البلاغية، والكنايات وباقى الألوان البلاغية فى الكتابة، والتى يمكن أن تؤدى إلى ترجمات متناقضة(5). وبعيدًا عن تلك الإشكالية، فهناك المشاكل التى وقعت نتيجة ترجمة النصوص إلى لغات ليست لغة من قام بالترجمة، وقد يظهر غموض وحيرة فى نصوص الرسائل، يعود ببساطة إلى أن الكاتب الذى كتبها فى تلك العصور ليس من أبناء اللغة الأكادية (باستثناء واضح للرسائل الواردة من الممالك التى تتحدث الأكادية مثل بابل وآشور) وكانت تظهر مصاعب أحيانًا فى نقل معانى دقيقة بتلك اللغة كما أملاها ملوكهم.

فضلاً عن ذلك، هناك صعوبة فى فهم المراسلات السورية -

الفلسطينية وترجمتها ترجمة صحيحة، وذلك للجوء الكتبة الذين كتبوها إلى استعمال مفردات مهجورة، ومفردات محلية، ومصطلحات محلية كنعانية.

لقد طور الكتبة المحليون فى سوريا - فلسطين ما يمكن تسميته باللغة الهجينة(7) التى يغلب عليها الكنعانية(7)، والتى طرحت تحديات أخرى من نوع خاص عدا التحديات التى تفرضها ترجمة اللغات المهجنة، ولا بد أن يظل كل ذلك ماثلاً بأذهاننا فى محاولاتنا إعادة بناء تاريخ مرحلة العمارنة من خلال نصوص الرسائل، هذا عدا أن كثير من المعلومات مبتسرة، بسبب تهشم أجزاء من الألواح.

وتغطى الرسائل المحفوظة فى الحد الأقصى أحداث ثلاثين عامًا(8)، أو أقصر من ذلك اعتماداً على حدوث فترة حكم مشترك من عدمه بين امينحوتيب الثالث وابنه امينحوتيب الرابع - أخناتون وطول فترة ذلك الحكم المشترك، الخطابات المبكرة تعود إلى آخر أعوام حكم أمينحوتيب الثالث (أى من العام الثلاثين من حكمه حتى نهايته) ويفترض أن تلك الرسائل نقلت من طيبة إلى إخيتاتون بعد نقل مقر الحكم إليها، وآخر الرسائل يعود إلى الأعوام المبكرة لحكم توت عنخ آمون، ولا تزيد عن العام الثالث من حكمه، حين هجرت مدينة إختياتون وانتقل الفرعون الجديد إلى مدينة منف - ممفيس، ومن إجمالى 350 رسالة، كلها واردة إلى الفرعون باستثناء إحدى عشرة رسالة، من نظرائه الملوك، أو من الحكام الخاضعين للنفوذ المصرى فى سوريا فلسطين. أما الإحدى عشرة رسالة الصادرة فهى عبارة عن رسالة موجهة إلى ملك ارزاوا فى غرب الأناضول، ورسالتين وقائمة بالهدايا لملك بابل، وسبعة رسائل إلى مختلف الحكام المحليين فى أرجاء سوريا - فلسطين.

ولابد أن نفترض أن كثير من الرسائل الواردة للفرعون من أشقائه الملوك، أو من الحكام الخاضعين لنفوذه هى النسخ الأصلية التى ترجمت إلى المصرية على أيدى الكتبة فى البلاط الملكى. غير أن د. ريڤز يرى أن

التحليل الحديث لتلك الألواح يثبت أن النسبة الغالبة من رسائل العمارنة ليست الأصول، ولكنها نسخ صنعت فى مصر للأغراض الإدارية المحلية(9). ولابد أنه كانت توجد دار حفظ أخرى للترجمة المصرية (على الأقل للرسائل الهامة)؛ للرجوع إليها عند الضرورة، وقد أشرنا إلى المبنى رقم 19 باسم «دار رسائل الفرعون»، حيث وجدت أغلب رسائل العمارنة، ولابد أن ذلك المبنى لم يكن إلا جزءًا صغيرًا من مبنى أكبر كثيرًا يضم هيئة الدولة الاستشارية. وهكذا، «كانت هناك لقاءات يومية بين حضارتين، الكتابة المصرية من جانب، والكتابة المسمارية الأكادية لمنطقة ما بين النهرين على الجانب الآخر»(10) يجب أيضا أن نفسر وجود رسائل صادرة من الفرعون بين رسائل العمارنة إلى ملوك أجانب وحكام خاضعين للنفوذ المصرى، فلماذا ظلت تلك الرسائل موجودة بمصر؟ وهناك ثلاثة احتمالات تفرض نفسها: أنها كانت مسودات للنسخ النهائية للرسائل، أو نسخًا من الرسائل التى تم إرسالها (مثل EA 162، وهى نسخة من الإنذار المرسل إلى الحاكم العمورى عزيرو)، أو أنها أصول لم ترسل لسبب أو لآخر إلا أنه يتبقى أمامنا أكثر الأسئلة إثارة للحيرة، لماذا حفظت تلك الرسائل بالذات التى عثر عليها دون غيرها بدار حفظ تل العمارنة؟ وما الذى أضفى على تلك المجموعة من الرسائل من الأهمية ما جعلها تستحق الحفظ دون غيرها؟ من المؤكد أنها جزء بسيط من كم هائل من الرسائل المتبادلة بين الفرعون وكبار الملوك والحكام المحليين الخاضعين لنفوذه، فى عهد نشط دبلوماسيًا مثل عهد العمارنة.

ولا نجد إجابات على تلك التساؤلات من دار الحفظ ذاتها. بعض تلك الرسائل الواردة من كبار الملوك الأجانب، ربما اعتبرت من المراسلات الهامة، مما أهلها لحفظها فى دار الحفظ، إلا أن هناك رسائل كثيرة لا تقل أهمية عن ذلك، إلا أنها اختفت ولم تحفظ فى دار حفظ الوثائق، وبعض الرسائل الواردة أيضًا من الحكام الخاضعين كانت تستحق أيضاً أن تحفظ، مبدئيًا، بسبب التقارير الاستخباراتية التى تضمها(11)، إلا أن

هناك رسائل غيرها وجدت بدار الحفظ ولا تحمل أية أهمية وتتعلق بأمور تافهة، كما لا توجد علاقة بين عدد الرسائل الواردة من حاكم محلى خاضع للنفوذ المصرى وأهمية الولاية التى يحكمها فى المنطقة ككل، وحقيقة، فإن أهم رسالة صادرة من ريب - حدا، وهو حاكم مملكة جوبلا الخاضعة للنفوذ المصرى، الذى أسرف فى إزعاج الفرعون بمطالب لا تنتهى وشكاوى متتابعة(12). ولو حكمنا بما اعتقده ريب - حدا ذاته، فإنه رأى أن كل رسائل للفرعون قد تم تجاهلها، وأن الفرعون لم يستجب لأية مشكلة بعث بها إليه، غير أن تلك الرسائل قد حفظت فى دار حفظ مراسلات الفرعون فى أخيتاتون - بل إن عددها فاق باقى الرسائل المتبادلة بين الفرعون مع أشقائه الملوك، ولو كان أخناتون قد ضاق ذراعًا بشكاوى وطلبات ريب - حدا التى لا تنتهى، لماذا إذن اهتم بالاحتفاظ بكل تلك الرسائل حين كان من الظاهر أنه لا ينوى إجابة أى طلب ورد بها ولا حتى الرد عليها، فى الوقت الذى لم يحفظ فيه رسائل أخرى كثيرة وردت إليه؟

يحتمل أن المكان الذى عثر به على تلك المجموعة من رسائل العمارنة كان مستودعًا مؤقتًا للرسائل الواردة من الخارج، حتى يتم ترجمتها إلى المصرية، ثم تنقل بعد ذلك إلى مخزن مستديم أكبر مع ترجمة كل منها جنبًا إلى جنب، وربما كانت بعض تلك الرسائل التى عثر عليها كانت بانتظار القيام بترجمتها(13).

كما أن تنوع وتفرق موضوعات تلك الرسائل ينفى أن تكون قد جمعت معًا بالقصد فى تلك الدار، من الواضح أنه لا يوجد نمط يجمع بينها. وربما يدفعنا ذلك إلى البحث عن سيناريو آخر يفسر ليس فقط بقاء تلك المجموعة وحدها حتى عصورنا الحالية بل أيضا اختلاف وتفرق مضامينها، والافتراض التخيلى التالى يتيح واحدًا من الاحتمالات الصحيحة: فكما لاحظنا، فى العام الثالث من حكم توت عنخ آمون هجرت مدينة أخيتاتون للأبد، وفى آخر أيام حياة تلك المدينة وقع اجتياح لدار

محفوظات الفرعون، وكان ذلك الاجتياح من قبل موظفى تفتيش، معادين لأخناتون، وكان الغرض هو استخراج الرسائل التى ما زال لها علاقة بأحداث جارية لحفظها، خاصة الرسائل المتصلة بالعلاقات الدولية الخارجية، بعض الرسائل المتبادلة مع كبار ملوك منطقة الشرق الأدنى قد تم الاحتفاظ بها، مع نقلها إلى مدينة منف، بعد انتقال توت عنخ آمون إليها، وهى رسائل تعد مفقودة حتى الآن، كما تم انتقاء الرسائل الأخرى التى انتهت أية قيمة لها للتخلص منها، كذلك تم التعامل مع رسائل الملوك الخاضعين للنفوذ المصرى، وتم التخلص من كل ما لا قيمة له منها أو ما انتهى موضوعه، وعن طريق صدف بحتة، ظلت الرسائل المراد التخلص منها باقية فى موقعها بالعمارنة، وهى الرسائل التى عثر عليها فى عصرنا الحالى، وهى ما تمثل اليوم أهم مجموعة مراسلات دولية على الإطلاق من العصر البرونزى، والتى ظلت مخفية على مدى يزيد عن ألفى عام، حتى ظهرت للوجود على يد أكثر المكتشفين تواضعًا. فلاحة كانت تحفر مصادفة بين أنقاض ما كانت ذات يوم مدينة آتون العظيمة.

المحتوى

Notes

Introduction

1 For a more detailed discussion of the 'Great Powers club', see Liverani (2000).
2 Bryce (1998).
3 Bryce (2002).
4 See Gasche *et al.* (1998).

Part I

Setting the scene

1 The main players: the five Great Kingdoms

1 For a relatively detailed account of these kingdoms, see Kuhrt (1995: vol I). Roux (1980) is a still useful source of reference on the Mesopotamian kingdoms, though his treatment of them is fairly cursory and now somewhat out of date.
2 The Assyrian royal inscriptions of the second millennium provide the most important source material for Assyrian history in this period; see Grayson (1972).
3 For a still very useful treatment of the Assyrian colony period, see Larsen (1976).
4 Note that this and all other dates below are approximate. For the reigns of Shamshi-Adad and his sons, see also Villard (1995).
5 Thus Villard (1995: 875).
6 The letters have most recently been published in 3 vols by Durand (1997, 1998, 2000).
7 The document appears in Dossin (1938: 117). The translation given here is by Charpin (1995: 816).
8 *EA* 9: 31–5.
9 Which, as Kuhrt (1995: 109) points out, gave him at one stroke control over Isin, Uruk, Ur and Nippur, as well as the sizable dominions of Larsa.
10 Sealand territory was reincorporated into the Babylonian kingdom in the subsequent century under the Kassite dynasty.
11 For other suggested locations for their homeland, see Kuhrt (1995: 333).
12 For accounts of the Kassite dynasty, see Oates (1986: 83–104), Kuhrt (1995: 332–48) and Sommerfeld (1995).
13 For the most recent comprehensive treatment of Egyptian history, see Shaw (2000).
14 On the evidence indicating Asiatic settlement in Egypt already during the Middle Kingdom, see Bourriau (2000: 187–8).
15 See Tubb (1998: 62).
16 'Hyksos' is a Greek vocalization (adopted by Manetho, *Aegyptiaca*, frag. 42, 1.75–79.2, quoted by Josephus in the late 1st century CE) of the Egyptian term '*hekau khasut*', which means 'rulers of foreign countries'. For a comprehensive treatment of the period of Hyksos rule in Egypt, see Redford (1992: 98–122).
17 The name by which Upper Nubia was commonly designated, and sometimes used in reference to Nubia as a whole.
18 Its minerals included substantial deposits of gold, copper, amethyst and diorite.
19 He was the son of Isis, a secondary wife of Tuthmosis II.

20 He was the son of Mutemwiya, a secondary wife of Tuthmosis IV. For an overview of his reign, see Berman (1998).
21 The likely dates of his sole reign, leaving aside the question of whether he had a period of co-regency with his father, Amenhotep III.
22 See Murnane's summary of views (1995: 1–2). For general accounts of Akhenaten and his reign, see Redford (1984) and Reeves (2001).
23 For a survey of Egypt's relations with the Near Eastern world in general during the last century of the Late Bronze Age, see Redford (2000).
24 For general accounts of the pharaoh Ramesses II, who will figure prominently in this book, see Kitchen (1982, 1995), Tyldesley (2001).
25 For the most recent edition of the treaty, see Edel (1997).
26 For the most recent comprehensive treatments of Hittite history, see Bryce (1998) and Klengel (1999).
27 *CTH* 19, most recently ed. Hoffmann (1984).
28 Scholars are still undecided as to whether he was preceded by one or two kings called Tudhaliya. To avoid confusion, the convention is to assume that there were two.
29 For more detailed treatments of the Hurrian kingdom of Mitanni, see Wilhelm (1989) and Kuhrt (1995: 289–300).
30 See Kuhrt (1995: 297).
31 A possible identification between the former and the site of mod. Tell Feherije has been suggested; see Klengel (1999: 96, n. 6) with refs cited therein.
32 See Wilhelm (1989: 24).
33 *EA* 29: 16–18.

2 The interaction of the players: imperial administration and international relationships

1 Though, as we noted in Chapter 1, the ethnic origin of the Mitannian ruling elite is still open to debate.
2 For a representative collection of Hittite treaties, see Beckman (1996: 11–118).
3 Cf. the comments of Westbrook (2000: 38), Murnane (2000: 104–5), James (2000: 113), Na'aman (2000: 137–8).
4 The number suggested ranges from two to four; see Moran (1992: xxvi with n. 70). In general on Egypt's administration of its Syro-Palestinian territories, see Redford (1992: 192–213), Murnane (1998: 178–81), Weinstein (1998: 226–9).
5 In marked contrast to Egyptian rule in Nubia, where the old political structures were disbanded and the region was placed under the direct administration of an Egyptian viceroy; see below (pp. 46).
6 See Weinstein (1998: 226–7).
7 In general on the use of garrison troops and archers in the Syro-Palestinian territories, see Gálan (1994: 91–5).
8 *EA* 55, 10–13, trans. Moran.
9 See Redford (1984: 25; 1992: 198–9). But note Murnane (2000: 107), who comments that 'this figurative description reflects only a partial truth, namely, the vassals' subordinate position under Egyptian control and not … their independence in most areas of community government (unlike their Egyptian counterparts)'. Cf. Na'aman (2000: 131) 'Egypt and Canaan were separate entities and the vassals were never considered mayors in the full meaning of the term. The court administration treated them as Egyptian mayors in one important aspect: they held full responsibility for everything that happened in the town (or rather city-state) in their charge.'

10 *Urk* IV, 690, trans. Redford (1992: 198).
11 Most of our information about Idrimi comes from his well-known inscription, most recently trans. by Dietrich and Loretz (1985).
12 Further on the contrast between Egyptian administration in Nubia and western Asia, see Murnane (1998: 178–9).
13 There were, however, large parts of western Anatolia over which the Hittites never exercised more than tenuous authority, or any authority at all.
14 As evidenced by the enormous force of 47,500 troops which Muwatalli allegedly put into the field at Kadesh.

Part II

The letters and their themes

3 Letters and messengers

1 They may have been used for a variety of purposes, including brief, informal letters whose contents could be erased when the recipient had read them and a reply sent back on the same tablet. They perhaps also served as notebooks for temporary records of administrative details. (On both possibilities, see Bryce 2002: 69–70.) And they apparently were also used for recording royal grants (see Houwink ten Cate 1994: 235). On the use of wooden tablets in general, see Symington (1991).
2 See Otten (1956).
3 For more detailed treatments of the scribal profession in Egypt, see Wente (1995); in Mesopotamia, see Pearce (1995); in Anatolia, see Bryce (2002: 56–71).
4 Babylonian is one of the two varieties in which the Akkadian language appears. The other is Assyrian. Of the 'provincial' features of the Babylonian used in the Amarna letters, see Moran (1992: xix–xx).
5 *EA* 11: 16–17.
6 These letters have most recently been edited by Edel (1994), and will be discussed at some length in subsequent chapters.
7 The name of the Late Bronze Age kingdom on the island of Cyprus.
8 *EA* 39, 40.
9 *ÄHK* 105: 216–23, trans. Beckman (1996: 126–9). On the identities of the correspondents, see Beckman (1996: 125–6).
10 On messengers and 'ambassadors' in general, see Oller (1995), Liverani (2001: 71–6).
11 *ÄHK* 53 15'–16': 138–9.
12 *EA* 1: 1–9.
13 Kuhrt (1995: 343) remarks that, while it was usual for several envoys to be sent to a foreign court, apparently only one of their number had an audience with the king at the receiving court.
14 *EA* 32: 1–6.
15 *KUB* XIV 3 (*CTH* 181) (the so-called 'Tawagalawa Letter', to be discussed in Chapter 12) iv 46–50, after Gurney in Garstang and Gurney (1959: 114).
16 Though a messenger of the Hittite queen, he was probably a native Egyptian; see most recently Singer (1988: 331).
17 *ÄHK* 43 obv. 11–18: 106–7, after Beckman (1996: 130).
18 *ÄHK* 48: 128–9.

19 Cohen (1996: 257–8) argues in favour of the possibility of resident embassies; against this, see Berridge (2000: 214–17).
20 *EA* 7: 49–50.
21 *EA* 3: 13–14.
22 *EA* 59: 13–14. But as Moran in his commentary on this letter notes, the period of twenty years should be regarded as a round number rather than a precise figure, indicating a considerable passage of time.
23 *EA* 15: 16–22. The addressee's identity is uncertain.
24 *EA* 17: 46–9, trans. Moran.
25 *EA* 20: 64–70 (condensed).
26 *EA* 28: 16–22, trans. Moran.
27 *EA* 38: 7–12.
28 Extracts from *KBo* I 10 and *KUB* III 72 (*CTH* 172), based on trans. by Beckman (1996: 134).
29 The queen says: 'If you should say: "The King of Babylonia is not a Great King", then my brother does not know the rank of Babylonia' (trans. Beckman 1996: 128).
30 *EA* 16: 43–5. We are reminded of the experience suffered by the envoys sent from Babylon to Egypt during Ramesses II's reign, as reported to the Hittite queen Puduhepa by the Babylonian envoy Ellil-bel-nishe (referred to above, pp. 61-2).
31 *EA* 16: 46–9. On the letter as a whole, see Artzi (1997).
32 Redford (1984: 235). Cf. Westbrook (2000: 34).
33 *ÄHK* 39: 96–7.
34 *EA* 29: 173–81.
35 *EA* 11: 14–15.
36 *EA* 24: II 95–6.
37 *EA* 24: IV 54–7.
38 *EA* 7: 53–4.
39 From a series of satirical texts from ancient Egypt, trans. J. A. Wilson in Pritchard (1969: 433).
40 See Liverani (2000: 22).
41 On the Habiru, see Chapter 9.
42 *EA* 7: 73–7. The mayor of Damascus seems to have been notorious for this kind of activity.
43 See Oller (1995: 1,467).
44 *EA* 29: 26.
45 For the time-scales involved, see Liverani (2000: 21–2).
46 E.g. *EA* 39 and 40.
47 *EA* 30, after Oppenheim (1967: no. 77: 134).

4 The club of royal brothers

1 Thus Moran (1992: xxiv, n. 59), with refs.
2 In general on Amenhotep's relations with Mitanni, see Kitchen (1998).
3 Mimmureya and Naphurreya (and variations) are the prenomens, respectively, of Amenhotep III and Amenhotep IV/Akhenaten.
4 *EA* 26: 25–9, after Moran.
5 *EA* 27: 9–12, trans. Moran.
6 Another variant form of Amenhotep III's prenomen.
7 *EA* 29: 55–9, after Moran.
8 *KBo* I 10 and *KUB* III 72 (*CTH* 172) obv. 7 ff., trans. Beckman (1996: 133).

9 In fact, Akhenaten was the second son of Amenhotep III by his chief wife Tiye. The succession passed to him only after he was predeceased by an elder brother, Tuthmosis.
10 *EA* 29: 61–4.
11 Extracts from *EA* 7: 8–32.
12 Jönsson (2000: 198–9).
13 Adapted from *EA* 15: 1–15, and based on trans. by Moran.
14 Kuhrt (1995: 350).
15 *EA* 16.
16 *EA* 16: 14–18, after Moran.
17 Ashur-uballit also claims that his ancestor Ashur-nadin-ahhe had received the substantial gift of 20 talents of gold (*c.* 600 kg) from Egypt. This, as Zaccagnini (2000: 150) points out, can be dismissed as a 'self-serving fairy tale'. There is no evidence of contacts between Egypt and Assyria in the reigns of either Ashur-nadin-ahhe I (mid-fifteenth century) or II (early fourteenth century). Ashur-uballit himself had already stated (*EA* 15) that none of his predecessors had corresponded with the Egyptian court.
18 Artzi (2000: 211).
19 *EA* 9: 31–5.
20 As noted in Chapter 3, this was the name by which the remains of the old Mitannian kingdom was now generally known.
21 *KUB* XXIII 102 (*CTH* 171) (= Hagenbuchner 1989: 260–4 no. 192) i 5–18, trans. Beckman (1996: 138). The identity of the letter's author is still not entirely certain. For its attribution to Urhi-Teshub, see Hagenbuchner (1989: 263), supported by Beckman (1996: 138) and Bryce (1998: 283). Liverani (2001: 42) still favours identifying the author with the Hittite king Tudhaliya IV and the addressee as Tukulti-Ninurta I.
22 In general on the ideology of brotherhood, see Zaccagnini (1987: 61–2), Liverani (2001: 135–8).
23 *KBo* I 14 (*CTH* 173), rev. 15'–16', trans. Beckman (1996: 140). The first few lines of the letter where the author's and the addressee's names would have appeared are missing. However, its attribution to Hattusili is almost certain; and in that case the addressee must be Adad-nirari I. See Beckman (1996: 139), Klengel (1992: 125, n. 199; 1999: 269).
24 *KBo* I 14 rev. 4'–10', after Beckman (1996: 140).
25 *ÄHK* 5 obv. 10': 24–5.
26 *EA* 33–9.
27 Egypt also obtained copper from Byblos and countries in northern Syria, but Alasiya undoubtedly became its main supplier of the metal.
28 Egypt itself was lacking in silver deposits and obtained its supplies by way of tribute (amongst other means) from its Asiatic territories or by way of trade from Hatti (etc.). Zaccagnini (2000: 146) comments that in this context 'silver' simply means 'price' or '(equivalent) value' of any item traded.
29 *EA* 3: 18–19, after Moran.
30 *EA* 3: 27–9, after Moran.
31 This and the following two passages are from *ÄHK* no. 4: 22–5.
32 *ÄHK* 5 obv. 8'–9': 24–5.
33 Cf. Edel (1960: 20).
34 This and the following quotations (to the end of the next paragraph) are from *ÄHK* 24: 58–63.

35 This and the following quotations (to the end of the next paragraph) are compiled from passages in *ÄHK* 20 and 22: 50–1 and 53–6, respectively.
36 As in the case of all such treaties, Kupanta-Kurunta was obliged to pledge his allegiance not only to his treaty partner, but also after his death to his successors in the *direct* family line. This applied in the first instance to Muwatalli, Mursili's son and successor, and in the second instance to Urhi-Teshub, Muwatalli's son and successor. By the terms of his treaty agreement he was bound to support Urhi-Teshub over the usurper Hattusili.
37 *ÄHK* 28 obv. 9–13: 74–5.
38 Beckman (1996: 124).
39 Alternatively, Houwink ten Cate (1974: 143) suggests that what Hattusili received was a copy of the letter, whose original was in fact sent directly to Kupanta-Kurunta by Ramesses.

5 Gift-exchanges

1 *EA* 14. Sommerfeld (1995: 920) notes that the intensive relations with Egypt brought so much gold into Babylonia that for more than 100 years after Burnaburiash II gold replaced the traditional silver as the usual stand ard of equivalence. (Weight equivalences: 1 talent (*c.* 30 kgs.) = 60 minas; 1 mina = 60 shekels.)
2 *ÄHK*54 obv. 8'–11': 140–1.
3 There were in fact two inventories of gifts: *EA* 22 and 25. Kitchen (1998: 258) comments that one set is clearly intended for the pharaoh himself, with chariots, weapons, etc. (*EA* 22); the other set is a dowry fit for a princess (*EA* 25), with its earrings, toggle pins, bracelets, mirrors, combs, necklaces, ointment vessels, etc.
4 *EA* 16: 32–3.
5 *EA* 11: rev. 19–20.
6 See Oller (1995: 1,469).
7 Further on the personal gifts sent by Ramesses and his family, see Cochavi-Rainey (1999: 195–210).
8 *ÄHK* 12: 40–1, trans. Beckman (1996: 123).
9 Cf Zaccagnini (1987: 60–1).
10 *EA* 16: 14–21. On the implausibility of Ashur-uballit's appeal to precedent on this occasion, see Chapter 4, n. 17.
11 *EA* 27: 32–3, after Moran.
12 Based on *EA* 20: 46–59.
13 *EA* 7: 71–2.
14 *EA* 7: 64–70.
15 *EA* 1: 67–77.
16 On the determination of the value of a gift item, see Zaccagnini (1987: 58).
17 *EA* 7: 33–8, after Moran. See also Liverani's comments (2001: 155).
18 The pharaoh addressed in his letters is actually unnamed, but is almost certainly Akhenaten.
19 *EA* 35: 19–26. For the surprising nature of the last of these requests, see Moran's comments (1992: 109, n. 6).
20 *EA* 9: 12–13.
21 *EA* 19: 54–8.
22 *EA* 24: iii 76–107.

23 Cf. Zaccagnini (1987: 59), Liverani (2001: 156–7). On the other hand, the Alasiyan king's demands to the pharaoh for 'silver' in exchange for copper (*EA* 35 and 37) seem to come close to straightforward mercantile transactions; cf. Avruch (2000: 155).
24 *EA* 4: 47–50, after Moran.
25 *EA* 7: 61–2.
26 Cf. Zaccagnini (2000: 151).
27 *EA* 35: 13–14, trans. Moran.
28 *EA* 7: 53–60. We have discussed, in Chapter 4, another possible implication of this excuse.
29 For a comprehensive list of references to iron artefacts in Hittite texts, see Košak (1986).
30 Hattusili's letter to Adad-nirari I (*KBo* I 14) obv. 20'–4', trans. Beckman (1996: 140).
31 *EA* 7: 73–82.
32 *EA* 161: 41–6.
33 *EA* 8: 26–9, after Moran.
34 *EA* 8: 30–4, after Moran.
35 On land and sea transport between Egypt and other Near Eastern lands, see Tyldesley (2001: 63). More generally on transport in the ancient Near East, see Astour (1995: 1,401–20).

6 The marriage market

1 *EA* 19: 21–2, after Moran.
2 *EA* 31: 11–14, trans. Moran. Meier (2000: 169) comments that there is no evidence that the anointing of a woman before marriage was an Egyptian custom. Rather, it indicates that Egyptian kings followed the practice of their Near Eastern neighbours in this respect.
3 Bryan (2000: 82) sees the prohibition by the eighteenth dynasty pharaohs as a means of protecting themselves against the claims of families outside the dynastic line. Cf. Kitchen (1998: 255). It was not in fact until the period of the twenty-first dynasty that an Egyptian princess was sent abroad to marry a foreign king, in this case the Israelite king Solomon.
4 *EA* 4: 11–13. The letter almost certainly belongs to the correspondence exchanged between Amenhotep III and Kadashman-Enlil, though the opening lines of the letter which contained the author's and addressee's names are now lost.
5 The quotations in this and the previous paragraph are based on *EA* 1: 10–35.
6 See Bryce (1998: 331).
7 See Klengel (1992: 141–2), Bryce (1998: 345–7).
8 *EA* 11.
9 *EA* 11: 19–22.
10 *EA* 1: 61–2, trans. Moran. As indicated by Moran, the translation is not altogether certain.
11 Information provided by an Egyptian scarab commemorating her arrival in Egypt; see Tyldesley (1999: 28).
12 *EA* 29: 16–18.
13 See Helck (1984: 159–60).
14 Murnane (1995: 9).

15 *ÄHK* 105 (*KUB* XXI 38) obv. 8'–11': 216–17, adapted from trans. by Beckman (1996: 126). We should remember, as discussed earlier, that this particular document is a draft letter from Puduhepa. We cannot be sure how much of what appears in the draft was incorporated into the final version sent to Ramesses.
16 Houwink ten Cate (1994: 238) thinks in terms of 'an economic or administrative institution, presumably situated in the capital, but not necessarily forming part of the Palace on the citadel.'
17 *ÄHK* 105 obv. 15'–16': 216–17, after Beckman (1996: 127).
18 *ÄHK* 105 obv. 12'–13': 216–17, trans. Beckman (1996: 126–7).
19 Almost certainly, Puduhepa was not Hattusili's first chief wife, though we have no information about an earlier queen who may have filled this position.
20 *ÄHK* 49 obv. 14–16: 130–1.
21 *ÄHK* 51 obv. 17–20: 136–7.
22 *ÄHK* 56: 146–7.
23 *ÄHK* 54: 142–3.
24 *ÄHK* 57: 148–9.
25 Trans. Tyldesley (2001: 138).
26 It has even been suggested that Nefertiti may for a short time have been her husband's co-regent and successor, that she was in fact Smenkhkare. It is interesting to note, as Tyldesley (1999: 80) points out, that Nefertiti is never specifically mentioned in the Amarna letters, and it would seem that to Akhenaten's correspondents she was of negligible significance. Her curious exclusion from the Amarna letters does seem to suggest that her influence at home did not extend into the international arena.
27 See Tyldesley (2001: 129).
28 Tyldesley (2001: 134).
29 E.g. this was a condition stipulated by Muwatalli in marrying his daughter Massanauzzi to the western Anatolian vassal ruler Masturi, and by Hattusili III in marrying his daughter Gassuliyawiya to the Amurrite king Benteshina.
30 *ÄHK* 106 obv. 5'–9': 224–5, after trans. in Meier (2000: 171–2).
31 Extract from Ramesses' 'marriage-stele', trans. Kitchen (1982: 86; 1996: 86–96).
32 *ÄHK* 110 rev. 4'–6': 230–1.
33 However, in a personal communication Professor Kitchen has commented that the length of time Maat-Hor-Neferure lived at Fayum is wholly unknown; the fragment mentioning her there could be of any date in the mid to late years of Ramesses' reign.

7 Sending for the doctor

1 *ÄHK* 75: 178–81. The letter is trans. by Beckman (1996: 131–2).
2 *KUB* XIX 5 (*CTH* 191) and *KBo* XIX 79.
3 Lines 5–6 of the above. For a translation of the surviving portions of the text, see Houwink ten Cate (1983–4: 39–40).
4 This is the the Egyptian name for Massanauzzi.
5 *ÄHK* 75 obv. 16–rev. 13: 178–9.
6 He was one of the signatories to the treaty inscribed on the bronze tablet between Tudhaliya and his cousin Kurunta. The text of the treaty is edited by Otten (1988). For a recent English translation, see Hoffner (2000).
7 This information is provided by *KUB* XXII 13 (*CTH* 211.4), a text recording offences committed by the Seha River Land and dating to the reign of Tudhaliya IV.

8 *Odyssey* 4. 231–2.
9 Herodotos 3.1.
10 *ÄHK* 2 rev. 2'–9': 18–19.
11 *ÄHK* 30 obv. 12'–14': 80–1.
12 *ÄHK* 45 rev. [19'–20']: 114–15.
13 *ÄHK* 46 rev. 12'–13': 122–3.
14 *ÄHK* 71 obv. 12'–rev. 12: 170–1. This is one of two parallel letters referring to Kurunta's illness; the other is *ÄHK* 72: 170–3. Further on these letters, see Edel (1976: 46–50, 82–91), van den Hout (1995: 91–4). On the dating of the letters to the period between the 42nd and 56th year of Ramesses' reign (i.e. 1237–23), see Edel (1976: 20, 29–30). It is just possible, but unlikely, that Hattusili still occupied the Hittite throne when the letters were written.
15 Archives royales de Mari, 4: 65, trans. Oppenheim (1967: 108, no. 51).
16 *EA* 49: 24–5. Zaccagnini (1987: 60) doubts the truth of this, noting that Niqmaddu's request also included an order for two black servants ('attendants from Kush'). In Zaccagnini's opinion, the purpose of the request was simply to enable the Ugaritic king to show off foreign peoples as interesting rarities at his court.
17 *KBo* I 10 and *KUB* III 72, rev. 42 ff., after Beckman (1996: 137).
18 Op. cit., after Beckman.
19 Cf. Zaccagnini (1987: 59–60).
20 This and the following passages cited in this paragraph are from rev. 34–41 of Hattusili's letter, and are adapted from Beckman's translation (1996: 136).
21 Rev. 58–61.

Part III
Historical episodes

8 The Syrian principalities

1 For a comprehensive, well-documented treatment of Syria and the control exercised over it by the Great Kingdoms in the Late Bronze Age, see Klengel (1992: 100–80).
2 Goetze (1975: 1).
3 The term 'Syria' is used here as elsewhere in this book in the very broad sense of the region lying between the Euphrates river and the Mediterranean Sea. This usage, which goes back to antiquity, thus covers a much more extensive region than modern Syria.
4 It should be noted that the term 'principality' as used here is one of variable extension. In some cases it applies essentially to a single city and its immediate surrounding territory. In other cases it covers a broader region, which often includes a number of smaller towns and villages and farming estates.
5 *EA* 132: 1–7, trans. Moran.
6 Complaints by vassals against Egyptian officials appear, e.g., in *EA* 234, 270, 285, 289, 292.
7 In general on the relationship between Egypt and her Syro-Palestinian vassals, see James (2000).
8 We noted in Chapter 2 that there is no clear evidence for such agreements.
9 Weinstein (1998: 228) suggests that it was the economic benefits that Egypt derived from the region that caused a series of pharaohs to show a remarkable tolerance for disorder among the polities of the northern empire.

10 See also Klengel (1992: 175–8).
11 *EA* 141–3.
12 *EA* 146–55.
13 *EA* 147: 66–71.
14 In *EA* 151: 64–8, Abi-Milku reported that Zimredda had assembled troops and ships from the cities of Aziru against him.
15 *EA* 149: 54–63.
16 For a more detailed treatment of Late Bronze Age Ugarit, see Klengel (1992: 130–51).
17 *EA* 46–8; See Moran (1992: 118, n. 1).
18 See Bryce (1998: 177–9).
19 Also the seat of a local king, appointed by the pharaoh, who received envoys from Egypt and sent gifts and tribute to the pharaoh.
20 See *EA* 254–6.
21 *EA* 189: obv. 12.
22 *EA* 189: rev. 9–12. For the Habiru, see Chapter 9.
23 *EA* 195: 24–32.
24 *EA* 7: 73–5.
25 *EA* 195: 16–23, trans. Moran. *EA* 194 and 196 contain similar protestations of loyalty.
26 The earlier settlement has yet to be discovered.
27 *EA* 53: 42.
28 *EA* 59: 25–8.
29 For a more detailed treatment of Niya and the Nuhasse Lands, see Klengel (1992: 151–6).
30 *EA* 53–5.
31 *EA* 59: 13–20.
32 Its history is treated at some length by Klengel (1992: 157–60).
33 *EA* 189. His initial nominal allegiance to the pharaoh perhaps had the agreement of the Hittites, who, Klengel (1992: 158) suggests, did not want to offend the Egyptian overlords of Kadesh. But where *EA* 189 belongs in the chronology of events of the Amarna period remains uncertain. It is possible that the letter was written by Aitakkama *prior* to the Hittite attack on Kadesh, and the removal of the royal family from it, if we accept the suggestion that Aitakkama already at that time ruled as co-regent with his father (cf. Klengel (1992: 157)).

9 The warlords of Amurru

1 On Amurru and its rulers, see also Singer (1990, 1991), Klengel (1992: 160–74).
2 *EA* 144: 22–6, after Oppenheim (1967: 126).
3 Scholars disagree on the time-relationship between the careers of the Amurrite leader Abdi-Ashirta and subsequently his son Aziru, on the one hand, and the reigns of the pharaoh Amenhotep III and his son Amenhotep IV/Akhenaten on the other. Abdi-Ashirta and Aziru both figure prominently in the letters of Rib-Hadda, king of Gubla, discussed below (pp. 147). Singer (1991: 148) believes that all of Abdi-Ashirta's recorded activities fell within the reign of Akhenaten, after the transfer of the capital to Akhetaten in Year 5, while noting that his career in Amurru may have started long before his first appearance in the Amarna correspondence. *Contra* Singer, Freu (2002b: 90) believes that Abdi-Ashirta's activities, at least those recorded in the 'first series' of Rib-Hadda's letters, belong within the reign of Amenhotep III. The matter is further compli-

cated by the question of whether or not, or for how long, there was a co-regency between Amenhotep III and his son. We shall skirt round these problems here by simply using the term 'pharaoh' to refer to the occupant of the Egyptian throne while Amurru was under Abdi-Ashirta's control. We can confidently assign the activities of his son Aziru, as recorded in the 'second series' of Rib-Hadda's letters, as well as in Aziru's own correspondence with Egypt, to the reign of Akhenaten.

4 Greek Simyra. It lay at the mouth of the Nahr el-Kabir river.

5 *EA* 71: 16.

6 *EA* 84: 11–14.

7 Based on Moran's restoration of the fragmentary opening lines of *EA* 62. This is a letter from Abdi-Ashirta to Pahhanate, in which Abdi-Ashirta apparently quotes Pahhanate's words of denunciation.

8 *EA* 60: 19–29, trans. Moran.

9 Cf. Singer (1991: 144), who suggests that his letters to Egypt were probably written from there.

10 *EA* 85: 51–5; see also *EA* 95: 27–33. In this context note also the claim made by Rib-Hadda in *EA* 90: 19–20 that Abdi-Ashirta had visited Mitanni.

11 Liverani (1998: 391–2).

12 See Singer (1991: 146–8), who opposes any notion of collaboration between Abdi-Ashirta and either Mitanni *or* Hatti.

13 *EA* 74: 15–19.

14 *EA* 76: 11–16.

15 Thus Aduna, king of Irqata (*EA* 75: 25–6).

16 *EA* 74: 23–30, after Moran.

17 *EA* 73: 17–25, after Moran.

18 *EA* 88: 16.

19 *EA* 92: 35–7, trans. Moran.

20 To judge from Zimredda's letter to the pharaoh, *EA* 144: 22–30.

21 *EA* 83: 21–7.

22 *EA* 89: 15–29.

23 *EA* 85: 6–15.

24 This and the following quotations in this paragraph are from *EA* 74: 31–53, and are adapted from the trans. by Moran.

25 *EA* 81: 12–14, after Moran.

26 Adapted from *EA* 81: 15–16 and 82: 38–9.

27 Adapted and condensed from *EA* 83: 23–51.

28 *EA* 91: 16–19, after Moran. For the insertion of 'shekels' in the text, see Moran (1992: 165, n. 4).

29 Singer (1991: 146); he argues against the suggestion that the pharaoh had finally taken action against Abdi-Ashirta for his alleged collaboration with Mitanni or Hatti.

30 *EA* 117: 21–8, trans. Moran. Cf. *EA* 108: 25–33, where the reading is less certain.

31 *EA* 101. All that survives is the second of a two-tablet letter which does not preserve its author's name.

32 *EA* 101: 29–30.

33 Note the alternative interpretation proposed by Altman (1977), cited also by Moran (1992: 174, n. 4). More recently Liverani (1998: 389, 393–4) has proposed 'they will defeat Abdi-Ashirta!'

34 *EA* 103: 8–11, after Moran.

35 *EA* 104: 6–13. Singer (1991: 149) notes that all these places lay in the southern part of Amurru, in the zone bordering the domain of Gubla.
36 *EA* 102: 15–16.
37 *EA* 102: 17–19, after Moran.
38 *EA* 104: 49–54.
39 Biblical Arvad, mod. Ruad.
40 *EA* 105: 11–17.
41 *EA* 105: 83–5, after Moran.
42 *EA* 105: 11–13.
43 *EA* 103: 20–2, after Moran.
44 *EA* 103: 23–9, trans. Moran.
45 *EA* 104: 31–6, trans. Moran.
46 *EA* 106: 10–11.
47 *EA* 157: 9–19.
48 *EA* 156: 10–12. He did so apparently at the pharaoh's request. Singer (1990: 135) comments that this may be regarded as a first sign of the pharaoh's willingness to accept Aziru's submission, despite the opposition of some Egyptian officials in Sumur.
49 See the comments of Singer (1991: 150) on the difficult question of whether Aziru's letters with his diplomatic overtures to Egypt were dispatched before or after his takeover of Sumur.
50 *EA* 171: 12–13.
51 *EA* 158: 14–19.
52 Later perhaps he was looked upon as one who might represent the Amurrite cause in a more favourable light before the pharaoh.
53 *EA* 157: 28–33.
54 *EA* 157: 37–41.
55 I follow here the chronology of Aziru's career proposed by Singer (1990: 134–44).
56 *EA* 140: 20–5. Cf. Singer (1990: 136). It is difficult to see how he could have done this without the pharaoh's knowledge, given the mechanics of the messenger system, and we must remember that the letter comes from a highly biased source. More likely, the episode it refers to belongs within the later context of dealings between Aitakkama and Aziru after the latter's return to his homeland.
57 *EA* 169: 16–21.
58 *EA* 170.
59 The Beqa' valley between Lebanon and Antilebanon.
60 Even if the assumption that the letter was captured by the Egyptian authorities is correct (see Singer 1990: 133–4, n. 1), almost certainly it was intended to fall into their hands. Cohen (2000: 93) speaks of *EA* 170 conjuring up a picture of an Amurru skilfully manoeuvring between the Great Powers on the basis of sound intelligence.
61 For a concise summary of Hittite activity in the region at this time, see James (2000: 118).
62 As indicated, for example, in the pharaoh's letter to him, *EA* 162, where Aziru is addressed as 'ruler (*hazannu*) of Amurru' (line 1).
63 *EA* 161: 28–9.
64 *EA* 160 and 161.
65 *EA* 161: 35–40, after Moran.
66 *EA* 161: 12–16.

67 *EA* 59: 43–6.
68 *EA* 165: 28–41. Singer (1991: 153) sees this reference as a valuable chronological clue which can probably be related to Suppiluliuma's one-year Syrian campaign (*c*. 1340).
69 *EA* 124: 9–16, after Moran.
70 *EA* 131: 10–14.
71 *EA* 106: 13–15, trans. Moran.
72 *EA* 124: 36–7.
73 *EA* 136: 8–15.
74 *EA* 136: 24–32.
75 *EA* 142: 15–24.
76 *EA* 137: 27–30.
77 *EA* 162: 2–12.
78 *EA* 162.
79 Izre'el (1991: §2.3.2.1).
80 Singer (1990: 141, n. 1).
81 *EA* 162: 19–20.
82 *EA* 162: 22–5, trans. Moran.
83 Thus Westbrook (2000: 38).
84 *EA* 162: 35–8 trans. Moran.
85 Following Singer's chronology, this would have been his second visit to Egypt.
86 *EA* 162: 50–3.
87 Probably soon after the one-year Syrian war. Cf. Singer (1991: 154).
88 See Chapter 10, and also Singer (1990: 164–5; 1991: 155).

10 Hittite frontier correspondence

1 This is clear from the fact that the majority of the correspondence found in the archives consisted of letters addressed to the Great King.
2 For a summary of the site and its finds, see Süel (2002).
3 For a summary of the site and its finds, see Müller-Karpe (2002).
4 On the identification, see Alp (1991a: 42–3).
5 For a comprehensive general account of the letters, see Klinger (1995).
6 Two tablets discovered in the third level of the site bear seal impressions with the name of Tudhaliya, father of Suppiluliuma. See Alp (1991a: 48–50, 109–12). The father–son relationship was proved by a *bulla* found in the (later) level II of the site bearing the impression 'Suppiluliuma, son of Tudhaliya' (Alp (1991a: Abb. 3 and Tafel 3).
7 *HKM* 2: 1–9.
8 According to Otten (1956; cited also by Beckman 1995: 25, n. 38), Hittite bureaucrats' practice of addressing each other as 'my brother' or by a similar term of family relationship probably goes back to the days when they were school students together.
9 Thus Alp (1991a: 71), who observes that from letter 71 we can conclude that he bore the title UGULA NIMGIR ERÍN.MEŠ, 'Chief Military Inspector'. See also Beckman (1995: 23).
10 See Beal (1992: 406–7).
11 *HKM* 3.
12 *HKM* 10: 17–22.
13 *HKM* 102.
14 Hoffner (2002: 68).

15 *HKM* 58: 5–14, after Hoffner (2002: 68–9).
16 *HKM* 59. Cf. Alp (1991a: 336).
17 Adapted from *HKM* 10: 42–52.
18 See Bryce (2002: 16–17).
19 *HKM* 48: 31–2; *HKM* 49: 4–5.
20 *HKM* 52. We shall discuss below the complaint lodged by Tarhunmiya against the local authorities in Tapikka.
21 *HKM*3, referred to above.
22 Adapted from *HKM* 3: 17 ff.
23 *HKM* 31: 20–30.
24 *HKM* 53: 20–3.
25 *HKM* 56: 7–19. Alp (1991a: 63) concludes that Himuili was back in Hattusa at the time since the same tablet contains a letter from the Hattusa-based scribe Tarhunmiya to Walwanu, a scribe in Tapikka.
26 *HKM* 58: 29–31.
27 *HKM* 68.
28 Suggested by Alp (1991a: 83).
29 *HKM* 55: 30–3, trans. Beckman (1995: 24).
30 *HKM* 74.
31 See Singer (2002: 309–10), Freu (2002c: 71–2).
32 *HKM* 52.
33 At least, in earlier versions of the Laws. The number of those who were exempt may have been considerably reduced in later versions.
34 Based upon *HKM* 52: 25–39.
35 See also *HKM* 27: 17–25.
36 *HKM* 52: 10–18, after Beckman (1995: 26).
37 A man called Palluwa. On the possible identification of this man with a Hittite prince of that name, see Singer (1999: 69–70).
38 It is possible that Zu-Ba'al presented his case in person before the Great King, though his appeal might just as well have been conveyed by a messenger. Cf. Singer (1999: 68).
39 Probably the local Hittite commander (Singer 1999: 68).
40 *MsK* 73. 1097 = Laroche (1982: no. 1), transcribed and trans. by Singer (1999: 66–7). (The translation here is adapted from Singer's.) Cf. Laroche (1982: 54).
41 Transcribed and trans. by Singer (1999: 66–7).
42 Singer (1999: 70). It should, however, be said that Zu-Ba'al was clearly a person of some eminence within Emar's religious establishment, as his title 'LÚ.HAL' indicates, as well as having an important role in the affairs of the city in general: see also Westenholz (2000: 78–80).
43 *HKM* 30: 1–10.
44 *HKM* 46: 3–4.
45 *HKM* 17.
46 *HKM* 25: 6–10.
47 *HKM* 50.
48 *HKM* 15.
49 *HKM* 16.
50 *HKM* 35.
51 *HKM* 20.
52 *KBo*VI 28 (*CTH* 88), obv. 6–15, adapted from trans. by Goetze (1940: 21–2).
53 As illustrated by the instructions issued to the *BĒL MADGALTI*; see von Schuler (1957: 41–59).

54 RS 20.33 (*Ugaritica V*, No. 20).
55 From the fact that two other letters in the archive are addressed to a man called Rapanu and another bears his signature, and from the lexicographical texts and other texts of an educative nature which the archive contains, the conclusion has been drawn that Rapanu was the owner of the house, that he was a scribe and otherwise a person of considerable distinction in the city (see Izre'el and Singer 1990: 9).
56 The last part of his name is missing. For a review of suggestions as to how it might be completed, see Singer (1990: 174–8).
57 This and the following passages from the letter are taken or adapted from the trans. by Izre'el in Izre'el and Singer (1990: 23–7).
58 In a first battle at Kadesh, resulting in a victory for Seti; see Bryce (1998: 250–1).
59 Discussed at length by Izre'el (1990), with summary of conclusions (pp. 110–11).
60 For possible reasons why the letter, if addressed to Suppiluliuma, was actually located in a private residence in Ugarit, see Singer (1990: 172–3). On the other, lexical, text which has been dated to no earlier than the first half of the thirteenth century, see Izre'el and Singer (1990: 11) (with refs cited therein).
61 See Freu (2002a: 37).
62 This possibility is discussed by Singer (1990: 171–2), who notes that the lesser title 'king' in the letter's introductory formula is suggestive of a viceroy, as distinct from a 'Great King', who is normally either addressed as such or by the title 'My Sun'. Because of other considerations, however, this is not Singer's preferred option.
63 Most likely to the Carchemish viceroy Sharri-Kushuh, who seems to have had particular responsibility for the defence of the Hittite subject states in Syria; see Bryce (1998: 203–4).

11 An extraordinary request

1 Ed. Güterbock (1956), cited as DS. All the passages in this chapter quoted from the biography are taken or adapted from Güterbock's translation.
2 *DS*, p. 94, frag. 28, A iii 11–15.
3 See Bryce (1990).
4 The case for identifying Niphururiya with Akhenaten has been presented at some length by Krauss (1978: esp. 9–19), and recently argued afresh, e.g. by Helck (1994: 16–22), Reeves (2001: 176–7).
5 Note that Kitchen (1998: 253, n. 137) emphatically reasserts the identity of Niphururiya with Tutankhamun. Cf. van den Hout (1994: 85).
6 Carter and Mace (1927: 196).
7 So too the Greek historian Herodotos reported, many centuries later, in his account of Egyptian embalming procedures (2.86).
8 A period of 272 days elapsed between the death and burial of the fourth dynasty queen Meresankh (III); *Urk* 1, 156–7 (98).
9 We have no evidence that foul play was involved, despite a great deal of speculation to this effect.
10 *DS*, pp. 96–7, frag.28, A iii 50–A iv 12.
11 *ÄHK* 1: 14–15.
12 *DS*, pp. 97, frag. 28, E3 iv 8-12.
13 *DS*, pp. 97–8, frag. 28, A iv 13–15.

14 *DS*, pp. 108, frag. 31, 7'–11'.
15 *KUB* XIX 20 (*CTH* 154), ed. Hagenbuchner (1989: no. 208, pp. 304–9). For a suggested reconstruction of the letter's contents, see Murnane (1990: 25–7).

12 Letter to a Mycenaean king

1 For recent treatments of the material evidence for Minoan settlement at Miletos, see Niemeier and Niemeier (1997), Niemeier (1998: 27–9).
2 See Mee (1978), Niemeier (1998: 40–1).
3 For a recent treatment of the evidence for this in the light of ongoing excavations on the site, see Niemeier (1998: 34–40).
4 Cf. Hawkins (1998: 2).
5 Some decades prior to this, a 'man of Ahhiya' called Attarssiya was militarily active both in western Anatolia and on the island of Cyprus. However, his designation 'man of ...' suggests that he was an individual Ahhiyawan who had established a base in western Anatolia rather than an officially recognized king; see Bryce (1998: 140).
6 See Bryce (1998: 209–10).
7 *KUB* XIV 3 (*CTH* 181), ed. Sommer (1932: 2–194), and trans. in part by Gurney in Garstang and Gurney (1959: 111–14).
8 See refs. in Bryce (1998: 321, n. 89). Gurney (2002) has now argued for an earlier attribution to Hattusili's father, Muwatalli. However, I believe that the weight of evidence still favours Hattusili.
9 Sallapa's location is unknown, but it must have been situated about halfway along one of the routes between the Hittite capital and Piyamaradu's base in western Anatolia.
10 This and the following passages are extracts from the Tawagalawa letter, translated by Gurney or adapted from his translation.
11 The distinction, if any, between *tuhkanti*and *tartenu* is uncertain. On the apparent interchangeability of the terms, see Gurney (1983: 97–8).
12 It had probably come under Ahhiyawan control some time during the reign of Muwatalli; see Bryce (1998: 244).
13 Page (1976: 15).
14 On the possible historicity of the Trojan War, see Bryce (1998: 392–407).
15 I.e. during the LHIIIb period. Cf. Mee (1978: 146; 1984: 45), Mellink (1986: 94).
16 The join is to the so-called Manapa-Tarhunda letter, and the augmented letter (*KUB* XIX 5 and *KBo* XIX 79) is edited and discussed by Houwink ten Cate (1983–4: 38–64).
17 See Bryce (1998: 395).
18 See Güterbock (1986: 35), who proposes Wilusa>*Wiluwa>*Wiluas>Wilios, the initial *w* equating with an original Greek digamma.
19 See Hoffner (1982).
20 Hawkins (1998: 19).
21 Tudhaliya:Shaushgamuwa treaty (*KUB* XXIII 1 (*CTH* 105) IV 1–7. The treaty is edited by Kühne and Otten (1971).

13 The elusive Urhi-Teshub

1 The following account of the deteriorating relations and eventual conflict between uncle and nephew is based upon the so-called *Apology* of Hattusili (*CTH* 81), ed. Otten (1981).
2 *Apology* §11, IV 34–5.

3 We know of his letter to Shalmaneser from the fact that the Assyrian king's son and successor Tukulti-Ninurta subsequently returned it to Tudhaliya IV, as indicated in Tudhaliya's letter to Tukulti-Ninurta, *KUB* XXVI 70 (*CTH* 209.21). See Hagenbuchner (1989: 265–7 no. 194).
4 He may also have attempted, unsuccessfully, to gain the support of the king of Ahhiyawa; see Klengel (1999: 223–4 (for refs), 232).
5 *KBo* I 10 and *KUB* III 72 (*CTH* 172) obv. 67–9.
6 This response (trans. Beckman 1996: 135) allegedly made by Kadashman-Turgu is also reported by Hattusili in his letter to Kadashman-Enlil. Though it occurs shortly before the reference to Hattusili's enemy's flight to Egypt, I have taken it as belonging to the same context.
7 It is possible that for his own ends Hattusili tinkered with the truth in reporting to Kadashman-Enlil the offer allegedly made by his father and predecessor.
8 Passage from a letter by Hattusili to Ramesses, quoted by Ramesses in his letter to Kupanta-Kurunta, *ÄHK* 28 obv. 15–19: 74–5, trans. after Beckman (1996: 124).
9 *ÄHK* 27 obv. 1'–11': 72–3.
10 *ÄHK* 26: 70–3 and *ÄHK* 27: 72–5, respectively.
11 This largely follows the reconstruction of events proposed by Edel (*ÄHK* II: 123–4).
12 *ÄHK* 28, obv. 21–7: 76–7.
13 *ÄHK* 29, esp. obv. 17–21: 78–9.
14 *ÄHK* 24 rev. 23–5: 62–3.
15 We must of course remember that Puduhepa's letter is only a draft. Parts of what she said may well have been modified or deleted in her final version.
16 Two from the former, five from the latter; published by Alp (1974). See Hawkins (2000:433–41).
17 Alp (1974: 20), Hawkins (2000: 437–8, 442).
18 Hawkins (1992: 270).
19 Singer (1996: 68–71).
20 This is evident from an oracle enquiry text, *KUB* XVI 32 (*CTH* 582), in which Hattusili III's son and successor Tudhaliya considered the question of territorial compensation for Urhi-Teshub's sons.
21 As suggested initially by Mellaart (1974: 514–16). See, more recently, Singer (1996: 70), Hawkins (1998: 20–1).
22 Unless we take up Singer's suggestion (1996: 64–5) that there was a period of peaceful co-existence and co-operation between two Anatolian Great Kings at the end of the Late Bronze Age.

14 Last days

1 See Bryce (1998: 355–6, 363–4, 364–6), with refs.
2 See Bryce (1998: 370–1), with refs.
3 He was in fact one of the high-ranking officials of Hatti appointed by the Hittite king as a 'surrogate son'. See Beckman (1992: 47), Bryce (2002: 27–8).
4 RS 17.247 = *PRU IV* 191. Also trans. Beckman (1996: 121 no. 21). See further on this episode Klengel (1992: 145).
5 Bordreuil (1991).
6 Prior to the 1994 find, twenty-two tablets had been unearthed during the

course of three excavations conducted between 1986 and 1992. For preliminary notes on these, see Bordreuil and Pardee (1995). See also Singer (2000: 21–4). The post-1973 material has yet to be published.

7 See Bordreuil and Pardee (1995: 31, 32).

8 See Beckman (1992: 46).

9 RS 34.136 (Malbran-Labat 1991, no. 7: 29–30), 5–21.

10 RS 17.059 = *PRU IV*: 150–1.

11 RS 20.237; see Nougayrol *et al.* (1968: 102–4).

12 RS 17.289 = *PRU IV* 192.

13 A city on Ugarit's northern frontier, and thus still under the Ugaritic king's immediate control, rather than in Mukish, which lay to Ugarit's north.

14 RS 34.143 (Malbran-Labat 1991, no. 6: 27–8) 5–13.

15 RS 34.165, ed. Lackenbacher (1982; 1991: 90–100). See Singer (1985), Bryce (1998: 350–2).

16 Cf. Singer (2000: 22).

17 RS 34.139 (Malbran-Labat 1991, no. 14: 41–2).

18 RS 34.135 (Malbran-Labat 1991, no. 17: 46–8, 8–19).

19 RS 34.149 and RS 34.137 (Arnaud 1991b, nos. 38 and 37, respectively, pp. 79–81).

20 RS [Varia 26] (Arnaud 1991a, no. 30: 66–7).

21 RS 34.134 (Arnaud 1991a, no. 30: 68–70).

22 Bordreuil (1991: 14).

23 Arnaud (1991a: 65).

24 RS 34.129 (Malbran-Labat 1991, no. 12: 38–40). See also Dietrich and Loretz (1978).

25 Thus Singer (2000: 24).

26 RS L1 8–28 = Nougayrol *et al.* (1968: 85–6, no. 23).

27 RS 20.238 = Nougayrol *et al.* (1968: 87–9, no. 24), trans. Astour (1965: 255).

28 RS 34.152, 9–14, trans. Singer (2000: 24).

29 RS 20.212, 17'–26', adapted from trans. by Heltzer (1977: 209). For the full text, see Nougayrol *et al.* (1968, no. 33: 105–7). Cf. RS 20.141 B (op. cit., no. 34, 107–8), RS 26.158 (op. cit., no. 171, 323–4).

30 Yon (1992: 111). For evidence of fighting throughout the city, see Yon (1992: 117).

Appendix: the Amarna letters Notes

1 Cohen and Westbrook (2000: 4).

2 The most authoritative edition of the Amarna letters is that of Moran (1992). For a recent detailed commentary on the letters, see Giles (1997), with translations of selected letters supplied by A. B. Knapp.

3 *EA* 14, 22, 25.

4 See Artzi (1990: 140). These texts are the subject of a study by Izre'el (1997).

5 Liverani (1998: 387), with examples.

6 See Albright (1975: 99), who points out that the would-be interpreter of the texts must be a specialist in Hebrew and Ugaritic as well as in Akkadian.

7 See Rainey (1995: 109–10).

8 On the chronology of the letters and the means of determining it, see Albright (1975: 99–100).

9 Reeves (2001: 62–3).

10 Artzi (1990: 140). Moran (1992: xvi) suggests that the name 'House of the Letters of the Pharaoh' might in fact refer not merely to a storage place for letters from abroad, but to a larger complex, the more extensive part of which was devoted to affairs of state conducted in the Egyptian language.

11 For a detailed treatment of the references in the Amarna letters to intelligence reports, especially from the pharaoh's Syro-Palestinian vassals, see Cohen (2000), who notes (p. 97) that at least thirty-eight out of the 329 documents in the vassal corpus, and two items in the Great King file, contain intelligence references.

12 Some sixty-seven or sixty-eight letters were written either by (the great majority) or to Rib-Hadda.

13 Cf. Moran (1992: xvii–xviii).